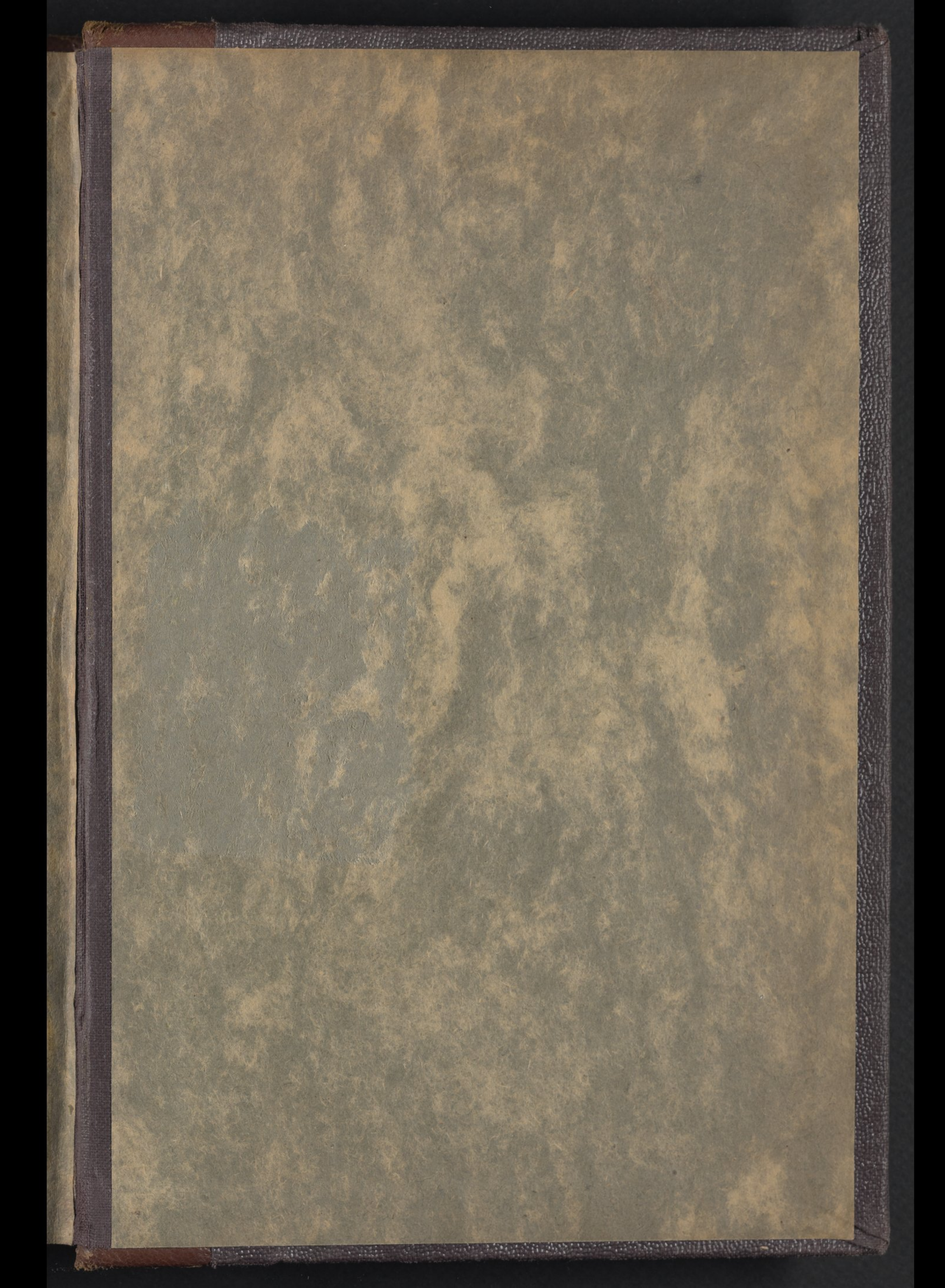
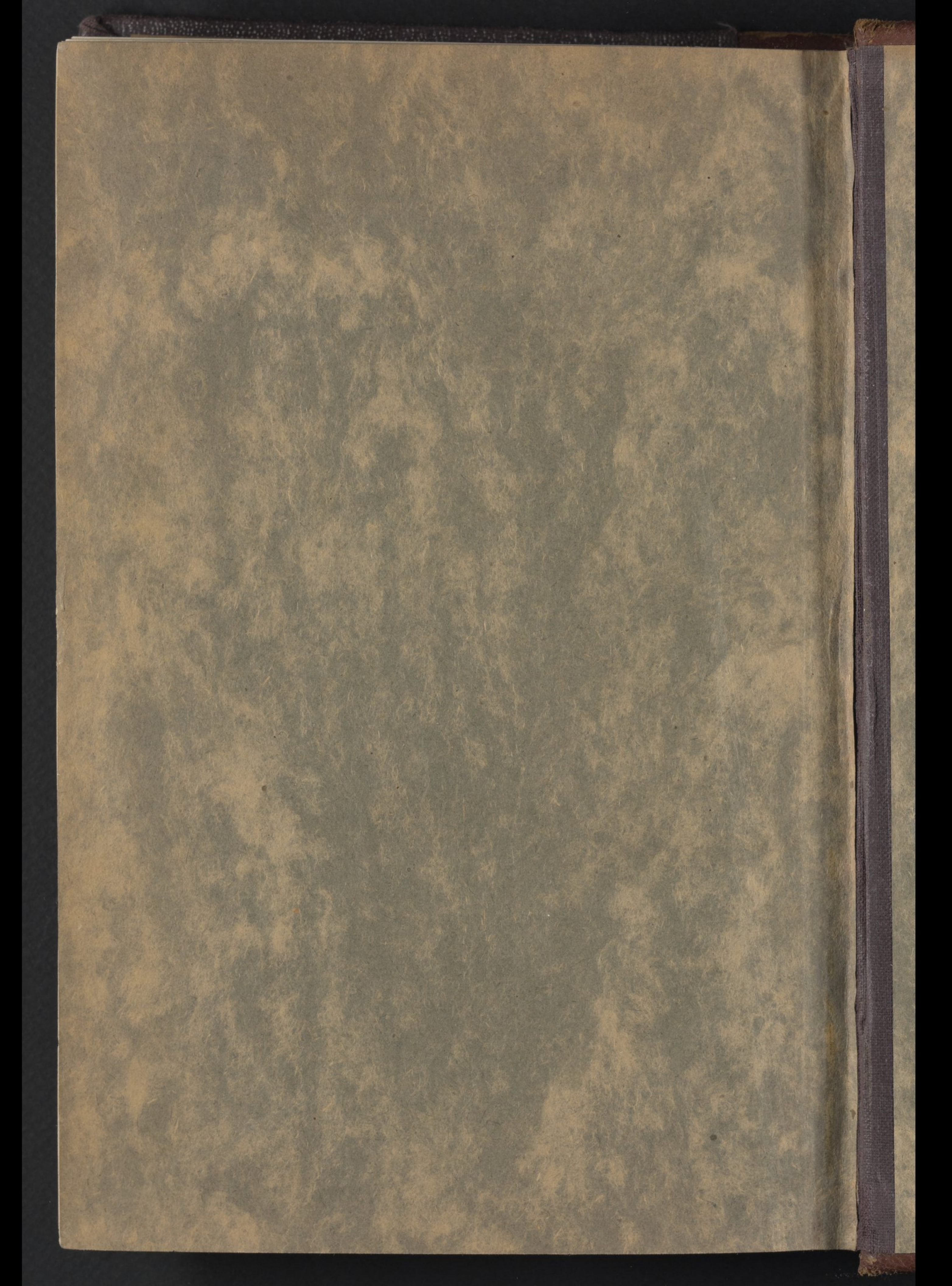
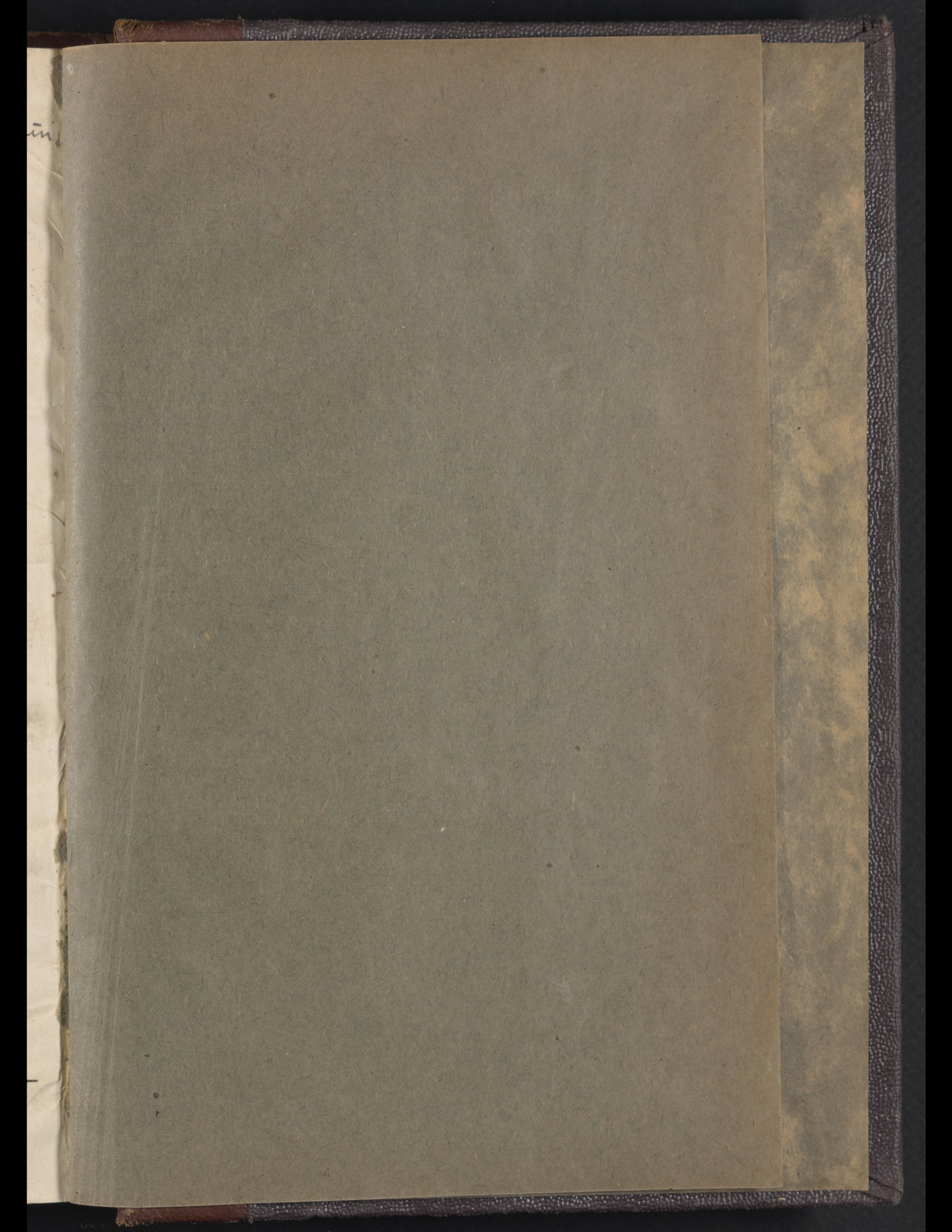

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00844 1994







مختصر

منهاج القاصدين

تأليف

الحافظ أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي الحنبلي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ

اختصار

نجم الدين ابي العباس احمد بن محمد بن عبد الرحمن
ابن الشيخ أبي عمر بن قدامة المقدسي الحنبلي

عني بتصحيحه ونشره



صحح على ثلاث نسخ خطية

طبع بمطبعة ابن زيدون بدمشق عام ١٣٤٧هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الامام العالم العامل الزاهد العابد الأوحد العلامة (نجم الدين ابو العباس احمد) بن الشيخ الامام العالم العامل الزاهد العابد العلامة (عز الدين ابي عبد الله محمد) بن الشيخ الامام العالم العامل الزاهد العابد العلامة شيخ الاسلام؛ مفتي الانام، سيد العلماء والحكام شمس الدين (ابي محمد عبد الرحمن) بن الشيخ الامام العالم العامل العارف الزاهد الورع شيخ الاسلام (ابي عمر محمد بن احمد بن محمد بن قدامة) المقدسي الحنبلي رضي الله عنه:

الحمد لله الذي عم برحمته جميع العباد، وخص اهل طاعته بالهداية الى سبيل الرشاد؛ ووفقهم بلطفه لصالح الأعمال، ففازوا ببلوغ المراد؛ أحمده حمد معترف بجزيل الارفاد؛ وأعوذ به من وبيل الطرد والابعاد وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أدخرها ليوم الميعاد وأشهد أن محمداً عبده ورسوله موضح طريق الهدى والسداد؛ قامع الجاحدين والملحدين من أهل الزيغ والعناد؛ صلى الله تعالى عليه وعلى آله الأكرمين الأجواد؛ صلاة تبلغه بها نهاية الأمل والمراد.

(وبعد) فاني وقفت مرة على كتاب منهاج القاصدين للشيخ الامام العالم الأوحد (جمال الدين بن الجوزي) رحمه الله تعالى فرأيته من أجل الكتب وأنفعها واكثرها فوائد فحصل عندي بموقع، ورغبت في تحصيله ومطالعته، فلما تأملته ثانياً وجدته فوق ما كان في نفسي، لكن رأيته كتابا مبسوطاً، فأحببت ان أعلق منه هذا المختصر الذي قد احتوى على أكثر

مقاصده ؛ واجل مهماته وفوائده ، سوى ما ذكر في اوائله من مسائل ظاهرة تتعلق بالفروع فانها مشهورة في كتب الفقه المستفيضة بين الناس — إذ كان المقصود من الكتاب غير ذلك — ولم ألتزم فيه المحافظة على ترتيبه وذكر الفاظه بعينها ؛ بل ذكرت بعضها بالمعنى قصداً للاختصار وربما ذكرت فيه حديثاً او شيئاً يسيراً من غيره ان كان مناسباً له والله تعالى اعلم واسأل الله الكريم ان ينفعنا به ومن قرأه او سمعه او نظر فيه وان يجعله خالصاً لوجهه وان يختم لنا بخير ويوفقنا لما يرضاه من القول والعمل والنية وان يسامحنا في تقصيرنا وتفريطنا ولا يكلنا الى انفسنا طرفة عين ولا إلى احد من خلقه فانه حسبنا ونعم الوكيل(١) قال المصنف رحمة الله عليه بعد فراغه من هذه الخطبة :

---

(١) كذا في نسخة واحدة وفي النسختين الاخريين هذه الخطبة بدلاً عن الخطبة المدرجة وهي هذه بعد البسملة : الحمد لله منبه الراقدين في غفلاتهم بمزعجات الايقاظ ومنزه التائبين من هفواتهم بملاطفات الوعاظ ؛ ومحدث العارفين في خلواتهم باحلى الكلمات والالفاظ ؛ ومحذر الزاهدين باشرف شهواتهم متأدباً حتى فرقوا عن الظاهر بن اللحاظ ، وقاموا الى محاربة النفوس قيام الليث الحرب المغتاظ ؛ وحفظوا ما استحفظوا وانما الحفظ للحفاظ أحمده حمداً كثيراً فائت العد دائم الالفاظ ، وأصلي وأسلم على نبيه محمد الذي أعجز الفصحاء بما جاء به قساقيس يوم عكاظ ؛ وعلى آله واصحابه اهل اليقين والتقى والاستيقاظ صلاة اتقي بها يوم البعث حر لظى والشواظ ، نار وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ .

قال مؤلفه عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي رحمه الله : سميت كتابي هذا منهاج القاصدين ومفيد الصادقين ، واسأل الله تعالى ان ينفعنا به ومن قرأه او سمعه و نظر فيه وان يجعله خالصاً لوجهه الكريم وان يختم لنا بخير ويوفقنا لما يرضيه من القول والعمل والنية وان يسامحنا في تقصيرنا وتفريطنا ولا يكلنا الى انفسنا طرفة عين ولا الى -

﴿ اما بعد ﴾ فاني رأيتك ايها المريد الصادق ؛ والعازم الجازم ؛ قد وطنت نفسك على التخلي عن فضول الدنيا الشاغلة ، وعزمت على الانقطاع الى الاخرة ، علماً منك ان مخالطة الخلق توجب التخليط ؛ و إهمال المحاسبة للنفس أصل التفريط ؛ وان العمر ان لم يستدرك ادركه الفوت . وان مراحل الأنفاس تسرع بالراكب الى منزل الموت . فنظرتُ ايَّ انيس من الكتب تستصحبه في خلوتك ؛ وتستنطقه في حال صمتك ، فاذا انت تؤثر كتاب احياء علوم الدين وتزعم انفراده في جنسه ؛ ونفاسته في نفسه

فاعلم ان في كتاب الاحياء آفات لا يعلمها الا العلماء . واقلها الأحاديث الباطلة الموضوعة والموقوفة . وقد جعلها مرفوعة . وانما نقلها كما اقتراها لا انه افتراها ولا ينبغي التعبد بحديث موضوع والاغترار بلفظ مصنوع وكيف ارتضي لك ان تصلي صلوات الأيام ولياليها وليس فيها كلمة قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ كيف اوثر ان يطرق سمعك من كلام المتصوفة الذي جمعه وندب الى العمل به ما لا حاصل له من الكلام في الفناء والبقاء والأمر بشدة الجوع والخروج الى السياحة في غير حاجة والدخول في الفلاة بغير زاد الى غير ذلك مما قد كشفت عن عواره (١) في كتابي المسمى بتلبيس ابليس وسأكتب لك كتاباً يخلو عن مفاسده ولا يخل بفوائده اعتمد فيه من النقول الأصح والأشهر ومن المعنى الأثبت والأجود واحذف ما يصلح حذفه وازيد ما يصلح ان يزاد (ثم قال) واذ قد صح عزمك على العزلة لاستيفاء حق

احد من خلقه ، فانه حسبنا ونعم الوكيل؛ قال المصنف رحمه الله بعد فراغه من الخطبة الخ والظاهر ان هذه الخطبة هي خطبة ابن الجوزي صاحب الأصل .

(١) العوار بالفتح العيب

الحق من النفس والأخذ على يدها فليكن وكيلك عليها العلم وكن باحثاً عن دقائق هواها لعلك تسلم، واحذر سبيل احد رجلين ـ عالم ـ عرف الجدال في الفقه واقتنع برآسته. او نال القضاء فسعى في حفظ منزلته. او زخرف الوعظ فضيق اعين شبكته او ـ زاهد ـ يتقلب برأيه الفاسد في جهالته و يتقرب بتقبيل يده واعتقاد بركته. و يعمل بهواه دون شرع الله وسنته (فهذان) عادلان عن منهاج الصواب. مقتنعان بقشور الأعمال عن خالص اللباب. خادعان للمبتدئين بلامع السراب. وطريقهما بمعزل عن سنن السلف الصالح الذي هو جادة الاستقامة وطريق السلامة

وسأدرج لك في هذا الكتاب إن شاء الله من اخبارهم ما يدل على آثارهم (وكتابنا هذا) يحتاج اليه المنتهي كما يفتقر اليه المبتدي لأن فيه اسرار العبادات، والتحذير من آفات المعاملات وقد جعله المصنف اربعة ارباع: (الأول) ربع العبادات (والثاني) ربع العادات (والثالث) ربع المهلكات (والرابع) ربع المنجيات

وكل واحد من هذه الأقسام الأربعة يشتمل على كتب وابواب وفصول. فمن اقسام الربع الأول:

كتاب العلم وفضله وما يتعلق به

قال الله تعالى (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقال تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) قال ابن عباس رضى الله عنهما «للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبع مائة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام» وقال الله تعالى (إنما يخشى

الله من عباده العلماء) وفي الصحيحين من حديث معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » وعن ابي امامة رضي الله عنه قال ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان احدهما عابد والاخر عالم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضلي على ادناكم — ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — ان الله وملائكته واهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير » رواه الترمذي وقال حديث صحيح وفي حديث آخر « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وان العلماء ورثة الانبياء وان الانبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وانما ورثوا العلم فمن اخذ به اخذ بحظ وافر » وعن صفوان ابن عسال رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم « قال ان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم رضى بما يطلب » رواه الامام احمد وابن ماجه . قال الخطابي في معنى وضعها اجنحتها ثلاثة اقوال : احدها انه بسط الأجنحة ، الثاني انه بمعنى التواضع تعظيما لطالب العلم ، الثالث ان المراد به النزول عند مجالس العلم وترك الطيران . وعن ابي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « من سلك طريقاً يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقاً الى الجنة » رواه مسلم وروي عنه صلى الله عليه وسلم انه قال « من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الاسلام كان بينه وبين الانبياء في الجنة درجة واحدة » وفيه اخبار كثيرة وكان بعض الحكماء يقول : ليت شعري اي شيء ادرك من فاته العلم واي شيء فات من ادرك العلم

ومن فضائل التعلم ما اخرجاه في الصحيحين عن سهل بن سعد ان

رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لعلي رضى الله عنه « لائن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك من ان تكون لك حمر النعم » وقال ابن عباس « ان الذي يعلم الناس الخير تستغفر له كل دابة حتى الحوت في البحر » وروي نحو ذلك في حديث مرفوع الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فان قيل ما وجه استغفار الحوت للمعلم ؟ فالجواب ان نفع العلم يعم كل شيء حتى الحوت فان العلماء عرفوا بالعلم ما يحل و يحرم واوصوا بالاحسان الى كل شيء حتى الى المذبوح والحوت فألهم الله تعالى الكل الاستغفار لهم جزاءاً لحسن صنيعهم ، وعن ابي موسى رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ان مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث اصاب ارضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها اجادب امسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا و زرعوا واصاب منها طائفة اخرى انما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي ارسلت به » اخرجاه في الصحيحين فانظر رحمك الله الى هذا الحديث ما اوقعه على الخلق فان الفقهاء أولي الفهم كمثل البقاع التي قبلت الماء فانبتت لأنهم علموا وفهموا وفرّعوا وعلموا وغاية الناقلين من المحدثين الذين لم يرزقوا الفقه والفهم انهم كمثل الأجادب التي حفظت الماء فانتفع بما عندهم واما الذين سمعوا ولم يتعلموا ولم يحفظوا فهم العوام الجهلة. وقال الحسن لو لا العلماء لصار الناس مثل البهائم وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه : تعلموا العلم فان تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة و بذله لأهله قربة

وهو الأنس في الوحدة والصاحب في الخلوة . وقال كعب رحمه الله : اوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام ان تعلم يا موسى الخير وعلمه للناس فاني منور لمعلم الخير ومتعلمه قبورهم حتى لا يستوحشوا بمكانهم

فصل

قد روي عن انس بن مالك رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «طلب العلم فريضة على كل مسلم» رواه احمد في العلل قال المصنف رحمه الله تعالى اختلف الناس في ذلك فقال الفقهاء : هو علم الفقه اذ به يعرف الحلال والحرام وقال المفسرون والمحدثون : هو علم الكتاب والسنة إذ بهما يتوصل الى العلوم كلها وقالت الصوفية : هو علم الاخلاص و آفات النفوس وقال المتكلمون : هو علم الكلام الى غير ذلك من الأقوال التي ليس فيها قول مرضي والصحيح انه علم معاملة العبد لربه

والمعاملة التي كلف بها على ثلاثة اقسام : اعتقاد وفعل وترك فاذا بلغ الصبي فاول واجب عليه تعلم كلمتي الشهادة وفهم معناها وان لم يحصل ذلك بالنظر والدليل لأن النبي صلى الله عليه وسلم اكتفى من اجلاف العرب بالتصديق من غير تعلم دليل فذلك فرض الوقت ثم يجب عليه النظر والاستدلال . فاذا جاء وقت الصلاة وجب عليه تعلم الطهارة والصلاة فاذا عاش الى رمضان وجب عليه تعلم الصوم فان كان له مال وحال عليه الحول وجب عليه تعلم الزكاة وان جاء وقت الحج وهو مستطيع وجب عليه تعلم المناسك

واما التروك فهو بحسب ما يتجدد من الاحوال اذ لا يجب على الأعمى تعلم ما يحرم النظر اليه ولا على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام فان

كان في بلد يتعاطى فيه شرب الخمر ولبس الحرير وجب عليه ان يعرف تحريم ذلك

واما الاعتقادات فيجب علمها بحسب الخواطر فان خطر له شك في المعاني التي تدل عليها كلمتا الشهادة وجب عليه تعلم ما يصل به الى ازالة الشك وان كان في بلد قد كثرت فيه البدع وجب عليه ان يتلقن الحق. كما لو كان تاجراً في بلد قد شاع فيه الربا وجب عليه ان يتعلم الحذر منه وينبغي ان يتعلم الايمان بالبعث والجنة والنار. فبان بما ذكرنا ان المراد بطلب العلم الذي هو فرض عين ما يتعين وجوبه على الشخص

فأما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام امور الدنيا كالطب إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان على الصحة والحساب فانه ضروري في قسمة المواريث والوصايا وغيرها. فهذه العلوم لو خلى البلد عمن يقوم بها حرج اهل البلد واذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الباقين. ولا يتعجب من قولنا ان الطب والحساب من فروض الكفاية فان اصول الصناعات ايضاً من فروض الكفاية كالفلاحة والحياكة بل الحجامة فانه لو خلي البلد عن حجام لأسرع الهلاك اليهم فان الذي انزل الداء انزل الدواء وارشد الى استعماله واما التعميق في دقائق الحساب ودقائق الطب وغير ذلك فهذا يعد فضلة لأنه يستغنى عنه وقد يكون بعض العلوم مباحا كالعلم بالأشعار التي لا سخف فيها وتواريخ الأخبار وقد يكون بعضها مذموما كعلم السحر والطلسمات والتلبيسات

فاما العلوم الشرعية فكلها محمودة وتنقسم الى اصول وفروع ومقدمات ومتممات فالأصول، كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم واجماع الامة

وأثار الصحابة ، والفروع ما فهم من هذه الاصول من معان تنبهت لها العقول حتى فهم من اللفظ الملفوظ وغيره . كما فهم من قوله لا يقضي القاضي وهو عضبان أنه لا يقضي جايعاً

والمقدمات هي التي تجري مجرى الالات كعلم النحو واللغة فانهما آلة لعلم كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام

والمتممات كعلم القراءات ومخارج الحروف وكالعلم بأسماء رجال الحديث وعدالتهم واحوالهم فهذه هي العلوم الشرعية وكلها محمودة

فصـــل

فاما علم المعاملة وهو علم احوال القلب كالخوف والرجاء والرضاء والصدق والاخلاص وغير ذلك فهذا العلم ارتفع به كبار العلماء و بتحقيقه اشتهرت اذكارهم كسفيان وابي حنيفة ومالك والشافعي واحمد وانما انحطت رتبة المسمين بالفقهاء والعلماء عن تلك المقامات لتشاغلهم بصور العلم من غير اخذ على النفس ان تبلغ الى حقائقه وتعمل بخفاياه وانت تجد الفقيه يتكلم في الظهار واللعان والسبق والرمى و يفرع التفريعات التي تمضي الدهور فيها ولا يحتاج الى مسألة منها ولا يتكلم في الاخلاص ولا يحذر من الرياء وهذا عليه فرض عين لان في اهماله هلاكه والأول فرض كفاية ؛ ولو انه سئل عن علة ترك المناقشة للنفس في الاخلاص والرياء لم يكن له جواب ؛ ولو سئل عن علة تشاغله بمسائل اللعان والرمي لقال هذا فرض كفايه ولقد صدق ولكن خفي عليه ان الحساب فرض كفاية ايضاً فهلا تشاغل به، وانما تبهرج عليه النفس لأن مقصودها من الرياء والسمعة يحصل بالمناظرة لا بالحساب

واعلم انه قد بدلت الفاظ وحرفت ونقلت الى معان لم يردها السلف الصالح (فمن ذلك : الفقه) فانهم تصرفوا فيه بالتخصيص فخصوه بمعرفة الفروع وعللها ، ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول منطلقا على علم طريق الاخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الاحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع الى نعيم الأخرة واستيلاء الخوف على القلب ولذلك قال الحسن: انما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الاخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه الورع الكاف عن اعراض المسلمين العفيف عن اموالهم الناصح لهم فكان اطلاقهم اسم الفقه على علم الاخرة اكثر لأنه لم يكن متناولا للفتاوى ولكن كان متناولا لذلك بطريق العموم والشمول فثار من هذا التخصيص تلبيس بعث الناس على التجرد لعلم الفتاوى الظاهرة والاعراض عن علم المعاملة للاخرة (اللفظ الثاني: العلم) فقد كان ذلك يطلق على العلم بالله تعالى وبآياته « اي نعمه » وافعاله في عباده فخصوه وسموا به في الغالب المناظر في مسائل الفقه وان كان جاهلا بالتفسير والأخبار (اللفظ الثالث: التوحيد) وقد كان ذلك إشارة الى ان ترى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع الالتفات الى الأسباب والوسائط فيثمر ذلك التوكل والرضا وقد جعل الان عبارة عن صناعة الكلام في الأصول وذلك من المنكرات عند السلف (اللفظ الرابع : التذكير والذكر) قال الله تعالى (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « اذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا وما رياض الجنة؟ قال مجالس الذكر » فنقلوا ذلك الى القصص وما يحتوي عليه اليوم مجلس القاص من الشطح والطامات . ومن تشاغل في وعظه بذكر قصص الأولين فليعلم ان اكثر ما يحكى في ذلك لا يثبت كما ينقلون ان يوسف عليه السلام حل تكته وانه

رأى يعقوب، عاضاً على يده، وان داود جهز أوريا حتى قتل فمثل هذا يضر سماعه

(واما الشطح والطامات) فمن اشد ما يؤذي العوام لأنها تشتمل على ذكر المحبة والوصال وألم الفراق وعامة الحاضرين اجلاف بواطنهم محشوة بالشهوات وحب الصور فلا يحرك ذلك من قلوبهم الا ما هو مستكن في نفوسهم فيشعل فيها نار الشهوة فيصيحون وكل ذلك فساد. وربما احتوى الشطح على الدعاوي العريضة في محبة الله تعالى وفي هذا ضرر عظيم وقد ترك جماعة من الفلاحين فلاحتهم واظهروا مثل هذه الدعاوي (اللفظ الخامس: الحكمة) والحكمة العلم والعمل به قال ابن قتيبة لا يكون الرجل حكيماً حتى يجمع العلم والعمل وقد صار هذا الاسم يطلق في هذا الزمان على الطبيب والمنجم.

فصل

واعلم ان العلوم المحمودة تنقسم الى قسمين: الأول محمود الى اقصى غاياته وكل ما كان اكثر كان احسن وافضل وهو العلم بالله تعالى وبصفاته وافعاله وحكمته في ترتيب الاخرة على الدنيا فان هذا علم مطلوب لذاته للتوصل به الى سعادة الاخرة وهو البحر الذي لا يدرك غوره وانما يحوم الحائمون على سواحله واطرافه بقدر ما يسر لهم (القسم الثاني) العلوم التي لا يحمد منها الا مقدار مخصوص وهي التي ذكرناها من فروض الكفايات فان في كل منها اقتصاراً واقتصاداً واستقصاءاً فكن احد رجلين اما مشغولا بنفسك واما متفرغا لغيرك بعد الفراغ من نفسك واياك ان تشتغل بما يصلح

غيرك قبل اصلاح نفسك واشتغل باصلاح باطنك وتطهيره من الصفات الذميمة كالحرص والحسد والرياء والعجب قبل اصلاح ظاهرك وسيأتي ذلك ان شاء الله تعالى في ربع المهلكات فان لم تتفرغ من ذلك فلا تشتغل بفروض لكفايات فان في الخلق كثيراً يقومون بذلك فان مهلك نفسه في طلب اصلاح غيره سفيه ومثله مثل من دخلت العقارب تحت ثيابه وهو يذب الذباب عن غيره. فان تفرغت من نفسك وتطهيرها وما ابعد ذلك فاشتغل بفروض الكفايات وراع التدريج في ذلك فابتدأ بكتاب الله عز وجل ثم بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ثم بعلوم القرآن من التفسير ومن ناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه الى غير ذلك وكذلك في السنة ثم اشتغل بالفروع واصول الفقه وهكذا بقية العلوم على ما يتسع له العمر ويساعد فيه الوقت ولا تستغرق عمرك في فن واحد منها طلباً للاستقصاء فان العلم كثير والعمر قصير وهذه العلوم آلات يراد بها غيرها. وكل شئ يطلب لغيره فلا ينبغي ان ينسى فيه المطلوب

فصل

واعلم ان المناظرة الموضوعة لقصد المغالبة والمباهاة منبع الاخلاق المذمومة ولا يسلم صاحبها من كبر لاحتقار المقصرين عنه وعجب بنفسه لارتفاعه على كثير من نظرائه ولا يسلم من الرياء لأن جمهور مقصود المناظر اليوم علم الناس بغلبته واطلاق ألسنتهم بشكره ومدحه فهو يذهب عمره في العلوم التي تعين على المناظرة بما لا ينفع في الاخرة كحسن اللفظ وحفظ النوادر. وقد روي في الحديث عن النبي صلى الله عليه تعالى وسلم انه قال «اشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه»

باب في آداب المعلم والمتعلم
(و آفات العلم و بيان علماء السوء وعلماء الاخرة)

اما المتعلم فينبغي له تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الصفات اذ العلم عبادة القلب و ينبغي له قطع العلائق الشاغلة فان الفكرة مهما توزعت قصرت عن ادراك الحقائق . وقد كان السلف يؤثرون العلم على كل شيء فروي عن الامام احمد رحمه الله انه لم يتزوج الا بعد الأربعين؛ واهديت الى ابي بكر بن الأنباري جارية فلما أدخلت عليه تفكر في استخراج مسألة فغربت عنه فقال اخرجوها الى النخاس فقالت هل لي من ذنب ؟ قال لا إلا ان قلبي اشتغل بك وما قدر مثلك ان يمنعني علمي

وعلى المتعلم ان يلقي زمامه الى المعلم إلقاء المريض زمامه الى الطبيب فيتواضع له و يبالغ في خدمته وقد كان ابن عباس رضي الله عنه يأخذ بركاب زيد بن ثابت رضي الله عنه و يقول هكذا امرنا ان نفعل بالعلماء . ومتى تكبر المتعلم ان يستفيد من غير موصوف بالتقدم فهو جاهل لأن الحكمة ضالة المؤمن اين ما وجدها اخذها ؛ وليدع رأيه لرأي معلمه فان خطأ المعلم انفع للمتعلم من صواب نفسه . قال علي رضي الله عنه « إن من حق العالم عليك ان تسلم على القوم عامة وتخصه بالتحية وان تجلس امامه ولا تشير عنده بيدك ولا تغمزن بعينك ولا تكثر عليه السؤال ولا تعينه في الجواب ولا تلح عليه اذا كسل ولا تراجعه اذا امتنع ولا تأخذ بثوبه اذا نهض ولا تفش له سراً ولا تغتابن عنده احداً ولا تطلبن عثرته وان زل قبلت معذرته ولا تقولن له سمعت فلاناً يقول كذا ولا ان فلاناً يقول خلافك ولا تصفن عنده عالماً ولا تعرض من طول صحبته ولا ترفع نفسك عن

خدمته واذا عرضت له حاجة سبقت القوم اليها فانما هو بمنزلة النخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شئ .

و ينبغي ان يحترز الخائض في العلم في مبدإ الأمر من الاصغاء الى اختلاف الناس فان ذلك يحير عقله و يفتر ذهنه و ينبغي له ان يأخذ من كل شئ احسنه لأن العمر لا يتسع لجميع العلوم ثم يصرف جمام قوته إلى اشرف العلوم وهو العلم المتعلق بالاخرة الذي به يكتسب اليقين الذي حصله ابو بكر الصديق رضي الله عنه حتى شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ما سبقكم ابو بكر بكثرة صوم ولا صلاه ولكن بشئ وقر بصدره » فهذه وظائف المتعلم

واما المعلم فعليه وظائف ايضاً (من ذلك الشفقة على المتعلمين) وان يجريهم مجرى بينه ، ولا يطلب على إفاضة العلم اجراً ولا يطلب به جزاءاً ولا شكراً بل يعلم لوجه الله تعالى ولا يرى لنفسه منة على المتعلمين بل يرى الفضل لهم إذ هيأوا قلوبهم للتقرب الى الله تعالى بزراعة العلم فيها فهم كالذي يعير الأرض لمن يزرع فيها فلا ينبغي له ان يطلب المعلم الأجر إلا من الله تعالي . وقد كان السلف يمتنعون من قبول هدية المتعلم (ومنها) ان لا يدخر من نصح المتعلم شيئاً وان يزجره عن سوء الاخلاق بطريق التعريض مهما امكن لا على وجه التوبيخ فان التوبيخ يهتك حجاب الهيبة (ومنها) ان ينظر في فهم المتعلم ومقدار عقله فلا يلقي اليه ما لا يدركه فهمه ولا يحيط به عقله فقد روي عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال « امرت ان أخاطب الناس على قدر عقولهم » ؛ وقال علي رضي الله عنه :

« إن ههنا علما لو اصبتُ له حملته » وقال الشافعي رحمه الله :

أأنثر دراً بين سارحة النعم ✲ أأنظم منثوراً لراعية الغنم

ومن منح الجهال علم اضاعه ✲ ومن منع المستوجبين فقد ظلم

(ومنها) ان يكون المعلم عاملا بعلمه ولا يكذب قوله فعله قال الله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب) وقال علي رضي الله عنه « قصم ظهري رجلان : عالم متهتك وجاهل متنسك »

﴿ فصل في آفات العلم و بيان علماء السوء وعلماء الاخرة ﴾

علماء السوء هم الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل الى المنزلة عند اهلها ، وقد روى ابو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » يعني ريحها ، وفي حديث آخر انه قال « من تعلم العلم ليباهي به العلماء او يماري به السفهاء او يصرف به وجوه الناس اليه فهو في النار » رواه الترمذي وفي ذلك احاديث كثيرة وقال بعض السلف « اشد الناس ندامة عند الموت عالم مفرط »

واعلم ان المأخوذ على العالم ان يقوم بالأوامر والنواهي وليس عليه ان يكون زاهداً ولا معرضاً عن المباحات الا انه ينبغي له ان يتقلل من الدنيا مهما استطاع لأنه ليس كل جسم يقبل التقليل فان الناس يتفاوتون وروي ان سفيان الثوري كان حسن المطعم وكان يقول « ان الدابة اذا لم تحسن اليها في العلف لم تعمل . وكان الامام احمد بن حنبل رحمه الله

يصبر من خشونة العيش على امر عظيم والطباع تتفاوت ؛ ومن صفات علماء الاخرة ان يعلموا ان الدنيا حقيرة وان الاخرة شريفة وانهما كالضرتين فهم يؤثرون الاخرة ولا تخالف افعالهم اقوالهم و يكون ميلهم الى العلم النافع في الاخرة و يجتنبون العلوم التي يقل نفعها ايثاراً لما يعظم نفعه كما روي عن شقيق البلخي انه قال لحاتم قد صحبتني مدة فما ذا تعلمت ؟ قال ثمانية مسائل (اما الأولى) فاني نظرت الى الخلق فاذا كل شخص له محبوب فاذا وصل الى القبر فارقه محبوبه فجعلت محبوبي حسناتي لتكون معي في القبر (واما الثانية) فاني نظرت الى قول الله عز وجل (ونهى النفس عن الهوى) فأجهدتها في دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى (واما الثالثة) فاني رأيت كل من معه شيء له قيمة عنده يحفظه ثم نظرت في قوله سبحانه وتعالى (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) فكلما وقع معي شيء له قيمة وجهته اليه ليبقى لي عنده (واما الرابعة) فاني رأيت الناس يرجعون الى المال والحسب والشرف ولست بشيء فنظرت في قول الله تعالى (إن اكرمكم عند الله اتقاكم) فعملت في التقوى لاكون عنده كريما (واما الخامسة) فاني رأيت الناس يتحاسدون فنظرت في قوله تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم) فتركت الحسد (السادسة) رأيتهم يتعادون فنظرت في قول الله تعالى (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) فتركت عداوتهم واتخذت الشيطان وحده عدواً (السابعة) رايتهم يذلون انفسهم في طلب الرزق فنظرت في قوله تعالى (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) فاشتغلت بما له علي وتركت مالي عنده (الثامنة) رأيتهم متوكلين على تجارتهم وصنائعهم وصحة أبدانهم فتوكلت على الله تعالى .

ومن صفات علماء الآخرة ان يكونوا منقبضين عن السلاطين محترزين من مخالطتهم قال حذيفة رضى الله عنه « اياكم ومواقف الفتن قيل وما هي ؟ قال ابواب الأمراء يدخل احدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول ما ليس فيه » وقال سعيد بن المسيب « اذا رأيتم العالم يغشى الأمرا فاحذروا منه فانه لص » وقال بعض السلف « انك لا تصيب من دنياهم شيئاً الا اصابوا من دينك افضل منه »

ومن صفات علماء الآخرة ان لا يتسرعوا الى الفتوى وان لا يفتوا الا بما يتيقنون صحته وقد كان السلف يتدافعون الفتوى حتى ترجع الى الأول ، وقال عبد الرحمن ابن ابي ليلى (أدركت في هذا المسجد مائة وعشرين من اصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما احد يسأل عن حديث او فتوى الا ودَّ ان اخاه كفاه ذلك ، ثم قد آل الأمر الى إقدام اقوام يدعون العلم اليوم يقدمون على الجواب في مسائل لو عرضت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه لجمع اهل بدر واستشارهم

ومن صفاتهم ان يكون اكثر بحثهم في علم الاعمال عما يفسدها ويكدر القلوب ويهيج الوسلوس فان صور الأعمال قريبة سهلة وانما التعب في تصفيتها ؛ واصل الدين التوقي من الشر ولا يصح ان يتوقى حتى يعرف .

ومن صفاتهم البحث عن اسرار الأعمال الشرعية والملاحظة لحكمها فان عجز عن الاطلاع على العلة كفاه التسليم للشرع ؛ ومن صفاتهم اتباع الصحابة وخيار التابعين وتوقي كل محدث

﴿ كتاب الطهارة واسرارها والصلاة وما يتعلق بها ﴾

اعلم ان الطهارة لها اربع مراتب (الأولى) تطهير الظاهر من الأحداث والأنجاس والفضلات (والثانية) تطهير الجوارح من الذنوب والاثام (والثالثة) تطهير القلب من الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة (والرابعة) تطهير السر عما سوى الله تعالى وهذا هو الغاية القصوى فمن قويت بصيرته سمت الى هذا المطلوب، ومن عميت بصيرته لم يفهم من مراتب الطهارة الا المرتبة الاولى فتراه يضيع اكثر زمانه الشريف في المبالغة في الاستنجاء وغسل الثياب ظنا منه بحكم الوسوسة وقلة العلم ان الطهارة المطلوبة هي هذه فقط . وجهلا بسير المتقدمين الذين كانوا يستغرقون الزمان في تطهير القلوب ويتساهلون في امر الظاهر كما روي عن عمر رضي الله عنه انه توضأ من جرة نصرانية وكانوا لا يكادون يغسلون ايديهم من الزهم (١) ويصلون على الأرض ويمشون حفاة ويقتصرون في الاستجمار على الأحجار . وقد انتهى الأمر الى قوم يسمون الرعونة (٢) نظافة فترى اكثر زمانهم يمضي في تزيين الظواهر وبواطنهم خراب محشوة بخبائث الكبر والعجب والجهل والرياء والنفاق ، ولو رأوا مقتصراً على الاستجمار على الحجر او حافيا يمشي على الأرض او من يصلي عليها من غير حائل او متوضأ من آنية عجوز لأنكروا عليه اشد الانكار ولقبوه بالقذر واستنكفوا مؤاكلته فانظر كيف جعلوا البذاذة (٣) التي هي من الايمان قذارة والرعونة نظافة وصيروا المنكر معروفا والمعروف منكراً . لكن من قصد بهذه الطهارة النظافة ولم يسرف في الماء ولم يعتقد ان استعمال

---

(١) الوسخ الدسم (٢) الحماقة (٣) رثاثة الهيأة أراد التواضع في اللباس وترك التبجح

الماء الكثير اصل الدين فليس ذلك بمنكر بل هو فعل حسن وليرجع في معرفة الأنجاس والأحداث الى كتب الفقه فان المقصود من هذا الكتاب الاداب .

واما إزالة الفضلات فهي نوعان : (النوع الأول) اوساخ تزال كالذي يجتمع في الرأس من الوسخ والدرن فيستحب تنظيفه بالغسل والترجيل (١) والتدهين لازالة الشعث و كذلك ما يجتمع في الأذن والانف من الوسخ يستحب إزالته ؛ و يستحب التسوك والمضمضة لازالة ما على الأسنان واللسان من القلح (٢) و كذلك وسخ البراجم (٣) والدرن الذي يجتمع على جميع البدن برشح العرق وغبار الطريق وذلك يزيله الغسل

ولا بأس بدخول الحمام فانه ابلغ في الازالة وقد دخله جماعة من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن على داخله صيانة عورته من نظر الغير اليها ولمسه اياها و ينبغي الداخل اليه ان يتذكر بحرارته حر النار فان فكر المؤمن لا يزال يجول في كل شيء من أمور الدنيا فيذكر به أمور الاخرة لأن الغالب على المؤمن امر الاخرة وكل اناء ينضح بما فيه ، ألا ترى انه لو دخل الى دار معمورة بزاز ونجار و بناء وحائك رأيت البزاز ينظر الى الفرش يتأمل قيمتها . والحائك ينظر الى نسج الثياب ؛ والنجار ينظر الى سقف الدار ؛ والبناء ينظر الى الحائط . فكذلك المؤمن ان رأى ظلمة ذكر ظلمة القبر وان سمع صوتاً هائلا تذكر نفخة الصور وان رأى نعيما تذكر نعيم الجنة وان رأى عذاباً ذكر النار ، و يكره دخول الحمام قريباً من

---

(١) ترجيل الشعر تجعيده وترجيله أيضاً ارساله بمشطه . مختار (٢) وسخ الاسنان (٣) عقد اصابع اليدين .

الغروب و بين العشائين فانه وقت انتشار الشياطين .

(النوع الثاني) من ازالة الفضلات اجزاء تحذف مثل قص الشارب ونتف الابط وحلق العانة وقص الأظفار ، ويكره نتف الشيب و يستحب خضابه و باقي مراتب الطهارة يأتي في ربع المهلكات والمنجيات ان شاء الله تعالى

فصل

واما الصلاة فانها عماد الدين وغرة الطاعات وقد ورد في فضائل الصلاة اخبار كثيرة مشهورة ومن احسن آدابها الخشوع وقد روي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « ما من امرئ تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت له كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يأت كبيرة وذلك الدهر كله » وله في حديث ايضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « من صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه » وكان ابن الزبير اذا قام في الصلاة كأنه عود من الخشوع وكان يسجد فتنزل العصافير على ظهره لا تحسبه الا جذع حائط وصلى يوماً في الحجر [١] فجاء حجر قذّافة [٢] فذهب ببعض ثوبه فما انفتل ، وقال ميمون بن مهران ما رأيت مسلم بن بشار ملتفتاً في صلاة قط ولقد انهدمت ناحية من المسجد ففزع اهل السوق لهدتها وانه لفي المسجد يصلي فما التفت ، وكان اهل بيته اذا دخل المنزل سكتوا فاذا قام الى الصلاة تكلموا وضحكوا ؛ وكان على بن الحسين رضي الله

---

(١) الحجر: حطيم الكعبة . (٢) القذافة : المنجنيق .

عنهما اذا توضأ اصفر لونه فقيل له ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء ؟ فقال: آتدرون بين يدي من اريد ان اقوم

واعلم ان للصلاة اركانا و واجبات وسننا؛ وروحها النية والاخلاص والخشوع وحضور القلب فان الصلاة تشتمل على اذكار ومناجاة وافعال ومع عدم حضور القلب لا يحصل المقصود بالاذكار والمناجاة لأن النطق اذا لم يعرب عما في الضمير كان بمنزلة الهذيان و كذلك لا يحصل المقصود من الأفعال لأنه اذا كان المقصود من القيام الخدمة ومن الركوع والسجود الذل والتعظيم لم يكن القلب حاضراً لم يحصل المقصود فان الفعل متى خرج عن مقصوده بقي صورة لا اعتبار بها. قال الله تعالى (لن ينال الله لحومها ولا دماءها ولكن يناله التقوى منكم) والمقصود ان الواصل الى الله تعالى هو الوصف الذي استولى على القلب حتى حمل على امتثال الأوامر المطلوبة فلا بد من حضور القلب في الصلاة لكن سامح الشارع في غفلة تطرأ لأن حضور القلب في اولها ينسحب حكمه على باقيها.

والمعاني التي تتم بها حياة الصلاة كثيرة (منها) حضور القلب كما ذكرنا ومعناه ان يفرغ القلب من غير ما هو ملابس له وسبب ذلك الهمة فانه متى اهمك امر حضر قلبك ضرورة فلا علاج لاحضاره الا صرف الهمة الى الصلاة وانصراف الهمة يقوى و يضعف بحسب قوة الايمان بالاخرة واحتقار الدنيا فمتى رأيت قلبك لا يحضر في الصلاة فاعلم ان سببه ضعف الايمان فاجتهد في تقويته (المعنى الثانى) التفهم لمعنى الكلام فانه امر وراء حضور القلب لأنه ربما كان القلب حاضراً مع اللفظ دون المعنى فينبغي صرف الذهن الى ادراك المعنى بدفع الخواطر الشاغلة وقطع

موادها فان المواد اذا لم تنقطع لم تنصرف الخواطر عنها ؛ والمواد اما ظاهرة وهي ما يشغل السمع والبصر ؛ واما باطنة وهي اشد كمن تشعبت به الهموم في أودية الدنيا فانه لا ينحصر فكره في فن واحد ولم يغنه غض البصر لأن ما وقع في القلب كاف في الاشتغال به وعلاج ذلك ان كان من المواد الظاهرة بقطع ما يشغل السمع والبصر وهو القرب من القبلة والنظر الى موضع سجوده والاحتراز في الصلاة من المواضع المنقوشة وان لا يترك عنده ما يشغل حسه فان النبي صلى الله عليه وسلم لما صلى في أنبجانية (١) لها اعلام نزعها وقال انها ألهتني آنفاً عن صلاتي وان كان من المواد الباطنة فطريق علاجه ان يرد النفس قهراً الى ما يقرأ في الصلاة ويشغلها به عن غيره ويستعد لذلك قبل الدخول في الصلاة بان يقضي اشغاله ويجتهد على تفريغ قلبه ويجدد على نفسه ذكر الاخرة وخطر القيام بين يدي الله عز وجل وهول المطلع فان لم تستكن الأفكار بذلك فليعلم انه انما يتفكر فيما اهمه واشتهاه فليترك تلك الشهوات وليقطع تلك العلائق . واعلم ان العلة متى تمكنت لا ينفعها إلا الدواء القوي والعلة اذا قويت جاذبت المصلي وجاذبها الى ان تنقضي الصلاة في المجاذبة ومثل ذلك كمثل رجل تحت شجرة اراد ان يصفو له فكره وكانت اصوات العصافير تشوش عليه وفي يده خشبة يطيرها بها فما يستقر فكره حتى تعود العصافير فيشتغل بها فقيل له هذا شيء لا ينقطع فان اردت الخلاص فاقطع الشجرة فكذلك شجرة الشهوة اذا علت وتفرقت اغصانها انجذبت اليها الأفكار كانجذاب العصافير الى

(١) بكسر الباء ويروى بفتحها كساء منسوب الى منبج بكسر الباء مدينة من اعمال حلب وفتحت في النسب . وقيل الى موضع اسمه انبجان .

الأشجار والذباب الى الأقذار فذهب العمر النفيس في دفع ما لا يندفع
وسبب هذه الشهوة التي توجب هذه الافكار حب الدنيا. قيل لعامر بن
عبد قيس هل تحدثك نفسك بشيء من امور الدنيا في الصلاة فقال لأن
تختلف الأسنة فيَّ أحب إلي من ان اجد هذا (واعلم) ان قطع حب الدنيا
عن القلب امر صعب وزواله بالكلية عزيز فليقع الاجتهاد في الممكن
منه والله الموفق المعين (الثالث) التعظيم لله والهيبة وذلك يتولد من شيئين
معرفة جلال الله تعالى وعظمته ومعرفة حقارة النفس وانها مستعبدة فيتولد
من المعرفتين الاستكانة والخشوع ومن ذلك الرجاء فانه زائد على الخوف
فكم من معظم ملكا يهابه لخوف سطوته كما يرجو بره. والمصلي ينبغي ان
يكون راجياً بصلاته الثواب كما يخاف من تقصيره العقاب وينبغي للمصلي
ان يحضر قلبه عند كل شيء من الصلاة فاذا سمع نداء المؤذن فليمثل النداء
للقيامة ويشمر للاجابة ولينظر ما ذا يجيب وبأي بدن يحضر، واذا ستر
عورته فليعلم ان المراد من ذلك تغطية فضائح بدنه عن الخلق فليذكر
عورات باطنه وفضائح سره التي لا يطلع عليها الا الخالق وليس لها عنه
ساتر وانها يكفرها الندم والحياء والخوف واذا استقبل القبلة فقد صرف
وجهه عن الجهات الى جهة بيت الله فصرفُ قلبه الى الله تعالى اولى من ذلك
فكما انه لا يتوجه الى جهة البيت الا بالانصراف عن غيرها كذلك القلب
لا ينصرف الى الله تعالى الا بالانصراف عما سواه

واذا كبرت ايها المصلي فلا يكذبن قلبك لسانك لأنه اذا كان في
قلبك شيء اكبر من الله تعالى فقد كذبت فاحذر ان يكون الهوى عندك
اكبر بدليل إيثارك موافقته على طاعة الله تعالى.

فاذا استعذت فاعلم ان الاستعاذة هي لجاء الى الله سبحانه فاذا لم تلجا بقلبك كان كلامك لغواً؛ وتفهم معنى ما تتلو وأحضر التفهم بقلبك عند قولك: الحمد لله رب العالمين؛ واستحضر لطفه عند قولك: الرحمن الرحيم؛ وعظمته عند قولك: مالك يوم الدين، وكذلك في جميع ما تتلو وقد روينا عن زرارة بن ابي اوفى انه قرا في صلاة: فاذا نقر في الناقور فخر ميتاً؛ وما ذاك الا لأنه صور تلك الحال فأثرت عنده التلف

واستشعر في ركوعك التواضع وفي سجودك زيادة الذل لأنك وضعت النفس موضعها ورددت الفرع الى اصله بالسجود على التراب الذى خلقت منه وتفهم معنى الاذكار بالذوق

واعلم ان اداء الصلاة بهذه الشروط الباطنة سبب لجلاء القلب من الصدى وحصول الأنوار فيه التي بها تتلمح عظمة المعبود وتطلع على اسراره وما يعقلها الا العالمون. فاما من هو قائم بصورة الصلاة دون معانيها فانه لا يطلع على شئ من ذلك بل ينكر وجوده

﴿ فصل في آداب تتعلق بصلاه الجمعة ويوم الجمعة ﴾

وهي نحو من خمسة عشر (احدها) ان يستعد لها من يوم الخميس وفي ليلة الجمعة بالتنظيف وغسل الثياب واعداد ما يصلح لها (الثاني) الاغتسال في يومها كما جاء في الأحاديث في الصحيحين وغيرهما والأفضل في الاغتسال ان يكون قبيل الرواح اليها (الثالث) التزين بتنظيف البدن وقص الأظفار والسواك وغير ذلك مما تقدم من إزالة الفضلات ويتطيب ويلبس أحسن ثيابه (الرابع) التبكير اليها ماشياً؛ وينبغي للساعي الى الجامع ان يمشي بسكون وخشوع وينوي الاعتكاف في المسجد الى وقت

خُروجه (الخامس) ان لا يتخطى رقاب الناس ولا يفرق بين اثنين الا
ان يرى فرجة ليتخطى اليها (السادس) ان لا يمر بين يدي المصلي (السابع)
ان يطلب الصف الأول الا ان يرى منكراً او يسمعه فيكون له التأخر
عذراً (الثامن) ان يقطع التنفل من الصلاة والذكر عند خروج الامام
ويشتغل باجابة المؤذن ثم بسماع الخطبة (التاسع) ان يصلي السنة بعد
الجمعة إن شاء ركعتين و إن شاء اربعا و إن شاء ستا (العاشر) ان يقيم في
المسجد حتى يصلي العصر وان اقام الى المغرب فهو افضل (الحادي عشر)
ان يراقب الساعة الشريفة التي في يوم الجمعة باحضار القلب وملازمة
الذكر ؛ واختلف في هذه الساعة ففي افراد مسلم من حديث ابي موسى : انها
ما بين ان يجلس الامام الى ان تقضى الصلاة وفي حديث آخر هي ما بين
فراغ الامام من الخطبة الى ان تقضى الصلاة ، وفي حديث جابر انها آخر
ساعة بعد العصر ؛ وفي حديث انس قال التمسوها ما بين صلاة العصر
الى غروب الشمس وقال ابو بكر الأثرم لا تخلو هذه الأحاديث من
وجهين اما ان يكون بعضها اصح من بعض واما ان تكون هذه الساعة
تنتقل في الأوقات كتنتقل ليلة القدر في ليالي العشر (الثاني عشر) ان يكثر
من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم فقد روي عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال « من صلى عليَّ في يوم الجمعة ثمانين مرة غفر الله
ذنوب ثمانين سنة » وان احب زاد في الصلاة عليه الدعاء كقوله « اللهم آت
محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته
اللهم اجز نبينا عنا ما هو اهله » وليضف الى الصلاة الاستغفار فانه مستحب
في ذلك اليوم » (الثالث عشر) ان يقرأ سورة الكهف فقد جاء في حديث

من رواية عائشة رضي الله عنها انها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الا احدثكم بسورة ملأ عظمها ما بين السماء والأرض ولكاتبها من الاجر مثل ذلك . ومن قرأها يوم الجمعة غفر له ما بينها وبين الجمعة الاخرى وزيادة ثلاثة ايام ومن قرأ الخمس الاواخر منها عند نومه بعثه الله اي الليل (١) شاء ؟ قالوا بلى يا رسول الله قال سورة للكهف » وروي في حديث آخر ان من قرأها في يوم الجمعة او ليلة الجمعة وُقي الفتنة

ويستحب ان يكثر من قراءة القرآن في يوم الجمعة وان يختم فيه او في ليلة الجمعة ان قدر (الرابع عشر) ان يتصدق في يوم الجمعة بما امكن ولتكن صدقته خارج المسجد ويستحب ان يصلي صلاة التسبيح في يوم الجمعة (الخامس عشر) يستحب ان يجعل يوم الجمعة لأعمال الاخرة ويكف عن جميع اشغال الدنيا .

﴿ فصل في ذكر النوافل ﴾

اعلم ان ما عدا الفرائض من الصلاة ثلاثة اقسام : سنن ومستحبات وتطوعات ؛ ونعني بالسنة : ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المواظبة عليه كالرواتب عقيب الفرائض والوتر والضحى ؛ ونعني بالمستحب : ما ورد الخبر بفضله ولم ينقل المواظبة عليه كالصلاة عند دخول المنزل والخروج منه ونعني بالتطوعات : ما وراء ذلك مما لم يرد به خبر لكن العبد يتطوع بفعله وتسمى هذه الأقسام الثلاثة نوافل لأن النفل هو زيادة وهذه زيادة على الفرائض

---

(١) أي: اي جزء من الليل

واعلم ان افضل تطوعات البدن الصلاة ، واقسام النوافل. وفضائلها مشهورة مذكورة في كتب الفقه وغيرها لكن نذكر منها صلاة التسبيح لأنها قد تخفى صفتها على بعض الناس فروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للعباس : يا عماه ألا أعطيك ألا أعلمك - وذكر الحديث الى ان قال - تصلي اربع ركعات تقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة فاذا فرغت من القراءة في اول ركعة وانت قائم قلت سبحان الله ؛ والحمد لله ؛ ولا إله إلا الله ؛ والله اكبر خمس عشر مرة ثم تركع وتقولها وانت راكع عشراً ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشراً ثم تهوي ساجداً فتقولها وانت ساجد عشراً ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشراً ثم تسجد فتقولها عشراً ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشراً فذلك خمس وسبعون تفعل ذلك في اربع ركعات. إن استطعت ان تصليها في كل يوم مرة فافعل فان لم تفعل ففي كل شهر مرة فان لم تفعل ففي كل سنة مرة فان لم تفعل ففي عمرك مرة.

فصـــل

ولا يتطوع في اوقات النهي بصلاة لا سبب لها كصلاة التسبيح لأن النهي مؤكد فيها عن الصلاة وهذه الأشياء ضعيفة فلا تقاومه واما ما له سبب كتحية المسجد وصلاة الكسوف والاستسقاء ونحوها فعلى روايتين

واعلم ان النهي عن الصلاة في الأوقات الثلاثة له ثلاثة اسرار ؛ احدها ترك التشبه بعباد الشمس ، الثاني التحذير من السجود لقرن الشيطان فان الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فاذا ارتفعت فارقها فاذا استوت قارنها فاذا زالت الشمس فارقها فاذا تضيفت للغروب قارنها فاذا غربت فارقها ؛

الثالث ان سالكي طريق الاخرة مواظبون على العبادات ،والمواظبة على نمط واحد يورث الملل فاذا وقع المنع زاد النشاط لأن النفس حريصة على ما منعت منه فمنع الانسان من الصلاة في اوقات النهي ولم يمنع من نوع آخر من التعبد كالقراءة والتسبيح لينتقل العابد من حال إلى حال كما جعلت الصلاة متنوعة بين قيام وقعود وركوع وسجود والله اعلم

((كتاب الزكاة وأسرارها وما يتعلق بها))

الزكاة : احد مباني الاسلام وقد قرنها الله سبحانه وتعالى بالصلاة فقال تعالى (واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) اما انواع الزكاة واقسامها واسباب وجوبها فظاهر مشهور في مظانه من كتب الفقه ؛ وانما نذكر هنا بعض الشروط والاداب

فمن الشروط ان يخرج المنصوص عليه ولا يخرج القيمة في الصحيح ؛ فان من أجاز إخراج القيمة انما تلمح سد الخلة فقط وسد الخلة ليس هو كل المقصود بل بعضه فان واجبات الشرع ثلاثة اقسام (قسم تعبد محض) كرمي الجمار فمقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل ليظهر عبودية العبد بفعل ما لا يعقل له معنى لأن مما يعقل معناه يساعد عليه الطبع ويدعو اليه فلا يظهر خلوص العبودية به بخلاف ما ذكرنا (والقسم الثاني) عكس ذلك وهو ما لا يقصد منه التعبد بل المقصود منه حظ محض كقضاء دين الادميين ورد المغصوب ونحو ذلك ، وكذلك لا تعتبر فيه النية ولا الفعل بل كيف ما وصل الحق الى مستحقه حصل المقصود وسقط خطاب الشرع فهذان قسمان لا تركيب فيهما (واما القسم الثالث) فهو المركب وهو ان يقصد منه الأمران جميعاً : امتحان المكلف ؛ وحظ العباد فيجتمع

فيه تعبد رمي الجمار وحظ رد الحقوق فلا ينبغي ان ينسى ادق المعنيين وهو التعبد ولعل الأدق هو الأهم والزكاة من هذا القبيل فحظ الفقير مقصود في سد الخلة وحق التعبد مقصود الشرع في اتباع التفاصيل و بهذا الاعتبار صارت الزكاة قرينة الصلاة والحج والله اعلم

فصل في دقائق الاداب الباطنة في الزكاة

اعلم ان على مريد الاخرة في زكاته وظائف :

(الاولى) ان يفهم المراد من الزكاة وهو ثلاثة اشياء : ابتلاء مدعي محبة الله تعالى باخراج محبوبه ؛ والتنزه عن صفة البخل المهلك . وشكر نعمة المال (الوظيفة الثانية) الاسرار باخراجها لكونه أبعد من الرياء والسمعة و في الاظهار إذلال للفقير ايضاً فان خاف ان يتهم بعدم الاخراج اعطى من لا يبالي من الفقراء بالاخذ بين الجماعة علانية واعطى غيره سراً (الوظيفة الثالثه) ان لا يفسدها بالمن والاذى وذلك ان الانسان اذا رأى نفسه محسناً الى الفقير منعما عليه بالاعطاء ربما حصل منه ذلك . ولو حقق النظر لرأى الفقير محسناً اليه بقبول حق الله الذي هو طهر له . واذا استحضر مع ذلك ان اخراجه الزكاة شكر لنعمة المال فلا يبقى بينه و بين الفقير معاملة . ولا ينبغي ان يحتقر الفقير لفقره لان الفضل ليس بالمال ولا النقص بعدمه (الرابعة) ان يستصغر العطية فان المستعظم للفعل معجب به وقد قيل لا يتم المعروف الا بثلاث : بتصغيره وتعجيله وستره (الخامسة) ان ينتقي من ماله احله واجوده واحبه اليه . اما الحل فان الله تعالى طيب لا يقبل الا طيبا . واما الاجود فقد قال الله تعالى (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون) و ينبغي ان يلاحظ في ذلك امرين احدهما حق الله سبحانه

وتعالى بالتعظيم له فانه احق من اختير له ولو ان الانسان قدم الى ضيفه
طعاماً رديئاً لأوغر صدره ؛ والثاني حق نفسه فان الذي يقدمه هو الذي يلقاه
غداً في القيامة فينبغي ان يختار الأجود لنفسه. واما احبه اليه فلقوله تعالى
(لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وكان ابن عمر رضي الله عنهما اذا
اشتد حبه لشيء من ماله قربه لله عز وجل وروي انه نزل الجحفة وهو
شاكٍ فقال اني لأشتهي حيتاناً فالتمسوا له فلم يجدوا الا حوتاً فأخذته
امرأته فصنعته ثم قربته اليه فأتى مسكين . فقال ابن عمر رضي الله عنه
خذه فقال له اهله سبحان الله قد عنّيتنا ومعنا زاد نعطيه فقال ان عبد الله
يحبه . وروي ان سائلا وقف بباب الربيع بن خيثم رحمه الله فقال اطعموه
سكراً فان الربيع يحب السكر (الوظيفة السادسة) ان يطلب لصدقته من
تزكو به وهم خصوص من عموم الاصناف الثمانية ولهم صفات (الاولى)
التقوى فليخص بصدقته المتقين فانه يرد بها هممهم الى الله تعالى . وقد كان
عامر ابن عبد الله بن الزبير يتخير العباد وهم سجود فيأتيهم بالصرة فيها
الدنانير والدراهم فيضعها عند نعالهم بحيث يحسون بها ولا يشعرون بمكانه
فقيل له ما يمنعك ان ترسل بها اليهم فيقول اكره ان يتمعر وجه احدهم اذا
نظر الى رسولي او لقيني (الصفة الثانية) العلم فان في اعطاء العالم اعانته على العلم
ونشر الدين وذلك تقوية للشريعة (الثالثة) ان يكون ممن يرى الانعام من
الله وحده ولا يلتفت الى الاسباب، الا بقدر ما ندب اليه من شكرها فاما
الذي عادته المدح عند العطاء فانه سيذم عند المنع (الرابعة) ان يكون صائناً
لفقره سائراً لحاجته كاتماً للشكوى كما قال تعالى (يحسبهم الجاهل اغنياء من
التعفف) وهؤلاء لا يحصلون في شبكة الطالب الا بعد البحث عنهم وسؤال

اهل كل محلة عمن هذه صفته (الخامسة) ان يكون ذا عائلة او محبوسا لمرض او دين فهذا من المحصرين والتصدق عليه اطلاق لحصره (السادسة) ان يكون من الاقارب وذوي الارحام فان الصدقة عليهم صدقة وصلة وكل من جمع من هذه الخلال خلتين او اكثر كان اعطاؤه افضل على قدر ما جمع

﴿ فصل في آداب القابض ﴾

لا بد ان يكون آخذ الزكاة من الاصناف الثمانية وعليه في ذلك وظائف (الاولى) ان يفهم ان الله تعالى اوجب صرف الزكاة اليه ليكفيه ما اهمه و يجعل همومه هما واحداً في طلب رضاء الله عز وجل (الثانية) ان يشكر المعطي ويدعو له و يثني عليه وليكن ذلك بمقدار شكر السبب فان من لم يشكر الناس لم يشكر الله كما ورد في الحديث ، ومن تمام الشكر ان لا يحتقر العطاء وان قل ولا يذمه و يغطي ما فيه من عيب ، وكما ان وظيفة المعطي الاستصغار فوظيفة المعطى الاستعظام و كل ذلك لا يناقض رؤية النعمة من الله عز وجل فاما من لا يرى الواسطة واسطة فهو جاهل وانما المنكر ان يرى الواسطة اصلا « الوظيفة الثالثة » ان ينظر فيما يعطاه فان لم يكن من حل لم يأخذه اصلا لأن اخراج مال الغير ليس بزكاة وان كان من شبهة تورع عنه الا ان يضيق عليه الأمر ؛ فمن كان اكثر كسبه حراما فأخرج الزكاة ولم يعرف لما اخرجه مالك معين كانت الفتوى فيه ان يتصدق به(١) فيجوز لهذا الفقير ان يأخذ قدر حاجته عند ضيق الأمر عليه

(١) عبارة الغزالي : اذا ضاق الامر عليه « اي الآخذ » وكان ما يسلم اليه لا يعرف له مالكا معيناً فله ان يأخذ بقدر الحاجة . فاذا اخذ لم يكن أخذ زكاةً اذ لا يقع زكاة عن مؤديه و هو حرام

وعجزه عن الصافي (الرابعة) ان يتوقى مواقع الشبه في قدر ما ياخذ فياخذ القدر المباح له ولا يأخذ اكثر من حاجته فان كان غارما لم يزد على مقدار الدين او غازيا لم يأخذ الا مقدار ما يحتاج اليه وان اخذ بالمسكنة اخذ قدر حاجته دون ما يستغنى عنه وكل ذلك موكول الى اجتهاده والورع ترك ما يريب .

واختلف العلماء في قدر الغنى المانع من الزكاة والصحيح فيه ان يكون له كفاية على الدوام إما من تجارة او صناعة او اجرة عقار او غير ذلك وان كان له بعض الكفاية اخذ ما يتممها ، وان لم يكن له ذلك اخذ ما يكفيه وليكن ما يأخذه بقدر ما يكفي سنته ولا يزيد على ذلك وانما اعتبر بالسنة لانها اذا ذهبت جاء وقت الأخذ واذا اخذ الأكثر منها ضيق على الفقراء

﴿ فصل في صدقة التطوع وفضلها وآدابها ﴾

أما فضائل الصدقة فهي كثيرة مشهورة منها ما روى البخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه تعالى وسلم « أيكم مال وارثه احب اليه من ماله ؟ قالوا يا رسول الله : ما منا أحد إلا ماله احب اليه قال فان ماله ما قدم ومال وارثه ما اخر » وفي الصحيحين من رواية ابي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من تصدق بعدل (١) تمرة من كسب طيب ـ ولا يصعد الى الله الا الطيب ـ فان الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبه كما يربي احدكم فلوه (٢) حتى تكون مثل الجبل » وفي حديث آخر « إن الصدقة لتطفيء غضب الرب وتقي ميتة السوء » وفي حديث آخر « تصدقوا فان الصدقة فكاككم من النار » وعن

---

(١) بمثل (٢) المهر الصغير . وقيل الصغير من اولاد ذوات الحافر

بريدة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ما يخرج احد شيئاً من الصدقة حتى يفك عنه لحى (٣) سبعين شيطانا » وروي أن راهبا تعبد في صومعة ستين سنة ثم نزل يوما ومعه رغيف فعرضت له امرأة فتكشفت له فوقع عليها فأدركه الموت وهو على تلك الحال وجاء سائل فاعطاه الرغيف ومات فجيء بعمل ستين سنة فوضع في كفة وخطيئته في كفة فرجحت بعمله حتى جيء بالرغيف فوضع مع عمله فرجح بخطيئته .
و في افراد مسلم من حديث ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « ما نقصت صدقة من مال » وروي عن عائشة رضي الله عنها انهم ذبحوا شاة فقال النبي صلى الله عليه وسلم « ما بقي منها ؟ فقالت ما بقي منها الا كتفها فقال : بقي كلها الا كتفها »

واما آدابها فنحو ما تقدم في الزكاة ، واختلفوا أيما افضل للفقير ان يأخذ من الزكاة او من الصدقة فقال قوم من الزكاة افضل ؛ وقال آخرون من الصدقة افضل

واما افضل الصدقه فعن ابي هريرة رضي الله عنه قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم اي الصدقة افضل ؟ قال ان تصدق و انت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنا ولا تهمل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان » اخرجاه في الصحيحين

﴿ كتاب الصوم واسراره ومهماته وما يتعلق به (١) ﴾

اعلم ان في الصوم خصيصة ليست في غيره وهي اضافته الى الله عز

---

(١) نزاع وعدوان

وجل حيث يقول سبحانه (١) (الصوم لي وانا اجزي به) وكفى بهذه الاضافة شرفاً كما شرف البيت باضافته اليه في قوله (وطهر بيتي) وانما فضل الصوم لمعنيين : احدهما انه سر وعمل باطن لا يراه الخلق ولا يدخله رياء ؛ الثاني انه قهر لعدو الله لأن وسيلة العدو الشهوات وانما تقوى الشهوات بالأكل والشرب وما دامت ارض الشهوات مخصبة فالشياطين يترددون الى ذلك المرعى وبترك الشهوات تضيق عليهم المسالك وفي الصوم اخبار كثيرة تدل على فضله

﴿ فصل في سنن الصوم ﴾

يستحب السحور وتأخيره وتعجيل الافطار وان يفطر على التمر ويستحب الجود في رمضان وفعل المعروف وكثرة الصدقة اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ويستحب دراسة القرآن والاعتكاف في رمضان لا سيما في العشر الأواخر وزيادة الاجتهاد فيه وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا دخل العشر شد مئزره واحيا الليل وايقظ اهله . وذكر العلماء في معنى شد المئزر وجهين احدهما انه الاعراض عن النساء الثاني انه كناية عن الجد والتشمير في العمل قالوا وكان سبب اجتهاده في العشر طلب ليلة القدر

﴿ بيان اسرار الصوم وآدابه ﴾

وللصوم ثلاث مراتب : صوم العموم ؛ وصوم الخصوص ؛ وصوم خصوص الخصوص فأما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة واما صوم الخصوص فهو كف البطن والفرج واللسان واليد والرجل

(١) اي في الحديث القدسى

والسمع والبصر وسائر الجوارح عن الاثام؛ واما صوم خصوص الخصوص فهو صوم القلب عن الهمم الدنيئة والافكار المبعدة عن الله تعالى وكفه عما سوى الله تعالى بالكلية وهذا الصوم له شروح تأتي في غير هذا الموضع. فمن آداب صوم الخصوص غض البصر وحفظ اللسان عما يؤذي من كلام محرم او مكروه او ما لا يفيد وحراسة باقي الجوارح وفي الحديث من رواية البخاري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة (١) في ان يدع طعامه وشرابه»

ومن آدابه ان لا يمتلئ من الطعام في الليل بل يأكل بمقدار فانه ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن. ومتى شبع اول الليل لم ينتفع بنفسه في باقيه. وكذلك اذا شبع وقت السحر لم ينتفع بنفسه الى قريب من الظهر لأن كثرة الأكل تورث الكسل والفتور ثم يفوت المقصود من الصيام بكثرة الأكل لأن المراد منه ان يذوق طعم الجوع ويكون تاركا للمشتهى

فاما صوم التطوع فاعلم ان استحباب الصوم يتأكد في الأيام الفاضلة وفواضل الأيام بعضها يوجد في كل سنة كصيام ستة ايام من شوال بعد رمضان وكصيام يوم عرفة ويوم عاشوراء وعشر ذي الحجة والمحرم. وبعضها يتكرر في كل شهر كأوله واوسطه وآخره فمن صام اول الشهر واوسطه وآخره فقد احسن غير ان الأفضل ان يجعل الثلاثة ايام

---

(١) المعنى ان الله لا يبالي بعمله ولا ينظر اليه لانه امسك عما ابيح له في غير وقت الصوم ولم يمسك عما حرم عليه في سائر الاحايين.

البيض ؛ و بعضها يتكرر في كل اسبوع وهو يوم الاثنين و يوم الخميس .

وافضل صوم التطوع صوم داود عليه السلام كان يصوم يوماً ويفطر يوماً وذلك يجمع ثلاثة معان (احدها) ان النفس تعطى يوم الفطر حظها وتستوفي يوم الصوم تعبدها و في ذلك جمع بين ما لها وما عليها وهو العدل (والثاني) إن يوم الأكل يوم شكر و يوم الصوم يوم صبر والأيمان نصفان شكر وصبر (والثالث) انه اشق على النفس في المجاهدة لأنها كلما نست بحالة نقلت عنها . فاما صوم الدهر ففي افراد مسلم من حديث ابي قتادة ان عمر رضي الله عنه سأل النبي عليه السلام فقال كيف بمن يصوم الدهر كله ؟ فقال لا صام ولا افطر - او - لم يصم ولم يفطر وهذا محمول على من سرد الصوم في الأيام المنهي عن صيامها فاما اذا افطر يوم العيدين وايام منى فلا بأس بذلك فقد روي عن هشام ابن عروة ان اباه كان يسرد الصوم و كانت عائشة رضي الله عنها تسرد . وقال انس بن مالك رضي الله عنه سرد ابو طلحة الصوم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم اربعين عاماً . واعلم ان من رزق فطنة علم مقصود الصوم فحمل نفسه قدر ما لا يعجزه عما هو افضل منه . فقد كان ابن مسعود قليل الصوم و كان يقول اذ صمت ضعفت عن الصلاة وانا اختار الصلاة على الصوم . و كان بعضهم اذا صام ضعف عن قراءة القرآن فكان يكثر الفطر حتى يقدر على التلاوة وكل انسان اعلم بحاله وما يصلحه (١)

---

(١) قال ابن عبد البر في التمهيد : كتب العمري العابد الى مالك رحمه يحضه على الانفراد والعمل و يرغبه عن الاجتماع اليه في العلم فكتب اليه مالك : ان الله تعالى قسم الاعمال كما قسم الارزاق فرب رجل فتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم و آخر -

﴿ كتاب الحج واسراره وفضائله و آدابه ونحو ذلك ﴾

ينبغي لمن اراد الحج ان يبدأ بالتوبة و رد المظالم وقضاء الديون واعداد النفقة لكل من تلزمه نفقته الى وقت الرجوع ويرد ما عنده من الودائع و يستصحب من المال الحلال ما يكفيه لذهابه ورجوعه من غير تقتير على وجه يمكنه معه التوسع في الزاد والرفق بالفقراء و يستصحب ما يصلحه كالسواك والمشط والمرآة والمكحلة و يتصدق بشيء قبل خروجه واذا اكترى فليظهر للجمال كل ما يريد ان يحمله من قليل و كثير وقد قال رجل لابن المبارك احمل لي هذه الرقعة الى فلان فقال حتى استأذن الجمال ؛ و ينبغي ان يلتمس رفيقاً صالحا محبا للخير معينا عليه ان نسي ذكره وان ذكر اعانه وان ضاق صدره صبره وليؤمر الرفقاء عليهم احسنهم خلقا وارفقهم بالأصحاب وانما احتيج الى التأمير لأن الارا تختلف فلا ينتظم التدبير وعلى الأمير الرفق بالقوم والنظر في مصالحهم وان يجعل نفسه وقاية لهم ؛ و ينبغي للمسافر تطييب الكلام واطعام الطعام واظهار محاسن الأخلاق فان السفر يخرج خبايا الباطن ومن كان في السفر الذي هو مظنة الضجر حسن الخلق كان في الحضر احسن خلقا ، وقد قيل اذا اثنى على الرجل معاملوه في الحضر و رفقاؤه في السفر فلا تشكوا في صلاحه .

و ينبغي له ان يودع رفقاءه واخوانه المقيمين و يلتمس ادعيتهم

فتح له في الصدقة و لم يفتح له في الصيام و آخر فتح له في الجهاد و لم يفتح له في الصلاة ونشر العلم وتعليمه من اشرف اعمال البر وقد رضيت بما فتح الله عز و جل فيه من ذلك وما اظن ما انا فيه بدون ما انت فيه وارجو ان يكون كلانا على خير ، بر . و يجب على كل منا ان يرضى بما قسم له والسلام .

ويجعل خروجه بكرة يوم الخميس وليصل في منزله ركعتين قبل الخروج منه ويستودع الله اهله وماله ويستعمل الأدعية والأذكار المأثورة عند خروجه من منزله وفي ركوبه ونزوله وهي مشهورة في كثير من الكتب في مناسك الحج ؛ وكذلك جميع المناسك من الاحرام والطواف والسعي والوقوف بعرفة وغير ذلك من اعمال الحج يأتي فيها بما ذكر من الاذكار والدعوات والاداب وكل ذلك مستوفى في كتب الفقه وغيرها فليطلب هناك .

﴿ فصل في الاداب الباطنة والاشارة الى اسرار الحج ﴾

اعلم انه لا وصول الى الله سبحانه وتعالى الا بالتجرد والانفراد لخدمته وقد كان الرهبان ينفردون في الجبال طلباً للأنس بالله فجعل الحج رهبانية لهذه الامة

فمن الاداب المذكورة ان يكون خالياً في حجه من تجارة تشغل قلبه وتفرق همه ليجتمع على طاعة الله تعالى وان يكون اشعث اغبر رث الهيئة غير مستكثر من الزينة

وينبغي ان يجتنب ركوب المحمل الا من عذر كمن لا يستمسك على الزاملة (١) فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حج على راحلة وتحته رحل رث .

وفي حديث جابر عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « ان الله عز وجل يباهي بالحاج الملائكة فيقول انظروا الى عبادي أتوني شعثاً غبراً من كل فج عميق اشهدكم اني قد غفرت لهم وقد شرف الله

---

(١) البعير الذي يحمل عليه الطعام والمتاع

تعالى بيته وعظمه ونصبه مقصداً لعباده وجعل ما حوله حرماً له تفخيما لأمره وتعظيما لشأنه وجعل عرفة كالميدان على فنائه

واعلم ان في كل واحد من افعال الحج تذكرة للمتذكر وعبرة للمعتبر (فمن ذلك) ان يتذكر بتحصيل الزاد زاد الاخرة من الاعمال وليحذر ان تكون اعماله فاسدة من الرياء والسمعة فلا تصحبه ولا تنفعه كالطعام الرطب الذي يفسد في اول منازل السفر فيبقى صاحبه وقت الحاجة متحيرا فاذا فارق وطنه ودخل الباديه وشهد تلك العقبات فليتذكر بذلك خروجه من الدنيا بالموت الى ميقات القيامة وما بينهما من الاهوال (ومن ذلك) ان يتذكر وقت احرامه وتجرده عن ثيابه اذا لبس المحرم الاحرام لبس كفنه وانه سيلقى ربه على زي مخالف لزي اهل الدنيا واذا لبى فليستحضر بتلبيته اجابة الله تعالى اذ قال (واذن في الناس بالحج) وليرج القبول وليخش عدم الاجابة وكذلك اذا وصل الى الحرم ينبغي ان يرجو الأمن من العقوبة وان يخشى ان لا يكون من اهل القرب غير أنه ينبغي ان يكون الرجاء غالباً لأن الكرم عميم وحق الزائر مرعى وذمام المستجير لا يضيع (ومن ذلك) اذا راى البيت الحرام استحضر عظمته في قلبه وشكر الله تعالى على تبليغه رتبة الوافدين اليه وليستشعر عظمة الطواف به فانه صلاة ويعتقد عند استلام الحجر انه مبايع لله على طاعته ويضم الى ذلك عزيمته على الوفاء بالبيعة وليتذكر بالتعلق باستار الكعبة والالتصاق بالملتزم لجاء المذنب الى سيده وقرب المحبة وانشد بعضهم في ذلك

ستور بيتك نيل الأمن منك وقد ✲ علقتها مستجيراً ايها الباري

وما اظنك لما ان علقت بهـــا ✡ خوفاً من النار تدنيني من النار

وها انا جار بيت انت قلت لنا ✡ حجوا اليه وقد اوصيت بالجار

ومن ذلك اذا سعى بين الصفا والمروة ينبغي ان يمثلها بكفتي الميزان، وتردده بينهما في عرصات القيامة او تردد العبد الى باب دار الملك اظهاراً لخلوص خدمته ورجاء الملاحظة بعين رحمته وطمعا في قضاء حاجته (واما الوقوف بعرفة) فاذكر بما ترى فيه من ازدحام الخلق وارتفاع اصواتهم واختلاف لغاتهم موقف القيامة واجتماع الامم في ذلك الموطن واستشفاعهم (فاذا رميت الجمار) فاقصد بذلك الانقياد للأمر واظهار الرق والعبودية ومجرد الامتثال من غير حظ النفس (واما المدينة) فاذا لاحت لك فتذكر انها البلدة التي اختارها الله تعالى لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم وشرع اليها هجرته وجعل فيها بيته ثم مثل في نفسك مواضع اقدام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عند تردده فيها وتصور خشوعه وسكينته فاذا قصدت زيارة القبر فأحضر قلبك لتعظيمـــه والهيبة له ومثل صورته الكريمة في خيالك واحضر عظيم مرتبتـه في قلبك ثم سلم عليه واعلم انه عالم بحضورك وتسليمك كما ورد في الحديث

﴿ كتاب آداب تلاوة القرآن الكريم وذكر فضله ﴾

اعظم فضائل القرآن الكريم أنه كلام الله عز وجل وقد مـدحه الله تعالى في آيات كثيرة كقوله تعالى (وهذا كتاب انزلناه مبارك؛ ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم؛ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) وفي افراد البخاري من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وعن انس رضي

الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان لله عز وجل اهلين من الناس قيل من هم يا رسول الله ؟ قال اهل القران هم اهل الله وخاصته » رواه النسائي وفي حديث آخر ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا يعذب الله قلباً وعى القرآن » وعن ابن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقال لصاحب القرآن إقرأ وأرق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فان منزلتك عند آخر آية تقرأها » صححه الترمذي . وعن بريدة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول هل تعرفني فيقول ما أعرفك فيقول أنا صاحبك القرآن الذي اظمأتك في الهواجر(١) وأسهرت ليلك وان كل تاجر من وراء تجارته وإني لك اليوم من وراء كل تجارة فيعطى الملك(٢) بيمينه والخلد(٣) بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار ويكسى والداه حلتين لا تقوم لهما الدنيا فيقولان بما كسينا هذا فيقال بأخذ ولدكما القرآن ثم يقال إقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها فهو في صعود ما كان يقرأ هذّاً(٤) او ترتيلا » قال ابن مسعود رضي الله عنه : ينبغي لحامل القرآن ان يعرف بليله اذا الناس نائمون وبنهاره اذا الناس مفطرون وبحزنه اذ الناس يفرحون وببكائه اذا الناس يضحكون وبصمته اذ الناس يخوضون وبخشوعه اذ الناس يختالون ولا ينبغي ان يكون جافياً ولا غافلا ولا صخاباً(٥) ولا حديداً ، وقال الفضيل : حامل القرآن حامل راية الاسلام لا ينبغي ان يلغو مع من يلغو ولا يسهو مع من يسهو ولا يلهو مع من يلهو تعظيما لله تعالى ولا

---

(١) الهجر بالفتح والهجير نصف النهار عند اشتداد الحر . (٢) يريد القدرة والتصرف
(٣) الدوام والخلود (٤) اي بسرعة (٥) الصخب شدة الصوت والحديد شديد الغضب

ينبغي ان يكون له الى احد حاجة بل ينبغي ان تكون حوائج الناس اليه ؛
وقال الامام احمد بن حنبل رأيت رب العزة في المنام فقلت يا رب ما اقرب
ما يتقرب به اليك المتقربون ؟ فقال بكلامي يا احمد . فقلت : يا رب
بفهم او بغير فهم فقال بفهم و بغير فهم .

﴿ فصل في آداب التلاوة ﴾

ينبغي لقارىء القرآن ان يكون على وضوء مستعملا للأدب، مطرقاً
غير مرتبع ولا متكئ ولا جالس على هيأة المتكبر؛ وافضل الأحوال ان
يقرأه في الصلاة قائما وان يكون في المسجد

فاما مقدار القراءة فقد اختلفت فيها عادات السلف فمنهم من كان
يختم كل يوم وليلة ختمة ومنهم من كان يختم في اليوم والليلة اكثر من ذلك
ومنهم من كان يختم في ثلاث ومنهم من كان يختم في اسبوع ومنهم من
كان يختم في كل شهر اشتغالا بالتدبر او بنشر العلم او بتعليمه او بنوع
من التعبد غير القراءة او بغيره من اكتساب الدنيا . واولى الأمر ما لا
يمنع الانسان من اشغاله المهمة ولا يؤذية في بدنه ولا يفوته معه الترتيل
والفهم؛ قال ابن عباس رضي الله عنه لأن اقرأ البقرة وآل عمران
وارتلهما واتدبرهما احب الي من ان اقرأ القرآن كله هذرمة(١) ومن وجد
خلسة في وقت فليغتنم كثرة القراءة ليفوز بكثرة الثواب ، فقد كان عثمان
رضي الله عنه يقرأ القرآن في ركعة يوتر بها؛ وكان الشافعي يختم في
رمضان ستين ختمة .

واما الدوام فليكن على قدر الامكان كما اشرنا اليه واستحب بعضهم

---

(١) الهذرمة السرعة في القراءة والكلام

اذا ختم بالنهار ان يختم في ركعتي الفجر او بعدهما واذا ختم بالليل ان يختم في ركعتي المغرب أو بعدها ليستقبل بالختمة اول الليل واول النهار . وقال ابن مسعود رضي الله عنه من ختم القرآن فله دعوة مستجابة ؛ وكان انس رضي الله عنه اذا ختم القرآن جمع اهله ودعا .

فصــــل

ويستحب تحسين القراءة واذا لم يكن حسن الصوت حسنه ما استطاع فأما القراءة بالالحان فقد كرهها السلف ويستحب الاسرار بالقراءة وقد جاء في حديث « فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية » الا انه ينبغي ان يسمع نفسه ولا بأس بالجهر في بعض الأوقات لمقصود صحيح إما لتجويد الحفظ او ليصرف عن نفسه الكسل والنوم او ليوقظ الوسنان(١) (فأما حكم القراءة في الصلاة) ومقدار ما يقرأ في صلاة الفرض وموضع الجهر والاسرار فذلك معروف مشهور في كتب الفقه ومن كان عنده مصحف ينبغي له ان يقرأ فيه كل يوم آيات يسيرة لئلا يكون مهجوراً ؛ وينبغي لتالي القرآن العظيم ان ينظر كيف لطف الله تعالى بخلقه في ايصال معاني كلامه الى افهامهم وان يعلم ان ما يقرأه ليس من كلام البشر وان يستحضر عظمة المتكلم سبحانه ويتدبر كلامه فان التدبر هو المقصود من القراءة وان لم يحصل التدبر إلا بترداد الاية فليرددها فقد روى ابو ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قام ليلة بآية يرددها (إن تعذبهم فانهم عبادك الاية) وقام تميم الداري بآية وهي قوله (أم حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم

---

(١) الوسن النعاس . والوسنان كثير النعاس

كالذين آمنوا وعملوا الصالحات) و كذلك قام بها الربيع بن خيثم ليلة ؛
وينبغي للتالي ان يستوضح من كل آية ما يليق بها و يتفهم ذلك فاذا تلى
قوله تعالى (خلق السموات والأرض) فليعلم عظمته و يتلمح قدرته في كل
ما يراه واذا تلى (أفرأيتم ما تمنون) فليتفكر في نطفة متشابهة الأجزاء كيف
تنقسم الى لحم وعظم وعرق وعصب واشكال مختلفة من رأس ويد
ورجل ثم الى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة كالسمع والبصر والعقل
وغير ذلك فيتأمل هذه العجائب واذا تلى احوال المكذبين فليستشعر الخوف
من السطوة ان غفل عن امتثال الأمر

وليتخلى التالي من موانع الفهم مثل ان يخيل الشيطان اليه انه ما حقق
تلاوة الحرف ولا اخرجه من مخرجه فيكرره التالي فيصرف همته عن فهم
المعنى (ومن ذلك) ان يكون التالي مصراً على ذنب او متصفاً بكبر او مبتلى
بهوى مطاع فان ذلك سبب ظلمة القلب وصداه فهو كالجرب على المرآة
يمنع من تجلي الحق فالقلب مثل المرآة والشهوات مثل الصدا ومعاني القرآن
مثل الصور التي تتراءى في المرآة والرياضة للقلب باماطة الشهوات مثل
الجلاء للمرآة (وينبغى لتالي القرآن) ان يعلم أية مقصود بخطاب القرآن
ووعيده وان القصص لم يرد بها السمر [١] بل العبر فليتنبه لذلك فحينئذ
يتلو تلاوة عبد كاتبه سيده بمقصود ليتأمل الكتاب و يعمل بمقتضاه فان
مثل العاصي اذا قرأ القرآن وكرره كمثل من كرر كتاب الملك واعرض
عن عمارة مملكته وما امر به في الكتاب فهو مقتصر على دراسته مخالف
أوامره فلو ترك الدراسة مع المخالفة كان ابعد من الاستهزاء واستحقاق المقت

---

(١) اي الحديث والخبر

(وينبغي) ان يتبرأ من حوله وقوته وان لا يلتفت الى نفسه بعين الرضا والتزكية فان من رأى نفسه بصورة التقصير كان ذلك سبب قوته .

﴿ كتاب الاذكار والدعوات وغيرها ﴾

اعلم انه ليس بعد تلاوة القرآن عبادة تؤدى باللسان افضل من ذكر الله سبحانه وتعالى ورفع الحوائج بالأدعية الخالصة اليه ويدل على فضل الذكر قوله تعالى (فاذكروني اذكركم) وقوله (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) وقوله (والذاكرين الله كثيراً والذاكرات) وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله عز وجل يقول « انا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه » وفي افراد مسلم عنه صلى الله تعالى عليه وسلم « انه قال لا يقعد قوم يذكرون الله الا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة [١] وذكرهم الله فيمن عنده [٢] وفي ذلك احاديث كثيرة مذكورة في فضائل الأعمال وعن ابى هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما جلس قوم مجلساً فتفرقوا عن غير ذكر الله عز وجل إلا تفرقوا عن مثل جيفة الحمار وكان ذلك المجلس عليهم حسرة يوم القيامة » وفي حديث آخر « لا يجلس قوم مجلسا لا يذكرون الله عز وجل ولا يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم الا كان عليهم حسرة يوم القيامة)

(واما فضيلة الدعاء) فقد روى ابو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال (ليس شيء اكرم على الله عز وجل من الدعاء واشرف العبادة الدعاء ومن لا يسألُ الله يغضبُ عليه) وفي حديث

---

(١) الوقار (٢) يعني الملائكة المقربين والمراد من العندية عندية الرتبة

خر (سلوا الله من فضله فان الله يحب ان يسأل)

وللدعاء آداب من ذلك ان يتحرى له الاوقات الشريفة كيوم عرفة من السنة ؛ و رمضان من الشهور و يوم الجمعة من الأسبوع . والسحر من الليل ومن الأوقات الشريفة بين الأذان والاقامة وعقيب الصلوات وعند نزول الغيث وعند القتال في سبيل الله وعند ختم القرآن و في السجود وعند الافطار وعند حضور القلب و وجله . وعلى الحقيقة فان شرف الأوقات يرجع الى شرف الحالات فان وقت السحر وقت صفاء القلب وفراغه وحالة السجود حالة الذل

(ومن آداب الدعاء) ان يدعو مستقبل القبلة و يرفع يديه ثم يمسح بهما وجهه وان يخفض صوته حال الدعاء ؛ ومن آدابه ان يبدأ بذكر الله عز وجل ثم يصلي على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولا يتكلف السجع في الدعاء . ومن آدابه وهو الأدب الباطن وهو الأصل في الاجابة التوبة و رد المظالم .

﴿ فصل في الأوراد وفضلها وتوزيع العبادات على مقادير الاوقات ﴾

اعلم ان اذا حصلت المعرفة لله سبحانه والتصديق بوعده والعلم بقصر العمر وجب ترك التقصير في هذا العمر القصير والنفس متى وقفت على فن واحد حصل لها ملل فان التلطف نقلها من فن الى فن وقد قال الله تعالى (واذكر اسم ربك بكرة واصيلا ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) فهذا ونحوه مما ذكر من الايات في ذلك يدل على ان الطريق الى الله تعالى مراقبة الأوقات وعمارتها بالأوراد على الدوام وقال الله تعالى (وهو الذي

جعل الليل والنهار خلفة لمن اراد ان يذكر او اراد شكوراً) اي يخلف احدهما الاخر ليتدارك في احدهما ما فات في الاخر

﴿ بيان عدد اوراد الليل والنهار وترتيبها ﴾

اوراد النهار سبعة واوراد الليل ستة فلنذكر فضيلة كل ورد ووظيفته وما يتعلق به

(الورد الاول) من اوراد النهار ما بين طلوع الفجر الثاني الى طلوع الشمس وهو وقت شريف قد اقسم الله تعالى به فقال (والصبح اذا تنفس) فينبغي للمريد اذا انتبه من النوم ان يذكر الله سبحانه وتعالى فيقول (الحمد لله الذي احيانا بعد ما اماتنا واليه النشور) روي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم من افراد البخاري . وفي افراد مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا امسى قال (امسينا وامسى الملك لله والحمد لله ولا إله إلا الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير رب أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها واعوذ بك من شر هذه الليلة وشر ما بعدها رب اعوذ بك من الكسل وسوء الكبر رب اعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر) واذا اصبح قال ذلك ايضا (اصبحنا واصبح الملك لله) الى آخره ويقول (بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الارض ولا في السماء وهو السميع العليم) ثلاث مرات (رضيت بالله رباً وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا) فاذا صلى الفجر قال وهو ثان رجله قبل ان يتكلم (لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير عشر مرات) ويذكر سيد الاستغفار

(اللهم انت ربي لا إله الا انت خلقتني وانا عبدك وانا على عهدك ووعدك ما استطعت اعوذ بك من شر ما صنعت ابوء لك (١) بنعمتك علي وابوء بذنبي فاغفر لى فانه لا يغفر الذنوب الا انت) ويقول (اصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخلاص ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة ابينا ابراهيم حنيفاً (٢) مسلماً وما كان من المشركين) ويدعو (اللهم اصلح لي ديني الذي هو عصمة امري واصلح لي دنياي التي فيها معيشتي واصلح لي آخرتي التي فيها معادي واجعل الحياة زيادة لي في كل خير واجعل الموت راحة لي من كل شر) ويدعو بدعاء ابي الدرداء (اللهم انت ربي لا إله الا انت عليك توكلت، وانت رب العرش العظيم أعلمُ ان الله على كل شيء قدير وان الله قد احاط بكل شيء علما . اللهم اني اعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة انت آخذ بناصيتها ان ربي على صراط مستقيم) فهذه الأدعية لا يستغني المريد عن حفظها وينبغي له قبل خروجه الى صلاة الفجر ان يصلي السنة في منزله ثم يخرج متوجها الى المسجد ويقول (اللهم اني اسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا فاني لم اخرج اشراً (٣) ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك اسألك ان تنقذني من النار وان تغفر لي ذنوبي انه لا يغفر الذنوب الا انت) فاذا دخل المسجد فليقل ما روى مسلم في صحيحه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : اذا دخل احدكم المسجد فليقل (اللهم افتح لي ابواب رحمتك واذا خرج فليقل اللهم اني اسألك من فضلك) ثم يطلب الصف الأول منتظراً للجماعة داعياً بنحو ما تقدم من الاذكار والادعية . فاذا صلى الفجر

---

(١) اي اعترف لك (٢) اي مائلا من جميع الاديان الى الاسلام (٣) بطراً

استحب ان يمكث في مكانه الى طلوع الشمس . فقد روى انس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « من صلى الفجر في جماعة ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة (١)

وليكن وظائف وقته اربعاً الدعاء والذكر والقراءة والفكر وليأت بما امكنه وليتفكر في قطع القواطع وشغل الشواغل عن الخير ليؤدي وظائف يومه وليتفكر في نعم الله تعالى ليتوفر شكره

(الورد الثاني) ما بين طلوع الشمس (٢) الى الضحى وذلك بمضي ثلاث ساعات من النهار اذا فرض النهار اثنتى عشرة ساعة

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن

(٢) قال الشيخ محيي الدين النووي في الاذكار: روينا في كتاب ابن السني باسناد ضعيف عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اذا طلعت الشمس قال: الحمد لله الذي جللنا اليوم عافيته وجاء بالشمس من مطلعها اللهم اصبحت اشهد لك بما شهدت به لنفسك وشهدت به ملائكتك وحملة عرشك وجميع خلقك انك انت الله لا اله الا انت القائم بالقسط لا اله الا انت العزيز الحكيم اكتب شهادتي بعد شهادة ملائكتك واولي العلم. اللهم انت السلام ومنك السلام واليك السلام اسألك يا ذا الجلال والاكرام أن تستجيب لنا دعوتنا وان تعطينا رغبتنا وان تغنينا عمن اغنيته عنا من خلقك . اللهم اصلح لي ديني الذي هو عصمة امري واصلح لي دنياي التي فيها معيشتي واصلح لي آخرتي التي اليها منقلبي، وروينا فيه عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً عليه انه جعل من يرقب له طلوع الشمس فلما اخبره بطلوعها قال: الحمد لله الذي وهب لنا هذا اليوم واقالنا فيه عثراتنا

وهو الربع وهذا وقت شريف وفيه وظيفتان:

احدهما صلاة الضحى (١)

والثانية ما يتعلق بالناس من عيادة مريض او تشييع جنازة او حضور مجلس علم او قضاء حاجة مسلم وان لم يفعل شيئاً من ذلك تشاغل بالقراءة والذكر .

---

(١) قال الغزالي في الاحياء : فالمواظبة عليها من عزائم الافعال وفواضلها . اما عدد ركعاتها فاكثر ما نقل فيه ثمان ركعات . روت ام هانيء اخت علي بن ابي طالب رضي الله عنهما انه صلى الله عليه وآله وسلم صلى الضحى ثماني ركعات اطالهن وحسنهن ولم ينقل هذا القدر غيرها ، فأما عائشة رضي الله عنها فانها ذكرت انه صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلي الضحى اربعاً ويزيد ما شاء الله فلم تحد الزيادة اي انه كان يواظب على الاربعة لا ينقص عنها وقد يزيد زيادات . وروي في حديث مفرد ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلي الضحى ست ركعات ، واما وقتها فقد روى علي رضي الله عنه انه صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلي الضحى ستاً في وقتين إذا اشرقت الشمس وارتفعت قام وصلى ركعتين وهو اول الورد الثاني من اوراد النهار كما سيأتي ، واذا انبسطت الشمس وكانت في ربع السماء من جانب الشرق صلى اربعاً فالاول انما يكون اذا ارتفعت الشمس قيد نصف رمح والثاني اذا مضى من النهار ربعه بازاء صلاة العصر فان وقته ان يبقى من النهار ربعه والظهر على منتصف النهار ويكون الضحى على منتصف ما بين طلوع الشمس الى الزوال كما ان العصر على منتصف ما بين الزوال الى الغروب وهذا افضل الاوقات ، ومن وقت ارتفاع الشمس الى ما قبل الزوال وقت للضحى على الجملة

(الورد الثالث) من وقت الضحى الى الزوال والوظيفة فى هذا الوقت الأقسام الاربعة وزيادة امرين : احدهما الاشتغال بالكسب والمعاش وحضور السوق فان كان تاجراً فليتجر بصدق وامانة وان كان صاحب صنعة فبنصح وشفقة ولا ينسى ذكر الله تعالى في جميع اشغاله وليقنع بالقليل . والثاني القيلولة فانها مما تعين على قيام الليل كما يعين السحور على صيام النهار فان نام فليجتهد في الانتباه قبل الزوال بقدر الاستعداد للصلاة قبل دخول الوقت . واعلم ان الليل والنهار اربع وعشرون ساعة فالاعتدال ان ينام من ذلك الثلث وهو ثمان ساعات فمن نام اقل من ذلك لم يأمن اضطراب بدنه ومن نام اكثر من ذلك كسله فاذا نام اكثر من ذلك في الليل فلا وجه لنومه في النهار بل من نقص منه استوفى ما نقص في النهار

(الورد الرابع) ما بين الزوال الى الفراغ من صلاة الظهر وهو اقصر اوراد النهار وافضلها فينبغي له في هذا الوقت اذا أذن المؤذن ان يجيبه بمثل قوله ثم يقوم فيصلي اربع ركعات ويستحب ان يطيلهن فان ابواب السماء تفتح حينئذ ثم يصلي الظهر وسنتها ثم يتطوع بعدها باربع

(الورد الخامس) ما بعد ذلك الى العصر يستحب له في هذا الوقت الاشتغال بالذكر والصلاة وفنون الخير ومن افضل الأعمال انتظار الصلاة بعد الصلاة

(الورد السادس) اذا دخل وقت العصر الى ان تصفر الشمس وليس في هذا الوقت صلاة سوى اربع ركعات بين الاذانين ثم فرض العصر ثم يتشاغل بالأقسام الاربعة التي سبق ذكرها فى الورد الاول والافضل فيه تلاوة القرآن بالتدبر والتفهم

(الورد السابع) من اصفرار الشمس الى ان تغرب وهو وقت شريف قال الحسن البصري رحمه الله : كانوا اشد تعظيما للعشي من اول النهار فيستحب في هذا الوقت التسبيح والاستغفار خاصة وبالمغرب تنتهي اوراد النهار فينبغي ان يلاحظ العبد احواله ويحاسب نفسه فقد انقضت من طريقه مرحلة وليعلم ان العمر ايام تنقضي جملتها بانقضاء آحادها قال الحسن يا ابن آدم انما انت أيام اذا مضى يومك مضى بعضك وليتفكر هل ساوى يومه امسه فان رأى انه قد توفر على الخير في نهاره فليشكر الله سبحانه وتعالى على التوفيق وإن تكن الاخرى فليتب وليعزم على تلافي ما سبق من التفريط في الليل فان الحسنات يذهبن السيئات وليشكر الله تعالى على صحة جسمه وبقاء بقية من عمره يمكن فيها استدراك التقصير وقد كان جماعة من السلف يستحبون ان لا ينقضي يوم الا عن صدقة ويجتهدون فيما امكن من كل خير

﴿ ذكر اوراد الليل ﴾

الورد الاول اذا غربت الشمس الى وقت العشاء فاذا غربت صلى المغرب واشتغل باحياء ما بين العشائين فقد روي عن انس رضي الله عنه في قوله تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعا ومما رزقناهم ينفقون) ان هذه الاية نزلت في اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يصلون بين المغرب والعشاء . وعن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من صلى بعد المغرب ست ركعات ولم يتكلم فيما بينهن بسوء عدلن له بعبادة ثنتي عشرة سنة »

(الورد الثاني) من غيبوبة الشفق الأحمر الى وقت النوم يستحب

ان يصلي بين الأذانين ما أمكنه وليكن في قراءته (الم تنزيل) السجدة (وتبارك الذي بيده الملك) فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينام حتى يقرأهما ؛ وفي حديث آخر عن ابن مسعود رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة)

(الورد الثالث) الوتر قبل النوم الا من كان عادته القيام بالليل فان تأخيره في حقه افضل قالت عائشة رضي الله عنها : من كل الليل قد اوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم من اول الليل واوسطه وآخره فانتهى وتره الى السحر ثم ليقل بعد الوتر سبحان الملك القدوس ثلاث مرات

(الورد الرابع) النوم وانما عددناه من الأوراد لأنه اذا روعيت آدابه وحسن المقصود به احتسب عبادة وقد قال معاذ رضي الله عنه اني لأحتسب في نومتي كما احتسب في قومتي (فمن آداب النوم) ان ينام على طهارة لما روت عائشة رضى الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا اراد ان ينام توضأ وضوءه للصلاة وقال عبد الله بن عمرو بن العاص ان الأرواح يعرج بها في منامها الى السماء فتوءمر بالسجود عند العرش فما كان منها طاهراً سجد عند العرش وما كان ليس بطاهر سجد بعيداً من العرش

ومن آدابه ان يتوب قبل نومه لأنه ينبغي لمن طهر ظاهره ان يطهر باطنه لأنه ربما مات في نومه ؛ ومنها ان يزيل كل غش في قلبه لمسلم ولا ينوي ظلمه ولا يعزم على خطيئة إذا استيقظ . ومنها ان لا يبيت من له شيء يوصي فيه إلا ووصيته مكتوبة عنده لأن في الصحيحين من حديث

ابن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا و وصيته مكتوبة عنده »
و ينبغي له أيضاً ان لا يبالغ في تمهيد الفراش متنعما بذلك فانه يزيد في النوم فان النبي صلى الله عليه وسلم ثُني له فراشه فقال منعتني وطأته صلاتي الليلة
و ينبغي ان لا ينام حتى يغلبه النوم فقد كان السلف لا ينامون الا غلبة

ومن آدابه ان يستقبل القبلة وان يدعو بما و رد من الأحاديث في ذلك وان ينام على جنبه الايمن فمما جاء في ذلك ما روى ابو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « اذا آوى احدكم الى فراشه فلينفضه بداخلة ازاره فانه لا يدري ما حدث بعده » فاذا وضع جنبه فليقل (باسمك ربي وضعت جنبي و بك ارفعه ان امسكت نفسي فاغفر لها وان ارسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين) اخرجاه في الصحيحين .
و في الصحيحين ايضاً من حديث عائشة ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا آوى الى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما وقرأ فيهما قل هو الله احد ؛ وقل اعوذ برب الفلق ؛ وقل أعوذ برب الناس ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه و وجهه وما اقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات . وفيهما من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اذا اتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل : (أللهم أسلمت نفسي إليك و وجهت وجهي اليك وفوضت امري اليك والجأت ظهري اليك رغبة ورهبة اليك لا ملجأ ولا منجا منك الا اليك آمنت بكتابك الذي انزلت وبنبيك الذي ارسلت) فانك ان مت في ليلتك مت على الفطرة وان اصبحت

اصبت خيراً » وعن علي رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال له ولفاطمة
اذا اخذتما مضاجعكما او آويتما الى فراشكما فسبحا الله ثلاثاً وثلاثين واحمداه
ثلاثاً وثلاثين وكبراه اربعاً وثلاثين فهو خير لكما من خادم » متفق عليه .
وحديث ابي هريرة في حفظ زكاة رمضان مشهور وفيه ان شيطاناً قال له
اذا آويت الى فراشك فاقرأ آية الكرسي فانه لن يزال عليك من الله حافظ
ولا يقربك شيطان فأخبر رسول الله عليه وسلم فقال اما إنه قد صدقك
وهو كذوب . وفي افراد مسلم ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا آوى الى
فراشه قال (الحمد لله الذي اطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا فكم من لا كافيَ له
ولا مأوى) فاذا استيقظ للتهجد فليدع بدعاء رسول الله صلى الله عليه
وسلم (اللهم ربنا لك الحمد انت قيم السماوات والارض ومن فيهن ولك الحمد
انت نور السماوات والأرض ومن فيهن ولك الحمد انت ملك السماوات
والأرض ومن فيهن ولك الحمد انت الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق والجنة
حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق والساعة حق اللهم لك اسلمت
وبك آمنت وعليك توكلت واليك أنبت وبك خاصمت واليك حاكمت
فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما اسررت وما اعلنت) وفي رواية (وما
انت اعلم به مني انت المقدم وانت المؤخر لا إله الا انت) متفق عليه
وليجتهد ان يكون آخر كلامه عند النوم ذكر الله تعالى واول ما يجري
على لسانه عند التيقظ ذكر الله تعالى فهاتان علامتان على الايمان

(الورد الخامس) من اوراد الليل يدخل بمضي النصف الاول الى
ان يبقى من الليل سدسه وذلك وقت شريف قال ابو ذر رضي الله عنه
سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم اي صلاة الليل افضل ؟ فقال نصف الليل

وقليل فاعله . وروي ان داود عليه السلام قال يا رب : أية ساعة اقوم لك ؟ فاوحى الله تعالى اليه يا داود لا تقم اول الليل ولا آخره ولكن قم في شطر الليل حتى تخلو بي واخلو بك وارفع الي حوائجك . فاذا قام الى التهجد قرأ العشر آيات من آخر سورة آل عمران كما روي في الصحيحين ان النبي صلى الله عليه وسلم فعل ذلك وليدع بما سبق من دعائه صلى الله عليه وسلم عند قيامه من الليل ثم يستفتح صلاته بركعتين خفيفتين لما روى ابو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال (اذا قام احدكم يصلي بالليل فليبدأ بركعتين خفيفتين) رواه مسلم ثم يصلي مثنى مثنى واكثر ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة مع الوتر واقلهن سبع

(الورد السادس) من الليل السدس الأخير وهو وقت السحر قال الله تعالى (وبالأسحارهم يستغفرون) وفي الحديث ان قراءة الرجل آخر الليل محضورة وجاء طاوس إلى رجل وقت السحر فقالوا هو نائم فقال ما كنت ارى ان احداً ينام وقت السحر . فاذا فرغ المريد من صلاة السحر فليستغفر الله عز وجل . روي عن ابن عمر رضي الله عنه انه كان يفعل ذلك

﴿ فصل في اختلاف الأوراد باختلاف الاحوال ﴾

اعلم ان السالك لطريق الاخرة لا يخلو من ستة احوال إما ان يكون عابداً او عالماً او متعلماً او والياً او محترفاً او مستغرقاً بمحبة الله عز وجل مشغولا به عن غيره

(الأول) العابد وهو المنقطع عن الاشغال كلها الى التعبد فهذا يشتغل

بما ذكرنا من الأوراد وقد تختلف وظائفه فقد كانت احوال المتعبدين من السلف مختلفة فمنهم من كان يغلب على حاله التلاوة حتى يختم في كل يوم ختمة او ختمتين او ثلثا وكان فيهم من يكثر التسبيح ومنهم من يكثر الصلاة ومنهم من يكثر الطواف بالبيت فان قيل فما الاولى ان يصرف اليه اكثر الاوقات من هذه الأوراد؟ فاعلم ان قراءة القرآن في الصلاة قايماً مع التدبر يجمع الجميع ولكن ربما عسرت المواظبة على ذلك والافضل يختلف باختلاف حال الشخص ومقصود الأوراد تزكية القلب وتطهيره فلينظر المريد ما يراه اشد تأثيراً فيه فليواظب عليه فاذا احس بملل انتقل عنه الى غيره . قال ابو سليمان الداراني اذا وجدت قلبك في القيام فلا تركع واذا وجدته في الركوع فلا ترفع

(الثاني) العالم الذي ينتفع الناس بعلمه في فتوى او تدريس او تصنيف او تذكير فترتيبه في الأوراد يخالف ترتيب العابد فانه يحتاج الى المطالعة في الكتب والتصنيف والافادة فان استغرق الأوقات في ذلك فهو افضل ما يشتغل به بعد المكتوبات وانما نعني بالعلم المقدم على العبادة العلم الذي يرغب في الاخرة ويعين على سلوك طريقها والاولى بالعالم ايضاً ان يقسم اوقاته لأن استغراق الأوقات في العلم لا تصبر عليه النفس فينبغي ان يخص ما بعد الصبح الى طلوع الشمس بالأذكار والأوراد على ما ذكرنا ثم ما بعد طلوع الشمس الى الضحى في الافادة والتعليم فان لم يكن عنده من يتعلم صرف ذلك الزمان الى التفكر في العلوم فان صفاء القلب بعد الفراغ من الذكر وقبل الاشتغال بهموم الدنيا يعين على التفطن للمشكلات ثم من ضحوة النهار الى العصر للتصنيف والمطالعة لا يترك ذلك الا في وقت

أكل او طهارة او مكتوبة او قيلولة . ومن العصر الى اصفرار الشمس يشتغل بسماع ما يقرأ عليه من تفسير او حديث او علم نافع . ومن الاصفرار الى الغروب يشتغل بالاستغفار والتسبيح فيكون ورده الأول في عمل اللسان والثاني في عمل القلب بالتفكر والثالث في عمل العين واليد بالمطالعه والنسخ والرابع بعد العصر في عمل السمع لتتروح العين واليد فان المطالعة والنسخ بعد العصر ربما اضرا بالعين

(واما الليل) فاحسن قسمة فيه قسمة الشافعي رحمه الله فانه كان يقسمه ثلاثة اجزاء : الثلث الأول لكتابة العلم ؛ والثاني للصلاة ؛ والثالث للنوم فأما الصيف فربما لا يحتمل ذلك الا اذا كان اكثر النوم بالنهار

(الثالث) حال المتعلم فان التعلم افضل من التشاغل بالأذكار والنوافل وحكم المتعلم حكم العالم في ترتيب الأوراد لكنه يشتغل بالاستفادة حين يشتغل العالم بالأفادة وبالتعليق والنسخ حين يشتغل العالم بالتصنيف فان كان من العوام كان حضوره مجالس الذكر والعلم والوعظ افضل من اشتغاله بالأوراد المتطوع بها

(الرابع) الوالي مثل الامام والقاضي او المتولي للنظر في امر من امور المسلمين فقيامه بحاجات المسلمين واغراضهم على وفق الشرع وقصد الاخلاص افضل من الأوراد المذكورة لأنه عبادة يتعدى نفعها فينبغي ان يقتصر في النهار على المكتوبات ثم يستفرغ باقي الزمان في ذلك ويقتنع بأوراد الليل

(الخامس) المحترف وهو محتاج الى الكسب له ولعياله فليس له ان يستغرق الزمان في التعبد بل يجتهد في الكسب مع دوام الذكر فاذا حصل له ما يكفيه عاود الأوراد

(السادس) المستغرق بمحبة الله سبحانه فهذا ورده بعد المكتوبات حضور القلب مع الله تعالى وهو يحركه الى ما يريد من ورده، وينبغي ان يداوم العمل على الأوراد لقول النبي صلى الله عليه وسلم «أحب العمل الى الله تعالى أدومه وإن قل» وكان النبي صلى الله عليه وسلم عمله ديمة

﴿ باب في قيام الليل وصيامه والأسباب الميسرة لقيامه ﴾

ونحو ذلك قال الله تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) وقال النبي صلى الله عليه وسلم «عليكم بقيام الليل فانه دأب الصالحين قبلكم وهو قربة الى ربكم ومعفرة للسيئات ومنهاة عن الاثم» وفي فضله احاديث كثيرة وقال الحسن البصري رحمه الله لم اجد من العبادة شيئاً اشد من الصلاة في جوف الليل؛ فقيل له: ما بال المتهجدين احسن الناس وجوها؟ فقال لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره

﴿ فصل في الأسباب الميسرة لقيام الليل ﴾

اعلم ان قيام الليل صعب الا على من وفق للقيام بشروطه الميسرة له فمن الأسباب ظاهر ومنها باطن؛ فأما الظاهر فأن لا يكثر الأكل. كان بعضهم يقول يا معشر المريدين لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فتناموا كثيراً فتخسروا كثيراً؛ ومنها ان لا يتعب نفسه بالنهار بالاعمال الشاقة ومنها ان لا يترك القيلولة بالنهار فانها تعين على قيام الليل. ومنها ان يجتنب الاوزار. قال الثوري: حرمت قيام الليل خمسة اشهر بذنب اذنبته (واما الميسرات الباطنة) فمنها سلامة القلب للمسلمين وخلوه من البدع وإعراضه عن فضول الدنيا ومنها خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل؛ ومنها ان

يعرف فضل قيام الليل . ومن اشرف البواعث على ذلك الحب لله تعالى وقوة الايمان بأنه قام اذا ناجى ربه وانه حاضره ومشاهده فتحمله المناجاة على طول القيام . قال ابو سليمان اهل الليل في ليلهم ألذ من اهل اللهو في لهوهم ولولا الليل ما احببت البقاء في الدنيا . وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « ان في الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً الا آتاه اياه وذلك كل ليلة »

واحياء الليل مراتب (احدها) ان يحيي الليل كله روي ذلك عن جماعة من السلف (الثانية) ان يقوم نصف الليل وهو مروي ايضاً عن جماعة من السلف . واحسن الطريق في هذا ان ينام الثلث الاول من الليل والسدس الأخير منه (المرتبة الثالثة) ان يقوم ثلث الليل فينبغي ان ينام النصف الأول والسدس الاخير وهو قيام داود عليه السلام . في الصحيحين : « احب الصلاة الى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه » ونوم آخر الليل حسن لأنه يذهب بآثار النعاس من الوجه بالغداة ويقلل صفرته (المرتبة الرابعة) ان يقوم سدس الليل او خمسه والافضل من ذلك ما كان في النصف الاخير وبعضهم يقول افضله السدس الأخير (المرتبة الخامسة) ان لا يراعي التقدير فان مراعاة ذلك صعب . ثم فيما يفعله طريقان « احدهما » ان يقوم اول الليل الى ان يغلبه النوم فينام فاذا انتبه قام فاذا غلبه النوم نام وهذا من اشد المكابدة وهو طريق جماعة من السلف وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه ما كنا نشاء ان نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم مصلياً من الليل إلا رأيناه وما كنا نشاء ان نراه نائما الا رأيناه وكان عمر رضي الله عنه يصلي من الليل ما شاء الله حتى اذا

كان من آخر الليل ايقظ اهله فيقول: الصلاة الصلاة . وقال الضحاك ادركت اقواماً يستحيون من الله في سواد هذا الليل من طول الضجعة «الطريق الثاني» ان ينام اول الليل فاذا اخذ حظه من النوم وانتبه قام الباقي قال سفيان الثوري إنما هي اول نومة فاذا انتبهت لم أقلها (المرتبة السادسة) ان يقوم مقدار اربع ركعات او ركعتين فقد روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «صلوا من الليل صلوا اربعاً صلوا ركعتين» الحديث وفي سنن ابي داود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من استيقظ من الليل وايقظ امرأته فصليا جميعاً ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات» وكان طلحة بن مصرف يأمر اهله بقيام الليل ويقول صلوا ركعتين فان الصلاة في جوف الليل تحط الأوزار (فهذه طرق قسمة الليل) فليتخير المريد لنفسه ما يسهل عليه فان صعب القيام عليه في وسط الليل فلا ينبغي ان يخل باحياء ما بين العشائين وورد السحر ليكون قائماً في الطرفين وهذه مرتبة سابعة

فصل

فاما من صعبت عليه الطهارة في الليل وثقلت عليه الصلاة فليجلس مستقبل القبلة وليذكر الله تعالى وليدع مهما قدر فان لم يجلس فليدع وهو مضطجع ومن كان له ورد فغلبه النوم وفاته فليأت به بعد صلاة الضحى فقد ورد ذلك في الحديث وليحذر من له عادة بقيام الليل ان يتركها ففي الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن عمر «لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل»

﴿ فصل فى بيان الليالي والايام الفاضلة ﴾

اما الليالي المخصوصات بمزيد الفضل التي يستحب احياؤها فخمس عشرة ليلة ولا ينبغي للمريد ان يغفل عنهن لانه اذا غفل التاجر عن موسم الربح فمتى يربح فمن هذه الليالي سبع في رمضان الليلة السابعة عشر وهي التي كانت صبيحتها وقعة البدر ، والست الباقية هن اوتار العشر اذ فيهن تطلب ليلة القدر ، واما الثمان الأخر فأول ليلة من المحرم وليلة عاشوراء وأول ليلة من رجب وليلة النصف منه وليلة سبع وعشرين منه فانها ليلة المعراج وليلة النصف من شعبان وليلة عرفة و ليلتا العيدين وقد ورد صلوات لبعض هذه الليالي وليس فيها ما يثبت

واما الايام الفاضلة فتسعة عشر يوماً : يوم عرفة ، ويوم عاشوراء ويوم سبع وعشرين من رجب وهو اول يوم هبط فيه جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ويوم سبع عشرة من رمضان كان فيه وقعة بدر ؛ ويوم النصف من شعبان ، ويوم الجمعة ، ويوما العيدين والايام المعلومات وهي عشر ذي الحجة والايام المعدودات وهي ايام التشريق

ومن فواضل الايام في الاسبوع يوم الاثنين والخميس وايام البيض وفيها فضل كبير مذكور في فضائل الصوم آخر كتاب الاوراد وهو آخر ربع العبادات وبالله التوفيق

الربع الثاني من الكتاب ربع العادات وفيه ابواب

﴿ باب في آداب الأكل والاجتماع عليه والضيافة ونحو ذلك ﴾

وآداب الاكل منها ما هو قبله ومنها ما هو مع الأكل ومنها ما هو بعد الأكل فمن القسم الأول غسل اليد قبل الأكل كما ورد في الحديث ولأنها لا تخلو من درن ، ومن ذلك ان يوضع الطعام على السفرة الموضوعة على الارض فانه أقرب الى فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من رفعه على المائدة وهو ادنى الى التواضع ومن ذلك ان يجلس الجلسة على السفرة فينصب رجله اليمني ويعتمد على اليسرى وينوي باكله ان يتقوى على طاعة الله تعالى ليكون مطيعا بالاكل ولا يقصد به التنعم فقط وعلامة صحة هذه النية اخذ البلغة دون الشبع قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن حسب ابن آدم اكلات يقمن صلبه » فان كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه ومن ضرورة هذه النية ان لا يمد يده الى الطعام الا وهو جائع وان يرفع يده قبل الشبع ومن فعل ذلك لم يكد يحتاج الى طبيب ؛ ومن ذلك ان يرضى بالموجود من الرزق ولا يحقر اليسير منه وان يجتهد في تكثير الايدي على الطعام ولو من اهله وولده

(القسم الثاني) في الاداب حالة الأكل وهو ان يبدأ بسم الله في اوله ويحمد الله تعالى في آخره ومن ذلك ان يأكل باليمنى ويصغر اللقمة ويجود مضغها وان لا يمد يده الى اخرى حتى يبتلع الاولى ولا يذم مأكولا ومن ذلك ان يأكل مما يليه الا ان يكون الطعام متنوعاً كالفاكهة وليأكل بثلاث صابع واذا وقعت لقمته اخذها ومن ذلك ان لا ينفخ في الطعام الحار ولا

يجمع بين التمر والنوى في طبق واحد ولا يجمعه في كفه بل يضعه من فيه على ظهر كفه ثم يلقيه وكذا كل ماله عجم وتفل ولا يشرب الماء في اثناء الطعام فانه اجود في باب الطب ومن آداب الشرب ان يتناول الاناء بيمينه و ينظر فيه قبل الشرب و يمص مصاً لا غباً فقد روي عن علي رضي الله عنه مصوا الماء مصاً ولا تغبوه غباً فان الكباد من الغب . ولا يشرب قائماً و يتنفس في شربه ثلاثا ففي الصحيحين ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يتنفس في شربه ثلاثا والمعنى يتنفس في شربه من الاناء بان يباعد الاناء عنه و يتنفس لا ان يكون النفس في الاناء (القسم الثالث) من آداب الاكل ما يستحب بعد الطعام وهو ان يمسك قبل الشبع و يلعق اصابعه وان يسلت[١] القصعة وليحمد الله ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال (ان الله ليرضى عن العبد ان يأكل الاكلة فيحمده عليها و يشرب الشربة فيحمده عليها و يغسل يده من الغمر[٢]

﴿ فصل فيما يزيد من الاداب بسبب الأجتماع والمشاركة في الأكل ﴾

من ذلك ان لا يبتدئ في الأكل اذا كان معه من يستحق التقدم لكبر سن او زيادة فضل الا ان يكون هو المتبوع . ومنها ان لا يسكتوا على الطعام بل يتكلموا بالمعروف و يتحدثون بحكايات الصالحين في الأطعمة وغيرها . ومن ذلك ان يقصد كل منهم الايثار لرفيقه ولا يحوج رفيقه الى ان يقول له كل : بل ينبسط ولا يتصنع بالانقباض . ومن ذلك ان لا ينظر الى اصحابه حالة الأكل لئلا يستحيوا . ومن ذلك ان لا يفعل ما يستقذره

---

(١) اي يتبع ما بقي فيها من الطعام و يمسحها (٢) الغمر بفتحتين الدسم والزهومة من اللحم

من غيره فلا ينفض يده في القصعة ولا يقدم اليها راسه عند وضع اللقمة في فيه واذا اخرج شيئاً من فيه ليرمي به صرف وجهه عن الطعام واخذه بيساره ولا يغمس اللقمة الدسمة في الخل ولا الخل في الدسمة فقد يكرهه غيره ولا يغمس بقيه اللقمة التي اكل منها في المرقة

فصـــل

ويستحب تقديم الطعام الى الاخوان روي عن علي رضي الله عنه انه قال : لأن اجمع اخواني على صاع من طعام احب إلي من ان اعتق رقبة وكان خيثمة رحمه الله يصنع الخبيص والطعام الطيب فيدعو إبراهيم والأعمش ويقول كلوا فما صنعته إلا لكم ، ويقدم ما حضر من غير تكلف ولا يستأذنهم في التقديم بل يقدم من غير استئذان ومن التكلف ان يقدم جميع ما عنده

ومن آداب الزائر ان لا يقترح طعاماً بعينه وإن خير بين طعامين اختار ايسرهما إلا ان يعلم ان مضيفه يسر باقتراحه ولا يقصر عن تحصيل ذلك فقد نزل الشافعي رحمه الله على الزعفراني وكان الزعفراني يكتب كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويسلمها الى الجارية فأخذ الشافعي الرقعة وألحق فيها لوناً آخر فلما علم الزعفراني اشتد فرحه

فصـــل

ولا ينبغي لأحد اذا علم ان قوماً يأكلون ان يدخل عليهم فان صادفهم من غير قصد فسألوه الأكل نظر فان علم انهم انما سألوه حياء منه فلا يأكل وان علم انهم يحبون كلهم اكله معهم جاز له ان يأكل ومن دخل دار

صديقه فلم يجده وكان واثقاً به عالماً انه اذا اكل من طعامه سر بذلك جاز
له ان يأكل

فصـــل

ومن آداب الضيافة ان يقصد بدعوته الأتقياء دون الفساق قال
بعض السلف لا تأكل الا طعام تقي ولا يأكل طعامك الا تقي وينبغي ان
يقصد الفقراء دون الأغنياء وينبغي ان لا يهمل اقاربه في ضيافتهم فان
اهمالهم يوجب الايحاش وقطيعة الرحم وكذلك يراعي الترتيب في اصدقائه
ومعارفه ولا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر بل استعمال السنة في اطعام
الطعام واستمالة قلوب الاخوان وادخال السرور على قلوب المؤمنين
ولا يدعو من يعلم انه تشق عليه الاجابة او اذا حضر تأذى بالحاضرين
بسبب من الأسباب .

واما آداب الاجابة فان كانت دعوة عرس فالاجابة اليها واجبة اذا
دعاه المسلم في اليوم الاول وان كانت لغيره فهي جائزة ثم ينبغي ان لايخص
الغني بالاجابة دون الفقير ولا يمتنع من الدعوة لكونه صائماً بل يحضر فان
كان تطوعا وعلم ان فطره يسر اخاه المسلم فليفطر فاما ان كان الطعام حراماً
فليمتنع من الاجابة وكذلك اذا كان منكر من فرش محرمة او اناء محرم او
مزمار وكذلك اذا كان الداعي ظالماً او فاسقا او مبتدعا او مفاخراً
بدعوته وينبغي ان لا يقصد بالاجابة الى الدعوة نفس الأكل بل ينوي
به الاقتداء بالسنة واكرام اخيه المؤمن وينوي صيانة نفسه عن مسيء به
الظن فربما قيل عنه اذا امتنع هذا متكبر؛ وينبغي ان يتواضع في مجلسه
اذا حضر ولا يتصدر وان عين له صاحب الدار مكاناً لم يتعده ولا

يكثر النظر الى المكان الذي يخرج منه الطعام فانه دليل على الشره

فصـــل

واما إحضار الطعام فله خمسة آداب: الاول تعجيله . فذلك من إكرام الضيف . الثاني تقديم فاكهة أولا قبل غيرها وذلك اصلح في باب الطب وقد قال الله تعالى (وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون) ثم افضل ما يقدم بعد الفاكهة اللحم خصوصاً المشوي ثم افضل الطعام بعد اللحم الثريد ثم الحلوى وتتم هذه الطيبات بشرب الماء البارد وتكملة الامر صب الماء الفاتر على اليد عند الغسل . الثالث ان يقدم جميع الالوان الحاضرة . الرابع ان لا يبادر الى رفعها بل يمكنهم من الاستيفاء حتى يرفعوا ايديهم . الخامس ان يقدم من الطعام قدر الكفاية فان التقليل من الكفاية نقص في المروءة وينبغي ان يعزل لأهل البيت نصيبهم قبل تقديم الطعام فاذا اراد الضيف الانصراف ينبغي ان يخرج معه الى باب الدار فانه سنة وذلك من اكرام الضيف ومن تمام الاكرام طلاقة الوجه وطيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى المائدة

واما الضيف فينبغي ان يخرج طيب النفس وان جرى في حقه تقصير فذلك من حسن الخلق والتواضع ولا يخرج الا برضى صاحب المنزل واذنه ويراعي قلبه في قدر الاقامة

﴿ كتاب النكاح وآدابه وما يتعلق به ﴾

لا يختلف العلماء في ان النكاح مستحب مندوب اليه كثير الفضائل وفيه فوائد (منها الولد) لأن المقصود بقاء النسل وفيه موافقة محبة الله تعالى

بالسعي لذلك ليبقى جنس الانسان . وفيه طلب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في تكثير من به مباهاته وفيه طلب التبرك بدعاء الولد الصالح والشفاعة بموت الولد الصغير (ومن فوائد النكاح) التحصن من الشيطان بدفع غوائل الشهوة وفيه ترويح النفس وإيناسها بمخالطة الزوجة (ومنها تفريغ القلب) عن تدبير المنزل والتكفل به بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الأواني وتهيئة اسباب العيش فان الانسان يتعذر عليه اكثر ذلك مع الوحدة ولو تكفل به لضاع اكثر اوقاته ولم يتفرغ للعلم والعمل فالمرأة الصالحة عون على الدين بهذه الطريقة إذ اختلاف هذه الأسباب شواغل للقلب (ومن فوائده) ايضا مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على اخلاقهن واحتمال الأذى منهن والسعي في اصلاحهن وارشادهن الى طريق الدين والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن والقيام بتربية الأولاد وكل هذه اعمال عظيمة الفضل فانها رعاية وولاية وفضل الرعاية عظيم وانما يحترز منها من يخاف من القصور عن القيام بحقها ومقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد في سبيل الله عز وجل . وفي افراد مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «دينار انفقته في سبيل الله ودينار انفقته في رقبة ودينار تصدقت به على مسكين ودينار انفقته على اهلك افضلهم الدينار الذي انفقته على اهلك»

فصــــل

وفي النكاح آفات اقواها العجز عن طلب الحلال فان ذلك يصعب فربما امتدت يد المتزوج الى ما ليس له (الثانية) القصور عن القيام بحقوق النساء والصبر على اخلاقهن واذاهن وفي ذلك خطر لأن الرجل راع

ومسؤل عن رعيته (الثالثة) ان يكون الأهل والولد يشغلون عن ذكر الله عز وجل فينقضي ليله ونهاره بالتمتع بذلك فلا يتفرغ القلب للفكر في الاخرة والعمل لها فهذه مجامع الافات والفوائد فالحكم على شخص واحد بأن الافضل له النكاح او العزوبة مطلقا مصروف على الاحاطة بمجامع هذه الأمور بل ينبغي للمريد ان يصرف نفسه على هذه الأحوال فان انتفت عنه الافات واجتمعت له الفوائد بأن كان له مال حلال وحسن خلق وهو مع ذلك شاب يحتاج الى تسكين الشهوة ومنفرد يحتاج الى تدبير المنزل فلا شك ان النكاح افضل وان انتفت هذه الفوائد واجتمعت فيه الافات فتركه افضل وهذا في حق من لم يحتج الى النكاح فان احتاج فانه يلزمه

فصل

ويعتبر في المرأة لطيب العشرة امور (احدها) الدين وهو الأصل لقول النبي صلى الله عليه وسلم « عليك بذات الدين » فاذا لم يكن لها دين افسدت دين زوجها وأزرت به وان سلكت سبيل الغيرة لم يزل في بلاء وتكدير عيش (الثاني حسن الخلق) فان سيئة الخلق ضررها اكثر من نفعها (الثالث حسن الخلق) وهو مطلوب اذ به يحصل التحصن ولهذا امر بالنظر الى المخطوبة وقد كان اقوام لا ينظرون في الحسن ولا يقصدون التمتع كما روي ان الامام احمد رحمه الله اختار امرأة عوراء على اختها الا ان هذا يندر والطباع على ضده (الرابع خفة المهر) وقد زوج سعيد بن المسيب ابنته بدرهمين وقال عمر رضي الله عنه لا تغالوا في مهور النساء وكما تكره المغالاة في المهر من جهة المرأة يكره السؤال عن مالها من جهة الرجل قال الثوري اذا تزوج الرجل وقال : اي شيء للمرأة ؟ فاعلم انه لص

(الخامس البكارة) لأن الشارع ندب الى ذلك ولأنها تحب الزوج وتألفه اكثر من الثيب فيوجب ذلك الود فان الطباع مجبولة على الأنس بأول مألوف وهو ايضاً اكمل لمودته لها لأن الطبع ينفر من التي مسها غيره (السادس) ان تكون ولوداً (السابع النسب) وهو ان تكون من بيت دين وصلاح (الثامن ان تكون اجنبية) وكما ينبغي للرجل ان ينظر في المرأة ينبغي للولي ان ينظر المراة في دين الرجل واخلاقه واحواله لأنها تصير بالنكاح موقوفة ومتى زوجها من فاسق او مبتدع فقد جنى عليها وعلى نفسه قال رجل للحسن : بمن ازوج ابنتي؟ قال ممن يتقي الله فانه ان احبها اكرمها وان ابغضها لم يظلمها .

﴿ فصل في آداب المعاشرة ﴾

والنظر فيما على الزوج وفيما على الزوجة

اما الزوج فعليه مراعاة الأعتدال والأدب في اثني عشر امراً (الأول) الوليمة فانها مستحبة (الثاني) حسن الخلق مع الزوجات واحتمال الأذى منهن لقصور عقلهن وفي الحديث الصحيح « استوصوا بالنساء خيراً فانهن خلقن من ضلع اعوج وان اعوج ما في الضلع اعلاه فان ذهبت تقيمه كسرته وان تركته لم يزل اعوج فاستوصوا بالنساء خيراً » واعلم انه ليس حسن الخلق مع المرأة كف الأذى عنها بل احتمال الأذى منها والحلم على طيشها وغضبها اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ففي الصحيحين من حديث عمر رضي الله عنه ان ازواج النبي صلى الله عليه وسلم لكن يراجعنه وتهجره احداهن اليوم الى الليل والحديث مشهور (الثالث) ان يداعبها ويمازحها وقد سابق عليه السلام عائشة رضي الله عنها وكان يداعب نساءه

صلى الله عليه وسلم وقال لجابر « هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك » وذلك ان يكون ذلك بقدر ولا ينبسط في الرعاية الى ان تسقط هيبته بالكلية عند المراة بل ينبغي ان يقصد طريق الاقتصاد وقد روينا عن عمر رضي الله عنه انه عتب على بعض عماله فكلمته امرأة عمر رضي الله عنه فيه فقالت يا امير المؤمنين فيم وجدت عليه ؟ قال يا عدوة الله وفيما انت وهذا ؟ إنما انت لعبة يلعب بك ثم تتركين (الخامس) الاعتدال في الغيرة وهو ان لا يتغافل عن مبادئ الأمور التي يخشى غوائلها ولا يبالغ في اساءة الظن وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم ان يطرق الرجل اهله ليلا (السادس) الاعتدال في النفقة والقصد دون الاسراف والتقتير ولا ينبغي للرجل ان يستأثر عن اهله بالطعام الطيب فان ذلك يوغر الصدر (السابع) ان يتعلم المتزوج من علم الحيض واحكامه ما يدري به كيف معاشرة الحائض ويلقنها الاعتقاد الصحيح ويزيل عن قلبها كل بدعة ان كانت ويعلمها احكام الصلاه والحيض والاستحاضة فيعرفها انها اذا انقطع دمها قبل المغرب بمقدار ركعة فعليها الظهر والعصر ، واذا انقطع قبل الصبح بمقدار ركعة فعليها قضاء المغرب والعشاء وهذا لا يكاد النساء يراعينه (الثامن) اذا كانت له نسوة ينبغي ان يعدل بينهن والعدل في المبيت والعطاء لا في الحب والوطئ فان ذلك لا يملكه فان سافر واراد استصحاب احداهن اقرع بينهن فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه (التاسع) النشوز فاذا كان النشوز من المرأة فله ان يؤدبها ويحملها على الطاعة قهراً ولكنه ينبغي ان يتدرج في تأديبها بتقديم الوعظ والتخويف فان لم ينفع هجرها في المضجع فولاها ظهره وانفرد عنها بالفراش وهجرها في الكلام فيما دون ثلاثه ايام فان لم ينفع ضربها ضرباً

غير مبرح وهو ان لا يدمي لها جسماً ولا يضرب وجهها (العاشر) في آداب الجماع يستحب البداية بالتسمية والانحراف عن القبلة وان يتغطى هو واهله بثوب ولا يكونا متجردين وان يبدأ بالملاعبة والضم والتقبيل ومن العلماء من استحب الجماع يوم الجمعة ثم اذا قضى وطره فليتمهل لتقضي وطرها فان انزالها ربما تأخر «ومن الأداب» ان تأتزر الحائض بازار من حقويها الى ما بين الركبة اذا اراد الاستمتاع بها ولا يجوز وطأها في الحيض ولا في الدبر ومن اراد ان يجامع مرة ثانية فليغسل فرجه ويتوضأ «ومن الاداب» ان لا يحلق شعره ولا يقلم اظفاره ولا يخرج دماً وهو جنب واما العزل فهو مباح مع الكراهة.

(الحادي عشر) في آداب الولادة وهي ستة: «الأول» ان لا يكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى فانه لا يدري في ايهما الخير «الثاني» ان يؤذن في اذن المولود حين يولد «الثالث» ان يسميه اسماً حسناً وفي افراد مسلم (من احب اسمائكم الى الله عز وجل عبد الله وعبد الرحمن) ومن كان له اسم مكروه استحب له تبديله فقد غير النبي صلى الله عليه وسلم اسماء جماعة وقد كره من الأسماء افلح ونافع ويسار ورباح وبركة لأنه يقال: اهو ثمة؟ فيقال لا «الرابع» العقيقة عن الذكر شاتان وعن الأنثى شاة «الخامس» ان يحنكه بتمرة او حلاوة «السادس» الختان

(الثاني عشر) مما يتعلق بالزوج الطلاق فهو ابغض المباحات الى الله عز وجل فيكره للرجل ان يفاجئ به المرأة من غير ذنب ولا يجوز للمراة ان تلجئه الى طلاقها فاذا اراد الطلاق فليراع فيه اربعة اشياء: الاول ان يطلقها في طهر لم يصبها فيه لئلا تطول عليها العدة. الثاني ان يقتصر على طلقة واحدة

ليستفيد بها الرجعة ان ندم؛ الثالث ان يتلطف في الأمر في الطلاق باعطائها ما تتمتع به لينجبر الفاجع فقد روي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما انه طلق امرأة وبعث اليها بعشرة آلاف درهم فقالت متاع قليل من حبيب مفارق. الرابع ان لا يفشي سرها وفي الحديث الصحيح من افراد مسلم « ان من شر الناس يوم القيامة الرجل يفضي الى المرأة وتفضي اليه ثم ينشر سرها » وروي عن بعض الصالحين انه أراد طلاق امرأته فقيل له ما الذي يريبك منها؟ فقال العاقل لا يهتك سراً فلما طلقها قيل له لم طلقتها؟ فقال مالي ولامرأة غيري فهذا كله من بيان ما على الزوج

(القسم الثاني) من آداب المعاشرة ما على الزوجة لزوجها عن ابي امامة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (لو جاز لأحد ان يسجد لأحد لأمرت المرأة ان تسجد لزوجها لعظم حقه عليها) وفي هذا القسم احاديث كثيرة تدل على تأكيد حق الزوج على زوجته وحقوقه عليها كثيرة واهمها امران احدهما: الستر والصيانة والقناعة وعلى هذا كان النساء في السلف كان الرجل اذا خرج من منزله يقول له اهله اياك وكسب الحرام فانا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار.

ومن الواجبات عليها ان لا تفرط في ماله فان اطعمت عن رضاه كان لها مثل اجره وان كان بغير رضاه كان له الأجر وعليها الوزر وينبغي لوالدتها تأديبها قبل نقلها الى الزوج لتعرف آداب العشرة وينبغي للمرأة ان تكون قاعدة في بيتها لازمة لمغزلها قليلة الكلام لجيرانها كثيرة الانقباض في حال غيبة زوجها تحفظه غائباً وحاضراً وتطلب مسرته في جميع الأحوال ولا تخونه في نفسها ولا في ماله ولا توطئ فراشه من يكره ولا تأذن في بيته

الا بأذنه . ولتكن همتها صلاح شأنها وتدبير بيتها قائمة بخدمة الدار في كل ما امكنها ولتكن مقدمة لحق زوجها على حق نفسها وحق جميع اقاربها ٭ آخر كتاب النكاح .

﴿ كتاب آداب الكسب والمعايش ﴾

وفضله وصحة المعاملة وما يتعلق بذلك

اعلم ان الله سبحانه وتعالى بلطيف حكمته جعل الدنيا دار تسبب واكتساب تارة للمعاش وتارة للمعاد ونحن نورد آداب التجارات والصناعات وضروب الاكتساب واسبابها ونشرحها .

فصل

في فضل الكسب والحث عليه قال الله تعالى (وجعلنا النهار معاشاً) فذكره في معرض الامتنان وقال تعالى (وجعلنا لكم فيها معايش . قليلا ما تشكرون) فجعلها نعمة وطلب الشكر عليها وقال تعالى (ليس عليكم جناح ان تبتغوا فضلا من ربكم) وفي الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم قال (طلب الحلال جهاد وان الله ليحب العبد المحترف) وفي افراد البخاري ان النبي صلى الله عليه وسلم قال (ما اكل احد طعاماً قط خيراً من ان يأكل من عمل يده وان نبي الله داود كان يأكل من عمل يده) وفي حديث آخر ان زكريا عليه السلام كان نجاراً . قال ابن عباس رضي الله عنه كان آدم عليه السلام حراثاً ونوح نجاراً وادريس خياطاً وابراهيم ولوط زراعين وصالح تاجراً وداود زراداً وموسى وشعيب ومحمد صلوات الله تعالى عليهم وسلم رعاة . واما الارشاد فروي ان لقمان الحكيم قال لابنه يا بني

استعن بالكسب الحلال فانه ما افتقر احد قط الا اصابه ثلاث خصال : رقة في دينه وضعف في عقله وذهاب مروئته واعظم من هذه الثلاث استخفاف الناس به . وقيل لأحمد بن حنبل ما تقول في رجل جلس في بيته او مسجده وقال لا اعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي ؟ فقال احمد هذا رجل جهل العلم أما سمع قول النبي صلى الله عليه وسلم (ان الله جعل رزقي تحت ظل رمحي) وقال حين ذكر الطير (تغدو خماصاً وتروح بطاناً) وكان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم « يتجرون في البر والبحر ويعملون في نخلهم » والقدوة بهم وقال ابو سليمان الداراني ليس العبادة عندنا ان تصف قدميك وغيرك يتعب لك ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبد فان قيل فقد قال ابو الدرداء زاولت التجارة والعبادة فلم يجتمعا فاخترت العبادة فالجواب انا لا نقول ان التجارة تراد لذاتها بل للاستغناء عن الناس واغناء العائلة وافاضة الفضل على الاخوان فاما ان كان المقصود نفس المال وجمعه والتفاخر به ونحو ذلك فهو مذموم وليكن العقد الذي به الاكتساب جامعاً لأمور اربعة الصحة والعدل والاحسان والشفقة على الدين (الأمر الأول) في الصحة فان كان العقد بيعاً فله ثلاثة اركان : العاقد والمعقود عليه واللفظ . اما العاقد فينبغي للتاجر ان لا يعامل المجنون لانه غير مكلف فلا يصح بيعه ولا يعامل العبد ان لم يعلم انه مأذون له وكذلك الصبي لا يعامل الا ان يكون قد أذن له الأب او الوصي فيصير بمنزلة العبد المأذون له وعند الشافعي لا تصح عقود الصبي . ومعاملة الأعمى عندنا صحيحة يصح بيعه وشراؤه ؛ وعند الشافعي لا يصح واما الظلمة ومن اكثر ماله حرام فلا ينبغي ان يعامل الا في شئ يعرف ان عينه حلال (الركن

الثاني) المعقود عليه وهو المال المقصود نقله ولا يجوز بيع الكلب لأنه
نجس العين فاما البغل والحمار فيجوز بيعهما سواء قلنا إنهما طاهران او
نجسان ولا يجوز بيع الحشرات ولا بيع العود والمزمار والصور المصنوعة
من الطين ونحوه ولا يجوز بيع ما لا يقدر على تسليمه حساً ولا شرعاً اما
الحس فكالطير في الهواء والعبد الابق ونحوهما واما الشرع فكالمرهون
و بيع الأم دون الولد الصغير او الولد دون الأم فهذا ممنوع تسليمه شرعا
(الركن الثالث) اللفظ وهو الايجاب والقبول فان تقدم القبول للايجاب
لم يصح في احدى الروايتين و يصح في الأخرى سواء كان بلفظ الماضي
او بلفظ الطلب فان تبايعا بالمعاطاة فظاهر كلام احمد صحة البيع وقال القاضي
ابو يعلى لا يصح ذلك الا فى الأشياء اليسيرة وهذا اصلح الأقوال اعني
ان تكون المعاطاة في الاشياء المحقرة دون الأشياء النفيسة لجريان العادات
بذلك و ينبغي من طريق الورع ان لا يترك الايجاب والقبول ليخرج عن
شبة الخلاف وقد شدد الله تعالى في امر الربا فينبغي ان يحذر من الوقوع فيه
وهو قسمان ربا الفضل و ربا الشبة فينبغي ان يعرف ذلك وما يجري
فيه من الربا و يحتاج ايضا ان يعرف شروط السلم والاجارة والمضاربه
والشركة فان المكاسب لا تنفك عن هذه العقود المذكورة

فصـــل

في الأمر الثاني وهو العدل واجتناب الظلم في المعاملة ونعني بالظلم ما
يتضرر به الغير وهو ينقسم الى ما يعم ضرره وما يخص

(الاول الاحتكار) وهو منهي عنه لما فيه من غلاء السعر و تضييق
الأقوات على الناس وصفته ان يستكثر من ابتياع الغلات في الغلاء

ويتربص بها زيادة الاسعارفاما اذا دخلت له غلة من ضيعته فحبسها فليس محتكراً وكذلك اذا كان الشراء في حال الاتساع والرخص على صفة لا يضيق على الناس وفي الجملة تكره التجارة في القوت لأنه قوام الادمي .

(القسم الثاني) ما يخص ضرره نحو أن يثني على السلعة بما ليس فيها او يكتم بعض عيوبها فيضر بذلك المشتري وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « من غشنا فليس منا » واعلم ان الغش حرام في البيوع وفي الصناعات وقد سئل الامام احمد عن رفو الثوب حتى لا يبين فقال لايجوز لمن يبيعه ان يخفيه وينبغي للتاجر ان يحقق الوزن ولا يتخلص في هذا حتى يرجح اذا اعطى وينقص اذا اخذ ومتى خلط الدلاف الطعام تراباً ثم كاله فهو مطفف وكذلك القصاب اذا خلط عظماً لم تجر العادة بمثله وقد نهي عن النجش وهو ان يزيد في السلعة من لا يريد شراها ليغر المشتري ونهي عن التصرية

فصـــل

(الأمر الثالث) في الاحسان بالمعاملة وقد امر الله تعالى بالعدل والاحسان فمن الاحسان المسامحة في البيع وان لا يغبنه في الربح بما لا يتغابن به في العاده فاما اصل المغابنة فمأذون فيه لأن البيع للربح ولكن يراعى فيه التقريب فان بذل المشترى زيادة على الربح المعتاد لشدة رغبته وحاجته فينبغي ان يمتنع البائع من قبول ذلك فان ذلك من الاحسان .

ومن ذلك انه اذا اراد استيفاء الثمن او الدين فيحسن تارة بالمسامحة وتارة بحط البعض وتارة بالانظار وتارة بالتساهل في جودة النقد . ومن الاحسان

ان يقيل من يستقيله فانه لا يستقيل الا متضرر بالبيع والأحاديث تشهد بفضل هذه الأمور المذكورة وما لصاحبها من الأجر والثواب

فصـــل

(الأمر الرابع) شفقة التاجر على دينه فيما يخصه ويعم آخرته

لا ينبغي للتاجر ان يشغله معاشه عن معاده بل يراعي دينه وانما تتم شفقته على دينه بمراعاة ستة اشياء (الأول) حسن النية في التجارة فلينو بها الاستعفاف عن السؤال وكف الطمع عن الناس والقيام بكفاية العيال ليكون بذلك من جملة المجاهدين ولينو النصح للمسلمين. (الثاني) ان يقصد القيام في صناعته او تجارته بفرض من فروض الكفايات فان الصناعة والتجارة لو تركت بطل المعاش الا ان من الصناعة ما هو مهم ومنها ما يستغنى عنه لكونه متعلقاً بالزينة او طلب التنعم فليشتغل بصناعة مهمة ليكون في قيامه بها كافياً عن المسلمين مهماً وليجتنب صناعة الصياغة والنقش وتشييد البنيان بالجص وجميع ما يزخرف به فانه مكروه . ومن المعاصي خياطة الخياط القباء الديباج للرجل ويكره ان يكون جزاراً لأنه يوجب قساوة القلب او حجاما او كناسا لما فيه من مباشرة النجاسة وفي معناه الدباغ ولا يجوز اخذ الاجرة على تعليم القرآن والعبادات وفروض الكفايات . (الثالث) ان لا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الاخرة وسوق الاخرة المساجد فينبغي ان يجعل اول النهار الى وقت دخول السوق لآخرته فيواظب على الاوراد وقد كان صالحو السلف من التجار يجعلون اول النهار وآخره للآخرة ووسطه للتجارة واذا سمع اذان الظهر والعصر فينبغي ان يترك المعاش اشتغالا باداء الفرض (الرابع) ان يلازم ذكر الله تعالى في السوق

ويشتغل بالتسبيح والتهليل (الخامس) ان لا يكون شديد الحرص على السوق، والتجارة فلا يكون اول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها (السادس) ان لا يقتصر على اجتناب الحرام بل يتوقى مواقع الشبه ومواضع الريب ولا يقف مع الفتاوى بل يستفتي قلبه فيجتنب ما يحن في القلب

﴿ كتاب الحلال و الحرام ﴾

اعلم ان طلب الحلال فرض على كل مسلم و قد ادعى كثير من الجهال عدم الحلال و قالوا لم يبق منه الا الماء الفرات و الحشيش النبات و ما عدا ذلك فقد افسدته المعاملات الفاسدة فلما و قع لهم هذا و علموا انه لا بد لهم من الاقوات توسعوا في الشبهة والحرام وهذا من الجهل وقلة العلم فان في الصحيحين من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « الحلال بين والحرام بين و بينهما مشتبهات» ولما كانت هذه الدعوى من هؤلاء الجهال بدعة قد عم ضررها واستطار في الدين شررها وجب كشف الغطاء عن فسادها بالارشاد الى مدرك الفرق بين الحلال والحرام والشبهة ونحن نوضح ذلك في اقسام : الاول في فضيلة طلب الحلال وذم الحرام ودرجات الحلال والحرام (قال الله تعالى يا أيها الرسل آمنوا كلوا من الطيبات و اعملوا صالحاً) والطيبات الحلال فامر بذلك قبل العمل وقال في ذم الحرام(ولا تأكلوا اموالكم بينكم بالباطل) الى غير ذلك من الايات وعن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا ايها الناس ان الله طيب لا يقبل الا طيباً » و ذكر الحديث الى قوله (ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث اغبر يمد يديه الى السماء يارب يارب ومطعمه

حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فانى يستجاب لذلك » رواه مسلم وروي في ذلك غير حديث وروي ان سعداً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ان تستجاب، دعوته فقال (أطب طعمتك تستجب دعوتك) وقد كان السلف ينظرون في الحلال ويدققون فيه فأكل ابو بكر الصديق رضي الله عنه شيئاً من شبهة ثم قاءه

﴿ فصل في درجات الحلال والحرام ﴾

اعلم ان الحلال كله طيب ولكن بعضه اطيب من بعض والحرام كله خبيث ولكن بعضه اخبث من بعض كما ان الطبيب يحكم على كل حلو بالحرارة ولكنه يقول هذا حار بالدرجة الاولى وهذا في الدرجة الثانية وهذا في الثالثة وهذا في الرابعة مثال ذلك في الحرام المأخوذ بعقد فاسد حرام ولكنه ليس في درجة المغصوب على سبيل القهر بل المغصوب اغلظ اذ فيه ايذاء الغير وترك طريق الشرع في الاكتساب وليس في العقود الفاسدة الا ترك طريق التعبد فقط . كذلك المأخوذ ظلماً من فقير او صالح او يتيم اخبث واغلظ من المأخوذ من قوي او غني او فاسق

فصـــل

والورع له درجات اربع (الدرجة الاولى) وهي درجة العدول عن كل ما تقتضي الفتوى تحريمه وهذا لا يحتاج الى امثلة (الدرجة الثانية) الورع عن كل شبهة لا يجب اجتنابها لكن يستحب كما يأتي في قسم الشبهات ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم (دع ما يريبك الى ما لا يريبك) (الدرجة الثالثة) الورع عن بعض الحلال مخافة الوقوع في الحرام .

(الرابعة) الورع عن كل ما ليس لله تعالى وهو ورع الصديقين مثال ذلك ما روي عن يحي بن يحيي النيسابوري انه شرب دواء فقالت له امرأته لو مشيت في الدار قليلا حتى يعمل الدواء فقال هذه مشية لا اعرفها وانا احاسب نفسي منذ ثلاثين سنة فهذا رجل لم تحضره نية في هذه المشية تتعلق بالدين فلم يقدم عليها فهذا من دقائق الورع

والتحقيق فيه ان الورع له اول وغاية و بينهما درجات في الاحتياط فكلما كان الانسان اشد تشديداً كان اسرع جوازاً على الصراط واخف ظهراً وتتفاوت المنازل في الاخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات في الورع كما تتفاوت دركات النار في حق الظلمة بحسب درجات الحرام فان شئت فزد في الاحتياط وان شئت فترخص فلنفسك تحتاط وعليها تترخص .

(القسم الثاني) في مراتب الشبهات وتمييزها عن الحلال والحرام وحديث النعمان بن بشير نص في هذه الأقسام الثلاثة وهي الحلال والحرام وما بينهما والمشكل فيها هو المتوسط الذي لا يعرفه كثير من الناس وهو الشبهة ونحن نكشف الغطاء عنها فنقول الحلال المطلق الذي لا يتعلق بذاته صفة توجب تحريما لعينه ولا يتعلق بأسبابه ما يطرق اليه تحريما او كراهية مثال ذلك الماء الذي يأخذه الانسان من المطر قبل ان يقع على ملك احد والحرام المحض ما فيه صفة محرمة كالشدة في الخمر والنجاسة في البول او حصل بسبب منهي عنه كالمتحصل بالظلم والربا فهذان الطرفان ظاهران و يلتحق بهما ما تحقق امره ولكن يحتمل تغيره ولم يكن لذلك الاحتمال سبب ظاهر يدل عليه فان صيد البر والبحر حلال الا انه من صاد ظبية او سمكة فانه يحتمل ان يكون قد ملكها صياد ثم افلتت وهذا

الاحتمال لا يتطرق الى ماء المطر المختطف من الهواء فمساكنة ذلك الاحتمال في الصيد ورع الموسوسين لأنه وهم مجرد لا دلالة عليه فلو دل عليه دليل مثل ان يجد في الظبية جرحاً لا يقدر عليه إلا بعد الضبط كالكي و يحتمل ان يكون غيره فهذا موضع الورع ؛ وحد الشبهة ما تعارض فيه اعتقادان صدرا عن شيئين مقتضيين لاعتقادين. ومثالات الشبه كثيرة والمهم منها مثالان (الاول) الشك في السبب المحلل او المحرم وتنقسم الى اربعة انواع (الاول) ان لا يكون الحل معلوماً من قبل ثم يقع الشك في المحلل فهذه شبهة يجب اجتنابها و يحرم الاقدام عليها مثاله ان يرى صيداً فيجرحه فيقع في الماء فيصادفه ميتاً ولا يدري هل مات بالغرق او بالجرح فهذا حرام لأن الأصل التحريم (النوع الثاني) أن يعرف الحل و يشك في المحرم فيكون الأصل الحل والحكم له كما لو طار طائر فقال رجل ان كان هذا غراباً فامرأته طالق، وقال آخر إن لم يكن غراباً فامرأته طالق ثم التبس الأمر فانا لا نقضي بالتحريم في واحدة منهما ولكن الورع اجتنابهما وتطليقهما (النوع الثالث) ان يكون الأصل التحريم ولكن طرأ ما يوجب التحليل بظن غالب فهو مشكوك فيه والغالب حله مثاله ان يرمي الى صيد فيغيب عنه ثم يدركه ميتا وليس عليه اثر سوى سهمه فهذا الظاهر فيه الحل لأن الاحتمال إذا لم يستند الى دليل التحق بالوسوسة فاما ان ظهر عليه اثر صدمة او جراحة اخرى التحق بالنوع الأول (النوع الرابع) ان يكون الحل معلوماً ولكن يغلب على الظن طرآن المحرم بسبب معتبر في غلبة الظن شرعاً مثاله ان يؤدي اجتهاده الى نجاسة احد الاناءين بالاعتماد على علامة معينة توجب عليه الظن فتوجب تحريم شربه كما اوجب منع الوضوء به . (المثال الثاني) ان

يختلط الحرام بالحلال ويشتبه الأمر فيه وذلك على اضرب (احدها) اذا اختلطت ميتة بمذكاة او بعشرة من المذكيات ونحو ذلك من العدد المحصور ومثله ان تشتبه اخته باجنبية فهذه شبهة يجب اجتنابها (الثاني) ان يختلط حرام محصور بحلال غير محصور كما لو اشتبهت اخته او عشرة رضائع بنسوة بلد كبير فلا يلزم بهذا اجتناب نكاح اهل البلد بل له ان ينكح من شاء منهن لأن في تحريمهن حرجا كبيراً وكذلك من علم ان مال الدنيا خالطه حرام قطعاً لم يلزمه ترك الشرى والأكل لأن في ذلك حرجا وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه ان في الناس من يربي وما تركوا الدراهم بالكلية وان مجناً سرق في زمانه وما تركوا شرى مجن فاجتناب هذا من ورع الوسوسة . (الثالث) ان يختلط حرام لا يحصر بحلال لا يحصر كحكم الأموال في زماننا هذا فلا يحرم بهذا الاختلاط تناول شيء بعينه الا ان يقترن بتلك العين علامة تدل على انه من الحرام نحو ان يأخذه من يد سلطان ظالم فان لم يكن له علامة فتركه ورع ولا يحرم ذلك لأنه قد علم في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده ان اثمان الخمور ودراهم الربا وغلول الغنيمة اختلطت بالأموال وقد ادركت الصحابة نهب المدينة وتصرف الظلمة ولم يمنعوا من الشرى بالسوق ولولا صحة ذلك لانسد باب جميع التصرفات فان الفسق يغلب على الناس لكن الأصل في الأموال الحل واذا تعارض اصل وغالب ولا امارة على الغالب حكم بالأصل كما قلنا في طين الشوارع وأواني المشركين فقد توضأ عمر رضي الله عنه من جرة نصرانية مع ان مشربهم الخمر ومطعمهم الخنزير ولا يحترزون من نجاسة وكانت الصحابة تلبس الفرا المدبوغة والثياب

المصبوغة ومن تامل احوال الدباغين والصباغين علم غلبة النجاسة عليهم فيدل ذلك على انهم لم يكونوا يحترزون الا من نجاسة مشاهدة او يكون عليها علامة فاما الظن الذي يستثار من رداء الوهم الى مجاري الاحوال فلم يعتبروه فان قيل قد كانوا يتوسعون في امور الطهارة ويحترزون من شبهات الحرام فما الفرق ؟ قلنا ان اردت انهم كانوا يصلون مع النجاسة فباطل وان اردت انهم احترزوا من كل نجاسة يجب اجتنابها فصحيح واما تورعهم عن الشبه فكان بطريق كف النفس عما ليس به بأس مخافة ما به بأس والنفس تميل الى الأموال كيف كانت بخلاف الانجاس وقد كانوا يمتنعون مما يشغل قلوبهم من الحلال والله اعلم .

(القسم الثالث من الكتاب) في الحلال والحرام والبحث والسؤال والهجوم والاهمال ومظانهما اعلم انه لو قدم لك طعام او أهديت لك هديه او اردت ان تشتري شيئا من شخص فليس لك ان تقول هذا مما لا اتحقق حله فأريد ان أفتش عنه وليس لك ان تترك البحث مطلقا بل السؤال واجب مرة وحرام مرة ومندوب مرة ومكروه مرة . والقول الشافي فيه ان مظنة السؤال الريبة وهي تحصل إما من امر يتعلق بالمال او بصاحب المال اما ما يتعلق بصاحب المال فنحو ان يكون مجهولا وهو الذي ليس عليه قرينة تدل على ظلمه كزي الأجناد ولا على صلاحه كثياب اهل العلم والزهد فههنا لا يجب السؤال ولا يجوز لأن فيه هتك المسلم وايذاؤه ولا يقال لهذا انه مشكوك فيه لأن المشكوك فيه هو الذي تحصل فيه الريبة بدلالة مثل ان يكون على خلقة الأتراك واهل البوادي المعروفين بالظلم وقطع الطريق فهذا يجوز معاملته لأن اليد تدل على الملك وهذه الدلالات ضعاف إلا أن الترك من

الورع واما ما يتعلق بالمال فنحو ان يختلط الحرام بالحلال كما اذا طرح في السوق احمال من طعام مغصوب فاشتراها اهل السوق فانه لا يجب على من يشتري في تلك البلدة من السوق ان يسأل عما يشتريه إلا أن يظهر ان الاكثر ما في ايديهم حرام فعند ذلك يجب السؤال فان لم يكن الاكثر حراماً كان التفتش ورعاً غير واجب وكذلك نقول في رجل له مال حلال خالطه حرام مثل ان يكون تاجراً يعامل معاملات صحيحة ويربي فهذا ان كان الأكثر من ماله حراماً لم تجز قبول ضيافته ولا هديته إلا بعد التفتيش فان ظهر ان المأخوذ من وجه حلال جاز والا ترك وان كان الحرام أقل فالمأخوذ شبهة والورع تركه واعلم ان السؤال انما يقع لأجل الريبة فلا ينقطع إلا من حيث تنقطع الريبة المقتضية له بأن لا يكون المسؤول متهماً فان كان متهماً وعلمت ان له غرضاً في حضورك او قبول هديته فلا ثقة بقوله وينبغي ان يسأل غيره .

(القسم الرابع) في باب الحلال والحرام وكيفية خروج التائب عن المظالم المالية . إعلم ان من تاب وفي يده مال مختلط فعليه تمييز الحرام واخراجه فان كان معلوم العين فأمره سهل وان كان ملتبساً مختلطاً فان كان من ذات الأمثال كالحبوب والنقود والادهان وكان معلوم القدر ميز ذلك القدر فان اشكل فله طريقان احدهما الأخذ بغالب الظن والثاني الأخذ باليقين وهو الورع . فاذا اخرج المال الحرام فان كان له مالك معين وجب صرفه اليه او الى وارثه ؛ وان كان لذلك المال زيادة جمع ذلك كله وصرفه اليه وان يئس من معرفة المالك ولم يدر أمات عن وارث أم لا فليتصدق به وإن كان ذلك من مال الفيء والأموال المرصدة لمصالح المسلمين صرف

ذلك الى القناطر والمساجد ومصالح طريق مكة وما ينتفع به كل من يمر من المسلمين .

(مسألة) اذا كان في يده مال حلال وشبهة فليخص نفسه بالحلال وليقدم قوته وكسوته على اجرة الحمام والزيت واشجار التنور واصل هذا قوله صلى الله عليه وسلم في كسب الحجام « اعلفه ناضحك » ولو كان في يد ابويه حرام فليمتنع من موآكلتهما فان كان شبهة داراهما فان لم يقبلا تناول اليسير وقد روي ان أم بشر الحافي ناولته تمرة فأكلها ثم صعد الغرفة فقاءها

(القسم الخامس) في ادرار السلاطين وصلاتهم وما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة ونحو ذلك اعلم ان من اخذ مالا من السلطان فلا بد ان ينظر في مدخل ذلك الى السلطان من اين هو وفي صفته التي يستحق بها الأخذ وفي المقدار الذي يأخذه هل يستحقه وقد تورع جماعة عن ذلك وكان فيهم من يأخذه فيتصدق به واما في هذا الزمان فالاحتراز عنه أولى لأنه قد علم طريق الأخذ ثم لا ينال الا بالذل والسوءال والسكوت على الانكار وقد كان بعض السلف لا يأخذ ويعلل بأن باقي المستحقين لم يأخذوا وهذا ليس بشيء لأنه يأخذ حقه ويبقى اولئك في مقام مظلوم وليس المال مشتركا .

فصل

اعلم ان لك مع الامراء والعمال الظلمة ثلاثة احوال (الحالة الأولى) ان تدخل عليهم وهي شرها فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « من أتى ابواب السلاطين افتتن وما ازداد عبد من السلطان قرباً الا ازداد من الله بعداً » وقال حذيفة اياكم ومواقف الفتن فقيل وما مواقف

الفتن ؟ قال ابواب الأمراء يدخل احدكم على الأمير فيصدقه بالكذب
ويقول ما ليس فيه وقال بعض الأمراء لبعض الزهاد ألا تأتينا فقال اخاف
إن ادنيتني فتنتني وان اقصيتني حرمتني وليس في يدك ما اريد، ولا في يدي
ما اخافك عليه وانما آتاك من اتاك ليستغني بك عن من سواك وقد استغنيت
عنك بمن اغناك عني . فهذه الآثار تبين كراهية مخالطة السلاطين وايضاً فان
الداخل على السلطان معرض لأن يعصي الله عز وجل اما بفعله او قوله
او سكوته . اما الفعل : فان الدخول عليهم في غالب الأحوال يكون اما
الى اماكن مغصوبة ولو فرض انه في موضع غير مغصوب ففي الغالب
يكون ما تحته او ما يظله من خيمة او نحوها من ماله الحرام والانتفاع بذلك
حرام ولو فرض ذلك حلالا فربما يقع في غيره من المحذورات اما ان
يسجد له او يتمثل له قائماً ويخدمه ويتواضع له بسبب ولايته التي هي
آلة ظلمه والتواضع للظالم معصية بل من تواضع لغني لأجل غناه لا لمعنى
آخر يقتضي التواضع ذهب ثلثا دينه فكيف اذا تواضع للظالم وتقبيل اليد
له معصية الا ان يكون عند خوف او لامام عادل او عالم يستحق ذلك فأما
غير من ذكرنا فلا يباح في حقهم الا مجرد السلام . واما القول فهو ان يدعو
للظالم او يثني عليه او يصدقه فيما يقول من باطل بصريح قوله او تحريك
رأسه او باستبشار في وجهه او يظهر له الحب والموالاة والاشتياق الى
لقائه والحرص على طول بقائه فانه في الغالب لا يقتصر على السلام بل
يتكلم ولا يعدو كلامه هذه الأقسام وقد جاء في الأثر « من دعا لظالم بطول
البقاء فقد احب ان يعصي الله » ولا يجوز دعاءه له الا ان يقول اصلحك
او وفقك الله او نحو ذلك . واما السكوت فهو ان يرى في مجالسهم من

الفرش الحرير وأواني الفضة والملبوس المحرم على غلمانهم من الحرير ونحو ذلك فيسكت وكل من رأى شيئاً من ذلك وسكت فهو شريك فيه وكذلك اذا سمع في كلامهم ما هو فحش وكذب وشتم وايذاء فان السكوت عن ذلك كله حرام لأنه يجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فان قلت انه يخاف على نفسه فهو معذور في السكوت قلنا صدقت الا انه مستغن عن ان يعرض نفسه لارتكاب ما لا يباح الا بعذر لأنه لو لم يدخل ويشاهد لم يجب عليه الأمر والنهي وكل من علم بفساد في مكان وعلم انه اذا حضر لم يقدر على ازالته لم يجز له ان يحضر

فصـــل

فان سلم مما ذكرنا كله وهيهات . لم يسلم من فساد يتطرق الى قلبه لما يرى من توسعهم فى التنعم فيزدري نعمة الله عليه ثم يقتدي به غيره في الدخول ويكون مكثراً لسواد الظلمة وروي ان سعيد بن المسيب دعي الى البيعة الوليد وسليمان ابني عبد الملك فقال : لا ابايع اثنين ما اختلف الليل والنهار فقالوا ادخل من هذا الباب واخرج من الاخر قال لا والله لا يقتدي بي احد من الناس فجلد مائة والبس المسوح .

فعلى ما بينا لا يجوز الدخول على الامراء الظلمة الا بعذرين : احدهما إلزام من جهتهم يخاف من الخلاف فيه الأذى ؛ والثاني ان يدخل ليرفع ظلماً عن مسلم فيجوز بشرط ان لا يكذب ولا يثني ولا يدع نصيحة يتوقع لها قبولا فهذا حكم الدخول (الحال الثاني) ان يدخل عليه السلطان زائراً فجواب السلام لا بد منه واما القيام والاكرام فلا يحرم مقابلة له على اكرامه فانه باكرام العلم والدين مستحق للحمد كما انه بالظلم مستحق للذم فان

دخل عليه وحده وقد راى ان لا يقوم اعزازاً للدين فهو اولى وان كان دخوله عليه في جمع فمراعاة حشمة ارباب الولايات فيما بين الرعايا اولى وامثل ولا بأس بالقيام على هذه النية وان علم ان ذلك لا يورث فساداً في الرعية ولا يناله اذى من غضبه فترك الاكرام بالقيام اولى ثم يجب عليه ان ينصحه و يعرفه تحريم ما يفعله مما لا يدري انه محرم فاما اعلامه بتحريم الظلم وشرب الخمر فلا فائدة فيه بل عليه ان يخوفه من ركوب المعاصي مهما ظن ان التخويف يؤثر في قلبه وعليه ان يرشده الى المصالح ومتى عرف طريقاً للشرع يحصل به غرض الظالم عرفه اياه (الحال الثالث) ان يعتزل عنهم فلا يراهم ولا يرونه والسلامة في ذلك ثم ينبغي ان يعتقد بغضهم على ظلمهم فلا يحب بقاءهم ولا يثني عليهم ولا يستخبر عن احوالهم ولا يتقرب الى المتصلين بهم ولا يتأسف على ما يفوته بسبب مفارقتهم كما قال بعضهم انما بيني و بين الملوك يوم واحد اما يوم مضى فلا يجدون لذته وانا واياهم في غد على وجل وانما هو اليوم فما عسى ان يكون اليوم .

مسألة — اذا بعث اليك سلطان مالا لتفرقه على الفقراء و كان له مالك معين لم يحل أخذه وان لم يكن له كان حكمه ان يتصدق به كما سبق بيانه و يتولى تفرقته على الفقراء . ومن العلماء من امتنع من اخذه واذا كان اكثر اموالهم الحرام حرمت معاملتهم وما بنته الظلمة من القناطر والمساجد والسقايات ينبغي ان ينظر فيه فان كانت تلك الاعيان التي بنيت بها لمالك معين لم يجز العبور عليها الا للضرورة وان لم يعرف مالكها جاز العبور عليها والورع الامتناع والله اعلم .

﴿ كتاب آداب الصحبة والأُخوة ومعاشرة الخلق ونحو ذلك ﴾

اعلم ان الالفة ثمرة حسن الخلق والتفرق ثمرة سوء الخلق لأن حسن الخلق يوجب التحابب والتوافق وسوء الخلق يثمر التباغض والتدابر ولا يخفي ما في حسن الخلق من الفضل. والاحاديث دالة على ذلك فقد روي من حديث ابي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « ما من شيء اثقل في ميزان المؤمن يوم القيمة من خلق حسن » رواه الترمذي وصححه. وفي حديث آخر « ان احبكم إليَّ واقربكم مني مجلساً يوم القيامة احاسنكم اخلاقاً وان ابغضكم الي وابعدكم مني مجلسا يوم القيامة مساويكم اخلاقا » وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن اكثر ما يدخل الناس الجنة فقال « تقوى الله وحسن الخلق » واما المحبة في الله تعالى ففي الصحيحين من حديث ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله » فذكر منهم « ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه » وفي حديث آخر يقول الله عز وجل « حقت محبتي للمتحابين فيَّ وحقت محبتي للمتباذلين في وحقت محبتي المتزاورين في » وفي حديث آخر « اوثق عرى الايمان ان تحب في الله وتبغض في الله » والأحاديث في ذلك كثيرة واعلم ان من يحب في الله يبغض في الله فانك اذا احببت انساناً لكونه مطيعا لله فاذا عصى الله ابغضته في الله لان من احب لسبب ابغض لوجود ضده ومن اجتمعت فيه خصال محمودة ومكروهة فانك تحبه من وجه وتبغضه من وجه. فينبغي ان تحب المسلم لاسلامه وتبغضه لمعصيته فتكون معه على حالة متوسطة بين الانقباض والاسترسال فأما ما يجري منه مجرى الهفوة التي يعلم انه نادم عليها فالأولى

حينئذ الاغماض والستر فاذا اصر على المعصية فلا بد من اظهار اثر البغض بالاعراض عنه والتباعد وتغليظ القول له على حسب غلظ المعصية وخفتها.

واعلم ان المخالف لأمر الله تعالى على اقسام (احدها) ان يكون كافراً فان كان حربياً فهو مستحق للقتل والارقاق وليس بعد هذين اهانة وان كان ذمياً فلا يجوز ايذاؤه الا بالاعراض عنه والتحقير له بالاضطرار له الى اضيق المكان وترك البداءة بالسلام فان سلم قيل له وعليك. والأولى الكف عن مخالطته ومعاملته. ومؤاكلته ومن المكروه الاسترسال اليه اليه والانبساط كما يفعل بالاصدقاء.

(القسم الثاني) المبتدع فان كان ممن يدعو الى بدعة وكانت البدعة بحيث يكفر بها فأمره اشد من الذمي لأنه لا يقر بجزية ولا يسامح بعقد ذمة؛ وان كان ممن لا يكفر بها فامره بينه وبين الله تعالى اخف من امر الكافر لا محالة ولكن الأمر في الانكار عليه اشد منه على الكافر لأن شر الكافر غير متعد لأنه لا يلتفت الى قوله بخلاف المبتدع الذي يدعو الى بدعته لأنه يزعم ان ما يدعو اليه حق فيكون سبباً لغواية الخلق فشره متعد فاظهار بغضه والانقطاع عنه ومعاداته وتحقيره والتشنيع عليه ببدعته وتنفير الناس عنه اشد. فاما المبتدع العامي الذي لا يقدر ان يدعو ولا يخاف الاقتداء به فأمره اهون والأولى ان يتلطف به في النصح فان قلوب العوام سريعة التقلب فان لم ينفع النصح وكان الاعراض عنه تقبيح لبدعته في عينه تأكد استحباب الاعراض عنه وان علم ان ذلك لا يؤثر لجمود طبعه ورسوخ اعتقاده في قلبه فالاعراض اولى لأن البدعة اذا لم

يبالغ في تقبيحها شاعت بين الخلق وعم فسادها

(القسم الثالث) العاصي بفعله لا باعتقاده فان كانت بحيث يتأذى بها غيره كالظلم والغصب وشهادة الزور والغيبة والنميمة ونحو ذلك فالأولى الاعراض عنه وترك مخالطته والانقباض عن معاملته وكذلك الحكم فيمن يدعو الى الفساد كالذي يجمع بين الرجال والنساء ويهيئ اسباب الشرب لأهل الفساد فهذا ينبغي اهانته ومقاطعته والاعراض عنه . فاما الذي يفسق في نفسه بشرب خمر او زنا او سرقة او ترك واجب فالأمر فيه اخف ولكنه في وقت مباشرته ان صودف وجب منعه بما يمتنع به فان كان النصح يرده وكان انفع له نصح والا اغلظ له

﴿ فصل في بيان الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته ﴾

روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « المرء على دين خليله فلينظر احدكم لمن يخالل » واعلم انه لا يصلح للصحبة كل احد ولا بد من ان يتميز المصحوب بصفات وخصال يرغب بسببها في صحبته وتشترط تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة من الصحبة وهى اما دنيوية كالانتفاع بالمال والجاه او بمجرد الاستئناس بالمشاهدة والمحاورة وليس ذلك غرضنا واما دينية وتجتمع فيها اغراض مختلفة منها الاستفادة في العلم والعمل ومنها الاستفادة من الجاه تحصيناً عن ايذاء من يكدر القلب ويصد عن العبادة ومنها استفادة المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات في طلب القوت ومنها الاستعانة في المهمات فتكون عدة في المصائب وقوة في الأحوال ومنها انتظار الشفاعة في الاخرة كما قال بعض السلف استكثروا من الاخوان

فان لكل موءمن شفاعة فهذه فوائد تستدعي كل فائدة شروطاً لا تحصل الا بها.

وفي الجملة فينبغي ان يكون فيمن توءثر صحبته خمس خصال: ان يكون عاقلا حسن الخلق غير فاسق ولا مبتدع ولا حريص على الدنيا (اما العقل) فهو رأس المال ولا خير في صحبة الأحمق لأنه يريد ان ينفعك فيضرك ونعني بالعاقل الذي يفهم الأمور على ما هي عليه اما بنفسه واما ان يكون بحيث اذا فهّم فهم (واما حسن الخلق) فلا بد منه اذ رُبَّ عاقل يغلبه غضب او شهوة فيطيع هواه فلا خير في صحبته (واما الفاسق) فانه لا يخاف الله ومن لا يخاف الله تعالى لا تؤمن غائلته ولا يوثق به (واما المبتدع) فيخاف من صحبته بسراية بدعته قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه عليك باخوان الصدق تعيش في اكنافهم فانهم زينة في الرخاء وعدة في البلاء وضع امر أخيك على احسنه حتى يجيئك ما يقليك منه واعتزل عدوك واحذر صديقك إلا الأمين ولا أمين إلا من يخشى الله ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سرك واستشر في امرك الذين يخشون الله تعالى قال يحيى بن معاذ بئس الصديق صديق تحتاج ان تقول له اذكرني في دعائك وان تعيش معه بالمداراة او تحتاج ان تعتذر اليه. ودخل جماعة على الحسن وهو نائم فجعل بعضهم يأكل من فاكهة في البيت فقال رحمك الله هذا والله فعل الاخوان. وقال ابو جعفر لأصحابه أيدخل احدكم يده فى كم اخيه فيأخذ منه ما يريد؟ قالوا لا قال فلستم باخوان كما تزعمون. ويروى ان فتحاً الموصلي جاء الى صديق له يقال له عيسى التمار فلم يجده في المنزل فقال للخادمة اخرجي لي كيس اخي فأخرجته

فأخذ منه درهمين وجاء عيسى الى منزله فأخبرته الجارية بذلك فقال ان كنت صادقة فأنت حرة فنظر فاذا هي قد صدقت فعتقت .

﴿ فصل في بيان ما على الانسان لأخيه من الحقوق ﴾

(الحق الأول) قضاء الحاجات والقيام بها وذلك درجات ادناها القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة لكن مع البشاشة والاستبشار واوسطها القيام بالحاجة من غير سؤال واعلاها تقديم حوائجه على حوائج النفس وقد كان بعض السلف يتفقد عيال اخيه بعد موته اربعين سنة فيقضي حوائجهم .

(الحق الثاني) على اللسان بالسكوت تارة و بالنطق اخرى اما السكوت فهو ان يسكت من ذكر عيوبه في حضوره وغيبته وعن الرد عليه ومماراته ومناقشته وعن السؤال عما يكره ظهوره من احواله ولا يسأله اذا لقيه الى اين فربما لا يريد اعلامه بذلك وان يكتم سره ولو بعد القطيعة ولا يقدح في احبابه واهله ولا يبلغه قدح غيره فيه و ينبغي ان يسكت عن كل ما يكرهه الا اذا وجب عليه النطق في امر بمعروف او نهي عن منكر ولم يجد رخصة في السكوت فان مواجهته بذلك احسان اليه في المعنى واعلم انك ان طلبت منزهاً عن كل عيب لم تجد ومن غلبت محاسنه على مساويه فهو الغاية . قال ابن المبارك . المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب الزلات وقال الفضيل الفتوة الصفح عن زلات الاخوان و ينبغي ان تترك اساءة الظن بأخيك وان تحمل فعله على الحسن مهما امكن وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « اياكم والظن فان الظن اكذب الحديث » واعلم ان سوء

الظن يدعو الى التجسس المنهي عنه وان ستر العيوب والتغافل عنها سيمة اهل الدين. واعلم انه لا يكمل ايمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه واقل درجات الاخوة ان يعامل اخاه بما يحب ان يعامله به ولا شك انك تنتظر من اخيك ان يستر عورتك وان يسكت عن مساويك فلو ظهر لك منه ضد ذلك اشتد عليك فكيف تنتظر منه ما لا تعزم عليه له؟ ومتى التمست من الانصاف ما لا تسمح به دخلت في قول الله تعالى (الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون) ومنشأ التقصير في ستر العورة والمغري بكشفها الحقد والحسد. واعلم ان من اشد الأسباب لاثارة الحقد والحسد بين الاخوان المماراة ولا يبعث عليها الا اظهار التميز بزيادة الفضل والعقل واحتقار المردود عليه ومن مارى اخاه فقد نسبه الى الجهل والحمق او الى الغفلة والسهو عن فهم الشئ على ما هو عليه وكل ذلك استحقار وهو يوغر الصدر ويوجب المعاداة وهو ضد الأخوة.

(الحق الرابع) على اللسان بالنطق فان الأخوة كما تقتضي السكوت عن المكروه تقتضي النطق بالمحبوب بل هو اخص بالاخوة لأن من قنع بالسكوت صحب اهل القبور وانما تراد الاخوان ليستفاد منهم لا ليتخلص منهم لأن السكوت معناه كف الأذى فعليه ان يتودد اليه بلسانه ويتفقده في احواله ويسأل عما عرض له ويظهر شغل قلبه بسببه ويبدي السرور بما يسر به وفي الصحيح من رواية الترمذي (اذا احب احدكم اخاه فليعلمه) ومن ذلك ان يدعوه بأحب اسمائه اليه قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثلاث يصفين لك ود اخيك: تسلم عليه اذا لقيته؛ وتوسع له في المجلس

وتدعوه بأحب اسمائه اليه. ومن ذلك ان يثني عليه بما يعرفه من محاسن
احواله عند من يؤثر هو الثنا عنده وكذلك الثناء على اولاده واهله وافعاله
حتى في خلقه وعقله وهيأته وخطه وتصنيفه وجميع ما يفرح به من غير
افراط ولا كذب وكذلك ينبغي ان تبلغه ثناء من اثنى عليه مع اظهار الفرح
به فان اخفاء ذلك محض الحسد ومن ذلك ان تشكره على صنيعه في حقك
وان تذب عنه في غيبته اذا قصد بسوء فحق الأخوة التشمير في الحماية
والنصرة وفي الحديث الصحيح «المسلم اخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»
ومتى اهمل الذب عن عرضه يكون قد اسلمه ولك في ذلك معياران:
احدهما ان تقدر ان الذي قيل فيه قد قيل فيك وهو حاضر فتقول ما تحب
ان يقوله؛ الثاني ان تقدر انه حاضر وراء جدار يتسمع عليك فما تحرك في
قلبك من نصرته في حضوره ينبغي ان يتحرك في غيبته ومن لم يكن
مخلصاً في اخائه فهو منافق ومن ذلك التعليم والنصيحة فليس حاجة اخيك
الى العلم باقل من حاجته الى المال واذا كنت غنياً بالعلم فواسه وارشده
وينبغي ان يكون نصحك اياه سراً والفرق بين التوبيخ والنصيحة
الاعلان والاسرار كما ان الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث
على الاغضاء فان اغضيت لسلامة دينك ولما ترى فيه من اصلاح اخيك
بالاغضاء فانت مدار وان اغضيت لحظ نفسك واجتلاب شهواتك
وسلامة جاهك فانت مداهن ومن ذلك العفو عن الزلات فان كانت
زلته في دينه فتلطف في نصحه مهما امكن ولا تترك زجره ووعظه
فان ابى فالمصارمة

(الحق الخامس) الدعاء للأخ في حياته وبعد موته بكل ما تدعو

به لنفسك و في افراد مسلم من حديث ابي الدرداء ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة عند رأسه ملك موكل كلما دعى لاخيه بخير قال الملك الموكل به آمين ولك بمثل » وكان ابو الدرداء رضي الله عنه يدعو لخلق كثير من اخوانه يسميهم باسمائهم وكان احمد بن حنبل رحمه الله يدعو في السحر لستة نفر

واما الدعاء بعد الموت فقال عمرو بن حريث اذا دعا العبد لاخيه الميت اتى بها ملك قبره فقال يا صاحب القبر الغريب هذه هدية من اخ عليك شفيق

(الحق السادس) الوفاء والاخلاص ومعنى الوفاء الثبات على الحب الى الموت و بعد موت الاخ مع أولاده واصدقائه وقد اكرم النبي صلى الله عليه وسلم عجوزاً وقال « انها كانت تغشانا في ايام خديجة وان حسن العهد من الايمان » ومن الوفاء ان لا يتغير على اخيه في التواضع وان ارتفع شأنه واتسعت ولايته وعظم جاهه

(واعلم) انه ليس من الوفاء موافقة الاخ فيما يخالف الدين فقدكان الشافعي رحمه الله آخى محمد بن عبد الحكم و كان يقربه و يقبل عليه فلما احتضر قيل له الى من نجلس بعدك يا ابا عبد الله فاستشرف له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليومئ اليه فقال الى ابي يعقوب البويطي فانكسر لها محمد مع ان محمدا كان قد حمل عنه مذهبه لكن البويطي كان اقرب الى الزهد والورع فنصح الشافعي رحمه الله المسلمين وترك المداهنة فانقلب ابن عبد الحكم عن مذهبه وصار من اصحاب مالك ومن الوفاء ان لا يسمع بلاغات الناس على صديقه ولا يصادق عدو صديقه

(الحق السابع) التخفيف وترك التكليف وذلك بان لا يكلف اخاه ما يشق عليه بل يروح سره عن مهماته وحاجاته ولا يستمد من جاهه ولا ماله ولا يكلفه التفقد لاحواله والقيام بحقوقه والتواضع له بل يكون قصده بمحبته الله وحده والتبرك بدعائه والأستئناس بلقائه والاستعانة على دينه والتقرب الى الله تعالى بالقيام بحقوقه وتمام التخفيف طي بساط الاحتشام حتى لا يستحيي منه فيما لا يستحيي فيه من نفسه قال جعفر بن محمد اثقل اخواني علي من يتكلف لي واتحفظ منه واخفهم على قلبي من اكون معه كما اكون وحدي . وقال بعض الحكماء من سقطت كلفته دامت الفته ومن تمام هذا الامر ان ترى الفضل لأخوانك عليك لا لنفسك عليهم فتنزل نفسك معهم منزلة الخادم

فصل

ولنذكر في آخر هذا الباب جملة من آداب المعاشرة للخلق فمن حسن المعاشرة ان تتوقر من غير كبر وتتواضع في غير ذلة وان تلقى الصديق والعدو بوجه الرضا من غير ذل لهم ولا خوف منهم وتتحفظ في مجالسك من من تشبيك اصابعك وادخال اصبعك في انفك و كثرة بصاقك والتثاؤب واصغ الى من حدثك ولا تسأله الاعادة ولا تحدث باعجابك بولدك وجاريتك ولا تتصنع بصنع المرأة في التزين ولا تتبذل تبذل العبد وخوف اهلك في غير عنف ولن لهم من غير ضعف ولا تهازل امتك وعبدك فيسقط وقارك ولا تكثر الالتفات الى ورائك ولا تجالس السلطان فان فعلت ذلك فاحذر الذنوب والغيبة وصن سره واحذر المداعبة عنده واحذر من الجشأ بحضرته والتخلل وان قربك فكن منه على حذر

وان استرسل اليك فلا تامن انقلابه عليك وارفق به رفقك بالصبي وكلمه بما يشتهيه ولا تدخل بيته و بين اهله وحشمه واياك وصديق العافية ولا تجعل مالك اكرم من عرضك واذا دخلت مجلساً فاجلس فيما هو اقرب للتواضع ولا تجلس على الطريق فان جلست فغض البصر وانصر المظلوم وارشد الضال ولا تبصق في جهة القبلة ولا عن يمينك لكن عن يسارك تحت قدمك اليسرى واحذر مجالسة العوام فان فعلت فعليك بالتغافل عما يجري من سوء اخلاقهم وترك الخوض في حديثهم واحذر كثرة المزاح فان اللبيب يحتمد عليك في المزاح والسفيه يجترىء عليك

﴿ باب في حقوق المسلم والرحم والجوار والملك ونحو ذلك ﴾

فمن حقوق المسلم ان تسلم عليه اذا لقيته وتجيبه اذا دعاك وتشمته اذا عطس وتعوده اذا مرض وتشهد جنازته اذا مات وتبر قسمه وتنصح له اذا استنصحك وتحفظه بظهر الغيب اذا غاب وتحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك وجميع هذا منقول في الآثار .

ومنها ان لا تؤذي احداً من المسلمين بقول ولا فعل وان تتواضع للمسلمين فلا تتكبر عليهم ولا تسمع بلاغات الناس بعضهم في بعض ولا تبلغ بعضهم ما تسمع من بعض ؛ ومنها ان لا تزيد في الهجرة على ثلاثة ايام لمن تعرفه للحديث المشهور في ذلك و في حديث آخر عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (لا يحل لمؤمن ان يهجر مؤمناً فوق ثلاثة ايام) فاذا مرت به ثلاثة ايام فليلقه فليسلم عليه فان رد عليه السلام فقد اشتركا في الأجر وان لم يرد عليه فقد برىء المسلم من الهجرة. واعلم ان هذه

الهجرة انما هي فيما يتعلق بالدنيا اما حق الدين فان هجران اهل البدع والأهواء والمعاصي ينبغي ان تدوم ما لم تظهر منهم التوبة والرجوع الى الحق

ومنها ان يحسن الى كل من يقدر ان يحسن اليه من المسلمين ما استطاع وان لا يدخل على احد منهم إلا بأذنه و يستأذن ثلاثاً فان لم يأذن انصرف

ومنها ان يخالق الناس بخلق حسن وذلك ان يعامل كلا على حسب طريقته فانه متي لقي الجاهل بالعلم واللاهي بالفقه والغبي بالبيان آذى وتأذى .

ومنها ان يوقر المشايخ و يرحم الصبيان وان يكون مع الخلق كافة طلق الوجه رقيقاً وان يفي لهم بالوعد و ينصف الناس من نفسه ولا يأتي اليهم إلا ما يحب ان يوءتى اليه . قال الحسن اوحى الله الى آدم عليه السلام اربع كلمات وقال فيهن جماع الأمر لك ولولدك : واحدة لي ؛ و واحدة لك و واحدة بيني و بينك ، و واحدة بينك و بين الخلق . فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً ، واما التي لك فعملك اجزيك به أفقر ما تكون اليه ، واما التي بيني و بينك فعليك الدعاء وعلي الاجابة ، واما التي بينك و بين الناس فتصحبهم بالذي تحب ان يصحبوك به

ومنها زيادة توقير ذوي الهيئات ؛ ومنها اصلاح ذات البين وستر عورات المسلمين واعلم انه من تأمل ستر الله تعالى على العصاة في الدنيا اقتدى بلطفه فانه جعل الشهادة في الزنا ان يشهد اربعة من العدول انهم شاهدوا ذلك كالميل في المكحلة وهذا لا يتفق . ومن هذا اثر كرمه في الدنيا يرجى منه ذلك في الاخرة

ومنها ان يتقي مواضع التهم صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن به وألسنتهم عن غيبته

ومنها ان يشفع لكل من له حاجة من المسلمين الى من له عنده منزلة ويسعى في قضاء حوائجهم

ومنها ان يبدأ بالسلام على كل مسلم قبل ان يكلمه ومن السنة المصافحة فقد روي عن انس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « ما من مسلمين التقيا فأخذ احدهما بيد صاحبه إلا كان حقاً على الله عز وجل ان يحضر دعاءهما وأن لا يفرق بين ايديهما حتى يغفر لهما » وفي حديث آخر اذا صافح المؤمن المؤمن نزلت عليهما مائة رحمة تسعة وتسعين لأبشهما واحسنهما خلقا » ولا بأس بتقبيل يد المعظم في الدين تبركا به ولا بأس بالمعانقة واما الأخذ بالركاب لتوقير العلماء فقد فعل ذلك ابن عباس بزيد بن ثابت رضي الله عنهما والقيام على سبيل الاكرام لأهل الفضل حسن واما الانحناء فمنهي عنه

ومنها ان يصون عرض اخيه المسلم ونفسه وماله عن ظلم الغير ويناضل دونه وينصره ، ومنها انه اذا بلي بذي شر فينبغي ان يجامله ويتقيه لحديث عائشة رضي الله عنها وقال محمد بن الحنفية ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بداً حتى يجعل الله عز وجل له فرجاً .

ومنها ان يجتنب مخالطة الأغنياء ويختلط بالمساكين ويحسن الى الأيتام .

ومنها عيادة مرضاهم ومن آداب العائد ان يضع يده على المريض

ويسأله كيف هو ويخفف الجلوس ويظهر الرقة ويدعو له بالعافية ويغض البصر عن عورات المكان

ويستحب للمريض ان يفعل ما اخرجه مسلم في افراده من حديث عثمان بن ابي العاص رضي الله عنه انه شكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعاً يجده في جسده منذ أسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل بسم الله ثلاثاً وقل سبع مرات أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما اجد وأحاذر» وجملة آداب المرض حسن الصبر وقلة الشكوى والتضجر والفزع الى الدعاء والتوكل على الله سبحانه

ومنها ان يشيع جنائزهم ويزور قبورهم والمقصود من التشييع قضاء حق المسلمين والاعتبار قال الأعمش كنا نحضر الجنائز فلا ندري من نعزي لحزن القوم كلهم والمقصود من زيارة القبور الدعاء والاعتبار وترقيق القلب

ومن آداب تشييع الجنائز المشي ولزوم الخشوع وترك الحديث وملاحظة الميت والتفكر في الموت والاستعداد له

واما حقوق الجار فاعلم ان الجوار يقتضي حقاً وراء ما تقتضيه اخوة الاسلام فيستحق ما يستحقه كل مسلم وزيادة وجاء في الحديث «ان الجيران ثلاثة : جار له حق واحد . وجار له حقان . وجار له ثلاثة حقوق» فالجار الذي له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذو الرحم فله حق الجوار وحق الاسلام وحق الرحم . واما الذي له حقان فالجار المسلم له حق الاسلام وحق الجوار . واما الذي له حق واحد فالجار المشرك . واعلم انه ليس حق

الجوار كف الأذى فقط بل احتمال الأذى والرفق وابتداء الخير وان يبدأ جاره بالسلام ولا يطيل معه الكلام و يعوده في المرض و يعزيه في المصيبة و يهنئه في الفرح و يصفح عن زلاته ولا يطلع الى داره ولا يضايقه في وضع الخشب على جداره ولا في صب الماء في ميزابه ولا في طرح التراب في فنائه ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره و يستر ما ينكشف له من عورته ولا يتسمع عليه كلامه و يغض طرفه عن حرمه ويلاحظ حوائج أهله إذا غاب

فصل

واما حقوق الأقارب والرحم ففي الحديث الصحيح من رواية عائشة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله » وفي حديث آخر من افراد البخاري « ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي اذا قطعت رحمه وصلها » وفي حديث آخر من افراد مسلم ان رجلا قال : يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني وأحسن اليهم و يسيؤن إليّ وأحلم عنهم و يجهلون علي قال « لئن كنت كما تقول فكأنما تسفهم الملّ ولا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك » والمعنى انك منصور عليهم وقد انقطع احتجاجهم عليه بحق القرابة كما ينقطع كلام من سُف الملّ وهي الرماد الحار والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة في صلة الرحم وفي حقوق الوالدين وفي تأكد حق الأم

واما حقوق الولد فاعلم انه لما كانت الطباع تميل الى الولد لم يحتج إلى تأكيد الوصية به الا انه قد يغلب هوى الوالد للولد فيترك تعليمه وتأديبه وقد قال الله تعالى (قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) قال المفسرون معناه علموهم

وادبوهم و ينبغي للوالد أن يحسن اسم ابنه و يعق عنه (١) فاذا بلغ سبع سنين امره بالصلاة وختنه فاذا بلغ زوجه

واما حقوق المملوك فأن يطعمه و يكسوه ولا يكلفه ما لا يطيق ولا ينظر اليه بعين الازدراء وان يعفو عن زلله وليتذكر عند الله زلل نفسه فيعفو رجاء ان يعفو الله تعالى عنه

﴿ باب العزلة ﴾

اختلف الناس في العزلة والمخالطة ايتهما افضل مع ان كل واحدة منهما لا تنفك عن فوائد وغوائل واكثر الزهاد اختاروا العزلة وممن ذهب الى اختيار العزلة سفيان الثوري وابراهيم بن ادهم وداود الطائي والفضيل وبشر الحافي وآخرون .

ومن ذهب الى استحباب المخالطة سعيد بن المسيب وشريح والشعبي وابن المبارك وآخرون ولكل طائفة فيما ذهبت اليه حجج ونحن نشير الى ذلك اما حجة الأولين فقد روي في الصحيحين من حديث ابي سعيد قال قيل : يا رسول الله أي الناس خير ؟ قال « رجل يجاهد بنفسه وماله . ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه و يدع الناس من شره » وفي حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال قلت : يا رسول الله ما النجاة ؟ قال (املك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك علي خطيئتك) وقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه خذوا بحظكم من العزلة . وقال سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه : لوددت ان بيني و بين الناس باباً من حديد لا يكلمني احد

---

(١) عق عن ولده اذا ذبح عنه يوم اسبوعه

ولا اكلمه حتى القى الله سبحانه ؛ وقال ابن مسعود رضي الله عنه : كونوا ينابيع العلم مصابيح الليل احلاس البيوت (١) جدد القلوب (٢) خلقان (٣) الثياب تعرفون في اهل السماء وتخفون على اهل الأرض. وقال ابو الدرداء رضي الله عنه : نعم صومعة المرء المسلم بيته يكف لسانه وفرجه وبصره واياكم ومجالس السوق فانها تلهي وتلغي. وقال داود الطائي فر من الناس كما تفر من الاسد. وقال ابو مهلهل اخذ بيدي سفيان الثوري واخرجني الى الجبانه فاعتزلنا ناحية فبكى ثم قال يا مهلهل ان استطعت ان لا تخالط في زمانك احداً فافعل وليكن همك مرمة(٤) جهازك

واما حجة من اختار المخالطة فمن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم « المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على اذاهم خير من الذي لايخالطهم ولا يصبر على أذاهم » واحتجوا باشياء غير ذلك ضعيفة لا تقوم بها حجة على ذلك منها قوله تعالى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا) وهذا ضعيف لأن المراد تفرق الاراء والمذاهب في اصل الشريعة واحتجوا ايضاً بقوله صلى الله عليه وسلم « لا هجرة فوق ثلاث » قالوا والعزلة هجر بالكلية وهذا ضعيف لأن المراد به قطع الكلام والسلام والمخالطة المعتادة

﴿ فصل في ذكر فوائد العزلة وغوائلها وكشف الحق في فضلها ﴾

اعلم ان اختلاف الناس في هذا ايضاً هي اختلافهم في فضيلة النكاح والعزوبة وقد ذكرنا ان ذلك يختلف باختلاف الأحوال

---

(٢) الاحلاس جمع حلس وهو الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القتب يلازمه ولا يفارقه وكونوا احلاس بيوتكم اي الزموها (٢) جدد القلوب كناية عن عدم الفترة في العبادة (٣) خلق الثوب بلي وبابه سهل (٤) الرّم اصلاح ما فسد ولمّ ما تفرق

والاشخاص فكذلك نقول فيما نحن فيه فلنذكر اولا فوائد العزلة وهي ست

(الأولى) الفراغ للعباده والاستئناس بمناجاة الله سبحانه فان ذلك يستدعي فراغاً ولا فراغ مع المخالطة فالعزلة وسيلة الى ذلك خصوصاً في البداية . قيل لبعض الحكماء الى اي شيء افضى بهم الزهد والخلوة ؟ فقال الى الأنس بالله . وقال اويس رضي الله عنه ما كنت ارى ان احداً يعرف ربه فيأنس بغيره . واعلم ان من تيسر له بدوام الذكر الأنس بالله او بدوام الفكر تحقيق معرفة الله فالتجرد لذلك افضل من كل ما يتعلق بالمخالطة

الفائدة الثانية — التخلص بالعزلة عن المعاصي التى يتعرض لها الانسان غالباً بالمخالطة وهي اربعة احدها (احدها) الغيبة فان عادة الناس التمضمض بالأعراض والتفكه بها فان خالطتهم ووافقتهم اثمت وتعرضت لسخط الله تعالى وان سكت كنت شريكا فان المستمع احد المغتابين وان انكرت ابغضوك واغتابوك فازدادوا غيبة الى الغيبة وربما خرجوا الى الشتم (الثانية) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فان من خالط الناس لم يخل عن مشاهدة المنكرات فان سكت عصى الله وان انكر تعرض لانواع من الضرر وفي العزلة سلامة من هذا (الثالثة) الرياء وهي الداء العضال الذي يعسر الاحتراز منه واول ما في مخالطة الناس اظهار التشوق اليهم ولا يخلو ذلك عن الكذب إما في الاصل وإما في الزيادة وقد كان السلف يحترزون في جواب قول القائل كيف اصبحت وكيف امسيت كما قال بعضهم وقد قيل له كيف اصبحت ؟ قال اصبحنا ضعفاء مذنبين نأكل ارزاقنا وننتظر آجالنا . واعلم انه اذا كان سؤال السائل لاخيه كيف اصبحت لا يبعثه عليه شفقة ولا محبة كان تكلفاً ورياء وربما سأله وفي

القلب ضغن وحقد يورث أن يعلم فساد حاله و في العزلة الخلاص عن هذا لأنه من لقي الخلق و لم يخالقهم بأخلاقهم مقتوه واستثقلوه واغتابوه و يذهب دينهم فيه و يذهب دينه ودنياه في الانتقام منهم (الرابعة) مسارقة الطبع من اخلاقهم الردئة وهو داء دفين قل ما ينتبه له العقلاء فضلا عن الغافلين وذلك انه قل ان يجالس الانسان فاسقاً مدة مع كونه منكراً عليه في باطنه الا ولو قاس نفسه الى ما قبل مجالسته وجد فرقاً في النفور عن الفساد لأن الفساد يصير بكثرة المباشرة هيناً على الطبع و يسقط وقعه واستعظامه ومهما طالت مشاهدة الانسان الكبائر من غيره احتقر الصغائر من نفسه كما ان الانسان اذا لاحظ احوال السلف في الزهد والتعبد احتقر نفسه واستصغر عبادته فيكون ذلك داعية الى الاجتهاد و بهذه الدقيقة يعرف سر قول القائل : عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة

ومما يدل على سقوط وقع الشئ بسبب تكرره ومشاهدته ان اكثر الناس اذا رأوا مسلماً قد افطر في رمضان استعظموا ذلك حتى يكاد يفضي الى اعتقادهم فيه الكفر وقد يشاهدون من يؤخر الصلاة عن اوقاتها فلا ينفرون عنه نفورهم عن تأخير الصوم مع ان ترك صلاة واحدة تخرج الى الكفر ولا سبب لذلك الا ان الصلاة تتكرر والتساهل فيها يكثر وكذلك لو لبس الفقيه ثوباً من حرير او خاتماً من ذهب لاشتد انكار الناس لذلك وقد يشاهدونه يغتاب فلا يستعظمون ذلك والغيبة اشد من لبس الحرير ولكن بكثرة سماعها ومشاهدة المغتابين سقط عن القلوب وقعها فافطن لهذه الدقايق واحذر مجالسة الناس فانك لا تكاد ترى منهم الا ما يزيد في حرصك على الدنيا و في غفلتك عن الاخرة وتهون عليك

المعصية وتضعف رغبتك في الطاعات فان وجدت مجلسا يذكر الله فيه فلا تفارقه فانه غنيمة المؤمن

الفائدة الثالثة — الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين عن الخوض فيها فانه قلما تخلو البلاد من العصبية والخصومات والمعتزل عنهم سليم . وقد روى ابن عمر رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الفتن ووصفها وقال « اذا رأيت الناس قد مرجت عهودهم (١) وخفت اماناتهم فكانوا هكذا » وشبك بين اصابعه فقلت ما تأمرني ؟ فقال (الزم بيتك واملك عليك لسانك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر وعليك بأمر الخاصة ودع امر العامة) وقد روي غير ذلك من الأحاديث في معناه

(الفائدة الرابعة) الخلاص من شر الناس فانهم يؤذونك مرة بالغيبة ومرة بالنميمة ومرة بسوء الظن ومرة بالتهمة ومرة بالأطماع الكاذبه ومن خالط الناس لم ينفك عن حاسد وعدو وغير ذلك من انواع الشر التي يلقاها الانسان من معارفه وفي العزلة خلاص من ذلك كما قال بعضهم

عدوك من صديقك مستفاد ٭ فلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء اكثر ما تراه ٭ يكون من الطعام او الشراب

وقال عمر رضي الله عنه : في العزلة راحة من خلطاء السوء . وقال ابراهيم بن ادهم لا تتعرف الى من لا تعرف وأنكر من تعرف وقال رجل لأخيه اصحبك الى الحج فقال دعنا نعش في ستر الله فانا نخاف ان يرى بعضنا من بعض ما تماقت عليه وهذه فائدة اخرى في العزلة وهي بقاء الستر على الدين والمروءة وسائر العورات

---

(١) اي اختلطت بالشر

الفائدة الخامسة — ان ينقطع طمع الناس عنك وطمعك عنهم اما طمعهم فان رضاهم غاية لا تدرك فالمنقطع عنهم قاطع لطمعهم في حضور ولائمهم واملاكاتهم (٢) وغير ذلك وقد قيل من عم الناس بالحرمان رضوا عنه كلهم واما انقطاع طمعك فان من نظر الى زهرة الدنيا تحرك حرصه وانبعث بقوة الحرص طمعه ولا يرى الا الخيبة في اكثر المطامع فيتأذى وفي الحديث (انظروا الى من دونكم ولا تنظروا الى من فوقكم فأنه اجدر ان لا تزدروا نعمة الله عليكم) وقال الله تعالى (ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجاً منهم زهرة الحياة).

الفائدة السادسة — الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمق ومقاساة اخلاقهم واذا تأذى الانسان بالثقلاء لم يلبث ان يغتابهم فان آذوه بالقدح فيه كافأهم فانجرَّ الأمر الى فساد الدين وفي العزلة سلامة من ذلك.

﴿فصل في آفات العزلة﴾

اعلم ان من المقاصد الدينية والدنيوية ما يستفاد من الاستعانة بالغير ولا يحصل ذلك الا بالمخالطة. ومن فوائد المخالطة التعلم والتعليم والنفع والأنتفاع والتأديب والتأدب والاستئناس والايناس ونيل الثواب في القيام بالحقوق واعتياد التواضع واستفادة التجارب من مشاهدة هذه الأحوال والاعتبار بها فهذه فوائد الخلطة ولنفصلها

الفائدة الاولى — التعليم والتعلم وقد ذكرنا فضلهما في كتاب العلم فاما من تعلم الفرض ورأى انه لا يتأتى منه الخوض في العلوم ورأى

(١) الملاك والأملاك التزويج وعقد النكاح

الاشتغال بالعبادة فليعتزل وان كان يقدر على التبرز في علوم الشرع فالعزلة في حقه قبل التعلم غاية الخسران ولهذا قال الربيع بن خيثم تفقه ثم اعتزل والعلم اصل الدين ولا خير في عزلة العوام سئل بعض العلماء ما تقول في عزلة الجاهل ؟ فقال خبال وو بال فقيل له فالعالم فقال مالك ولها؟دعها معها حذاؤها (١) وسقاؤها ترد الماء وتاكل الشجر حتى يلقاها ربها

واما التعليم ففيه ثواب عظيم اذا صحت النية فيه ومتى كان القصد اقامة الجاه والاستكثار من الاتباع فهو هلاك الدين وقد سبق ذلك في كتاب العلم والغالب في هذا الزمان سوء القصد من المتعلمين فيقتضي الدين الاعتزال عنهم فان صودف طالب لله ومتقرب بالتعلم اليه لم يجز الاعتزال عنه ولا يحل كتمان العلم ولا ينبغي ان يغتر بقول من قال تعلمنا العلم لغير الله فابى ان يكون الا لله فانه اشار بهذه الى علوم القرآن والحديث ومعرفة سير الانبياء والصحابة وذلك يتضمن التخويف والتحذير وهو سبب الاثارة الخوف من الله سبحانه فان لم يوءثر في الحال أثر في المآل فاما علم الكلام وعلم الخلاف فانه لا يرد الراغب في الدنيا الى الله تعالى بل لا يزال صاحبه متمادياً في حرصه الى آخر عمره

(الفائدة الثانية) النفع والانتفاع اما الانتفاع بالناس فبالكسب

---

(١) شبه عزلة العالم بالابل التي معها حذاؤها وسقاؤها يريد انها تقوى على المشي وقطع الارض وقصد المياه و وردها ورعي الشجر والامتناع عن السباع المفترسة شبهت بمن كان معه في السفر حذاء وسقاء وهكذا العزلة اذا كانت من العالم فانه يكون أميناً على نفسه من الشيطان والنفس الامارة بالسوء وفي نسخة غذاؤها وسقاؤها

والمعاملة والمحتاج الى ذلك مضطر الى ترك العزلة واما ان كان معه ما يقنعه فالعزلة افضل الا أن يقصد التصدق بكسبه فذلك افضل من العزلة الا ان تكون العزلة مفيدة له معرفة الله تعالى والانس به لا عن اوهام وخيالات فاسدة؛ واما النفع فهو ان ينفع الناس إما بماله او ببدنه لقضاء حوائجهم ومن قدر على ذلك مع القيام بحدود الشرع فهو افضل من العزلة ان كان لا يشتغل في عزلته الا بنوافل الصلوات والاعمال البدنية وان كان ممن انفتح له طريق العمل بالقلب بدوام ذكر او فكر فذاك الذي لا يعدل به البتة

الفائدة الثالثة — التأديب والتأدب ونعني به الارتياض بمقاساة الناس والمجاهدة في تحمل أذاهم • كسر النفس وقهر الشهواة وذلك أفضل من العزلة في حق من لم تتهذب اخلاقه و ينبغي ان يفهم ان الرياضة لاتراد لنفسها كما لا يراد ذلك من رياضة الدابة بل المراد منها ان تتخذ مركبا تقطع عليه المراحل والبدن مطية يسلك بها طريق الاخرة وفيها شهوات ان لم تكسر جمحت براكبها في الطريق فمن اشتغل طول عمره بالرياضة كان كمن اشتغل طول عمره برياضة الدابة ولم يركبها ولا يستفيد الا الخلاص من عضها و رفسها وهي لعمري فائدة ولكن ليست معظم المقصود كما قيل لراهب يا راهب فقال لست براهب إنما انا كلب عقور حبست نفسي حتى لا اعقر الناس وهذا حسن بالاضافة الى من يعقر لكن لا ينبغي ان يقتصر عليه • واما التاديب فهو ان يؤدب غيره و يتطرق اليه من دقائق الافات ما يتطرق الى نشر العلم على ما ذكر

الفائدة الرابعة — الاستئناس والايناس وقد يكون مستحباً

كالاستئناس باهل التقوى وقد يقصد به ترويح القلوب من كرب الوحدة فينبغي ان يكون الاستئناس في بعض الساعات بمن لا يفسد بقيتها وليحرص ان يكون حديثه عن الاستئناس في امور الدين

الفائدة الخامسة — في نيل الثواب وانالته اما الأول فبحضور الجنائز وعيادة المرضى وحضور الاملاكات والدعوات ففيها ثواب من ادخال السرور على المؤمن . واما الثاني فهو ان يفتح بابه للناس ليعزوه او يهنوه او يعودوه فانهم ينالون بذلك ثواباً و كذلك ان كان من العلماء فأذن لهم في زيارته ولكن ينبغي ان يزن ثواب هذه المخالطات بآفاتها فيرجح العزلة او المخالطة وقد كان اكثر السلف يوثرون العزلة عليها

الفائدة السادسة — التواضع ولا يقدر على ذلك في الوحدة فقد يكون الكبر سبباً في اختياره العزلة ويمنعه من المحافل التقصير في اكرامه وتقديمه وربما ترفع عن مخالطتهم لارتفاع محله عند نفسه او نحو ذلك وعلامة من هذه صفته ان يحب ان يزار ولا يحب ان يزور ويفرح بتقرب السلاطين والعوام اليه واجتماعهم على بابه وتقبيل يده فالعزلة بهذا السبب جهل لأن التواضع لا يغض من منصب الكبير

فاذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها تحققت ان الحكم عليها مطلقاً بالتفضيل نفياً واثباتاً خطأ بل ينبغي ان ينظر الى الشخص وحاله والى الخليط وحاله والى الباعث على مخالطته والى الفائت بسبب مخالطته من الفوائد ويقاس الفائت بالحاصل فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل فقد قال الشافعي رحمه الله : الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة والانبساط اليهم مجلبة لقرناء السوء فكن بين القبض والبسط ومن ذكر سوى هذا فهو قاصر وانما هو إخبار عن

حاله فلا يجوز ان يحكم بها على غيره المخالف له في الحال. فإن قيل فما آداب العزلة ؟ قلنا ينبغي للمعتزل ان ينوي بعزلته كف شره عن الناس ثم طلب السلامة من شر الأشرار ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين ثم تجريد الهمة لعبادة الله تعالى ابداً فهذه آداب بينة ثم ليكن في خلوته مواظباً على العلم والعمل والذكر والفكر فيجتني ثمرة العزلة وليمنع الناس عن ان يكثروا غشيانه و زيارته ليصفو وقته وليكف عن السؤال عن اخبارهم وعن الاصغاء الى اراجيف البلد وما الناس مشغولون به فان جميع ذلك ينغرس في القلب حتى ينبعث في اثناء الصلاة فوقوع الأخبار في السمع كوقوع البذر في الأرض وليقنع باليسير من المعيشة والا اضطره التوسع الى مخالطة الناس. وليكن صبوراً على ما يلقاه من أذى الناس ولا يصغي الى الثناء عليه بالعزلة ولا القدح فيه بترك الخلطة فان ذلك يؤثر في القلب فيقف عن السير في طريق الاخرة وليكن له جليس صالح يستريح اليه ساعة عن كد المواظبة ففي ذلك عون على بقية الساعات ولا يتم الصبر في العزلة الا بقطع الطمع عن الدنيا ولا ينقطع طمعه الا بقصر امله فيقدر انه اذا اصبح لا يمسي واذا امسى لا يصبح فيسهل عليه صبر يوم وليكن كثير الذكر للموت و وحدة القبر متى ضاق عليه قلبه من الوحدة وليتحقق ان من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به لم يطق وحشة الوحدة بعد الموت وان من انس بذكر الله ومعرفته لم يزل الموت أنسه لأن الموت لا يهدم محل الأنس والمعرفة كما قال الله تعالى في حق الشهداء (بل احياء عند ربهم يرزقون) وكل متجرد

لله في جهاد نفسه فهو شهيد كما ورد عن بعض الصحابة انه قال : رجعنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر

﴿ كتاب آداب السفر ﴾

السفر وسيلة الى الخلاص من مهروب عنه او الوصول إلى مرغوب اليه والسفر سفران : سفر بظاهر البدن عن الوطن ، وسفر يسير القلب عن اسفل سافلين الى ملكوت السماوات . وهذا اشرف السفرين فان الواقف على الحالة التي نشأ عليها عقيب الولادة الجامد على ما تلقفه بالتقليد من الاباء لازم درجة القصور قانع برتبة النقص ومستبدل بمتسع عرضه السماوات والأرض ظلمة السجن وضيق الحبس

ولم أر في عيوب الناس شيئاً ✲ كنقص القادرين على التمام

الا ان هذا السفر لما كان مقتحمه في خطر خطير اندرست مسالكه فأما سفر البدن فهو اقسام وله فوائد وآفات عظيمة فأنه يضاهي النظر في العزلة والمخالطة وقد ذكرنا منهاج ذلك

فالفوائد الباعثة عليه لا تخلو من هرب او طلب فالهرب، اما من امر له نكاية في الأمور الدنيوية كالطاعون اذا ظهر ببلد او لخوف فتنة وخصومة او غلاء سعر . واما امر له نكاية في الدين كمن ابتلي في بلده بجاه او مال او اتساع اسباب تصده عن التجرد لله تعالى فيؤثر العزلة والخمول ويجتنب السعة والجاه وكمن يدعى الى بدعة او الى ولاية عمل لا تحل مباشرته فيطلب الفرار منه

واما المطلوب فهو اما دنيوي كالمال والجاه او ديني كالعلم بأمور دينه او بأخلاقه في نفسه او بآيات الله في ارضه وقل مذكور بالعلم محصل من

زمان الصحابة رضي الله عنهم الى زماننا الا وحصل العلم بالسفر وسافر لأجله

واما علمه بنفسه واخلاقه فذلك ايضاً مهم فان سلوك الاخرة لا يمكن الا بتحسين الخلق وتهذيبه وانما سمي السفر سفراً لانه يسفر عن الاخلاق . وفي الجملة فالنفس في الوطن لاتظهر خبائث اخلاقها لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوفات المعهودة فاذا حملت وعثاء السفر وصرفت عن مألوفاتها المعتادة و امتحنت بمشاق الغربة انكشفت غوائلها و وقع الوقوف على عيوبها

واما آيات الله في ارضه ففي مشاهدتها فوائد للمستبصر . ففيها قطع متجاورات و فيها الجبال والبراري والقفار والبحار وانواع الحيوان والنبات وما من شيء الا وهو شاهد لله بالوحدانية ومسبح بلسان زلق لا يدركه الا من ألقى السمع وهو شهيد . وانما نعني بالسمع سمع الباطن فبه يدرك نطق لسان الحال وما من ذرة في السموات والارض الا ولها انواع شاهدات لله سبحانه بالوحدانية . وقد ذكرنا ان من فوائد السفر الهرب من الولاية والجاه و كثرة العلائق لأن الدين لا يتم الا بقلب فارغ عن غير الله ولا يتصور فراغ القلب في الدنيا عن مهمات الدنيا والحاجات الضرورية ولكن يتصور تخفيفها وتقليلها وقد نجا المخفون وهلك المثقلون والمخف الذي ليست الدنيا اكثر همه

فصل

و من اقسام السفر ان يكون مباحاً كسفر التفرج والتنزه فأما السياحة في الأرض لا لمقصود و لا الى مكان معروف فأنه منهي عنه فقد روينا

من حديث طاووس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا رهبانية ولا تبتل ولا سياحة في الاسلام » وقال الامام احمد بن حنبل : ما السياحة من الاسلام في شيء ولا من فعل النبيين ولا الصالحين ولأن السفر يشتت القلب فلا ينبغي للمريد ان يسافر الا في طلب علم او مشاهدة شيخ يقتدي به في سيرته

وللسفر آداب معروفة في مناسك الحج غيرها . من ذلك ان يبدأ برد المظالم وقضاء الديون وإعدد النفقة لمن تلزمه نفقته ورد الودائع ؛ ومنها ان يختار رفيقا صالحاً ويودع الأهل والاصدقاء ، ومنها ان يصلي صلاة الاستخارة وان يكون سفره يوم الخميس بكرة . ومنها ان لا يمشي منفرداً وان يكون اكثر سيره بالليل ولا يهمل الاذكار والأدعية اذا وصل منزلا او علا نشزاً او هبط وادياً . ومنها ان يستصحب معه ما فيه مصلحته كالسواك والمشط والمرآة والمكحلة ونحو ذلك .

﴿ فصل فيما لا بد للمسافر منه ﴾

ينبغي له ان يتزود للدنيا والاخرة اما زاد الدنيا فالمطعم والمشرب وما يحتاج اليه ولا ينبغي ان يقول اخرجُ متوكلا فلا احمل زاداً فهذا جهل فأن حمل الزاد لا يناقض التوكل . واما زاد الاخرة فهو العلم الذي يحتاج اليه في طهارته وصلاته وعباداته وتعلم رخص السفر كالقصر والجمع والفطر ومدة مسح السفر على الخفين والتيمم والتنفل للماشي وكل ذلك مذكور في كتب الفقه بشروط . ولا بد للمسافر من معرفة ما يتجدد بسبب السفر وهو علم القبلة والأوقات فأن ذلك في السفر آكد من الحضر ويستدل

على القبلة بالنجوم والشمس والقمر والرياح والمياه والجبال والمجرَّة على ما هو مبين في موضعه و يعتبر الجبال بأن وجوهها جميعها مستقبلة البيت

واما المجرة فتكون اول الليل ممتدة على كتف المصلي اليسرى الى القبلة ثم يلتوي رأسها حتى يصير في آخر الليل على كتفه اليمنى وتسمى المجرة سرج السماء

واما معرفة اوقات الصلوات فلا بد منها و وقت الظهر يدخل بزوال الشمس فلينصب المسافر عوداً مستقيما وليعلم على رأس الظل ولينظر فان رآه في النقصان علم انه لم يدخل وقت الظهر فاذا اخذ في الزيادة علم انه قد زالت الشمس ودخل الوقت وهو اول وقت الظهر وآخره اذا صار ظل كل شيء مثله ثم يدخل وقت العصر وآخره الى ان يصير ظل كل شيء مثليه. وعن الامام احمد ان آخره ما لم تصفر الشمس ثم يذهب وقت الاختيار و يبقى وقت الجواز إلى غروب الشمس و باقي الأوقات معروفة

﴿ كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴾

اعلم ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين وهو المهم الذي بعث الله به النبيين ولو طوي بساطه لاضمحلت الديانة وظهر الفساد وخربت البلاد قال الله تعالى (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون) و في هذه الاية بيان انه فرض على الكفاية لا فرض عين لأنه قال: ولتكن منكم أمة. و لم يقل كونوا كلكم آمرين بالمعروف فاذا قام به من يكفي سقط عن الباقين واختص الفلاح بالقائمين المباشرين له و في القرآن العظيم آيات

كثيرة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: مثل القائم على حدود الله والواقع فيها والمداهن فيها مثل قوم ركبوا سفينة فأصاب بعضهم اسفلها واوعرها وشرها واصاب بعضهم اعلاها فكان الذين في اسفلها اذا استقوا الماء مروا على من فوقهم فآذوهم فقالوا لو خرقنا في نصيبنا خرقاً فاستقينا منه ولم نؤذ من فوقنا فان تركوهم وامرهم هلكوا جميعاً وان اخذوا على ايديهم نجوا جميعاً .

﴿ فصل في مراتب الأنكار وبعض ما ورد فيه ﴾

فقد جاء في الحديث المشهور من رواية مسلم ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان ». وفي حديث آخر « افضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » وفي حديث آخر « اذا رأيت امتي تهاب الظالم ان تقول له انت ظالم فقد تودع منهم » وقام ابو بكر رضي الله عنه فحمد الله تعالى واثنى عليه ثم قال « ايها الناس انكم تقرؤن هذه الاية يا ايها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم وانا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان الناس اذا رأوا المنكر فلم يغيروه اوشك ان يعمهم الله بعذاب » وعنه صلى الله عليه وسلم انه قال (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر او ليسلطن الله شراركم على خياركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم)

﴿ فصل في اركانه وشروطه ودرجاته وآدابه ونحو ذلك ﴾

اعلم ان اركان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اربعة (احدها) ان يكون المنكر مكلفاً مسلماً قادراً وهذا شرط لوجوب الانكار فان الصبي المميز له انكار المنكر ويثاب على ذلك لكن لا يجب عليه واما عدالة المنكر فاعتبرها قوم وقالوا ليس للفاسق ان يحتسب وانما استدلوا بقوله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم) وليس في ذلك حجة . واشترط قوم كون المنكر مأذوناً فيه من جهة الأمام او الوالي ولم يجيزوا لآحاد الرعية الحسبة وهذا فاسد لأن الايات والاخبار عامة تدل على ان كل من رأى منكرا فسكت عنه عصى فالتخصيص باذن الامام تحكم . ومن العجب ان الروافض زادوا على هذا فقالوا لا يجوز الامر بالمعروف ما لم يخرج الامام المعصوم وهؤلاء اخس رتبة من ان يكلموا ولكن جوابهم ان يقال لهم اذا جاؤا الى القاضي طالبين حقوقهم : نصرتكم امر بالمعروف واستخراج حقوقكم من يد من ظلمكم نهي عن المنكر ولم يجيء زمان ذلك الامام لأنه لم يخرج بعد

فان قيل في الامر بالمعروف اثبات سلطنة وولاية على المحكوم عليه ولذلك لم يثبت للكافر على المسلم مع كونه حقاً فينبغي ان لا يثبت لآحاد الرعية الا بتفويض من السلطان

قلنا اما الكافر فممنوع من ذلك لما فيه من السلطة والعز واما آحاد المسلمين فيستحقون هذا العز بالدين والمعرفة

واعلم ان الحسبة لها خمس مراتب التعريف والوعظ بالكلام

اللطيف . والثالثة السب والتعنيف ولسنا نعني بالسب الفاحش بل نقول له يا جاهل يا احمق الا تخاف من الله تعالى ونحو ذلك . والرابعة المنع بالقهر ككسر الملاهي واراقة الخمر . والخامسة التخوف والتهديد بالضرب او مباشرة الضرب له حتى يمتنع عما هو عليه فهذه الرتبة تحتاج الى الامام دون ما قبلها لأنه ربما جر الى فتنة . واستمرار عادات السلف على الحسبة على الولاة قاطع باجماعهم على الاستغناء عن التفويض

فان قيل فهل تثبت الحسبة للولد على الوالد والعبد على السيد والزوجة على الزوج والرعية على الوالي ؟ قلنا اصل الولاية ثابت للكل وقد رتبنا للحسبة خمس مراتب فللولد من ذلك الحسبة بالتعريف ثم بالوعظ والنصح باللطف . وله من الرتبة الخامسة ان يكسر العود ويريق الخمر ونحو ذلك وهذا الترتيب ينبغي ان يجري في العبد والزوجة . واما الرعية مع السلطان فالأمر فيه اشد من الولد فليس معه الا التعريف والنصح ويشترط كون المنكر قادراً على الانكار فأما العاجز فليس عليه انكار الا بقلبه ولا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسي بل يلتحق به خوف مكروه يناله فذلك في معنى العجز وكذلك اذا علم ان انكاره لا ينفع فينقسم إلى اربعة احوال (احدها) ان يعلم ان المنكر يزول بقوله او فعله من غير مكروه يلحقه فيجب عليه الانكار (الحالة الثانية) ان يعلم ان كلامه لا ينفع وانه ان تكلم ضرب فيرتفع الوجوب عنه (الثالثة) ان يعلم ان انكاره لا يفيد لكنه لا يخاف مكروهاً فلا يجب عليه الأمر لعدم الفائدة لكن يستحب لاظهار شعائر الاسلام والتذكير بالدين (الرابعة) ان يعلم انه يصاب بمكروه ولكن يبطل المنكر بفعله مثل ان يكسر العود ويريق الخمر ويعلم انه

يضرب عقيب ذلك فيرتفع الوجوب عنه و يبقى مستحباً لقوله في الحديث « افضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » ولا خلاف انه يجوز للمسلم الواحد ان يهجم على صفوف الكفار و يقاتل وان علم انه يقتل لكن ان علم انه لا نكاية له في الكفار كالأعمى يصرح نفسه على الصف حرم ذلك و كذلك لو رأى فاسقاً وحده وعنده قدح خمر و بيده سيف وعلم انه لو انكر عليه لشرب الخمر لضرب عنقه لم يجز له الاقدام على ذلك لأن هذا لا يؤثر في الدين اثرا يفديه بنفسه وانما يستحب له الانكار اذا قدر على ابطال المنكر وظهر لفعله فائدة لمن يحمل في صف الكفار ونحوه

وان علم المنكر انه يضرب معه غيره من اصحابه لم تجز له الحسبة لانه عجز عن دفع المنكر الا بافضائه الى منكر آخر وليس ذلك من القدرة في شيء ولسنا نعني بالعلم في هذه المواضع الا غلبة الظن فمن غلب على ظنه انه لا يصيبه وجب ولا اعتبار بحالة الجبان ولا بالشجاع المتهور بل الاعتبار بالمعتدل الطبع السليم المزاج ونعني بالمكروه الضرب او القتل و كذلك نهب المال والاشهار في البلد مع تسويد الوجه فاما السب والشتم فليس بعذر في السكوت لأن الآمر بالمعروف يلقى ذلك في الغالب

الركن الثاني — ان يكون ما فيه الحسبة منكراً موجودا في الحال ظاهراً فمعنى كونه منكراً ان يكون محذور الوقوع في الشرع والمنكر اعم من المعصية اذ من رأى صبياً او مجنوناً يشرب الخمر فعليه ان يريق خمره ويمنعه و كذلك لو رأى مجنونا يزني بمجنونة او بهيمة فعليه ان يمنعه . وقولنا موجوداً في الحال احتراز ممن شرب الخمر وفرغ من شربها ونحو ذلك فان ذلك ليس الى الاحاد وفيه ايضاً احتراز عما سيوجد في ثاني الحال كمن يعلم

بقرينة حاله انه عازم على الشرب الليلة فلا حسبة عليه الا بالوعظ وقولنا ظاهراً احتراز ممن تستر بالمعصية في داره واغلق بابه فانه لا يجوز ان يتجسس عليه الا ان يظهر ما يعرفه من هو خارج الدار كاصوات المزامير والعيدان فلمن سمع ذلك ان يدخل ويكسر الملاهي فأن فاحت رائحة الخمر فالأظهر جواز الأنكار ويشترط في انكار المنكر ان يكون معلوماً كونه منكراً بغير اجتهاد فكل ما هو في محل الأجتهاد فلا حسبة فيه فليس للحنفي ان ينكر على الشافعي اكله متروك التسمية ولا للشافعي ان ينكر على الحنفي شربه يسير النبيذ الذي ليس بمسكر

الركن الثالث — في المنكر عليه ويكفي في صفته ان يكون انساناً ولا يشترط كونه مكلفاً كما بينا قبله من انه ينكر على الصبي والمجنون

الركن الرابع — نفس الاحتساب وله درجات وآداب (الدرجة الاولى) ان يعرف المنكر فلا ينبغي له ان يسترق السمع على دار غيره ليسمع صوت الأوتار ولا يتعرض للشم ليدرك رائحة الخمر ولا ان يمس ما قد ستر بثوب ليعرف شكل المزمار ولا ان يستخبر جيرانه ليخبروه بما جرى بل لو اخبره عدلان ابتداء ان فلاناً يشرب الخمر فله اذ ذاك ان يدخل وينكر (الدرجة الثانية) التعريف فان الجاهل يقدم على الشئ لا يظنه منكراً فاذا عرف اقلع عنه فيجب تعريفه باللطف فيقال له ان الانسان لا يولد عالماً ولقد كنا جاهلين بأمور الشرع حتى علمنا العلماء فلعل قريتك خالية من اهل العلم فهكذا يتلطف به ليحصل التعريف من غير إيذاء ومن اجتنب محذور السكوت عن المنكر واستبدل عنه محذور الايذاء للمسلم مع الأستغناء عنه فقد غسل الدم بالبول (الدرجة الثالثة) النهي

بالوعظ والنصح والتخويف بالله ويورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد ويحكي له سيرة السلف ويكون ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب وههنا آفة عظيمة ينبغي ان يتوقاها وهو ان العالم يرى عند التعريف عز نفسه بالعلم وذل غيره بالجهل . ومثال ذلك مثال من يخلص غيره من النار بأحراق نفسه وهو غاية الجهل ومذلة عظيمة وغرور من الشيطان ولذلك محك ومعيار فينبغي ان يمتحن به المحتسب نفسه وهو ان يكون امتناع ذلك الأنسان عن المنكر بنفسه او باحتساب غيره عليه احب اليه من امتناعه باحتسابه فان كانت الحسبة شاقة عليه ثقيلة على نفسه وهو يود ان يكفى بغيره فليحتسب فان باعثه هو الدين وان كان الأمر بالعكس فهو متبع هوى نفسه متوسل الى اظهار جاهه بواسطة انكاره فليتق الله وليحتسب اولا على نفسه . وقيل لداود الطائي أرأيت رجلا دخل على هؤلاء الأمراء فأمرهم المعروف ونهاهم عن المنكر ؟ قال أخاف عليه السوط قيل هو يقوى على ذلك . قال اخاف عليه السيف : قيل هو يقوى على ذلك . قال اخاف عليه الداء الدفين العجب (الدرجة الرابعة) السب والتعنيف بالقول الغليظ الخشن وانما يعدل الى هذا عند العجز عن المنع باللطف وظهور مبادي الأصرار والاستهزاء بالوعظ والنصح ولسنا نعني بالسب الفحش والكذب بل يقول له يافاسق ياأحمق ياجاهل الا تخاف الله قال الله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام (اف لكم ولما تعبدون من دون الله افلا تعقلون) (الدرجة الخامسة) التغيير باليد ككسر الملاهي وإراقة الخمر وإخراجه من الدار المغصوبة وفي هذه الدرجة ادبان احدهما ان لا يباشر التغيير ما لم يعجز عن تكليف المنكر عليه ذلك فأذا امكنه ان يكلفه الخروج عن الأرض بل

المغصوبة فلا ينبغي ان يجره ولا يدفعه. ويكسر الملاهي كسراً يبطل
صلاحيتها للفساد ولا يزيد على ذلك ويتوقى في إراقة الخمور كسر
الأواني ان وجد اليه سبيلا . وان لم يقدر الا بأن يرمي ظروفها بحجر او
نحوه فله ذلك وتسقط قيمة الظروف ولو ستر الخمر ببدنه فانه يقصد
بدنه بالضرب ليتوصل الى إراقة الخمر. ولو كانت الخمر في قوارير ضيقة
الرؤس بحيث انه اذ اشتغل بأراقتها طال الزمان وادركه الفساق
فمنعوه فله كسرها لأن هذا عذر وكذلك ان كان يضيع الزمان في صبها
وتتعطل اشغاله فله كسرها ولو لم يحذر من الفساق. فأن قيل فهلا يجوز
الكسر زجراً وكذلك الجر بالرجل في الأخراج من الدار المغصوبة زجرا ؟
قلنا انما يجوز مثل ذلك للولاة ولا يجوز لاحاد الرعية لخفاء وجه الاجتهاد
فيه (الدرجة السادسة) التهديد والتخويف بقوله دع عنك هذا والافعلت
كذا وكذا وينبغي ان يقدم هذا على تحقيق الضرب اذا امكن تقديمه
والاداب في هذه الرتبة ان لا يتهدد بوعيد لا يجوز تحقيقه كقوله لأنهبن
دارك ولأسبين زوجتك لأنه ان قال ذلك عن عزم فهو حرام وان قاله عن
غير عزم فهو كذب (الدرجة السابعة) مباشرة الضرب باليد والرجل
وغير ذلك مما ليس فيه اشهار سلاح وذلك جائز للاحاد بشرط الضرورة
على قدر الحاجة فاذا اندفع المنكر فينبغي ان يكف (الدرجة الثامنة) ان من
لا يقدر على الانكار بنفسه ويحتاج الى اعوان يشهرون السلاح فانه ربما
يستمد الفاسق ايضاً باعوانه ويؤدي الى القتال فالصحيح ان ذلك يحتاج
الى إذن الامام لأنه يوءدي الى الفتن وهيجان الفساد وقيل لا يشترط
في ذلك اذن الامام

فصـــل

وقد ذكرنا آداب المحتسب مفصلة وجملتها ثلاث صفات في المحتسب : العلم بمواقع الحسبة وحدودها ومواقعها ليقتصر على حد الشرع ؛ والثاني الورع فانه قد يعلم شيئاً ولا يعمل به لغرض من الاغراض ، والثالث حسن الخلق وهو اصل ليتمكن من الكف فان الغضب اذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع في قمعه ما لم يكن في الطبع خلق حسن . قال بعض السلف لا يأمر بالمعروف الا رفيق فيما يأمر به رفيق فيما ينهي عنه . حليم فيما يأمر به حليم فيما ينهي عنه فقيه فيما يأمر به فقيه فيما ينهي عنه

ومن الاداب تقليل العلائق وقطع الطمع عن الخلق لتزول المداهنة فقد حكي عن بعض السلف انه كان له سنور وكان يأخذ لسنوره في كل يوم من قصاب في جواره شيئا من الغدد فرأى على القصاب منكراً فدخل الدار فاخرج السنور ثم جاءه فانكر على القصاب فقال لا اعطيك بعد هذا شيئاً لسنورك فقال ما انكرت عليك الا بعد اخراج السنور وقطع الطمع منك وهذا صحيح فان من لم يقطع الطمع من الناس من شيئين لم يقدر على الانكار عليهم : احدهما من لطف ينالونه به والثاني من رضاهم عنه وثنائهم عليه . واما الرفق في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فمتعين قال الله تعالى (فقولا له قولا ليناً) وروي ان ابا الدرداء رضي الله عنه مر على رجل قد اصاب ذنباً والناس يسبونه فقال ارأيتم لو وجدتموه في قليب الم تكونوا مستخرجيه ؟ قالوا بلى قال فلا تسبوا اخاكم واحمدوا الله الذي عافاكم فقالوا افلا تبغضه ؟ فقال انما ابغض عمله فاذا تركه فهو اخي . ومر فتى يجر ثوبه فهمَّ اصحاب صلة بن اشيم ان يأخذوه بألسنتهم اخذا شديدا فقال صلة دعوني اكفكم

امره ثم قال يا ابن اخي ان لي اليك حاجة قال ما هي؟ قال احب ان ترفع إزارك قال نعم ونعمى عين(١) فرفع ازاره فقال صلة لأصحابه هذا كان امثل مما اردتم فانكم لو شتمتموه وآذيتموه لشتمكم . ودعي الحسن إلى عرس فجيء بجام من فضة فيه خبيص فتناوله وقلبه على رغيف فأصاب منه فقال رجل هذا نهي في سكون .

﴿ باب في المنكرات المألوفة في العادات ﴾

وفي الانكار على الامراء والسلاطين وامرهم بالمعروف ولنذكر في ذلك فصلين :

(الفصل الأول) اعلم ان المنكرات المألوفة في العادات لا يمكن حصرها لكنا نشير الى جمل يستدل بها على امثالها فمن ذلك :

﴿ منكرات المساجد ﴾

مما يشاهد كثيراً في المساجد إساءة الصلاة بترك الطمأنينة في الركوع والسجود وكذلك كلما يقدح في صحة الصلاة من نجاسة على ثوب المصلي لا يراها او انحراف عن القبلة بسبب عمى او ظلام . ومن ذلك اللحن في القراءة . واشتغال المعتكف بانكار هذه الأشياء وتعريفها افضل له من نافلة يقتصر عليها ؛ ومن ذلك تراسل(٢) المؤذنين في الأذان وتطويلهم مد كلماته ومن ذلك ان يكون على الخطيب ثوب حرير وبيده سيف مذهب . ومن ذلك ما يجري من القُصاص في المساجد من الكذب والأشياء المنهي عنها كالخوض في الكلام الموجب للفتن ونحو ذلك ، ومن ذلك ان يكون الرجال مختلطين بالنساء فينبغي انكار ذلك عليهم . ومنها الحِلَق يوم الجمعة لبيع

(١) أي قرة عين . يعني أقر عينك بطاعتك اتباع أمرك (٢) أي إطالة ومط

الأدوية والأطعمة والتعويذات وقيام السؤال وانشادهم الأشعار ونحو هذا فهذه منها ما هو حرام ومنها ما هو مكروه

﴿ منكرات الأسواق ﴾

من ذلك الكذب في المرابحة و إخفاء العيب فمن قال اشتريت هذه السلعة بعشرة و رابح فيها درهما و كان كاذباً فهو فاسق. و يجب على من عرف ذلك ان يخبر المشتري بكذبه فان سكت مراعاة للبائع كان شريكا له في الخيانة. و كذلك اذا علم العيب لزمه ان يبينه للمشتري و كذلك التفاوت في الميزان والذراع يجب على كل من عرفه تغييره إما بنفسه او برفعه الى لوالي حتى يغيره. ومنها الشروط الفاسدة واستعمال الربا و بيع الملاهي والصور المجسمة ونحو ذلك

﴿ منكرات الشوارع ﴾

من ذلك بناء دكان متصلة بالأبنيه المملوكة واخراج الأجنحة وغرس الأشجار اذا كان ذلك يؤدي الى تضييق الطريق والاضرار بالمارة فأما وضع الحطب والطعام في الطريق بمقدار ما ينقل الى البيوت فجائز فان ذلك يشترك الكافة في الحاجة اليه. ومن المنكرات ربط الدواب على الطريق بحيث تضيق وتؤذي الناس فيجب المنع من ذلك الا اذا كان بمقدار الحاجة للنزول والركوب. ومن ذلك تحميل الدواب من الأحمال ما لا تطيق و كذلك طرح الكناسة على جوادّ الطريق وتبديد قشور البطيخ او رش الماء بحيث يخشى منه الزلق والماء الذي يجتمع من ميزاب معين فأما ان كان من المطر فذلك على الولاة وليس للاحاد في ذلك الا الوعظ

﴿ منكرات الحمامات ﴾

من ذلك صور الحيوانات على باب الحمام او داخله ويكفي في زوال ذلك ان تشوه وجوه الصور بحيث يبطل به تصويرها ومن لم يقدر على الانكار لم يجز له الدخول إلا للضرورة وليعدل الى حمام آخر. ومن ذلك كشف العورات والنظر اليها وكشف المدلك عن الفخذ وما تحت السرة لتنحية الوسخ او مس العورة. ومنها غمس اليد والأواني النجسة في المياه القليلة فان فعل ذلك مالكي لم ينكر عليه بل يتلطف به ويقول له يمكنك ان لا تؤذيني بتفويت الطهارة عليَّ

﴿ منكرات الضيافة ﴾

من ذلك فرش الحرير للرجال والبخور في مجمر فضة او ذهب والشرب فيهما واستعمال ماء الورد منهما وكذلك تعليق الستور وفيها الصور وسماع القينات والأوتار واطلاع النساء على الشباب الذين تخاف فتنتهم فكل ذلك منكر يجب تغييره ومن عجز عن تغييره لزمه الخروج واما القعود على النمارق والبسط فليس بمنكر وكذلك الفرش الحرير والذهب للنساء فانه جائز ولا رخصة في تثقيب آذان الصبية لأجل تعليق حلق الذهب فان ذلك جرح مؤلم لا يجوز وفي المخانق والأسورة كفاية عن ذلك والاستئجار على ذلك غير صحيح والأجرة المأخوذة عليه حرام ومن ذلك ان يكون في الضيافة مبتدع يتكلم في بدعته فلا يجوز الحضور معه إلا لمن يقدر على الرد عليه وان لم يتكلم جاز الحضور مع اظهار الكراهة له والاعراض عنه وان كان هناك مضحك بالفحش والكذب لم يجز الحضور

ويجب الانكار فان كان ذلك مزح لا كذب فيه ولا فحش ابيح ما يقل من ذلك فأما اتخاذه صناعة وعادة فيمنع منه

(المنكرات العامة)

من تيقن ان في السوق منكراً يجري على الدوام او في وقت معين وهو قادر على تغييره لم يجز له ان يسقط ذلك عنه بالقعود في بيته بل يلزمه الخروج فان قدر على تغيير البعض لزمه وحق على كل مسلم ان يبدأ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات ثم يعلم ذلك اهله واقاربه ثم يتعدى الى جيرانه واهل محلته ثم الى اهل بلده ثم الى السواد كذلك الى اقصى العالم فان قام بذلك الأقرب سقط عن الأبعد والا خرج به كل قادر عليه .

الفصل الثاني

(في امر الامراء والسلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر)

قد ذكرنا درجات الامر بالمعروف. والجائز من ذلك مع السلاطين القسمان الاولان. وهما: التعريف والوعظ فاما تخشين القول نحو ياظالم يامن لا يخاف الله فان كان ذلك يحرك فتنة يتعدى شرها الى الغير لم يجز وان لم لم يخف الا على نفسه فهو جائز عند جمهور العلماء والذي اراه المنع من ذلك لان المقصود ازالة المنكر وحمل السلطان بالانبساط عليه على فعل المنكر اكبر من المنكر الذي قصد إزالته وذلك ان قُرَبَ السلطان التعظيم فاذا سمعوا من احاد الرعية يا ظالم يا فاسق رأوا غاية الذل فلم يصبروا على ذلك قال الامام احمد رحمه الله لا تتعرضنّ بالسلطان فان سيفه مسلول فاما

ما جرى للسلف من التعريض لامرائهم فانهم كانوا يهابون العلماء فاذا انبسطوا عليهم احتملوهم في الاغلب وقد جمعت مواعظ السلف للخلفاء والامراء في كتاب المصباح المضيء وانا انتخب منه ههنا حكايات

قال سعيد بن عامر لعمر بن الخطاب رضي الله عنه اني موصيك بكلمات من جوامع الاسلام ومعالمه : اخش الله في الناس ولا تخش الناس في الله ، ولا يخالف قولك فعلك فان خير القول ما صدقه الفعل واحب لقريب المسلمين وبعيدهم ما تحب لنفسك واهل بيتك. وخض الغمرات الى الحق حيث علمته ؛ ولا تخف في الحق لومة لائم قال ومن يستطيع ذلك يا ابا سعيد ؟ قال من ركب في عنقه مثل الذي ركب في عنقك

وقال قتادة خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه من المسجد ومعه الجارود فاذا امرأة برزت على ظهر الطريق فسلم عليها فردت عليه او سلمت عليه فرد عليها فقالت هيه يا عمر عهدتك وانت تسمى عميراً في سوق عكاظ تصارع الصبيان فلم تذهب الايام حتى سميت عمر ثم لم تذهب الايام حتى سميت امير المؤمنين فاتق الله في الرعية واعلم انه من خاف الموت خشي الفوت فبكى عمر رضي الله عنه فقال الجارود : هيه قد اجترأت على امير المؤمنين . ابكته فقال عمر دعها اما تعرف هذه ؟ هي خولة بنت حكيم التي سمع الله قولها من فوق سماواته فعمر والله احرى ان يسمع كلامها

ودخل شيخ من الازد على معاوية فقال اتق الله يا معاوية واعلم انك في كل يوم يخرج عنك وفي كل ليلة تأتي عليك لا تزداد من الدنيا الا بعداً ومن الاخرة الا قرباً وعلى اثرك طالب لا تفوته وقد نصب لك علم لا تجوزه فما اسرع ما تبلغ العلم وما اوشك ان يلحقك الطالب وانا وما نحن

فيه وأنت زائل والذي نحن صائرون اليه باق ان خيراً فخير وان شراً فشر

ودخل سليمان بن عبد الملك المدينة فأقام بها ثلاثا فقال ما ههنا رجل ممن ادرك اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ؟ فقيل له ههنا رجل يقال له ابو حازم فبعث اليه فجاء فقال سليمان يا ابا حازم ما هذا الجفاء ، فقال له ابو حازم : وأي جفاء رأيت مني ؟ فقال له أتاني وجوه المدينة كلهم ولم تأتني . فقال ما جرى بيني وبينك معرفة آتيك عليها . قال صدق الشيخ . يا أبا حازم ما لنا نكره الموت ؟ قال لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتكم فانتم تكرهون ان تنتقلوا من العمران الى الخراب . قال صدقت يا أبا حازم فكيف القدوم على الله تعالى ؟ قال اما المحسن فكالغائب يقدم على اهله فرحاً مسروراً واما المسيء فكالابق يقدم على مولاه خائفاً محزونا فبكى سليمان وقال ليت شعري ما لنا عند الله يا ابا حازم ؟ فقال ابو حازم اعرض نفسك على كتاب الله فانك تعلم ما لك عند الله قال يا أبا حازم وأنى اصيب تلك المعرفة من كتاب الله ؟ قال عند قوله (ان الأبرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم) قال يا أبا حازم فأين رحمة الله ؟ قال (قريب من المحسنين) قال يا ابا حازم من اعقل الناس ؟ قال من تعلم الحكمة وعلمها الناس قال فمن احمق الناس ؟ قال من حط نفسه في هوى رجل وهو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره قال يا ابا حازم فما اسمع الدعاء ؟ قال دعاء المخبتين قال فما أزكى الصدقة قال جهد المقل قال : يا اباحازم ما تقول فيما نحن فيه ؟ قال اعفني من هذا قال سليمان نصيحة تلقيها قال ابو حازم إن ناساً اخذوا هذا الامر عنوة من غير مشاورة المسلمين ولا اجماع من رأيهم فسفكوا فيه الدماء على طلب الدنيا ثم ارتحلوا عنها فليت شعري ما قالوا وما قيل لهم

فقال بعض جلسأيهم بئس ما قلت يا شيخ فقال ابو حازم كذبت ان الله تعالى اخذ ميثاق العلماء ليبيننه للناس و لا يكتمونه قال سليمان يا ابا حازم اصحبنا تصيب منا ونصيب منك قال اعوذ بالله من ذلك قال ولم ؟ قال أخاف ان اركن اليكم شيئاً قليلا فيذيقني ضعف الحياة وضعف الممات قال فأشر علي قال اتق الله ان يراك حيث نهاك او يفقدك حيث امرك قال يا ابا حازم ادع لنا بخير فقال اللهم ان كان سليمان وليك فيسره للخير وان كان غير ذلك فخذ الى الخير بناصيته فقال يا غلام هات مائة دينار ثم قال خذ هذا يا ابا حازم قال لا حاجة لي به . لي ولغيري في هذا المال أسوة فان واسيت بيننا و إلا فلا حاجة لي فيها اني اخاف ان يكون لما سمعت من كلامي فكان سليمان اعجب بأبي حازم فقال الزهري انه لجاري منذ ثلاثين سنة ما كلمته قط فقال أبو حازم انك نسيت الله فنسيتني قال الزهري أتشتمني قال سليمان بل انت شتمت نفسك أما علمت ان للجار على الجار حقاً قال ابو حازم ان بني اسرائيل لما كانوا على الصواب كانت الأمراء تحتاج الى العلماء وكانت العلماء تفر بدينها منهم فلما رأى ذلك قوم من اذلة الناس تعلموا ذلك العلم وأتوا به الى الأمراء واجتمع القوم على المعصية فسقطوا وانتكسوا ولو كان العلماء يصونون دينهم وعلمهم لم تزل الأمراء تهابهم قال الزهري كأنك اياي تريد و بي تعرض قال هو ما تسمع .

وحكي ان اعرابياً دخل على سليمان بن عبد الملك فقال يا امير المؤمنين اني مكلمك بكلام فاحتمله وان كرهته فان وراءه ما تحب ان قبلته فقال قل قال يا امير المؤمنين انه قد اكتنفك رجال ابتاعوا دنياك بدينهم

ورضاك بسخط ربهم. خافوك في الله ولم يخافوه فيك. خربوا الاخرة وعمروا الدنيا . فهم حرب للاخرة سلم للدنيا فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه. فانهم لم يألوا الائمانة تضييعاً والائمة خسفاً وانت مسؤول عما اجترحوا وليسوا بمسؤولين عما اجترحت فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك فان اعظم الناس غبناً بائع آخرته بدنيا غيره. فقال سليمان اما انت فقد سللت لسانك وهو اقطع من سيفك. فقال اجل يا امير المؤمنين لك لا عليك . قال فهل من حاجة في ذات نفسك ؟ قال اما خاصة دون عامة فلا ثم قام فخرج فقال سليمان لله دره ما اشرف اصله واجمع قلبه واذرب لسانه واصدق نيته واورع نفسه هكذا فليكن الشرف والعقل

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله لأبي حازم عظني فقال اضطجع ثم اجعل الموت عند راسك ثم انظر ما تحب ان يكون فيك تلك الساعة فخذ فيه الآن وما تكره ان يكون فيك تلك الساعة فدعه الآن ، وقال محمد بن كعب لعمر بن عبد العزيز يا امير المؤمنين انما الدنيا سوق من الاسواق منها خرج الناس بما يضرهم وما ينفعهم وكم من قوم غرهم منها مثل الذي اصبحنا فيه حتى اتاهم الموت فاستوعبهم فخرجوا منها ملومين لم يأخذوا منها لما احبوا من الاخرة عُدَّة ولا لما كرهوا منها جُنة واقتسم ما جمعوا من لم يحمدهم وصاروا الى من لا يعذرهم فنحن محقوقون يا امير المؤمنين ان ننظر الى تلك الاعمال التي نغبطهم بها فنخلفهم فيها والى الاعمال التي نتخوف عليهم فيها فنكف عنها فاتق الله وافتح الأبواب وسهل الحجاب وانصر المظلوم ورد المظالم. ثلاث من كن فيه استكمل الايمان بالله عز وجل: اذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل ، واذا غضب لم يخرجه

غضبه من الحق ، واذا قدر لم يتناول ما ليس له .

ودخل عطاء ابن ابي رباح على هشام فرحب به و قال ما حاجتك يا ابا محمد ؟ و كان عنده اشراف الناس يتحدثون فسكتوا فذكره عطاء بأرزاق اهل الحرمين وعطياتهم فقال نعم يا غلام اكتب لأهل المدينة واهل مكة بعطاء ارزاقهم ثم قال يا ابا محمد هل من حاجة غيرها ؟ فقال نعم فذكره بأهل الحجاز واهل نجد واهل الثغور ففعل مثل ذلك حتى ذكره بأهل الذمة ان لا يكلفوا ما لا يطيقون فأجابه الى ذلك ثم قال له في آخر ذلك هل من حاجه قال نعم يا امير المؤمنين اتق الله في نفسك فانك خلقت وحدك وتموت وحدك وتحشر وحدك وتحاسب وحدك لا والله ما معك ممن ترى احد قال فأكب هشام يبكي وقام عطاء فلما كان عند الباب اذا رجل قد تبعه بكيس ما ندري ما فيه أدراهم ام دنانير وقال ان امير المؤمنين قد امر لك بهذا فقال لا اسألكم عليه اجراً ان اجري الا على رب العالمين ثم خرج و لا والله ما شرب عندهم حسوة ماء فما فوقها .

وعن محمد بن علي قال اني لحاضر مجلس المنصور وفيه ابن ابي ذؤيب وكان والي المدينة الحسن بن زيد فاتى الغفاريون فشكوا الى ابي جعفر المنصور شيئاً من امر الحسن بن زيد فقال الحسن يا أمير المؤمنين سل عنهم ابن ابي ذؤيب قال فسأله عنهم فقال اشهد انهم اهل الحطم في اعراض الناس فقال ابو جعفر فقد سمعتم فقال الغفاريون يا امير المؤمنين فسله عن الحسن بن زيد فسأله فقال اشهد انه يحكم بغير الحق فقال قد سمعت يا حسن قال يا امير المؤمنين سله عن نفسك فقال ما تقول في قال او يعفيني امير المؤمنين فقال والله لتخبرني فقال اشهد انك اخذت هذا المال من غير

حقه وجعلته في غير اهله فوضع يده في قفاء ابن ابي ذؤيب وجعل يقول له : اما والله لولا انا لاخذت ابناء فارس والروم والديلم والترك بهذا المكان منك . فقال ابن ابي ذؤيب : قد ولي ابو بكر وعمر فأخذا بالحق وقسما بالسوية واخذا باقفاء فارس والروم فخلاه ابو جعفر وقال والله لو لاني اعلم انك صادق لقتلتك فقال والله يا امير المؤمنين اني انصح لك من ابنك المهدي

وعن الاوزاعي رحمه الله قال بعث الي المنصور وانا بالساحل فاتيته فلما وصلت اليه وسلمت عليه استجلسني ثم قال ما الذي ابطأ بك يا اوزاعي قلت وما الذي تريد يا امير المؤمنين ؟ قال اريد الاخذ عنكم والاقتباس منكم قلت فانظر يا امير المؤمنين ان تسمع شيئاً ثم لا تعمل به فصاح بي الربيع واهوى بيده الي السيف فانتهره المنصور وقال هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة فطابت نفسي وانبسطت في الكلام فقلت يا امير المؤمنين حدثني مكحول عن عطية بن بشر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ايما وال مات غاشاً لرعيته حرم الله عليه الجنة » يا امير المؤمنين كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين اصبحت تملكهم احمرهم واسودهم ومسلمهم وكافرهم وكل له عليك نصيب من العدل فكيف بك اذا انبعث منهم فئام وراء فئام (١) ليس منهم احد الا وهو يشكو بلية ادخلتها عليه او ظلامه سقتها اليه يا امير المؤمنين حدثني مكحول عن زياد بن حارثة عن حبيب بن سلمة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الى القصاص من نفسه - في خدش خدشه - اعرابياً لم يتعمده فأتاه جبريل فقال يا محمد ان الله تعالى لم يبعثك جباراً ولا متكبراً فدعا عليه

---

(١) الفئام : الجماعة الكثيرة من الناس

الصلاة والسلام الاعرابي فقال اقتص مني فقال الأعرابي قد احللتك بأبي انت وامي وما كنت لأفعل ذلك ابداً ولو اتيت على نفسي فدعا له بخير يا امير المؤمنين رض نفسك لنفسك وخذ لها الامان من ربك.

يا امير المؤمنين ان الملك لو بقي لمن قبلك لم يصل اليك وكذلك لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك يا امير المؤمنين جاء في تأويل هذه الاية عن جدك (ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها) قال الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك فكيف بما عملته الأيدي وحصدته الالسن يا امير المؤمنين بلغني ان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه قال: لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات ضيعة لخشيت ان اسأل عنها فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك يا امير المؤمنين جاء في تأويل هذه الاية عن جدك (يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى) قال اذا قعد الخصمان بين يديك وكان لك في احدهما هوى فلا تتمنين في نفسك ان يكون الحق له فيفلح على صاحبه فأمحوك من نبوتي ثم لا تكون خليفتي يا داود. انما جعلت رسلي الى عبادي رعاء كرعاء الابل لعلمهم بالرعاية ورفقهم بالسياسة ليجبروا الكسر ويدلوا الهزيل على الكلأ والماء يا امير المؤمنين انك قد بليت بأمر لو عرض على السموات والارض والجبال لأبين ان يحملنه واشفقن منه

يا امير المؤمنين حدثني يزيد بن جابر عن عبد الرحمن بن ابي عميرة الانصاري ان عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل رجلا من الانصار على الصدقة فرآه بعد ايام مقيماً فقال له ما منعك من الخروج الى عملك ؟ اما علمت ان لك مثل اجر المجاهدين في سبيل الله قال لا قال وكيف ذلك ، قال لأنه

بلغني ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من وال يلي شيئا من امور
الناس الا اتى يوم القيمة مغلولة يده الى عنقه يوقف على جسر جهنم
ينتفض به ذلك الجسر انتفاضة تزيل كل عضو منه عن موضعه ثم يعاد
فيحاسب فان كان محسناً نجى باحسانه وان كان مسيئاً انخرق به ذلك الجسر
فهوى به في النار سبعين خريفاً فقال له ممن سمعت هذا فقال من ابي ذر
وسلمان فارسل اليهما عمر فسألهما فقالا نعم سمعناه من رسول لله صلى
الله عليه وسلم فقال عمر: واعمراه من يتولاها (١) بما فيها ؟ فقال ابوذر رضي الله
عنه من سلت ٢ الله انفه والصق خده بالارض فاخذ المنديل (يعني المنصور)
فوضعه على وجهه ثم بكى وانتحب حتى ابكاني ثم قلت يا امير المؤمنين قد
سأل جدك العباس رسول الله صلى الله عليه وسلم امارة على مكة او الطائف
او اليمن فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « يا عم نفس تنجيها خير من امارة
لا تحصيها » نصيحة منه لعمه وشفقة منه عليه واخبره انه لا يغني عنه من الله
شيئاً اذ أوحي اليه (وانذر عشيرتك الاقربين) فقال يا عباس و يا صفية و يا فاطمة
اني لست اغني عنكم من الله شيئاً لي عملي ولكم عملكم وقد قال عمر بن الخطاب
لا يقيم امر الناس الا خصيف العقل لا تأخذه في الله لومة لائم وذكر
تمام كلامه للمنصور ثم قال فهى نصيحة والسلام عليك ثم نهض فقال
الى اين , فقال الى الوطن باذن امير المؤمنين فقال اذنت لك وشكرت لك
نصيحتك وقبلتها بقبولها والله الموفق للخير والمعين عليه وبه استعين وعليه اتوكل
وهو حسبي ونعم الوكيل فلا تخلني من مطالعتك اياي بمثلها فانك المقبول

---

(١) اي الامارة والولاية بسبب ما فيها من الخطر (٢) سلت انفه جدعه
وهو كناية عن الحقارة والذلة

القول غير المتهم في النصيحة قلت افعل ان شاء الله فامر له بمال يستعين به على خروجه فلم يقبله وقال انا في غنى عنه وماكنت لابيع نصيحتي بعوض الدنيا كلها وعرف المنصور مذهبه فلم يجدّ (١) عليه في رده

ولما حج الرشيد قيل له يا امير المؤمنين قد حج شيبان قال اطلبوه لي فاتوه به فقال يا شيبان عظني قال يا امير المؤمنين انا رجل ألكن لا افصح بالعربية فجئني بمن يفهم كلامي حتى اكلمه فأتي برجل يفهم كلامه فقال له بالنبطية قل له يا امير المؤمنين ان الذي يخوفك قبل ان تبلغ المأمن انصح لك من الذي يؤمنك قبل ان تبلغ الخوف قال له اي شيء تفسير هذا ؟ قال قل له الذي يقول لك اتق الله فانك رجل مسؤول عن هذه الامة استرعاك الله عليها وقلدك امورها وانت مسؤول عنها فاعدل في الرعية واقسم بالسوية وانفذ في السرية واتق الله في نفسك هذا الذي يخوفك فاذ بلغت المأمن امنت هذا انصح لك ممن يقول انتم اهل بيت مغفور لكم وانتم قرابة نبيكم وفي شفاعته فلا يزال يؤمنك حتى اذا بلغت الخوف عطبت قال فبكى هارون حتى رحمه من حوله ثم قال زدني قال حسبك

وعن علقمة بن ابي مرثد قال لما قدم عمرو بن هبيرة العراق ارسل الى الحسن والى الشعبي فامر لهما ببيت فكانا فيه نحواً من شهر ثم دخل عليهما وجلس معظما لهما فقال ان امير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب الي كتباً اعرف ان في انفاذها الهلكة فان اطعته عصيت الله وان عصيته اطعت الله فهل تريان في متابعتي اياه فرجا فقال الحسن يا ابا عمرو أجب الامير فتكلم الشعبي فانحط من امر ابن هبيرة كأنه عذره فقال ما تقول انت

---

(١) اي لم يلح عليه بالأخذ.

يا ابا سعيد قال ايها الامير فقد قال الشعبي ما قد سمعت فقال ما تقول انت ؟
قال اقول يا عمرو بن هبيرة يوشك ان ينزل بك ملك من ملائكة الله
تعالى فظ غليظ لا يعصي الله ما امره فيخرجك من سعة قصرك الى
ضيق قبرك. يا عمرو بن هبيرة ان تتقي الله يعصمك من يزيد بن عبد
الملك ، ولن يعصمك يزيد بن عبد الملك من امر الله ، يا عمرو بن هبيرة
لا تأمن ان ينظر الله اليك على اقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك
فيغلق باب المغفرة دونك يا عمرو بن هبيرة لقد ادركت ناساً من صدر هذه
الامة كانوا عن الدنيا وهي مقبلة عليهم اشد ادباراً من اقبالكم عليها وهي مدبرة
عنكم يا عمرو بن هبيرة اني اخوفك مقاماً خوفكه الله تعالى فقال (ذلك لمن
خاف مقامي وخاف وعيد) يا عمرو بن هبيرة ان تك مع الله في طاعته
كفاك يزيد بن عبد الملك ، وان تك مع يزيد بن عبد الملك على معاصي الله
وكلك الله اليه . فبكى عمرو بن هبيرة وقام بعبرته. فلما كان من الغد ارسل
اليهما باذنهما وجوائزهما واكثر فيها للحسن وكان في جائزة الشعبي بعض
الاقتار فخرج الشعبي الى المسجد فقال ايها الناس من استطاع منكم ان
يؤثر الله على خلقه فليفعل فوالذي نفسي بيده ما علم الحسن شيئاً منه فجهلته
ولكني اردت وجه ابن هبيرة فاقصاني الله منه

ودخل محمد بن واسع رحمه الله على بلال بن ابي بردة في يوم حار
وبلال في جيشه وعنده الثلج فقال له يا ابا عبد الله كيف ترى بيتنا هذا ؟
قال ان بيتك لطيب والجنة اطيب منه وذكر النار يلهي عنه . قال ما تقول في
القدر ؟ قال جيرانك اهل القبور ففكر فيهم فان فيهم شغلا عن القدر . قال ادع
لي . قال وما تصنع بدعائي ؟ وعلى بابك كذا وكذا يقولون انك ظلمتهم

يرفع دعاؤهم قبل دعائي . لا تظلم ولا تحتاج الى دعائي

فهذا مختصر من اخبار من وعظ من الامراء فمن اراد الزيادة فلينظر في المصباح المضيء . وهذه كانت سيرة العلماء وعاداتهم في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وقلة مبالاتهم بسطوات السلاطين ايثاراً لاقامة حق الله تعالى على تقاتهم الا ان السلاطين كانوا يعرفون حق العلم وفضله فيصبرون على مضض مواعظ هؤلاء . والذي اراه الان الهرب من السلاطين فهو الاولى فان قُدر لقاء اقتنع بلطف الموعظة حسب . ولذلك سببان احدهما يتعلق بالواعظ وهو سوء قصده وميله الى الدنيا والرياء فلا يخلص له وعظه والثاني يتعلق بالموعوظ فان حب الدنيا قد شغل الاكثرين عن ذكر الاخرة وتعظيم الدنيا انساهم تعظيم العلماء وليس لمؤمن ان يذل نفسه

آخر كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وذكر المنصف قبل ذلك كتاباً في السماع والوجد فلنذكر شيئاً منه ههنا

فصـــل

اعلم ان السماع الذي نعني به الغناء من اكبر ما تطرق به ابليس الى فساد القلوب وغرَّ به خلقاً لا يحصون من العلماء والزهاد فضلا عن العوام حتى ادعوا حضور القلب مع الله عند سماع الاغاني المطربة وظنوا انما اوجبه السماع من طرب القلوب وانزعاجها وجد يتعلق بالاخرة

واذا اردت ان تعرف الحق فانظر في القرن الاول هل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من ذلك او اصحابه ثم انظر الى اقوال التابعين وتابعيهم وفقهاء الامة كمالك وابي حنيفة والشافعي واحمد رحمهم الله فكل القوم ذموا الغناء

حتى قال مالك اذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردها وسئل عن الغناء قال انما يفعله الفساق وسئل الامام احمد عن رجل مات وخلف ولداً وجارية مغنية فاحتاج الصبي الى بيعها فقال تباع على انها ساذجة لا مغنية فقيل له انها تساوي ثلاثين الفاً اذا كانت مغنية واذا بيعت ساذجة ربما سويت عشرين ديناراً فقال لا تباع الا على انها ساذجة وقد اطبق الفقهاء على الزجر عن الغناء ومن المتأخرين ابو الطيب الطبري من كبار اصحاب الشافعي وصنف كتاباً وبالغ في النهي عنه وانما تعلق بأباحته قوم مفتونون قالوا قد اجازه قوم من السلف. وقد سمع احمد بن حنبل قول قوال فقال لا بأس بهذا فينبغي ان يتأمل الذي افتى بجوازه ما هو وليس الا الاشعار الزهدية وما يشبهها من غير ضرب بقضيب او آلة تطرب ولا ضم الى ذلك تصفيق ولا رقص. وعلى هذا يحمل حديث عائشة في الجاريتين المغنيتين لما غنتا بما تقاولته الانصار يوم بعاث فان ذلك لا يطرب ومعلوم انه لم يكن للاوائل ما احدثه الاواخر من الدف والصنج والشبابة والشعر الرقيق فان هذه الاشياء تثير دفائن الهوى الكامنة في النفوس وتزعج فيحسب الجاهل هذا الانزعاج معلقاً بالاخرة وهيهات. وليتهم قالوا ان هذا مباح من اللهو فنستريح اليه وانما يظنونه قربة ويسمون الطرب المخرج عن حد العقل وجداً وربما اوجد الطرب ما لا يحل من تمزيق الثياب والتخبط وكل هذا بمعزل عن طريق السلف وغير خاف انه ضلال عن الجادة فلا ينبغي للانسان أن يغالط نفسه وانما الوجد الصحيح وجد القلب عند سماع القرآن والوعظ فحينئذ يثور من الباطن خوف من الوعيد وشوق من الوعد وندم على التفريط وجميع هذه الحركات الباطنة توجب سكون الظاهر لا الجمز والتصفيق

ولم يضق علينا القرآن والوعظ واشعار الزهد حتى نحتاج في احضار القلوب الى باب الله تعالى ان تذكر سلمى وسعدى ولا ننكر انه قد يتفق في بعض الاوقات في تلك الاشعار ما يصح ان يوجد اشارة الى ان الاغلب منها امالة القلوب الي الهوى الدنيوي. ومثل من اراد ان يأخذ منها للاخرة كمثل من قال انا انظر الى الامرد المستحسن لأتعجب من صنعة القادر فانه قد اخطأ الطريق لأن ما تستلبه الشهوة والطبع عند النظر يكدر طريق الفكر ويشغل عنه فلذلك نمنعه ونقول انظر الى ما لا مكدر فيه قوله تعالى (اولم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها) ومن قال انه لا يؤثر عندي ما يؤثر عند غيري من انجذاب الطبع الى الهوى كان مدعياً ما يخالف الجبلة فلا يلتفت الى دعواه وقد بالغت في الكشف عن هذا كله في كتابي المسمى بتلبيس ابليس فلم ار التطويل ههنا والله اعلم .

﴿ باب آداب المعيشة واخلاق النبوة ﴾

اعلم ان آداب الظواهر عنوان آداب البواطن ، وحركات الجوارح ثمرات الخواطر ، والاعمال نتائج الاخلاق ، والاداب رشح المعارف ، وسرائر القلوب هي مغارس الافعال ومنابعها ، وانوار السرائر هي التي تشرق على الظواهر فتزينها وتحليها ، ومن لم يخشع قلبه لم تخشع جوارحه ، ومن لم يكن صدره مشكاة الانوار الالهية ، لم يفض على ظاهره جمال الاداب النبوية ، وقد اسلفنا جملة من الاداب بما يغني عن اعادتها ههنا لكن نقتصر في هذا الباب على شيء من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم واخلاقه لنجمع مع جمع الاداب تأكيد الايمان بمشاهدة اخلاقه الكريمة التي يشهد احادها بأنه اكرم الخلق

واعلاهم مرتبة واجلهم قدراً فكيف بمجموعها ، سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت كان خلقه القرآن يغضب لغضبه و يرضا لرضاه ، ولما كمل الله تعالى خلقه اثنى عليه فقال (وانك لعلى خلق عظيم) فسبحان من اعطى ثم اثنى

وهذه جملة من محاسن أخلاقه صلى الله عليه وسلم وصفته : كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم احلم الناس واسخا الناس واعطف الناس ، وكان يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم في مهنة أهله ، وكان أشد حياء من العذراء في خدرها ، وكان يجيب دعوة المملوك ويعود المرضى ويمشي وحده ويردف خلفه ويقبل الهدية ويأكلها ويكافيء عليها . ولا يأكل الصدقة ولا يجد من الدقل ما يملأ بطنه ، ولم يشبع من خبز بر ثلاثة ايام تباعاً ، وكان يعصب على بطنه الحجر من الجوع ، وكان يأكل ما حضر ، وما عاب طعاماً قط ، وكان لا يأكل متكئاً ، ويأكل مما يليه ، وكان أحب الطعام اليه اللحم ، ومن الشاة الكتف ومن البقول الدباء ، ومن الصباغ الخل ، ومن التمر العجوة ، وكان يلبس ما وجد مرة برد حبرة ، ومرة جبة صوف ، ويركب تارة بعيراً وتارة بغلة وتارة حماراً ويمشي مرة راجلا حافياً ، وكان يحب الطيب ، ويكره الريح الخبيثة ويكرم اهل الفضل ، ويتألف اهل الشرف ، لا يجفو على احد ، ويقبل معذرة المعتذر اليه ، يمزح ولا يقول الا حقاً ، يضحك من غير قهقهة ، لا يمضي عليه وقت في غير عمل لله تعالى او فيما لا بد منه من صلاح نفسه ، وما لعن امرأة ولا خادماً قط ، وما ضرب أحداً بيده قط الا ان يجاهد في سبيل الله ، وما انتقم لنفسه الا ان تنتهك حرمات الله ، وما خير

ين شيئين الا اختار أيسرهما الا ان يكون مأثماً او قطيعة رحم فيكون ابعد الناس منه ، وقال أنس رضي الله عنه خدمته عشر سنين فما قال لي أف قط ، ولا قال لشيء فعلته لمَ فعلته ، ولا لشيء لم أفعله ألا فعلت كذا .

ومن صفته في التوراة : محمد رسول الله عبدي المختار ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الاسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو و يصفح ، وكان من خلقه انه يبدأ بالسلام من لقيه ، ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف ، وما أخذ احد يده فأرسل يده حتى يرسلها الآخذ ، وكان يجلس حيث ينتهي به المجلس مختلطاً بأصحابه كأنه احدهم فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل عنه ، وكان طويل السكوت فاذا تكلم لم يسرد كلامه بل يتثبت فيه و يكرره ليفهم ، وكان يعفو مع القدرة ولا يواجه أحداً بما يكره ، وكان أصدق الناس لهجة واوفاهم ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، وكان أصحابه اذا تكلموا في امر الدنيا تحدث معهم وكانوا يتذاكرون امر الجاهلية فيتضاحكون ويتبسم ، وكان اشجع الناس قال بعض اصحابه كنا اذا احمرّ البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن بالطويل البائن ولا بالقصير كان ربعة من القوم ، وكان ازهر اللون ولم يكن بالادم ، وكان رجل الشعر ليس بالسبط ولا الجعد القطط ، وكان شعره الى شحمة اذنه ، وكان واسع الجبهة ، ازج الحواجب ادعج العينين ، اهدب الاشفار ، اقنى العرنين ، سهل الخدين ، كث اللحية ، كأن عنقه جيد دمية ، عريض الصدر ، سواء البطن والصدر ، رحب الراحة طويل الزندين ، كفه ألين من الحرير صلى الله عليه وسلم

﴿ وَ اما معجزاته صلى الله عليه وسلم ﴾

فان من شاهد احواله وسمع اخباره المشتملة على اخلاقه وافعاله وآدابه وبدائع تدبيره لمصالح الخلق ومحاسن اشارته في تفصيل ظاهر الشرع الذي تعجز العقلاء والفقهاء عن ادراك اوائل دقائقها في طول اعمارهم لم يبق عنده ريب في ان ذلك لم يكن مكتسباً بحيلة وانه لايتصور ذلك الا بالاستمداد من تأييد سماوي وقوة الهية وان ذلك لا يصح لملبس ولا كذاب بل كانت شمائله واحواله شواهد قاطعة بصدقه ومن اعظم معجزاته واوضح دلالاته القرآن العزيز الذي عجز الخلائق عن الاتيان بمثله ومعجز كل نبي انقضى بذهابه وهذا المعجز باق ابداً .

ومن معجزاته انشقاق القمر ونبع الماء من بين اصابعه واطعامه الخلق الكثير من الطعام اليسير ورميه بحصيات يسيرة فوصلت الى اعين الخلق الكثير وحنين الجذع اليه كما يحن العشار واخباره بالغائبات فكانت كما قال. ورد عين قتادة بيده فكانت احسن عينيه وتفل في عين علي رضي الله عنه وهو ارمد فصح من وقته الى غير ذلك من المعجزات التي شاعت ولم يوجد سبيل الى كتمانها نسأل الله ان يوفقنا للاقتداء بأخلاقه وصفاته انه كريم مجيب، والحمد لله رب العالمين

﴿ باب شرح عجائب القلب ، وهو الاول من ربع المهلكات ﴾

اعلم ان اشرف ما في الانسان قلبه فانه العالم بالله العامل له الساعي اليه المقرب المكاشف بما عنده وانما الجوارح اتباع وخدم له يستخدمها استخدام الملوك للعبيد ومن عرف قلبه عرف ربه واكثر الناس جاهلون بقلوبهم

ونفوسهم والله يحول بين المرء وقلبه وحيلولته ان يمنعه من معرفته ومراقبته فمعرفة القلب وصفاته اصل الدين واساس طريق السالكين

فصل

اعلم ان القلب بأصل فطرته قابل للهدى ، و بما وضع فيه من الشهوة والهوى مائل عن ذلك ، والتطارد فيه بين جندي الملائكة والشياطين دائم الى ان ينفتح القلب لأحدهما فيتمكن و يستوطن و يكون اختيار الثاني اختلاساً كما قال تعالى (من شر الوسواس الخناس) وهو الذي اذا ذكر الله خنس واذا وقعت الغفلة انبسط ولا يطرد جندَ الشياطين من القلب الا ذكر الله تعالى فانه لا قرار له مع الذكر .

واعلم ان مثل القلب كمثل حصن والشيطان عدو يريد ان يدخل الحصن و يملكه و يستولي عليه و لا يمكن حفظ الحصن الا بحراسة ابوابه و لا يقدر على حراسة ابوابه من لا يعرفها و لا يتوصل الى دفع الشيطان الا بمعرفة مداخله ومداخل الشيطان و ابوابه صفات العبد وهي كثيرة الا انا نشير الى الابواب العظيمة الجارية مجري الدروب التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان

فمن ابوابه العظيمة الحسد والحرص فمتى كان العبد حريصاً على شيء أعماه حرصه واصمه وغطى نور بصيرته التي تعرف بها مداخل الشيطان وكذلك اذا كان حسوداً فيجد الشيطان حينئذ الفرصة فيحسن عند الحريص كلما يوصله الى شهوته وان كان منكراً او فاحشاً

ومن ابوابه العظيمة الغضب والشهوة والحدة فان الغضب غول العقل واذا ضعف جند العقل هجم حينئذ الشيطان فلعب بالانسان وقد روي

ان ابليس يقول اذا كان العبد حديداً قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة

ومن ابوابه حب التزين في المنزل والاثاث فلا يزال يدعو الى عمارة الدار وتزيين سقوفها وحيطانها والتزين بالثياب والاثاث فيخسر الانسان طول عمره في ذلك

ومن ابوابه الشبع فانه يقوي الشهوة ويشغل عن الطاعة ، ومنها الطمع في الناس فان من طمع في شخص بالغ بالثناء عليه بما ليس فيه وداهنه ولم يأمره بالمعروف ولم ينهه عن المنكر

ومن ابوابه العجلة وترك التثبت وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « العجلة من الشيطان والتأني من الله تعالى »

ومن ابوابه حب المال ومتى تمكن من القلب افسده وحمله على طلب المال من غير وجهه واخرجه الى البخل وخوفه الفقر فمنع الحقوق اللازمة

ومن أبوابه حمل العوام على التعصب في المذاهب دون العمل بمقتضاها .

ومن ابوابه ايضاً حمل العوام على التفكر في ذات الله تعالى وصفاته وفي امور لا تبلغها عقولهم حتى يشككهم في اصل الدين

ومن ابوبه سوء الظن بالمسلمين فان من حكم على مسلم بسوء ظنه احتقره واطلق فيه لسانه ورأى نفسه خيراً منه وانما يترشح سوء الظن بخبث الظان لان المؤمن يطلب المعاذير للمؤمن ، والمنافق يبحث عن عيوبه

وينبغي للانسان ان يحترز عن مواقف التهم لئلا يساء به الظن فهذا طرف من ذكر مداخل الشيطان ، وعلاج هذه الافات سد المداخل بتطهير القلب من الصفات المذمومة وسيأتي الكلام على هذه الصفات انشاء الله

تعالى مفصلا، واذا قلعت عن القلب اصول هذه الصفات بقي للشيطان بالقلب خطرات واجتيازات من غير استقرار فيمنعه من ذلك ذكر الله تعالى وعمارة القلب بالتقوى ، ومثل الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك فان لم يكن بين يديك لحم وخبز فانه ينزجر بان تقول له اخسأ ، وان كان بين يديك شي من ذلك وهو جائع لم يندفع عنك بمجرد الكلام فكذلك القلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر، فاما القلب الذي غلب عليه الهوى فانه يرفع الذكر الى حواشيه فلا يتمكن الذكر من سويدائه فيستقر الشيطان في السويداء .

واذا اردت مصداق ذلك فتأمل في صلاتك وانظر الى الشيطان كيف يحدث قلبك في مثل ذلك الموطن بذكر السوق وحساب المعاملين وتدبير امر الدنيا .

واعلم انه قد عفي عن حديث النفس ، ويدخل في ذلك ما هممت به ومن ترك ذلك خوفاً من الله تعالى كتبت له حسنة وان تركه لعائق رجونا له المسامحة الا ان يكون عزماً فان العزم على الخطيئة خطيئة بدليل قوله صلى الله عليه وسلم « اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار قيل ما بال المقتول قال انه كان حريصاً على قتل صاحبه » وكيف لا تقع المؤاخذة بالعزم والاعمال بالنية وهل الكبر والرياء الا امور باطنة ولو ان انساناً رأى على فراشه اجنبية ظنها زوجته لم يأثم بوطئها ولو رأى زوجته وظنها اجنبية اثم بوطئها وكل هذا معلق بعقد القلب

فصل

وقد ورد في الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول « يا مثبت

القلوب ثبت قلوبنا على دينك يا مصرف القلوب اصرف قلبنا الى طاعتك
وفي حديث آخر « مثل القلب كمثل ريشة بارض فلات تقلبها الرياح »

واعلم ان القلوب في الثبات على الخير والشر والتردد بينهما ثلاثة

(الاول) قلب عمر بالتقوى وزكي بالرياضة وطهر عن خبائث الاخلاق فتنفرج فيه خواطر الخير من خزائن الغيب فيمده الملك بالهدى (القلب الثاني) قلب مخذول مشحون بالهوى مدنس بالخبائث ملوث بالاخلاق الذميمة فيقوى فيه سلطان الشيطان لاتساع مكانه فيضعف سلطان الايمان ويمتلئ القلب بدخان الهوى فيعدم النور ويصير كالعين الممتلئة بالدخان لا يمكنها النظر ولا يؤثر عنده زجر ولا وعظ (والقلب الثالث) قلب يبتدئ فيه خاطر الهوى فيدعوه الى الشر فيلحقه خاطر الايمان فيدعوه الى الخير ، مثاله ان يحمل الشيطان حملة على العقل ويقوّي داعي الهوى ويقول أما ترى فلاناً وفلاناً كيف يطلقون انفسهم في هواها حتى يعد جماعة من العلماء فتميل النفس الى الشيطان فيحمل الملك حملة على الشيطان ويقول هل هلك لا من نسي العاقبة فلا تغتر بغفلة الناس عن انفسهم أرأيت لو وقفوا في الصيف في الشمس ولك بيت بارد أكنت توافقهم ام تطلب المصلحة ؟ أفتخالفهم في حر الشمس ولا تخالفهم فيما يؤول الى النار ؟ فتميل النفس الى قول الملك ويقع التردد بين الجندين الى ان يغلب على القلب ما هو أولى به فمن خلق للخير يسر له ومن خلق للشر يسر له (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل

صدره ضيقا حرجاً كأنما يصعد في السماء) اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه

﴿ كتاب رياضة النفس وتهذيب الخلق ﴾

ومعالجة أمراض القلب وذلك في فصو :

اعلم ان الخلق الحسن صفة الأنبياء والصديقين وان الاخلاق السيئة سموم قاتلة تنخرط بصاحبها في سلك الشيطان ، وأمراض القلوب تفوت حياة الابد فينبغي ان تعرف العالل ثم التشمير في معالجتها ونحن نشير الى جمل من الامراض وكيفية معالجتها في الجملة من غير تفصيل فان ذلك يأتي مبيناً ان شاء الله تعالى .

﴿ الفصل الاول في فضيلة حسن الخلق وذم سوء الخلق ﴾

وقد ذ ر شيء من ذلك في آداب الصحبة ، واعلم ان الناس قد تكلموا في حسن الخلق متعرضين لثمرته لا لحقيقته ولم يستوعبوا جميع ثمراته بل ذكر كل منهم ما حضر في ذهنه ، وكشف الحقيقة في ذلك ان يقال كثيراً ما يستعمل حسن الخلق مع الخلق فيقال فلان حسن الخلق والخلق اي حسن الظاهر والباطن فالمراد بالخلق الصورة الظاهرة والمراد بالخلق الصورة الباطنة وذلك ان الانسان مركب من جسد ونفس فالجسد مدرك بالبصر والنفس مدركة بالبصيرة ولكل واحدة منهما هيأة وصورة اما جميلة او قبيحة والنفس المدركة بالبصيرة اعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر ولذلك عظم الله سبحانه وتعالى امره فقال (اني خالق بشراً من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحي) فنبه على ان الجسد منسوب

الى الطين والروح منسوب اليه سبحانه وتعالى فالخلق عبارة عن هيأة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية فان كانت الافعال جميلة سميت خلقاً حسناً وان كانت قبيحة سميت خلقاً سيئاً .

وقد زعم بعض من غلبت عليه البطالة فاستثقل الرياضة ان الاخلاق لا يتصور تغييرها كما لا يتصور تغيير صورة الظاهر والجواب انه لو كانت الاخلاق لا تقبل التغير لم يكن للمواعظ والوصايا معنى وكيف تنكر تغيير الاخلاق ونحن نرى الصيد الوحشي تستأنس والكلب يعلم ترك الاكل والفرس تعلم حسن المشي وجودة الانقياد الا ان بعض الطباع سريعة القبول للصلاح وبعضها مستصعبة ، واما خيال من اعتقد ان ما في الجبلة لا يتغير فاعلم انه ليس المقصود قمع هذه الصفات بالكلية وانما المطلوب من الرياضة رد الشهوة الى الاعتدال الذي هو وسط بين الافراط والتفريط واما قمعها بالكلية فلا كيف والشهوة انما خلقت لفائدة ضرورية في الجبلة ولو انقطعت شهوة الطعام لهلك الانسان او شهوة الوقاع لانقطع النسل ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الانسان عن نفسه ما يهلكه وقد قال الله تعالى (اشداء على الكفار) ولا تصدر الشدة الا عن الغضب ولو بطل الغضب لامتنع جهاد الكفار وقال تعالى (والكاظمين الغيظ) ولم يقل والفاقدين الغيظ وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والتقلل قال الله تعالى (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) الا ان الشيخ المرشد للمريد اذا رأى له ميلا الى الغضب والشهوة حسن ان يبالغ في ذمهما على الاطلاق ليرده الى التوسط ، ومما

يدل على ان المراد من الرياضة الاعتدال أن السخاء خلق مطلوب شرعاً وهو وسط بين طرفي التقتير والتبذير وقد اثنى الله عليه بقوله (والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) واعلم ان هذا الاعتدال تارة يحصل بكمال في الفطرة منحة من الخالق فكم من صبي يخلق صادقاً سخياً حليما، وتارة يحصل بالاكتساب وذلك بالرياضة وهو حمل النفس على الاعمال الجالبة للخلق المطلوب فمن اراد تحصيل خلق الجود فليتكلف فعل الجواد من البذل ليصير ذلك طبعاً له، وكذلك من اراد التواضع تكلف افعال المتواضعين وكذلك جميع الاخلاق المحمودة فان للعادة اثراً في ذلك كما ان من اراد ان يكون كاتباً تعاطى فعل الكتابة او فقيهاً تعاطى فعل الفقهاء من التكرار حتي ينعطف على قلبه صفة الفقه الا انه لا ينبغي ان تطلب تأثير ذلك في يومين او ثلاثة وانما يؤثر مع الدوام كما لا يطلب النمو على القامة في يومين او ثلاثة، وللدوام تأثير عظيم وكما لا ينبغي ان يستهان بقليل الطاعات فان دوامها يؤثر، كذلك لا يستهان بقليل الذنوب وكما ان تعاطي اسباب الفضائل يؤثر في النفس ويغير طبعها فكذلك مسائنة الكسل ايضاً يصير عادة فيحرم بسببه كل خير وقد تكتسب الاخلاق الحسنة بمصاحبة اهل الخير فان الطبع ص يسرق الخير والشر قلت: ويؤيد ذلك قوله صلى الله عليه وسلم «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»

﴿الفصل الثاني في بيان الطريق الى تهذيب الاخلاق﴾

قد عرفت ان الاعتدال في الاخلاق هو صحة في النفس والميل عن

الاعتدال سقم ومرض فاعلم ان مثال النفس في علاجها كالبدن في علاجه فكما ان البدن لا يخلق كاملا وانما يكمل بالتربية بالغذاء كذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال وانما تكمل بالتربية وتهذيب الاخلاق والتغذية بالعلم وكما ان البدن اذا كان صحيحاً فشأن الطبيب العمل على حفظ الصحة وان كان مريضاً فشأنه جلب الصحة اليه كذلك النفس اذا كانت زكية طاهرة مهذبة الاخلاق فينبغي ان يسعى لحفظها وجلب مزيد قوة اليها وان كانت عديمة الكمال فينبغي ان يسعى لجلب ذلك ، وكما ان العلة الموجبة لمرض البدن لا تعالج الا بضدها ان كانت من حرارة فبالبرودة وان كانت من البرودة فبالحرارة فكذلك الاخلاق الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها ضدها فيعالج مرض الجهل بالعلم ومرض البخل بالسخاء ومرض الكبر بالتواضع ومرض الشره بالكف عن المشتهى، وكما أنه لا بد من احتمال مرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لصلاح الابدان المريضة فكذلك لابد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر على مداواة مرض القلب بل اولى فان مرض البدن يخلص منه بالموت ومرض القلب عذاب يدوم بعد الموت ابداً ، وينبغي للذي يطب نفوس المريدين ان لا يهجم عليه بالرياضة في فن مخصوص حتى يعرف اخلاقهم وامراضهم اذ ليس علاج كل مريض واحداً فاذا رأى جاهلا بالشرع علمه واذا رأى متكبراً على ما يوجب التواضع او شديد الغضب الزمه الحلم، واشد حاجة الرائض لنفسه قوة العزم فمتى كان متردداً بعد فلاحه، ومتى احس من نفسه ضعف العزم يصبر فان نقصت عزيمتها عاقبها لئلا تعاود وكما قال رجل لنفسه تكلمين فيما لا يعنيك لأعاقبنك بصوم سنة .

﴿ الفصل الثالث في علامات مرض القلب وعوده الى الصحة ﴾

و بيان الطريق الى معرفة الانسان عيوب نفسه ، اعلم ان كل عضو خلق لفعل خاص فعلامة مرضه ان يتعذر فيه ذلك الفعل او يصدر منه مع نوع من الاضطراب فمرض اليد تعذر البطش ومرض العين تعذر الابصار ومرض القلب ان يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خلق لاجله وهو العلم والحكمة والمعرفة وحب الله وعبادته وايثار ذلك على كل شهوة. فلو ان الانسان عرف كل شيء ولم يعرف الله سبحانه كان كأنه لم يعرف شيئاً، وعلامة المعرفة الحب فمن عرف الله احبه وعلامة المحبة ان لا يؤثر عليه شيئاً من المحبوبات فمن آثر عليه شيئاً من المحبوبات فقلبه مريض كما ان المعدة التي تؤثر أكل الطين على أكل الخبز او قد سقطت عنها شهوة الخبز مريضة .

ومرض القلب خفي قد لا يعرفه صاحبه فلذلك يغفل عنه وان عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه لان دواءه مخالفة الهوى وان وجد الصبر لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه فان الأطباء هم العلماء والمرض قد استولى عليهم والطبيب المريض قل ما يلتفت الى علاجه فلهذا صار الداء عضالا واندرس هذا العلم وانكر طب القلوب ومرضها بالكلية و اقبل الناس على اعمال ظاهرها عبادات و باطنها عادات فهذه علامة اصل المرض .

واما عافيته وعوده الى الصحة بعد المعالجة فهو ان ينظر الى العلة فان كان يعالج داء البخل فعلاجه بذل المال ولكنه لا يسرف و يصير الي حد التبذير فيحصل داء آخر فيكون كمن يعالج البرودة بالحرارة الغالبة حتى تغلب الحرارة فيكون داء ايضاً بل المطلوب الاعتدال .

وإذا اردت ان تعرف الوسط فانظر الى نفسك فان كان امساك المال وجمعه ألذ عندك وايسر عليك من بذله لمستحقه فاعلم ان الغالب عليك خلق البخل فعالج نفسك على البذل وان صار البذل للمستحق ألذ عندك واخف عليك من الامساك فقد غلب عليك التبذير فارجع الى المواظبة على الامساك ولا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتيسير الافعال وتعسيرها حتى تنقطع علاقة قلبك عن المال فلا تميل الى بذله ولا امساكه بل يصير عندك كالماء فلا تطلب فيه امساكه لحاجة محتاج او بذله لحاجة محتاج فكل قلب صار كذلك فقد جاء الله سليما في هذا المقام ويجب ان يكون سليما عن سائر الاخلاق حتى لا تكون له علاقة بشيء من الدنيا حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها غير ملتفتة اليها ولا متشوقة الى اسبابها فحينئذ ترجع الى ربها رجوع النفس المطمأنة. ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض بل هو ادق من الشعر وأحد من السيف فلاجرم من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا جاز على مثل هذا الصراط في الاخرة ولأجل عسرة الاستقامة امر العبد ان يقول في كل يوم مرات (اهدنا الصراط المستقيم) ومن لم يقدر على الاستقامة فليجتهد على القرب من الاستقامة فان النجا بالعمل الصالح. ولا تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الاخلاق الحسنة فليتفقد كل عبد صفاته واخلاقه وليشتغل بعلاج واحد بعد واحد وليصبر ذو العزم على مضض هذا الامر فانه سيحلو كما يحلو الفطام للطفل بعد كراهته له فلو رد الى الثدي لكرهه ومن عرف قصر العمر

بالاضافة الى مدة حياة الآخرة حمل مشقة سفر ايام لتنعم الابد فعند ذلك يحمد القوم السرى

واعلم ان الله تعالى اذا اراد بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه فمن كملت بصيرته لم تخف عليه عيوبه واذا عرف العيوب امكنه العلاج ولكن اكثر الناس جاهلون بعيوبهم يرى احدهم القذى في عين اخيه ولا يرى ذلك في عينه فمن اراد الوقوف على عيب نفسه فله في ذلك اربع طرق (الطريقة الاولى) ان يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس يعرفه عيوب نفسه وطريق علاجها وهذا قد عز في هذا الزمان وجوده فمن وقع به فقد وقع بالطبيب الحاذق فلا ينبغي ان يفارقه (الطريقة الثانية) ان يطلب صديقاً صدوقا بصيراً متدينا وينصبه رقيباً على نفسه لينبهه على المكروه من اخلاقه وافعاله وقد كان عمر رضى الله عنه يقول: رحم الله امرءاً اهدى الينا عيوبنا، وسأل سلمان رضى الله عنه لما قدم عليه عن عيوبه فقال سمعت انك جمعت بين ادامين على مائدة وان لك حلتين حلة بالليل وحلة بالنهار فقال هل بلغك غير هذا قال لا قال اما هذان فقد كفيتهما، وكان عمر رضي الله عنه يسأل حذيفة هل انا من المنافقين ؟ وهذا لان كل من علت مرتبته في اليقظة زاد اتهامه لنفسه الا انه قد عز في هذا الزمان وجود صديق على هذه الصفة لأنه قل في الاصدقاء من يترك المداهنة فيخبر بالعيب او يترك الحسد فلا يزيد على قدر الواجب، وقد كان السلف يحبون من ينبههم على عيوبهم ونحن الان في الغالب ابغض الناس الينا من يعرفنا عيوبنا . وهذا دليل على ضعف الايمان فان الاخلاق السيئة كالعقارب ولو ان منبهاً نبهنا

على ان يحت ثوب احدنا عقرب لتقلدنا له منةواشتغلنا بقتلها والاخلاق الردءة اعظم ضررا من العقرب على ما لا يخفى (الطريقة الثالثة) ان يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة اعدأئه فان عين السخط تبدي المساوي وانتفاع الانسان بعدو مشاجر يذكر عيوبه اكثر من انتفاعه بصديق مداهن يخفي عنه عيوبه (الطريقةالرابعة) ان يخالط الناس فكل ما يراه مذموما فيما بينهم يجتنبه

فصـــل

وقد ذكرنا ان شهوات النفوس لم توضع الا لفائدة اذ لولا شهوة المطعم ما حصل تناول الغذاء ولولا شهوة الجماع لانقطع النسل وانما المذموم فضول الشهوات وطغيانها وثمة قوم لم يفهموا هذا القدر فاخذوا يتركون ما تشتهيه النفس وهذا ظلم لها باسقاط حقها فان لها حقا بدليل قوله صلى الله عليه وسلم « ان لنفسك عليك حقا » حتى ان قائلا منهم يقول لي كذا وكذا سنة اشتهي كذا فلا أتناوله وهذا انحراف عن الحل وخلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فانه كان يتناول المشتهى من الحلو والعسل وغيرهما فلا يلتفت الى زاهد قل علمه فحرم على نفسه حظها من المشتهى على الاطلاق فانه الى الظلم اقرب منه الى العدل وانما يترك المشتهى اذا صعبت الطريق اليه مثل ان لا يحصل الا بوجه مكروه او يخاف من تناوله انحلال عزم فتطمع النفس في استدامته او يحذر من ذلك زيادة شبع فيثقل عن عبادة فاما تناوله في بعض الاوقات لتقوية النفس فذلك كالطب للمريض يمدح ولا يذم ولا بأس بالرفق بالنفس لتقوى على السلوك .

﴿ بيان علامات حسن الخلق ﴾

ربما جاهد المريد نفسه حتى ترك الفواحش والمعاصي ثم ظن انه قد هذب خلقه واستغنى عن المجاهدة وليس كذلك فان حسن الخلق هو مجموع صفات المؤمنين وقد وصفهم الله تعالى فقال (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) الى قوله (اولئك هم المؤمنون حقاً) وقال (التائبون العابدون) الى قوله (وبشر المؤمنين) وقال (قد افلح المؤمنون) الى قوله (اولئك هم الوارثون) وقال (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً) الى آخر السورة فمن اشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الايات فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق وفقد جميعها علامة سوء الخلق ووجود بعضها دون البعض يدل على البعض دون البعض فليشتغل بحفظ ما وجده وتحصيل ما فقده وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن بصفات كثيرة واشار بها الى محاسن الاخلاق ففي الصحيحين من حديث انس رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وفيهما من حديث ابي هريرة رضي الله عنه عنه صلى الله عليه وسلم انه قال « من كان يؤمن بالله واليوم الاخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الاخر فليقل خيراً او ليصمت » وفي حديث « آخر اكمل المؤمنين ايماناً احسنهم اخلاقاً ».

ومن حسن الخلق احتمال الاذى ففي الصحيحين ان اعرابياً جذب رداء النبي صلى الله عليه وسلم حتى اثرت حاشيته في عاتقه صلى الله عليه وسلم ثم قال يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت اليه رسول الله صلى

الله عليه وسلم ثم ضحك ثم امر له بعطاء ، وكان اذا آذاه قومه قال «اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون» وكان اويس القرلي اذا رماه الصبيان بالحجارة يقول : يا اخوتاه ان كان ولا بد فارموني بالصغار لئلا تدموا ساقي فتمنعوني من الصلاة ، وخرج ابراهيم بن ادهم الى بعض البراري فاستقبله جندي فقال اين العمران فأشار له الى المقبرة فضرب رأسه فشجه فلما اخبر انه ابراهيم جعل يقبل يده ورجله فقال انه لما ضرب رأسي سألت الله له الجنة لاني علمت اني اوجر بضربه اياي فلم احب ان يكون نصيبي منه الخير ونصيبه مني الشر . واجتاز بعضهم في سكة فطرح عليه رماد من سطح فجعل اصحابه يتكلمون فقال من استحق النار فصولح على الرماد ينبغي له ان لا يغضب . فهذه نفوس ذللت بالرياضة فاعتدلت اخلاقها ونقيت عن الغش فأثمرت الرضا بالقضاء ومن لم يجد من نفسه بعض هذه العلامات التي وجدها هؤلاء فينبغي ان يداوم الرياضة ليصل فانه بعد ما وصل

﴿فصل في رياضة الصبيان في اول النشء﴾

اعلم ان الصبي امانة عند والديه وقلبه جوهرة ساذجة وهي قابلة لكل نقش فان عود الخير نشأ عليه وشاركه ابواه ومؤدبه في ثوابه وان عود الشر نشأ عليه وكان الوزر في عنق وليه فينبغي ان يصونه ويؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الاخلاق ويحفظه من قرناء السوء ولا يعوده التنعم ولا يحبب اليه اسباب الزينة واسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها اذا كبر بل ينبغي ان يراقبه من اول عمره فلا يستعمل في رضاعه وحضانته الا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال فان اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه

فاذا بدت فيه مخايل التمييز واولها الحياء وذلك علامة النجابة وهي مبشرة بكمال العقل عند البلوغ فهذا يستعان على تأديبه بحيائه .

واول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي ان يعلم آداب الأكل ويعوده اكل الخبز وحده في بعض الاوقات لئلا يألف الادام فيراه كالحتم ويقبح عنده كثرة الاكل بان يشبه الكثير الاكل بالبهائم ويحبب اليه الثياب البيض دون الملونة والابريسم ويقرر عنده ان ذلك من شأن النساء والمخنثين ، ويمنعه من مخالطة الصبيان الذين عودوا التنعم ثم يشغله في المكتب بتعليم القراءة واحاديث الاخيار ليغرس في قلبه حب الصالحين ولا يحفظ الاشعار التي فيها ذكر العشق ومتى ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي ان يكرم عليه ويجازى بما يفرح به ويمدح بين اظهر الناس فان خالف في بعض الاحوال تغوفل عنه ويكاشف فان عاد عوتب سراً وخوف من اطلاع الناس عليه ، ولا يكثر عليه العتاب لان ذلك يهون عليه سماع الملامة وليكن حافظاً هيبة الكلام معه وينبغي للأم ان تخوفه بالاب ، وينبغي ان يمنع النوم نهاراً فانه يورث الكسل ولا يمنع النوم ليلا ولكنه يمنع الفرش الوطيئة لتتصلب اعضاؤه ويتعود الخشونة في المفرش والملبس والمطعم ، ويعود المشي والحركة والرياضة لئلا يغلب عليه الكسل ، ويمنع ان يفتخر على اقرانه بشيء بما يملكه ابواه او بمطعمه او ملبسه ويعود التواضع والاكرام لمن يعاشره ويمنع ان يأخذ شيئاً من صبي مثله ويعلم ان الاخذ دناءة وان الرفعة في الاعطاء ، ويقبح عنده حب الذهب والفضة ، ويعود ان لا يبصق في مجلسه ، ولا يتمخط ولا يتثاءب بحضرة غيره ولا يضع رجلا على رجل ،

و يمنع من كثرة الكلام ، ويعود ان لا يتكلم الا جوابا وان يحسن الاستماع اذا تكلم غيره ممن هو اكبر منه ، وان يقوم لمن هو فوقه و يجلس بين يديه ، و يمنع من لغو الكلام و من مخالطة من يفعل ذلك فان اصل حفظ الصبيان حفظهم من قرناء السوء ، ويحسن ان يفسح له بعد خروجه من المكتب في لعب جميل ليستريح به من تعب التأديب كما قيل : روحوا القلوب تعي الذكر ، و ينبغي ان يعلم طاعة والديه و معلمه وتعظيمهم ، واذا بلغ سبع سنين امر بالصلاة ولم يسامح في ترك الطهارة ليتعود ، و يخوف من الكذب والخيانة ، واذا قارب البلوغ القيت اليه الامور واعلم ان الاطعمة ادوية والمقصود منها تقوية البدن على طاعة الله تعالى وان الدنيا لا بقاء لها وان الموت يقطع نعيمها وهو منتظر في كل ساعة وان العاقل من تزود لآخرته فان كان نشؤه صالحاً ثبت هذا في قلبه كما يثبت النقش في الحجر .

قال سهل بن عبد الله كنت ابن ثلاث سنين وانا اقوم بالليل انظر الى صلاة خالي محمد بن سوار فقال لي خالي يوما الا تذكر الله الذي خلقك ؟ قلت كيف اذكره قال قل بقلبك ثلاث مرات من غير ان تحرك لسانك : الله معي الله ناظر الي الله شاهدي ، فقلت ذلك ليالي ثم اعلمته ، فقال قلها في كل ليلة احدى عشر مرة فقلت ذلك فوقع في قلبي حلاوته فلما كان بعد سنة قال لي خالي احفظ ما علمتك و دم عليه الى ان تدخل قبرك فلم ازل على ذلك سنين فوجدت له حلاوة في سري ثم قال خالي يا سهل من كان الله معه وهو ناظر اليه و شاهد عليه هل يعصيه اياك و المعصية ومضيت الى المكتب و حفظت القرآن وانا ابن ست سنين او سبع ثم كنت اصوم الدهر وقوتي من خبز

الشعير ثم بعد ذلك كنت اقوم الليل كله .

فصـــل

واعلم ان من شاهد الاخرة بقلب مشاهدة يقين اصبح بالضرورة مريداً لها زاهداً في الدنيا فان من كان معه خرزة فرأى جوهرة نفسية لم يبق له رغبة في الخرزة فاذا قيل له بعها بالجوهرة اسرع الى ذلك واعلم أن من رزقه الله تعالى الانتباه لذلك فان عليه لسلوك الرياضة شرطاً لابد من تقديمه، ومعتصماً لابد من التمسك به، وحصناً لابد من التحصن به

فاما الشرط فهو رفع الحجاب بترك الذنوب

واما المعتصم فشيخ يدله على الطريق لئلا تختطفه الشياطين في السبل .

واما الحصن فالخلوة وعليه من الوظائف مخالفة الهوى وكثرة الاقتصاد في الاوراد .

ومنتهى الرياضة ان يجد قلبه مع الله ابدا ولا يمكن ذلك الا بان يخلو من غيره ولا يخلو الا بطول المجاهدة فهذا منهاج رياضة المريد وتربيته في التدريج فاما تفصيل الرياضة في كل صفة فسيأتي ان شاء الله تعالى .

﴿ كتاب كسر الشهوتين: شهوة البطن ، وشهوة الفرج ﴾

شهوة البطن من اعظم المهلكات وبها اخرج آدم عليه السلام من الجنة ومن شهوة البطن تحدث شهوة الفرج والرغبة في المال ويتبع ذلك آفات كثيرة كلها من بطر الشبع وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « المؤمن يأكل في معاء واحد والكافر يأكل في سبع امعاء » وفي حديث آخر « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن حسب ابن آدم اكلات يقمن صلبه ، فان كان لا

محالة فثلث طعام، و ثلث شراب، و ثلث لنفسه » وقال عقبة الراسبي
دخلت على الحسن و هو يتغذى فقال هلم فقلت اكلت حتى لا استطيع
فقال سبحان الله او يأكل المسلم حتى لا يستطيع ان يأكل ، و قد بالغ جماعة
من الزهاد في التقلل من الأكل والصبر على الجوع وقد بينا عيب ما سلكوا
في غير هذا الكتاب ومقام العدل في الأكل رفع اليد مع بقا شيء من
الشهوة و نهاية المقام الحسن قوله صلى الله عليه وسلم « ثلث طعام،
و ثلث شراب، و ثلث لنفسه » فالاكل في مقام العدل يصح البدن و ينفي
المرض وذلك ان لا يتناول الطعام حتى يشتهيه ثم يرفع يده وهو
يشتهيه والدوام على التقلل من الطعام يضعف القوى، وقد قلل اقوام مطاعمهم
حتى عجزوا عن الفرائض وظنوا بجهلهم ان ذلك فضيلة وليس كذلك ومن
مدح الجوع فانما اشار الى الحالة التي ذكرناها .

و طريق الرياضة في كسر شهوة البطن ان من تعود استدامة الشبع
فينبغي له ان يقلل من مطعمه يسيراً يسيراً مع الزمان الى ان يقف على
حد التوسط الذي اشرنا اليه وخير الامور اوساطها فالأولى تناول ما
لا يمنع من العبادة و يكون سبباً لبقاء القوة فلا يحس المتناول بجوع ولا شبع
فحينئذ يصح البدن و تجتمع الهمة و يصفو الفكر و متى زاد في الأكل اورثه
كثرة النوم و بلادة الذهن و ذلك بتكثير البخار في الدماغ حتى يغطي
مكان الفكر وموضع الذكر و يجلب امراضاً أخر

و ليحذر من ترك شيئاً من الشهوات ان تتطرق اليه آفة الرياء
و قد كان بعضهم يشتري الشهوة و يعلقها في بيته و هو زاهد فيها يستر بها
زهده و هذا هو الزهد في الزهد باظهار ضده وهو عمل الصديقين لأنه

يجرع نفسه كاس الصبر مرتين و الثانية امر

واما شهوة الفرج فاعلم ان شهوة الوقاع سلطت على الادمى لفائدتين: احداهما بقاء النسل و الثانية ليدرك لذة يقيس عليها لذات الاخرة فان مالم يدرك جنسه بالذوق، لا يعظم اليه الشوق الا انه اذا لم ترد هذه الشهوة الى الاعتدال جلبت آفات كثيرة و محنا و لو لا ذلك ما كان النسا حبائل الشيطان و في الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم «قال ما تركت في الناس بعدي فتنة اضر على الرجال من النساء» و قال بعض الصالحين لو ائتمنني رجل على بيت مال لظننت ان أؤدي اليه الامانة ولو ائتمنني على زنجية اخلو بها ساعة واحدة ما ائتمنت نفسي عليها، وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال «لا يخلون رجل بامرأة فان ثالثهما الشيطان» و قد ينتهي الافراط في هذه الشهوة حتى تصرف همة الرجل الى كثرة التمتع بالنساء فيشغله عن ذكر الاخرة و ربما آل الى الفواحش و قد تنتهي بصاحبها الى العشق و هو اقبح الشهوات واجدرها ان يستحي منه وقد يقع عند كثير من الناس عشق المال والجاه واللعب بالنرد و الشطرنج و الطنبور ونحو ذلك فتستولي هذه الاشياء على القلوب فلا يبصرون ويسهل الاحتراز عن ذلك في بدايات الامور فان آخرها يفتقر الى علاج شديد و قد لا ينجح ومثاله من يصرف عنان الدابة عند توجهها الى باب تريد دخوله فما اهون منعها بصرف عنانها، ومثال من يعالجه بعد استحكامه مثال من يتركها حتى تدخل الباب و تجاوزه ثم يأخذ بذنبها يجرها الى وراء و ما اعظم التفاوت بين الامرين!!؟

﴿ كتاب آفات اللسان ﴾

وآفاته كثيرة متنوعة ولها في القلب حلاوة ولها بواعث من الطبع ولا نجاة من خطرها الا بالصمت فلنذكر اولا فضيلة الصمت ثم نتبعه بذكر الافات مفصلة ان شاء الله تعالى . اعلم ان الصمت يجمع الهمة ويفرغ الفكر وفي الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه اضمن له الجنة » وفي حديث آخر « لا يستقيم ايمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » وفي حديث معاذ في آخره « كف عليك هذا فقلت يا رسول الله وانا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال ثكلتك امك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم او على مناخرهم الا حصائد السنتهم » وفي حديث آخر « من كف لسانه ستر الله عورته » وقال ابن مسعود : ما شيء احوج الى طول سجن من لساني وقال ابو الدرداء انصف اذنك من فيك فانما جعلت لك اذنان وفم واحد لتسمع اكثر مما تتكلم به وقال مخلد بن الحسين ما تكلمت منذ خمسين سنة كلمة أريد ان اعتذر منها .

﴿ ذكر آفات الكلام ﴾

(الآفة الاولى) الكلام فيما لا يعني واعلم ان من عرف قدر زمانه وانه رأس ماله لم ينفقه الا في فائدة ، وهذه المعرفة توجب حبس اللسان عن الكلام فيما لا يعني لأنه من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعني كان كمن قدر على اخذ جوهرة فأخذ عوضها مدرة وهذا خسران العمر وفي الحديث الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « من حسن اسلام

المرء تركه ما لا يعنيه » وقيل للقمان الحكيم ما بلغ من حكمتك قال لا اسأل مما كفيت ولا اتكلم بما لا يعنيني ، وقد روي انه دخل على داود عليه السلام وهو يسرد درعاً فجعل يتعجب مما رأى فاراد ان يسأله عن ذلك فمنعته حكمته فامسك فلما فرغ داود عليه السلام قام ولبس الدرع ثم قال نعم الدرع للحرب فقال لقمان الصمت حكم وقليل فاعله

(الآفة الثانية) الخوض في الباطل وهو الكلام في المعاصي كذكر مجالس الخمر ومقامات الفساق . وانواع الباطل كثيرة وعن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « ان العبد ليتكلم بالكلمة ينزل بها في النار ابعد ما بين المشرق والمغرب » وقريب من ذلك الجدال والمراء وهو كثرة الملاحاة (١) للشخص لبيان غلطه وافحامه والباعث على ذلك الترفع فينبغي للانسان ان ينكر المنكر من القول ويبين الصواب فان قبل منه والا ترك المماراة هذا اذا كان الامر معلقاً بالدين فاما اذا كان في امور الدنيا فلا وجه للمجادلة فيه ، وعلاج هذه الآفة بكسر الكبر الباعث على اظهار الفضل ، اعظم من المراء الخصومة فانها امر زائد على المراء وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال « ابغض الرجال الى الله الالد الخصم » وهذه الخصومة نعني بها الخصومة بالباطل او بغير علم فاما من له حق فالاولى ان يصدف (٢) على الخصومة مهما امكن لأنها توغر الصدر وتهيج الغضب وتورث الحقد وتخرج الى تناول العرض .

(الآفة الثالثة) التقعر في الكلام وذلك يكون بالتشدق (٣) وتكلف السجع وعن ابي ثعلبة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ان

---

(١) الخصومة الطويلة والمنازعة (٢) يعرض (٣) التشبه بالاشدق وهو المفوه الفصيح

اغضكم الي وابعدكم مني يوم القيامة مساويكم اخلاقاً الثرثارون [١] المتشدقون المتفيهقون [٢] » ولا يدخل في كراهة السجع والتصنع الفاظ الخطيب والتذكير من غير افراط ولا اغراب لأن المقصود من ذلك تحرك القلوب وتشويقها ورشاقة اللفظ ونحو ذلك

(الآفة الرابعة) الفحش والسب والبذا فان ذلك ونحوه مذموم منهي عنه ومصدره الخبث واللؤم وفي الحديث « اياكم والفحش فان الله لا يحب الفحش ولا التفحش الجنة حرام على كل فاحش » وفي حديث آخر « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء » واعلم ان الفحش والبذاء هو التعبير عن الامور المستقبحة بالعبارات الصريحة واكثر ما يكون ذلك في ألفاظ الجماع وما يتعلق به فان اهل الخير يتحاشون عن تلك العبارات ويكنون عنها ومن الافات الغنا وقد سبق فيه كلام في غير هذا الموضع

(الآفة الخامسة) المزاح اما اليسير منه فلا ينهى عنه اذا كان صدقاً وان النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يمزح ولا يقول الا حق فانه قال لرجل « يا ذا الأذنين » وقال لاخر « انا حاملوك على ولد الناقة » وقال لعجوز « انه لا يدخل الجنة عجوز » ثم قرأ (انا انشأناهن انشاء) وقال لاخرى « زوجكِ الذي في عينيه بياض » فقد اتفق في مزاحه صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة اشياء احدها كونه حقاً والثاني كونه مع النساء والصبيان ومن يحتاج الى تأديبه من ضعفاء الرجال الثالث كونه نادراً فلا ينبغي ان يحتج به من يريد الدوام عليه فان حكم النادر ليس كحكم الدائم ، ولو ان انساناً

(١) الثرثار المهذار (٢) المتوسعون في الكلام (٣) اي كلام السوء

دار مع الحبشة ليلا و نهاراً ينظر الى لعبهم واحتج بان النبي صلى الله عليه و آله و سلم وقف لعائشة وأذن لها ان تنظر الى الحبشة لكان غالطاً لندور ذلك فالافراط في المزاح والمداومة عليه منهي عنه لانه يسقط الوقار و يوجب الضغائن والأحقاد و أما اليسير كما تقدم من نحو مزح النبي صلى الله عليه و آله و سلم فان فيه انبساطا و طيب نفس

(الآفة الخامسة) السخرية والاستهزاء ومعنى السخرية الاحتقار والاستهانة و التنبيه على العيوب و النقائص على وجه ضحك منه و قد يكون ذلك بالمحاكات في الفعل والقول وقد يكون بالاشارة والايماء وكله ممنوع منه في الشرع ورد النهي عنه في الكتاب والسنة

(الآفة السابعة) افشاء السر واخلاف الوعد والكذب في القول واليمين و كل ذلك منهي عنه الا ما رخص فيه من الكذب لزوجته وفي الحرب فان ذلك يباح و ضابطه ان كل مقصود محمود لا يمكن التوصل اليه الا بالكذب فهو فيه مباح ان كان ذلك المقصود مباحاً وان كان المقصود واجباً فهو واجب فينبغي ان يحترز عن الكذب مهما امكن وتباح المعاريض لقوله صلى الله عليه و آله و سلم « ان في المعاريض مندوحة عن الكذب » وانما تصلح المعاريض عند الحاجة اليها فاما مع غير الحاجة فمكروهة لأنها تشبه الكذب فمن المعاريض ما روي عن عبد الله بن رواحه رضي الله عنه انه اصاب جارية له فعلمت امرأته فاخذت شفرة ثم اتت فوافقته قد قام عنها فقالت افعلتها فقال ما فعلت شيئاً قالت لتقرأن القرآن او لأبعجنك بها فقال رضي الله عنه :

وفينا رسول الله يتلو كتابه اذا انشق معروف من الفجر ساطع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه اذا استثقلت بالكافرين المضاجع
ارانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات إن ما قال واقع

قالت آمنت بالله وكذبت بصري ، وكان النخعي اذا طلب قال للجارية قولي لهم اطلبوه في المسجد .

(الآفة الثامنة) الغيبة وقد ورد الكتاب العزيز بالنهي عنها وشبه صاحبها بآكل الميتة وفي الحديث « ان دماكم واموالكم واعراضكم عليكم حرام » وعن ابي برزة الاسلمي قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهن فانه من تتبع عورة اخيه تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته » وفي حديث آخر « اياكم والغيبة فان الغيبة اشد من الزنا ان الرجل قد يزني ويشرب ثم يتوب ويتوب الله عليه وان صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه » وقال علي ابن الحسين رضي الله عنهما : اياك والغيبة فانها ادام كلاب الناس والاحاديث والاثار في ذلك كثيرة مشهورة ومعنى الغيبة ان تذكر اخاك الغائب بما يكرهه اذا بلغه سواء كان نقصاً في بدنه كالعمش والعور والحول والقرع والطول والقصر ونحو ذلك ، او في نسبه كقولك ابوه نبطي او هندي او فاسق او خسيس ونحو ذلك ، او في ثوبه كقولك هو طويل الذيل واسع الكم وسخ الثياب والدليل على ذلك ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن الغيبة قال « ذكرك اخاك بما يكره » قال ارايت ان كان في اخي ما اقول يا رسول الله ؟ قال ان كان في اخيك ما تقول فقد

اغتبته وان لم يكن فيه ماتقول بهته .

واعلم ان كلما يفهم منه مقصود الذم فهو داخل في الغيبة سواء كان بكلام او بغيره كالفخر والاشارة و الكتابة بالقلم فان القلم احد اللسانين واقبح انواع الغيبة غيبة المتزهدين المرائين مثل ان يذكر عندهم انسان فيقولون الحمد لله الذي لم يبتلينا بالدخول على السلطان والتبذل في طلب الحطام، او يقولون نعوذ بالله من قلة الحياء فنسأل الله العافية فانهم يجمعون بين ذم المذكور و مدح انفسهم ، و ربما قال احدهم عند ذكر انسان ذاك المسكين قد بلي بآفة عظيمة تاب الله علينا و عليه فهو يظهر الدعاء و يخفي قصده .

واعلم ان المستمع للغيبة شريك فيها و لا يتخلص من إثم سماعها الا ان ينكر بلسانه فان خاف فبقلبه وان قدر على القيام او قطع الكلام بكلام آخر لزمه ذلك و قد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال « من اذل عنده مؤمن و هو يقدر ان ينصره اذله الله عز و جل على رؤس الخلائق » و قال صلى الله عليه و سلم « من حمى مؤمناً من منافق يعيبه بعث الله ملكا يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم » ورأى عمرو بن عتبة مولاه مع رجل وهو يقع في آخر فقال له ويلك نزه سمعك عن استماع الخنا كما تنزه نفسك عن القول به فالمستمع شريك القائل ، وانما نظر الى شر ما في دعائه فافرغه في وعائك ، ولو ردت كلمة سفيه في فيه لسعد بها رادها كما شقي بها قائلها وقد وردت احاديث في حق المسلم على المسلم تقدمت في كتاب الصحبة

﴿ فصل في بيان الاسباب الباعثة على الغيبة وذكر علاجها ﴾

اما الاسباب التي تبعث على الغيبة فكثيرة منها تشفي الغيظ بان يجري من انسان في حق آخر سبب يوجب غيظه فكلما هاج غضبه تشفى بغيبة صاحبه ، السبب الثاني من البواعث على الغيبة موافقة الاقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم فانهم اذا كانوا يتفكهون في الاعراض رأى هذا أنه اذا انكر عليهم او قطع كلامهم استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ، الثالث ارادة رفع نفسه بتنقيص غيره فيقول فلان جاهل وفهمه ركيك ونحو ذلك وغرضه ان يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه ويريهم أنه اعلم منه وكذلك الحسد في ثناء الناس على شخص وحبهم له واكرامهم فيقدح فيه ليقصد زوال ذلك ، الرابع اللعب والهزل فيذكر غيره بما يضحك الناس به على سبيل المحاكاة حتى ان بعض الناس يكون كسبه من هذا .

وأما علاج الغيبة فليعلم المغتاب انه بالغيبة متعرض لسخط الله تعالى ومقته وان حسناته تنقل الى المغتاب اليه وان لم يكن حسنات نقل اليه من سيئات خصمه فمن استحضر ذلك لم يطلق لسانه بالغيبة ، وينبغي اذا عرضت له الغيبة ان يتفكر في عيوب نفسه ويشتغل باصلاحها ويستحي ان يعيب وهو معيب كما قال بعضهم .

فان عبت قوماً بالذي فيك مثله   فكيف يعيب الناس من هو اعور
وان عبت قوماً بالذي ليس فيهم   فذلك عند الله والناس اكبر

وان ظن انه سليم من العيوب فليتأمل بالشكر على نعم الله عليه ولا يلوث نفسه بأقبح العيوب وهو الغيبة وكما لا يرضى لنفسه بغيبة غيره له

فبنبغي ان لا يرضاها لغيره من نفسه ، فلينظر في السبب الباعث على الغيبة فيجتهد على قطعه فان علاج العلة يكون بقطع سببها . وقد ذكرنا بعض اسبابها فيعالج الغضب بما سيأتي في كتاب الغضب و يعالج موافقة الجلاس بأن يعلم أن الله تعالى يغضب على من طلب رضي المخلوقين بسخطه بل ينبغي ان يغضب على رفقائه . وعلى نحو هذا معالجة البواقي .

فصـــل

وقد تحصل الغيبة بالقلب وذلك سوء الظن بالمسلمين . والظن ما تركن اليه النفس و يميل اليه القلب . فليس لك ان تظن بالمسلم شراً الا اذا انكشف امر لا يحتمل التأويل فان اخبرك بذلك عدل فمال قلبك الى تصديقه كنت معذوراً لأنك لو كذبته كنت قد أسأت الظن بالمخبر فلا ينبغي ان تحسن الظن بواحد وتسيئه بآخر . بل ينبغي ان تبحث هل بينهما عداوة وحسد فتتطرق التهمة حينئذ بسبب ذلك ، ومتى خطر لك خاطر سوء على مسلم فينبغي ان تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير فان ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك فلا يلقي اليك خاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة واذا تحققت هفوة مسلم فانصحه في السر . واعلم ان من ثمرات سوء الظن التجسس وان القلب لا يقنع بالظن بل يطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس و ذلك منهي عنه لأنه يوصل الى هتك ستر المسلم و لو لم ينكشف لك كان قلبك اسلم للمسلم .

﴿ بيان الأعذار المرخصة في الغيبة و كفارة الغيبة ﴾

اعلم ان المرخص في ذكر مساوي الغير هو غرض صحيح في

الشرع لا يمكن التوصل اليه الا به وذلك يدفع إثم الغيبة وهو أمور :
(احدها) التظلم فان للمظلوم ان يذكر الظالم اذا استعداه الى من يستوفي
حقه (الثاني) الاستعانة على تغيير المنكر ورد الظالم الى منهاج الصلاح
(الثالث) الاستفتاء مثل ان يقول للمفتي ظلمني فلان او اخذ حقي فكيف
طريقي في الخلاص فالتعيين مباح ، والاولى التعريض وهو ان يقول
ما تقول في رجل ظلمه ابوه او اخوه او نحو ذلك والدليل على اباحة
التعيين حديث هند حين قالت ان ابا سفيان رجل شحيح ولم ينكر
عليها النبي صلى الله عليه وسلم (الأمر الرابع) تحذير المسلمين مثل ان
ترى متفقهاً يتردد الى مبتدع او فاسق وتخاف ان يتعدى اليه ذلك فلك ان
ان تكشف له الحال ، وكذلك اذا عرفت من عبدك السرقة او الفسق
فتذكر ذلك للمشتري ، وكذلك المستشار في التزوج وايداع الأمانة له
ان يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير لا على قصد الوقيعة اذا
اعلم انه لا ينزجر الا بالتصريح (الخامس) ان يكون معروفاً بلقب
كالأعرج والأعمش فلا إثم على من يذكره به وان وجد عن ذلك
معدلا كان أولى (السادس) ان يكون مجاهراً بالفسق ولا يستنكف
أن يذكر به وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « من القى
جلباب الحياء فلا غيبة له » وقيل للحسن الفاجر المعلن بفجوره ذكري
له بما فيه غيبة ؟ قال لا ولا كرامة .

(واما كفارة الغيبة) فاعلم ان المغتاب قد جنى جنايتين : احداهما
على حق الله تعالى اذ فعل ما نهاه عنه فكفارة ذلك التوبة والندم ،
والجناية الثانية على عرض المخلوق فان كانت الغيبة قد بلغت الرجل جاء

اليه واستحله واظهر له الندم على فعله . وقد روى ابو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « من كانت عنده مظلمة لأخيه من مال او عرض فليأته فليستحلها منه قبل ان يؤخذ وليس عنده درهم ولا دينار فان كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطيها هذا والا أخذ من سيئات هذا فألقي عليه » وان كانت الغيبة لم تبلغ الرجل جعل مكان استحلاله الاستغفار له لئلا يخبره بما لا يعلمه فيوغر صدره وقد ورد في الحديث « كفارة من اغتيب ان يستغفر له » وقال مجاهد : كفارة أكلك لحم اخيك ان تثني عليه وتدعو له بخير وكذلك ان كان قد مات .

(الآفة التاسعة) من آفات اللسان النميمة وفي الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا يدخل الجنة قتات » وهو النمام واعلم ان النميمة تطلق في الغالب على نقل قول انسان مثل ان يقول قال فيك فلان كذا وكذا وليست مخصوصة بهذا بل حدها كشف ما يكره كشفه سواء كان من الأقوال أو الاعمال حتى لو رآه يدفن مالا لنفسه فذكره فهو نميمة وكل من نقلت اليه النميمة مثل أن يقال له قال فيك فلان كذا وكذا او فعل في حقك كذا ونحو ذلك فعليه ستة أشياء « الاول » ان لا يصدق الناقل لأن النمام فاسق مردود الشهادة « الثاني » ان ينهاه عن ذلك وينصحه « الثالث » أن يبغضه في الله فانه بغيض عند الله « والرابع » ان يظن باخيه الغائب السوء « الخامس » أن لا يحمله ما حكى له على التجسس والبحث لقوله تعالى (ولا تجسسوا) « السادس » أن لا يرضى لنفسه ما نهي النمام عنه فلا يحكي نميمة . ويروى أن سليمان بن عبد الملك قال لرجل بلغني انك وقعت فيّ وقلت كذا وكذا فقال الرجل

ما فعلت فقال سليمان ان الذي اخبرني صادق . فقال الرجل لا يكون النمام صادقاً فقال سليمان صدقت إذهب بسلام ، وقال يحي بن كثير يفسد النمام في ساعة ما لا يفسد الساحر في شهر ، وقد حكي أن رجلا ساوم بعبد فقال مولاه اني أبرأ اليك من النميمة والكذب فقال نعم انت بريء منهما ، فاشتراه فجعل يقول لمولاه إن امرأتك تبغي وتفعل وإنها تريد أن تقتلك ويقول للمرأة ان زوجك يريد ان يتزوج عليك ويتسرى فان اردت أن اعطفه عليك فلا يتزوج ولا يتسرى فخذي الموسى واحلقي شعرة من حلقه اذا نام وقال للزوج إنها تريد ان تقتلك اذا نمت قال فذهب فتناوم لها فجاءت بموسى لتحلق شعرة من حلقه فأخذ بيدها فقتلها فجاء اهلها فاستعدوا عليه فقتلوه

(الآفة العاشرة) كلام ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعادين وينقل كلام كل واحد الى الاخر ويكلم كل واحد بكلام يوافقه او يعده انه ينصره او يثني على الواحد في وجهه ويذمه عند الاخر وفي الحديث « ان شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » واعلم ان هذا فيمن لم يضطر الى ذلك فاما اذا اضطر الى مداراة الامراء جاز ، قال ابو الدرداء رضى الله عنه : انا لنشكر في وجوه اقوام وان قلوبنا لتلعنهم ومتى قدر ان لا يظهر موافقتهم لم يجز له

(الآفة الحادية عشر) المدح وله آفات منها ما يتعلق بالمادح ومنها ما يتعلق بالممدوح فاما آفات المادح فقد يقول مالا يتحققه ولا سبيل الى الاطلاع عليه مثل ان يقول أنه ورع وزاهد وقد يفرط في المدح فينتهي الى الكذب وقد يمدح من ينبغي ان يذم وقد روي في حديث

« ان الله تعالى يغضب اذا مدح الفاسق » وقال الحسن : من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب ان يعصي الله ، واما الممدوح فانه يحدث فيه كبراً او اعجاباً وهما مهلكان و لهذا قال النبي صلى الله عليه و آله و سلم لما سمع رجلا يمدح رجلا : و يلك قطعت عنق صاحبك . الحديث وهو مشهور وقد روينا عن الحسن قال كان عمر رضى الله عنه قاعداً ومعه الدرة والناس حوله إذ أقبل الجارود فقال رجل هذا سيد ربيعة فسمعها عمر رضي الله عنه ومن حوله وسمعها الجارود فلما دنى منه خفقه (١) بالدرة فقال مالي ولك يا أمير المؤمنين ؟ قال ما لي و لك اما لقد سمعتها قال سمعتها فمه قال خشيت ان يخالط قلبك منها شيء فاحببت ان أطأطي ء (٢) منك ولأن الانسان اذا اثني عليه بالخير رضى عن نفسه وظن انه قد بلغ المقصود فيفتر عن العمل و لهذا قال قطعت عنق الرجل (٣) فاما اذا سلم المدح من هذه الآفات لم يكن به بأس فقد اثنى النبي صلى الله عليه و آله و سلم على ابي بكر و عمر رضى الله عنهما و غيرهما من الصحابة رضي الله عنهم وعلى الممدوح ان يكون شديد الاحتراز من آفة الكبر والعجب والفتور عن العمل ولا ينجو من هذه الآفات الا ان يعرف نفسه و يتفكر في ان المادح لو عرف منه ما يعرف من نفسه ما مدحه ، وقد روي ان رجلا من الصالحين اثني عليه فقال اللهم ان هؤلاء لا يعرفوني و أنت تعرفني

(الآفة الثانية عشر) الخطأ في فحوى الكلام فيما يرتبط في أمور الدين لاسيما فيما يتعلق بالله تعالى ولا يقدر على تقويم اللفظ بذلك الا

---

(١) اي ضربه (٢) اى اخفض (٣) كذا في الاصول التي بايدينا وفي الاحياء : ولهذا قال عليه السلام : قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما افلح .

العلماء الفصحاء فمن قصر في علم او فصاحة لم يخل كلامه عن الزلل
لكن يعفو الله عنه لجهله مثال ذلك ما روي عن النبي صلى الله عليه
وآله وسلم انه قال « لا يقل احدكم ما شاء الله وشئت ولكن ليقل
ما شاء الله ثم شئت » وذلك لأن في العطف المطلق تشريكا وتسوية
وقريب من ذلك انكاره على الخطيب قوله « ومن يعصهما فقد غوى »
وقال قل « ومن يعص الله ورسوله » وقال عليه الصلاة والسلام « لا يقل
احدكم عبدي وأمتي كلكم عبيد الله وكل نسائكم اماء الله ولكن ليقل
غلامي وجاريتي » وقال النخعي اذا قال الرجل للرجل يا حمار يا خنزير
قيل له يوم القيامة أرأيتني خلقته حماراً او أرأيتني خلقته خنزيراً . فهذا
وامثاله مما يدخل في الكلام ولا يمكن حصره ومن تأمل ما اوردناه في
آفات اللسان علم انه اذا اطلق لسانه لم يسلم وعند ذلك يعرف سر قوله
صلى الله عليه وسلم « من صمت نجا » لأن هذه الآفات مهالك وهي على
طريق المتكلم فان سكت سلم

فصل

ومن آفات العوام سؤالهم عن صفات الله سبحانه وتعالى وكلامه

اعلم ان الشيطان يخيل الى العامي انك بخوضك في العلم تكون من العلماء
واهل الفضل ، فلا يزال يحبب اليه ذلك حتى يتكلم بما هو كفر وهو لا
يدري قال النبي صلى الله عليه وسلم « يوشك الناس ان يسألوا حتى
يقولوا هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله » فسؤال العوام عن غوامض
العلم اعظم الافات وبحثهم عن معاني الصفات مما يفسدهم لا مما يصلحهم
اذ الواجب عليهم التسليم فالاولى بالعامي الايمان بما ورد به القرآن ثم

التسليم لما جاء به الرسول من غير بحث واشتغالهم بالعبادات فان اشتغالهم بالبحث عن اسرار العلم كبحث سائمة الدواب عن اسرار الملك

﴿ كتاب ذم الغضب والحقد والحسد ﴾

اعلم ان الغضب شعلة من النار وان الانسان ينزع فيه عند الغضب عرق الى الشيطان اللعين حيث قال (خلقتني من نار و خلقته من طين) فان شأن الطين السكون والوقار وشأن النار التلظي والاشتعال ، والحركة والاضطراب ، ومن نتائج الغضب الحقد والحسد ، ومما يدل على ذم الغضب قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم للرجل الذي قال له اوصني قال « لا تغضب » فردد عليه مراراً قال « لا تغضب » في حديث آخر ان ابن عمر رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ماذا يبعدني من غضب الله عز وجل قال « لا تغضب » وفي المتفق عليه من حديث ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس الشديد بالصرعة انما الشديد الذي يمسك نفسه عن الغضب » وعن عكرمة في قوله تعالى (وسيدا وحصورا) قال السيد الذي لا يغلبه غضبه ، وروينا ن ذا القرنين لقي ملكا من الملائكة فقال علمني علما ازداد به إيماناً ويقينا قال لا تغضب فان الشيطان اقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب ، فرد الغضب بالكظم ، وسكنه بالتؤدة ، واياك والعجلة فانك اذا عجلت أخطأت حظك ، وكن سهلا ليناً للقريب والبعيد ولا تكن جبارا عنيدا ، وروينا ان ابليس لعنه الله بدا لموسى عليه السلام فقال ياموسى اياك والحدة فاني العب بالرجل الحديد كما يلعب الصبيان بالكرة

واياك والنساء فاني لم أنصب فخا قط أثبت في نفسي من فخ انصبه بامراة واياك والشح فاني افسد على الشحيح الدنيا والاخرة ، وكان يقال اتقوا الغضب فانه يفسد الايمان كما يفسد الصبر العسل والغضب عدو العقل

و حقيقة الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام فمتى غضب الانسان ثارت نار الغضب ثورانا يغلي به دم القلب وينتشر في العروق ويرتفع الى أعالي البدن كما يرتفع الماء الذى يغلي في القدر ولذلك يحمر الوجه والعين والبشرة وكل ذلك يحكي لون ما وراءه من حمرة الدم كما تحكى الزجاجة لون ما فيها وانما ينبسط الدم اذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه ، فان كان الغضب صدر ممن فوقه وكان معه يأس من الانتقام تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد الى جوف القلب فصار حزنا ولذلك يصفر اللون وإن كل الغضب على نظير يشك فيه تردد الدم بين انقباض وانبساط فيحمر ويصفر ويضطرب ، فالانتقام هو قوت لقوة الغضب ، والناس في قوة الغضب على درجات ثلاث : افراط ، وتفريط ، واعتدال . فلا يحمد الافراط فيها لانه يخرج العقل والدين عن سياستهما فلا يبقى للانسان مع ذلك نظر ولا فكر ولا اختيار ، والتفريط في هذه القوة ايضاً مذموم لأنه يبقى لا حمية له ولا غيرة ومن فقد الغضب بالكلية عجز عن رياضة نفسه اذ الرياضة انما تتم بتسليط الغضب الشهوة فيغضب على نفسه عند الميل الى الشهوات الخسيسة ففقد الغضب على مذموم فينبغي ان يطلب الوسط بين الطريقين . واعلم انه متى قويت نار الغضب والتهبت اعمت صاحبها واصمته عن كل موعظة لأن الغضب يرتفع الى الدماغ فيغطي على معادن الفكر وربما تعدى الى معادن الحس

فتظلم عينه حتى لا يرى بعينه وتسود الدنيا في وجهه ويكون دماغه على مثال كهف اضرمت فيه نار فاسود جوه وحمي مستقره وامتلأ بالدخان وكان فيه سراج ضعيف فانطفأ فلا يثبت فيه قدم ولا يسمع فيه كلمة ولا ترى فيه صورة ولا يقدر على اطفاء النار فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدماغ وربما زاد الغضب فقتل صاحبه . ومن آثار الغضب في الظاهر تغير اللون وشدة الرعدة في الاطراف وخروج الافعال عن الترتيب واستحالة الخلقة وتعاطي فعل المجانين ولو رأى الغضبان صورته في حال غضبه وقبحها لأنِف لنفسه من تلك الحال ومعلوم ان قبح الباطن عظم

﴿ فصل في بيان الأسباب المهيجة للغضب وذكر علاج الغضب ﴾

قد عرفت ان علاج كل علة بحسم مادتها وازالة اسبابها . فمن اسبابه العجب والمزح والمماراة والمضادّة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه وهذه اخلاق رديئة مذمومة شرعاً فينبغي ان يقابل كل واحد من هذه بما يضادّه فيجتهد على حسم مواد الغضب وقلع اسبابه ، واما اذا هاج الغضب فيعالج بأمور أحدها ان يتفكر في الأخبار الواردة في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال كما في البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنه ان رجلا استأذن على عمر رضي الله عنه فأذن له فقال له يا ابن الخطاب والله ما تعطينا الجزل (١) ولا تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر رضي الله عنه حتى همّ أن يوقع به(٢) فقال الحرب بن قيس يا أمير المؤمنين ان الله عز وجل قال لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) الجزل بمعنى الكثير من العطية (١) اي يضربه

(خذ العفو و أمر بالعرف واعرض عن الجاهلين) وان هذا من الجاهين فوالله ما جاوزها عمر رضي الله عنه حين تلاها عليه وكان و قافا عند كتاب الله عز وجل ، الثاني ان يخوف نفسه عقاب الله تعالى وهو ان يقول قدرة الله عليَّ اعظم من قدرتي على هذا الانسان فلو امضيت فيه غضبي لم آمن ان يمضي الله عز وجل غضبه عليَّ يوم القيمة احوج ما اكون الي العفو قال الله تعالى في بعض الكتب يا بن آدم اذكرني حين تغضب اذكرك حين اغضب ولا امحقك فيمن امحق ، والثالث ان يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام وتشمير العدو في هدم اعراضه و الشماتة بمصائبه فان الانسان لا يخلو عن المصائب فيخوف نفسه عن ذلك في الدنيا ان لم يخف من الاخرة وهذا هو تسليط شهوة على غضب و لا ثواب عليه لانه تقديم لبعض الحظوظ على بعض الا ان يكون محذوره ان يتغير عليه امر يعينه على الاخرة فيثاب على ذلك ، الرابع ان يتفكر في قبح صورته عند الغضب على ما تقدم وانه يشبه حينئذ الكلب الضاري والسبع العادي وانه يكون مجانباً لأخلاق الأنبياء والعلماء في عاداتهم لتميل نفسه الى الاقتداء بهم ، الخامس ان يتفكر في السبب الذي يدعوه الى الانتقام مثل ان يكون سبب غضبه ان يقول له الشيطان ان هذا يحمل منك على العجز والذلة والمهانة و صغر النفس وتصير حقيراً في اعين الناس فليقل لنفسه تأنفين من الاحتمال الآن و لا تأنفين من خزي يوم القيمة والافتضاح اذا اخذ هذا بيدك و انتقم و تحذرين من ان تصغري في اعين الناس و لا تحذرين من ان تصغري عند الله تعالى وعند الملائكة والنبيين و ينبغي ان يكظم غيظه فذلك يعظمه عند الله تعالى فماله وللناس

افلا يجب ان يكون هو القائم يوم القيمة اذا نودي ليقم من وقع اجره على الله فلا يقوم الا من عفى فهذا وامثاله ينبغي ان يقرره على قلبه ، السادس ان يعلم ان غضبه انما كان من شيء جرى على وفق مراد الله تعالى لا على وفق مراده فكيف يقدم مراده على مراد الله تعالى هذا ما يتعلق بالقلب .

واما العمل فينبغي له السكوت والتعوذ وتغيير الحال وان كان قائماً جلس وان كان جالساً اضطجع . وقد امرنا بالوضوء ايضاً عند الغضب فهذه الأمور وردت في الأحاديث . أما الحكمة في الوضوء عند الغضب فقد بينتها الاحاديث كما روى ابو وائل قال كنا عند عروة بن محمد فكلمه رجل بكلام فغضب غضباً شديداً فقام وتوضأ ثم جاء فقال حدثني ابي عن جدي عطية وكانت له صحبة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الغضب من الشيطان وان الشيطان خلق من النار وانما تطفأ النار بالماء فاذا غضب احدكم فليتوضأ » واما الجلوس والاضطجاع فيمكن ان يكون انما امر بذلك ليقرب من الأرض التي منها خلق فيذكر اصله فيذل ويمكن ان يكون ليتواضع بذله لأن الغضب ينشأ من الكبر بدليل ما روى ابو سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم انه ذكر الغضب وقال « من وجد شيئاً من ذلك فليلصق خده بالأرض » وقيل غضب المهدي على رجل فدعى بالسياط فلما رأى شبيب شدة غضبه وإطراق الناس فلم يتكلموا بشيء قال يا أمير المؤمنين لا تغضبن لله بأشد مما غضب لنفسه فقال خلوا سبيله .

﴿ فصل كظم الغيظ ﴾

قال الله تعالى (و الكاظمين الغيظ) فذكر ذلك في معرض المدح وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من كظم غيظاً وهو قادر على ان ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيره في اي الحور شاء » و روي عن عمر رضي الله عنه انه قال من اتقى الله لم يشف غيظه ومن خاف الله لم يفعل ما يريد ولو لا يوم القيامة لكان غير ما ترون .

﴿ فصل الحلم ﴾

روى ابو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « انما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم أطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم لينوا لمن تعلمون ولمن تعلمون منه ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم عليكم » وقال صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس (١) ان فيك خلقين يحبهما الله ورسوله الحلم والاناءة (٢) وشتم رجل ابن عباس رضي الله عنه فلما قضى مقالته فقال يا عكرمه أنظر هل للرجل حاجة فنقضيها فنكس الرجل رأسه واستحى ، وأسمع رجل معاوية رضي الله عنه كلاماً شديداً فقيل له لو عاقبته فقال اني لأستحي ان يضيق حلمي عن ذنب احد من رعيتي ، وقسم معاويه نطعاً (٣) فبعث منها الى شيخ من اهل دمشق فلم يعجبه فجعل عليه يميناً ان يضرب رأس معاوية فأتى معاوية فأخبره فقال له معاوية أوف بنذرك وارفق بالشيخ ، وجاء غلام

(١) هذا لقبه واسمه المنذر بن عمرو ، وقيل بن الحارث (٢) عدم العجلة
(٣) قال في القاموس النطع بالكسر و بالفتح و بالتحريك بساط من الأديم اه . وفي نسخة نطقاً قال في المصباح النطاق هو شبه ازار تلبسه المرأة .

لأبي ذر وقد كسر رجل شاة له فقال له من كسر رجل هذه ؟ قال انا فعلته عمداً لأغضبنك فتضربني فتأثم فقال لأغيظن من حرضك على غيظي فأعتقه . وشتم رجل عدي بن حاتم وهو ساكت فلما فرغ من مقالته قال ان كان بقي عندك شيء فقل قبل أن يأتي شباب الحي فانهم ان سمعوك تقول هذا لسيدهم لم يرضوا ، ودخل عمر بن عبد العزيز المسجد ليلة في الظلمة فمر برجل نائم فعثر به فرفع رأسه وقال أمجنون أنت ؟ فقال عمر لا . فهم به الحرس فقال عمر مه انما سألني أمجنون فقلت لا . ولقي رجل علي بن الحسين رضي الله عنهما فسبه فثارت اليه العبيد فقال مهلا ثم اقبل على الرجل فقال ما ستر عنك من أمرنا اكثر ألك حاجة نعينك عليها فاستحى الرجل . فالقى عليه خميصة (١) كانت عليه وأمر له بألف درهم فكان الرجل بعد ذلك يقول أشهد انك من اولاد الرسول . وقال رجل لوهب بن منبه ان فلاناً شتمك فقال ما وجد الشيطان بريداً غيرك .

﴿ فصل العفو والرفق ﴾

اعلم أن معنى العفو ان تستحق حقاً فتسقطه وتؤدي عنه من قصاص او غرامة وهو غير الحلم والكظم قال الله (والعافين عن الناس) وقال (فمن عفى واصلح فأجره على الله) وفي الحديث ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا يعفو الا عزاً وما تواضع احد لله الا رفعه الله » وعن عقبة بن عامر قال قال لي رسول الله صلى عليه وآله وسلم « يا عقبة الا اخبرك بافضل اخلاق

---

(١) ثياب خز او صوف ،

اهل الدنيا والاخرة تصل من قطعك و تعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك »
وروي ان منادياً ينادي يوم القيامة ليقم من وقع اجره على الله فلا
يقوم الا من عفى عن ظلمه. وعن أنس رضى الله عنه قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم « ان الله رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا
يعطي على العنف » وفي الصحيحين من حديث عائشة رضى الله عنها
عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال « ان الله عز وجل يحب الرفق
في الأمر كله » وفي حديث آخر « من يحرم الرفق يحرم الخير »

﴿ باب في الحقد والحسد ﴾

اعلم ان الغيظ اذا كظم لعجز عن التشفي في الحال رجع الى الباطن
فاحتقن فيه فصار حقداً وعلامته دوام بغض الشخص واستثقاله والنفور
منه فالحقد ثمرة الغضب، والحسد من نتائج الحقد. عن الزبير بن العوام
رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « دب اليكم داء الامم
قبلكم الحسد والبغضاء » وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم
انه قال « لا تباغضوا ولا تقاطعوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا
عباد الله اخوانا » وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وسلم انه قال « ان
الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » وفي حديث آخر انه قال
« يطلع عليكم من هذا الفج[١] رجل من اهل الجنة فطلع رجل فسئل عن
عمله فقال اني لا أجد لأحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على
خير اعطاه الله اياه » وروينا ان الله تبارك وتعالى يقول الحاسد عدو
نعمتي متسخط لقضائي غير راض بقسمتي بين عبادي. وقال ابن سيرين

---

(١) الفج بالفتح الطريق الواسع بين الجبلين

ما حسدت احداً على شيء من امر الدنيا لأنه ان كان من اهل الجنة فكيف احسده على شيء من أمر الدنيا و هو يصير الى الجنه وان كان من اهل النار فكيف احسده على شيء من امر الدنيا و هو يصير الى النار و قال ابليس لنوح عليه السلام : إياك والحسد فانه صير ني الى هذه الحال

واعلم ان ا تعالى اذا انعم على عبد نعمة فعليك فيها حالتان احداهما ان تكره تلك النعمة وتحب زوالها فهذا هو الحسد، والحالة الثانية ان لا تكره وجودها و لا تحب زوالها و لكنك تشتهي لنفسك مثلها فهذا يسمى غبطة

قال المصنف رحمه الله قلت واعلم اني ما رأيت أحداً حقق الكلام في هذا كما ينبغي و لا بدلي من كشفه فأقول : اعلم ان النفس قد جبلت على حب الرفعة فهي لا تحب ان يعلوها جنسها فاذا علا عليها شق عليها وكرهته واحبت زوال ذلك ليقع التساوي وهذا امر مركوز في الطباع و قد روى ابو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم انه قال « ثلاث لا ينجو منهن احد الظن و الطيرة والحسد و سأحدثكم ما المخرج من ذلك اذا ظننت فلا تحقق واذا تطيرت فامض واذا حسدت فلا تبغ » و علاج الحسد تارة بالرضى بالقضاء وتارة بالزهد في الدنيا و تارة بالنظر فيما يتعلق بتلك النعم من هموم الدنيا و حساب الاخرة فيتسلى بذلك و لا يعمل بمقتضى مافي النفس اصلا و لا ينطق فاذا فعل ذلك لم يضره ما وضع في جبلته . فاما من يحسد نبياً على نبوته فيحب ان لا يكون نبياً او عالماً على علمه فيؤثر ان لا يرزق ذلك او يزول عنه فهذا لا عذر له ولا تجبل عليه الا النفوس الكافرة او الشريرة فاما ان احب ان يسبق اقرانه و يطلع

على ما لم يدركه فانه لا يأثم بذلك. فانه لم يؤثر زوال ما عندهم عنهم بل احب الارتفاع عليهم ليزيد حظه عند ربه كما لو استبق عبدان الى خدمة مولاهما فأحب احدهما ان يستبق وقد قال الله تعالى (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون (١)) وفي الصحيحين من حديث عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «لا حسد الا في اثنتين رجل آتاه الله عز وجل القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه في الحق اناء الليل والنهار»

والحسد له اسباب احدها العداوة والتكبر والعجب وحب الرياسة وخبث النفس وبخلها واشدها العداوة والبغضا فان من آذاه انسان بسبب من الاسباب وخالفه في غرضه ابغضه قلبه ورسخ في نفسه الحقد والحقد يقتضي التشفي والانتقام فهما اصاب عدوه من البلاء فرح بذلك وظنه مكافاة من الله تعالى له ومهما اصابته نقمة ساءه ذلك فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما وانما غاية التقي ان لا يبغي وان يكره ذلك من نفسه فاما ان يبغض انساناً فيستوي عنده مسرته ومساءته فهذا غير ممكن، واما الكبر فهو ان يصيب بعض نظرائه مالا او ولايه فيخاف ان يتكبر عليه ولا يطيق تكبره او يكون من اصاب ذلك دونه فلا يحتمل ترفعه عليه او مساواته وكان حسد الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم قريباً من ذلك قال الله تعالى (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) وقال في حق المؤمنين (هؤلاء منّ الله عليهم من بيننا) وقال في آية اخرى (ما انتم الا بشر مثلنا) وقال (ولئن اطعتم

(١) اي يرغب الراغبون

بشراً مثلكم انكم اذن لخاسرون (فعجبوا وانفوا من ان يفوز برتبة الرسالة بشر مثلهم فحسدوهم

واما حب الرياسة والجاه فمثاله ان الرجل الذي يريد ان يكون عديم النظير في فن من الفنون اذا غلب عليه حب الثناء واستفزه الفرح بما يمدح به من انه اوحد العصر وفريد الدهر في فنه اذا سمع بنظير له في اقصى العالم سأه ذلك واحب موته او زوال النعمة التي بها يشاركه في علم او شجاعة او عبادة او صناعة او ثروة او غير ذلك وليس ذلك الا لمحض لرياسة بدعوى الانفراد وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة النبي صلى الله عليه وسلم ولا يؤمنون خوفاً من ابطال رآستهم .

واما خبث النفس وشحها على عباد الله فانك تجد من الناس من لا يشتغل برآسة ولا تكبر واذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما انعم عليه به شق عليه ذلك ، واذا وصف له اضطراب امور الناس وادبارهم وتنغيص عيشهم فرح به فهو ابداً يحب الادبار لغيره و يبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزائنه ، وقد قال العلماء البخيل من يبخل بمال نفسه والشحيح الذي يبخل بمال غيره فهذا يبخل بنعمة الله على عباده الذين ليس بينهم وبينه عداوة ولا رابطة وهذا ليس له سبب الا خبث النفس ورداءة الطبع وهذا معالجته شديدة لأنه ليس له سبب عارض فيعمل على ازالته بل سببه خبث الجبلة فيعسر ازالته فهذه اسباب الحسد .

فصل

واعلم انما يكثر الحسد بين أقوام تكثر بينهم الاسباب التي ذكرناها

و يقع ذلك غالباً بين الاقران والامثال والاخوة و بني العم لان سبب التحاسد توارد الاغراض على مقاصد يحصل التناقض فيها فيثور التنافر والتباغض ، ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد ، والعابد يحسد العابد دون العالم ، والتاجر يحسد التاجر ، والاسكاف يحسد الاسكاف ، ولا يحسد البزاز الا ان يكون سبب آخر لان مقصد كل واحد من هؤلاء غير مقصد الآخر . فأصل العداوة التزاحم على غرض واحد والغرض الواحد لا يجمع متباعدين اذ لا رابطة بين شخصين في بلدين و لا يكون بينهما محاسدة الا من اشتد حرصه على الجبلة فانه يحسد كل من في العالم ممن يساهمه في الخصلة التي يفاخر بها ، ومنشأ جميع ذلك حب الدنيا فان الدنيا هي التي تضيق على المتزاحمين واما الاخرة فلا ضيق فيها فان من احب معرفة الله تعالى وملائكته وأنبيائه وملكوت ارضه وسمائه لم يحسد غيره اذا عرف ذلك لان المعرفة لا تضيق على العارفين بل المعلوم الواحد يعرفه الف الف عالم و يفرح بمعرفته غيره فلذلك لا يكون بين علما الدين محاسدة لأن مقصودهم معرفة الله سبحانه وهو بحر واسع لا ضيق فيه وغرضهم المنزلة عند الله ولا ضيق فيما عند الله لأن أجل ما عند الله من النعيم لذة لقائه وليس فيه ممانعة ولا مزاحمة و لا يضيق بعض الناظرين على بعض بل يزيد الأنس بكثرتهم الا انه اذا قصد العلما بالعلم المال والجاه تحاسدوا .

والفرق بين العلم و المال ان المال لا يحل في يد ما لم يرتحل عن يد اخرى والعلم مستقر في قلب العالم و يحل في قلب غيره بتعليمه من غير ان يرتحل عن قلبه ولا نهاية له فمن عوّد نفسه الفكر في جلال الله

وعظمته وملكه صار ذلك عنده ألذ من كل نعيم لأنه لم يكن ممنوعا عنه ولا مزاحماً فيه فلا يكون في قلبه حسد لأحد من الخلق لأن غيره لو عرف مثل معرفته لم ينقص من لذته فقد عرفت انه لا حسد الا في المتوارد على مقصود يضيق عن الوفاء بالكل ولهذا لا ترى الناس يتزاحمون على النظر الى زينة السماء لأنها واسعة الأقطار وافية بجميع الأبصار فعليك ان كنت شفيقاً على نفسك أن تطلب نعيما لا زحمة فيه ، ولذة لا تتكدر ولا يوجد ذلك في الدنيا الا في معرفة الله تعالى وعجائب ملكوته ولا ينال ذلك في الاخرة الا بهذه المعرفة ايضاً ، فان كنت لا تشتاق الى معرفة الله سبحانه ولم تجد لذتها وضعفت فيها رغبتك فلست برجل انما هذا شأن الوجل لأن الشوق بعد الذوق ومن لم يذق لم يعرف ، ومن لم يعرف لم يشتق ، ومن لم يشتق لم يطلب ، ومن لم يطلب لم يدرك ، ومن لم يدرك بقي من المحرومين .

واعلم ان الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ولا تداوى أمراض القلوب الا بالعلم والعمل والعلم النافع لمرض الحسد هو ان تعرف حقيقة أن الحسد ضرر عليك في الدين والدنيا وانه لا يضر المحسود في الدين ولا في الدنيا بل ينتفع به والنعمة لا تزول عن المحسود بحسدك ولو لم تكن تؤمن بالبعث لكان مقتضى الفطنة ان كنت عاقلا ان تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب مع عدم النفع فكيف وأنت تعلم ما فيه من العذاب في الاخرة وبيان قولنا ان المحسود لا ضرر عليه في الدين ولا في الدنيا بل ينتفع بحسدك في الدين والدنيا لأن ما قدره الله له من نعمة لا بد ان تدوم الى اجله الذي قدره ولا ضرر عليه في الاخرة

لأنه لا يأثم هو بذلك بل ينتفع به لأنه مظلوم من جهتك لا سيما اذا اخرجت الحسد الى القول و الفعل .

واما منفعته في الدنيا فهو ان من اهم اغراض الخلق غم الاعداء ولا اعظم مما انت فيه من الحسد فاذا تأملت ما ذكرنا علمت انك عدو نفسك وصديق عدوك ، فما مثلك الا كمثل من يرمي حجراً الى عدوه ليصيب مقتله فلا يصيبه و يرجع الحجر على حدقته اليمنى فيقلعها فيزيد غضبه فيعود و يرميه بحجر اشد من الاول فيرجع الحجر على عينه الأخرى فيعميها فيزداد غيظه نيرميه الثالثة فيعود الحجر على رأسه فيشدخه وعدوه سالم يضحك به فهذه الادوية العلمية . واذا تفكر الانسان فيها اخمدت نار الحسد من قلبه ، واما العمل النافع فيه فهو ان يتكلف نقيض ما يأمره به الحسد فاذا بعثه على الحقد والقدح في المحسود كلف نفسه المدح له والثناء عليه وان حمله على الكبر ألزم نفسه التواضع له وان بعثه على كف الانعام عنه الزم نفسه زيادة في الانعام ، وقد كان جماعة من السلف اذا بلغهم ان شخصاً اغتابهم اهدوا اليه هدية فهذه ادوية نافعة للحسد جداً الا انها مرة وربما يسهل شربها ان يعلم انه لا يكون كلما تريد فادر ما يكون وهذا هو الدواء الكلي والله اعلم

﴿ باب ذم الدنيا ﴾

الآيات الواردة في القرآن العزيز بعيب الدنيا والتزهيد فيها وضرب الامثال لها كثيرة كقوله تعالى « زين للناس حب الشهوات الى قوله ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب قل أؤنبئكم بخير من

ذلكم الاية ، وقوله وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور ، وقوله انما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء الاية ، وقوله اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ، وقوله وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والاخرة عند ربك للمتقين ، وقوله فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد الا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم

واما الاحاديث ففي الصحيحين من رواية المسود بن شداد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ما الدنيا في الاخرة الا كمثل ما يجعل احدكم اصبعه في اليم فلينظر عما ترجع » وفي حديث آخر « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » رواه مسلم ، وفي حديث آخر « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء » رواه الترمذي وصححه وفي حديث اخر « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها الا ما كان لله منها » وروى ابو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « من احب دنياه اضر بآخرته ومن احب آخرته اضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى » وكتب الحسن الى عمر بن عبد العزيز في ذم الدنيا كتاباً طويلا فيه : اما بعد فان الدنيا دار ظعن ليست بدار مقام ، وانما انزل اليها آدم عقوبة فاحذرها يا امير المؤمنين فان الزاد منها تركها ، والغنى فيها فقرها ، تذل من اعزها وتفقر من جمعها كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه ، فاحذر هذه الدار الغرارة الخيالة الخداعة ، وكن اسرَّ ما تكون فيها احذر ما تكون لها سرورها مشوب بالحزن ، وصفوها مشوب بالكدر ، فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبرا ولم يضرب لها مثلا لكانت قد ايقظت النائم ونبهت الغافل فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر ، وفيها واعظ ، فما لها عند الله سبحانه

قدر ولا وزن ، وما نظر اليها منذ خلقها ، ولقد عرضت على نبينا صلى الله عليه وسلم مفاتيحها وخزائنها لا ينقصه عند الله جناح بعوضة فابى ان يقبلها ، وكره ان يحب ما ابغض خالقه او يرفع ما وضع مليكه ، زواها الله عن الصالحين اختيارا ، وبسطها لاعدائه اغترارا ، أفيظن المغرور بها المقتدر عليها انه اكرم بها ، ونسي ما صنع الله بمحمد صلى الله عليه وسلم حين شد على بطنه الحجر والله ما احد ن الناس بسط له في الدنيا فلم يخف ان يكون قد مكر به الا كان قد نقص عقله وعجز رأيه ، وما أمسك عن عبد فلم يظن انه قد خير له فيها الا نقص عقله وعجز رأيه .

وقال مالك بن دينار اتقوا السحارة فانها تسحر قلوب العلماء يعني الدنيا .

ومن امثلة الدنيا قال . يونس بن عبيد : شبهت الدنيا كرجل نائم فرأى في منامه ما يكرهه وما يحب فبينما هو كذلك انتبه ومثل هذا قولهم الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا ، والمعنى انهم ينتبهون بالموت وليس في ايديهم شئ مما ركنوا اليه وفرحوا به ، قيل ان عيسى عليه السلام رأي الدنيا في صورة عجوز هتماء (١) عليها من كل زينة فقال لها كم تزوجت قالت لا احفظهم قال فكلهم مات عنك او كلهم طلقك ، قالت بل كلهم قتلت فقال عيسى عليه السلام بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بازواجك الماضين كيف تهلكهم واحداً بعد واحد ولا يكونون منك على حذر ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنه قال يؤتى بالدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء (٢) زرقاء انيابها بادية مشوه خلقها فتشرف على الخلق فيقال هل

(١) ليس لها اسنان وفي نسخة صماء وهي الداهية (٢) طويلة القامة

تعرفون هذه فيقولون نعوذ بالله من معرفة هذه فيقال هذه الدنيا التي تشاجرتم عليها وبها تقاطعتم الارحام وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ثم تقذف في جهنم فتقول يا رب أين اتباعي واشياعي فيقول ألحقوا بها اتباعها واشياعها ، وعن ابي العلاء قال رأيت في النوم عجوزاً كبيرة عليها من كل زينة والناس عكوف عليها متعجبون ينظرون اليها فقلت لها من انت ويلك ؟ قالت أما تعرفني قلت لا فاني الدنيا فقلت اعوذ بالله من شرك قالت إن احببت ان تعاذ من شري فابغض الدرهم ، وقال بعضهم رأيت الدنيا في النوم عجوزاً مشوهة الخلقة حدباء

مثال آخر : اعلم ان أحوالك ثلاث حال لم تكن فيها شيئاً وهي قبل ان توجد ، وحال اخرى وهي من ساعة موتك الى ما لا نهاية له في البقاء السرمد فان لنفسك وجوداً بعد خروجها من بدنك اما في الجنة او النار وهو الخلود الدائم ، وبين هاتين الحالتين حالة متوسطة وهي أيام حياتك في الدنيا ، فانظر الى مقدار ذلك وانسبه الى الحالتين تعلم انه أقل من طرفة عين في مقدار عمر الدنيا ومن رأى الدنيا بهذه العين لم يركن اليها ولم يبال كيف انقضت ايامه بها في ضرر وضيق او سعة ورفاهية ولهذا لم يضع رسول الله صلى الله عليه وسلم لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة وقال مالي وللدنيا انما مثلي ومثل الدنيا راكب قال (١) تحت شجرة ثم راح وتركها ، وقال عيسى عليه السلام الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها هذا مثل واضح فان الحياة الدنيا معبر الى الاخرة ، والمهد هو الركن الاول على اول القنطرة ، واللحد هو الركن الثاني على اخر القنطرة ومن الناس

---

(١) من القيلولة وهي النوم نصف النهار

من قطع نصف القنطرة ، ومن الناس من قطع ثلثيها ، و منهم من لم يبق له الا خطوة واحدة وهو غافل عنها وكيف ما كان فلا بد من العبور فمن وقف يبني على القنطرة ويزينها وهو يستحث للعبور عليها فهو في غاية الجهل والحمق .

وقيل مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشاً حتي يقتله وكان بعض السلف يقول لأصحابه انطلقوا حتى أريكم الدنيا فيذهب بهم الى مزبلة فيقول انظروا الى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم .

مثال آخر روي عن الحسن قال بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال « انما مثلي ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء حتى اذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر و ما بقي أنفذوا الزاد وخسروا الظهر وبقوا بين ظهراني المفازة لا زاد ولا حمولة فأيقنوا بالهلكة فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رجل في حلة تقطر رأسه فقالوا ان هذا قريب عهد بريف وما جاءكم هذا الا من قريب فلما انتهى اليهم قال يا هؤلاء علام انتم ؟ قالوا على ما ترى قال أرأيتكم ان هديتكم الى ماء رواء ورياض خضر ما تعملون ؟ قالوا لا نعصيك شيئاً قال عهودكم ومواثيقكم بالله قال فأعطوه عهودهم ومواثيقهم الله لا يعصونه شيئا قال فأوردهم ماء ورياضاً خضراً فمكث فيهم ما شاء الله ثم قال يا هؤلاء الرحيل قالوا الى أين قال الى ماء ليس كمائكم والى رياض ليست كرياضكم فقال اكثر القوم والله ما وجدنا هذا حتى ظننا ان لن نجده وما نصنع بعيش خير من هذا وقالت طائفة قليلة ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله

لا تعصوه وقد صدقكم في اول حديثه فوالله ليصدقنكم في آخره قال فراح فيمن اتبعه و تخلف بقيتهم فنزل بهم عدو فاصبحوا من بين اسير وقتيل »

وفي الصحيحين من حديث ابي موسى رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان مثلي ومثل ما بعثني الله عنه كمثل رجل اتى قومه فقال يا قوم اني رأيت الجيش بعيني وانا النذير العريان فالنجاء فأطاعه طائفة من قومه فادلجوا وانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبته طائفة منهم فاصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش في مكانهم فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من اطاعني واتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق

﴿ فصل في بيان حقيقة الدنيا والمذموم منها والمحمود ﴾

قد سمع خلق كثير ذم الدنيا مطلقاً فاعتقدوا ان الاشارة الى هذه الموجودات التي خلقت للمنافع فأعرضوا عما يصلحهم من المطاعم والمشارب وقد وضع الله في الطباع توقان النفس الى ما يصلحها فكلما تاقت منعوها ظناً منهم ان هذا هو الزهد المراد وجهلا بحقوق النفس وعلى هذا أكثر المتزهدين وانما فعلوا ذلك لقلة العلم ونحن نصدع بالحق من غير محاباة فنقول : اعلم ان الدنيا عبارة عن اعيان موجودة للانسان فيها حظ وهي الأرض وما عليها فان الأرض مسكن الآدمي وما عليها ملبس ومطعم ومشرب ومنكح وكل ذلك علف لراحلة بدنه السائر الى الله عز وجل فانه لا يبقى الا بهذه المصالح كما لا تبقى الناقة في طريق الحج الا بما يصلحها فمن تناول منها ما يصلحه على الوجه المأمور به مدح ومن اخذ منها فوق الحاجة يكتنف الشره وقع في الذم فانه ليس للشره في

تناول الدنيا وجه لأنه يخرج عن النفع الى الأذى ويشغل عن طلب الأخرى فيفوت المقصود ويصير بمثابة من أقبل يعلف الناقة ويردها الماء ويغير عليها ألوان الثياب وينسى ان الرفقة قد سارت فانه يبقى في البادية فريسة للسباع هو وناقته ، ولا وجه ايضاً للتقصير في تناول الحاجة لأن الناقة لا تقوى على السير الا بتناول ما يصلحها فالطريق السليم هي الوسطى وهي ان يؤخذ من الدنيا قدر ما يحتاج اليه من الزاد للسلوك وان كان مشتهى فان اعطاء النفس ما تشتهيه عون لها وقضاء لحقها ، وقد كان سفيان الثوري يأكل في اوقات من طيب الطعام ويحمل معه في السفر الفالوذج وكان ابراهيم ابن ادهم يأكل من الطيبات في بعض الاوقات ويقول اذا وجدنا اكلنا أكل الرجال واذا فقدنا صبرنا صبر الرجال ، ولينظر في سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته فانهم ما كان لهم افراط في تناول الدنيا ولا تفريط في حقوق النفس وينبغي ان يتلمح حظ النفس في المشتهى فان كان في حظها حفظها وما يقيمها ويصلحها ويبسطها للخير فلا يمنعها منه وان كان حظها مجرد شهوة ليست متعلقة بمصالحها المذكورة فذلك حظ مذموم ، والزهد فيه يكون .

﴿ باب في ذم البخل والحرص والطمع ﴾

وذم المال ومدحه ومدح القناعة والسخاء ونحو ذلك

اعلم ان المال لا يذم لذاته بل يقع الذم لمعنى من الآدمي وذلك المعنى اما شدة حرصه او تناوله من غير حله او حبسه عن حقه او إخراجه

في غير وجهه او المفاخرة به ، ولهذا قال الله تعالى (انما أموالكم واولادكم فتنة) وفي صحيح الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « ما ذئبان جائعان ارسلا في غنم بافسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » وقد كان السلف يخافون من فتنة المال كان عمر رضي الله عنه اذا رأى الفتوح يبكي ويقول ما حبس الله هذا عن نبيه صلى الله عليه وسلم وعن ابي بكر لشر أراده الله بهما وأعطاه عمر ارادة الخير له ، وقال يحيي بن معاذ الدرهم عقرب فان لم تحسن رقيته فلا تأخذه فانه ان لدغك قتلك سمه قيل ما رقيته ؟ قال اخذه من حله ووضعه في حقه ، وقال مصيبتان للعبد في ماله عند موته لا تسمع الخلائق بمثلهما قيل ماهما؟ قال يؤخذ منه كله ويسأله عنه كله

﴿ بيان مدح المال ﴾

قد بينا ان المال لا يذم لذاته بل ينبغي ان يمدح لانه سبب للتوصل الى مصالح الدين والدنيا وقد سماه الله تعالى خيرا وهو قوام الادمي قال الله تعالى في اول سورة النساء (ولا تؤتوا السفهاء (٢) اموالكم التي جعل الله لكم قياما) وقال سعيد بن المسيب : لا خير فيمن لا يزيد جمع المال من حله يكف به وجهه عن الناس ويصل به رحمه ويعطي منه حقه، وقال ابو اسحق السبيعي كانوا يرون السعة عونا على الدين ، وقال سفيان المال في زماننا هذا سلاح المؤمنين ،وحاصل الامر ان المال مثل حية فيها سم وترياق فترياقه فوائده ، وغوائله سمه ، فمن عرف فوائده وغوائله امكنه ان يحترز من شره ، ويستدر من خيره

---

(١) المبذرين من الرجال والنساء والصبيان

اما فوائده فتنقسم الى دنيوية و دينية. اما الدنيوية فالخلق يعرفونها ولذلك تهالكوا في طلبها.

واما الدينية فتنحصر في ثلاثة انواع:

(احدها) ان ينفقه على نفسه اما في عبادة كالحج والجهاد واما في الاستعانة على العبادة كالمطعم والملبس والمسكن وغيرها من ضرورات المعيشة فان هذه الحاجات اذا لم تتيسر لم يتفرغ القلب للدين والعبادة، ومالا يتوصل الى العبادة الا به فهو عبادة، فأخذ الكفاية من الدنيا للاستعانة على الدين من الفوائد الدينية ولا يدخل في هذا التنعم والزيادة على الحاجة فان ذلك من حظوظ الدنيا.

(النوع الثاني) ما يصرفه الى الناس وهو اربعة اقسام: احدهما الصدقة وفضائلها كثيرة مشهورة، القسم الثاني المروءة ونعني بها صرف المال الى الاغنياء والاشراف في ضيافة و هدية واعانة ونحو ذلك وهذا من الفوائد الدينية اذ به يكتسب العبد الاخوان والاصدقاء، القسم الثالث وقاية العرض نحو بذل المال لدفع هجاء الشعراء وثلب السفهاء وقطع السنتهم وكف شرهم فهذا من الفوائد الدينية فان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال «ما وقى الرجل به عرضه فهو صدقه» وهذا لأنه يمنع المغتاب من الغيبة ويحرز مما يثير كلامه من العداوة التي تحمل في الانتقام على مجاوزة حدود الشريعة، القسم الرابع ما يعطيه اجراً على الاستخدام فان الاعمال التي يحتاج اليها الانسان لمهنه اسبابها كثيرة ولو تولاها بنفسه ضاعت اوقاته وتعذر عليه سلوك الآخرة بالفكر والذكر الذين هما اعلى مقامات السالك ومن لا مال له يفتقر الى ان يتولى خدمة نفسه بنفسه فكلما يتصور ان

يقوم به غيرك ويحصل بذلك غرضك فان تشاغلك به غبن لان احتياجك الى التشاغل بما لا يقوم به غيرك من العلم والعمل والذكر والفكر اشد

(النوع الثالث) ما لا يصرفه الانسان الى معين لكن يحصل به خير عام كبناء المساجد والقناطر والوقوف المؤبدة . فهذه فوائد المال في الدين سوى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر والعز بين الخلق والكرامة في القلوب والوقار .

واما غوائل المال وآفاته فتنقسم ايضاً الى دينية ودنيوية . اما الدينية فثلاث :

الاولى انه يجر الى المعاصي غالباً لأن من استشعر القدرة على المعصية انبعثت داعيته اليها والمال نوع من القدرة يحرك داعيته الى المعاصي ومتى يئس الانسان من المعصية لم تتحرك داعيته اليها ومن العصمة ان لا تجد فصاحب القدرة ان اقتحم ما يشتهي هلك وان صبر لقي شدة من معاناة الصبر مع القدرة وفتنة السراء اعظم من فتنة الضراء

الثانية انه يحرك الى التنعم في المباحات حتى تصير له عادة وإلفاً فلا يصبر عنها وربما لم يقدر على استدامتها الا بكسب فيه شبهة فيقتحم الشبهات ويترقى الى افات من المداهنة والنفاق لأن من كثر ماله خالط الناس واذا خالطهم لم يسلم من نفاق وعداوة وحسد وغيبة وكل ذلك من الحاجة الى اصلاح المال

الثالثة وهي التي لا ينفك عنها احد وهو انه يلهيه ماله عن ذكر الله وهذا هو الداء العضال فان اصل العبادات ذكر الله تعالى والتفكر في جلاله وعظمته وذلك يستدعي قلباً فارغاً ، وصاحب الضيعة يمسي ويصبح

متفكراً في خصومة الفلاحين ومحاسبتهم وخيانتهم ويتفكر في منازعة شركائه في الحدود والماء واعوان السلطان في الخراج والاجراء على التقصير في العمارة ونحو ذلك، وصاحب التجارة يمسي ويصبح متفكراً في خيانة شريكه وتقصيره في العمل وتضييعه المال، وكذا سائر اصناف المال حتى صاحب المال المجموع المكنوز يفكر في كيفية حفظه وفي الخوف عليه

ومن له قوت يوم بيوم في سلامة من جميع ذلك وهذا سوى ما يقاسيه ارباب الاموال في الدنيا من الخوف والحزن والهم والغم والتعب فاذاً ترياق المال اخذ القوت منه وصرف الباقي الى الخيرات وما عدا ذلك سموم وآفات .

﴿ بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة واليأس ﴾

اعلم ان الفقر محمود ولكن ينبغي للفقير ان يكون قانعاً منقطع الطمع عن الخلق غير ملتفت الى ما في ايديهم ولا حريص على اكتساب المال كيف كان ولا يمكنه ذلك الا بان يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس وقد روي في صحيح مسلم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « قد افلح من اسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه » وقال سليمان بن داود عليهما السلام : قد جربنا العيش كله لينه من شديده فوجدناه يكفي منه ادناه ، وفي حديث جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال « القناعة مال لا يفنى » وقال ابو حازم ثلاث من كن فيه كمل عقله من عرف نفسه وحفظ لسانه وقنع بما رزقه الله عز وجل وقرأ بعض الحكماء انت اخو العز ما التحفت بالقناعة

واما الحرص فقد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا ايها الناس اجملوا في الطلب فانه ليس لعبد الا ما كتب له » ونهى عن الطمع فقال : اجمع اليأس مما في ايدي الناس ، قال بعضهم لو قيل للطمع من ابوك قال الشك في المقدور ، ولو قيل له ما حرفتك قال اكتساب الذل ولو قيل له ما غايتك قال الحرمان ، وقيل الطمع يذل الامير واليأس يعز الفقير .

﴿ بيان علاج الحرص والطمع ﴾
والدواء الذي تكتسب به صفة القناعة

اعلم انهذا الدواء مركب من ثلاثة اركان : الصبر والعلم والعمل ومجموع ذلك خمسة امور (الاول) الاقتصاد في المعيشة والرفق في الانفاق فمن اراد القناعة فينبغي ان يسد عن نفسه ابواب الخرج ما امكنه ويرد نفسه الى مالا بد له منه فيقنع بأي طعام كان وقليل من الادام وثوب واحد ويوطن نفسه على ذلك وان كان له عيال فيرد كل واحد الى هذا القدر قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « ما عال من اقتصد » وفي حديث آخر « التدبير نصف العيش » وفي حديث آخر « ثلاث منجيات خشية الله تعالى في السر والعلانية والقصد في الغنى والفقر ، والعدل في الرضا والغضب » (الثاني) اذا تيسر له في الحال ما يكفيه فلا يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل ويعينه على ذلك قصر الامل واليقين بأن رزقه لابد يأتيه وليعلم ان الشيطان يعده الفقر وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه قال « ان روح القدس نفث في روعي انه ليس من نفس تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله واجملوا في

الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق ان تطلبوه بمعاصي الله عز وجل فانه لا يدرك ما عند الله الا بطاعته » واذا انسد عنه باب كان ينتظر الرزق منه فلا ينبغي ان يضطرب قلبه فان في الحديث « ابى الله ان يرزق عبده المؤمن الا من حيث لا يحتسب » (الثالث) ان يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء وما في الطمع والحرص من الذل وليس في القناعة الا الصبر عن المشتهيات والفضول مع ما يحصل له من ثواب الاخرة ومن لم يؤثر عز نفسه على شهوته فهو ركيك العقل ناقص الايمان (الرابع) ان يكثر تفكره في تنعم اليهود والنصارى واراذل الناس والحمقى منهم ثم ينظر الى احوال الانبياء والصالحين ويسمع احاديثهم ويطالع احوالهم ويخير عقله بين مشابهة اراذل العالمين او صفوة الخلق عند الله تعالى حتى يهون عليه الصبر على القليل والقناعة باليسير وانه ان تنعم بالاكل فالبهيمة اكثر اكلا منه وان تنعم بالوطئ فالعصفور اكثر سفاداً منه (الخامس) ان يفهم ما في جمع المال من الخطر كما ذكرنا في آفات المال وينظر الى ثواب الفقر ويتم ذلك بأن ينظر ابداً الى من دونه في الدنيا والى من فوقه في الدين كما جاء في الحديث من رواية مسلم ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « انظروا الى من هو اسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فانه اجدر ان لا تزدروا نعمة الله عليكم » وعماد الأمر الصبر وقصر الامل وان ان يعلم غاية صبره في الدنيا ايام قلائل لتمتع دائم فيكون كالمريض الذي يصبر على مرارة الدواء لما يرجو من الشفاء .

فصل

ينبغي لمن فقد المال ان يستعمل القناعة كما ذكرنا ولمن وجده ان يستعمل

السخاء والايثار واصطناع المعروف فان السخاء من اخلاق الانبياء وهو اصل من اصول النجاة ، وعن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال قال جبريل قال الله عز وجل « الاسلام دين ارتضيته لنفسي ولن يصلحه الا السخاء وحسن الخلق فاكرموه بهما ما صحبتموه » وفي حديث آخر عن ابن عباس رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « تجافوا عن ذنب السخي فان الله أخذ بيده كلما عثر » وفي حديث آخر « الجنة دار الاسخياء وما جبل ولي الله الا على السخاء » وعن انس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ان بدلاء امتي لم يدخلوا الجنة بعبادة ولا بصيام ولكن دخلوها بسخاء الانفس وسلامة الصدور والنصح للمسلمين » وفي حديث آخر « عليكم باصطناع المعروف فانه يمنع مصارع السوء » وقال ابن السماك : عجبت ممن يشتري المماليك بماله كيف لا يشتري الاحرار بمعروفه

﴿ حكايات الأسخياء ﴾

قد صح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان أجود بالخير من الريح المرسلة ، وانه ما سئل شيئاً قط فقال لا ، وان رجلا سأله فأعطاه غنما بين جبلين فأتى الرجل قومه فقال يا قوم أسلموا فان محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر . وقيل كان لعثمان على طلحة رضي الله عنهما خمسون ألف درهم فخرج الى المسجد فقال له طلحة قد تهيأ مالك فاقبضه فقال هو لك يا أبا محمد معونة على مرؤتك ، وجاء أعرابي الى ابي طلحة فسأله و تعرف اليه برحم فقال ان هذه الرحم ما سألني بها أحد قبلك فأعطاه ثلاثمائة الف درهم ، وقال عروة رأيت عايشة رضي الله عنها تقسم

سبعين الفاً وهي ترقع درعها ، وروي انها قسمت في يوم ثمانين ومائة ألف بين الناس فلما أمست قالت يا جارية عليَّ فطوري فجاءتها بخبز وزيت فقالت لها أم درة أما استطعت فيما قسمت اليوم ان تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه فقالت لو ذكرتيني لفعلت ، واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة داره التي في السوق بتسعين الف درهم فلما كان الليل سمع بكاء اهل خالد فقال لاهلي ما لهؤلاء ؟ قالوا يبكون على دارهم قال يا غلام إئتهم فاعلمهم ان الدار والمال لهم جميعاً ، وبعث رجل الى عبد الله انه قد وصف لي لبن البقر فابعث لي ببقرة اشرب من لبنها فبعث اليه بسبع مائة بقرة ورعاتها وقال القرية التي كانت ترعى فيها لك ، ودخل علي بن الحسين على محمد بن اسامة بن زيد في مرضه فجعل يبكي فقال ما شأنك قال عليَّ دين قال كم هو قال خمسة عشر الف دينار او بضعة عشر الف دينار قال فهي علي ، وجاء رجل الى معن فسأله فقال يا غلام ناقتي الفلانية والف دينار فدفعها اليه وهو لا يعرفه ، وبلغنا عن معن ان شاعراً اقام ببابه مدة فلم يتهيأ له لقاؤه فقال لبعض خدمه اذا دخل الامير البستان فعرفني قال فلما دخل عرفه فكتب الشاعر بيتاً على خشبة والقاها في الماء الذي يدخل البستان فلما بصر معن بالخشبة أخذها فاذا فيها مكتوب :

ايا جود معن ناج معناً بحاجتي ✲ فمالي الى معن سواك شفيع

فقال من صاحب هذه فدعي الرجل فقال له كيف قلت ؟ فقاله فأمر له بعشر بدر فأخذها ووضع الامير الخشبة تحت بساطه فلما كان اليوم الثاني اخرجها من تحت البساط وقرأ ما فيها ودعى الرجل فدفع اليه مائه الف درهم اخرى فلما أخذها الرجل خاف ان يعود فيستعيدها منه فخرج فلما كان اليوم

الثالث قرا ما فيها فدعا الرجل فلم يوجد فقال معن حق علي ان اعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار ، ومرض قيس بن سعد بن عبادة فاستبطأ اخوانه فقيل له انهم يستحيون مما لك عليهم من الدين فقال اخزى الله مالا يمنع الاخوان من الزيارة ثم أمر منادياً ينادي من كانت عليه لقيس حق فهو منه في حل قال فانكسرت درجته بالعشي لكثرة من عاده ، وقام رجل الى سعيد بن العاص يسأله فأمر له بمائة الف درهم فبكى فقال سعيد ما يبكيك قال ابكي على الارض ان تأكل مثلك فأمر له بمائة الف اخرى .

﴿ فصل في البخل وذمه ﴾

عن ابي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « خصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق » وقال صلى الله عليه وسلم « لا يجتمع الشح والايمان في قلب عبد ابداً » وفي افراد مسلم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه كان يقول « اللهم اني اعوذ بك من الجبن والبخل » وروى جابر رضى الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم لبني سلمة من سيدكم قالوا جد ابن قيس على اننا نبخله قال واي داء ادوأ من البخل بل سيدكم بشر بن البراء بن معرور وهي اصح من ذكر عمر بن الجموح وغلط بعض الرواة فقال البراء بن معرور والبراء مات قبل الهجرة ، وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال « ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه » قال الخطابى الشح في المنع ابلغ من البخل ، وقال سلمان الفارسي : اذا مات السخي قالت الارض والحفظة رب تجاوز عن عبدك بسخائه في الدنيا واذا مات البخيل قالت : اللهم

احجب هذا العبد عن الجنة كما حجب عبادك عما جعلت في يديه من الدنيا ، و قال بعض الحكماء من كان بخيلا ورث ماله عدوه ، ووصف اعرابي رجلا فقال لقد صغر في عيني لعظم الدنيا في عينه ، وذم اعرابي قوما فقال يصومون عن المعروف و يفطرون على الفواحش .

﴿ ومن حكايات البخلاء ﴾

روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال كان الحاجب رجلا من اجل العرب و كان بخيلا وكان لا يوقد ناراً بليل كراهة ان يراها راءٍ فينتفع بضوئها فاذا احتاج الى ايقادها فاوقد ثم بصر بمستضيء بها اطفاها ، وقيل كان مروان بن ابي حفصة من ابخل الناس فخرج يريد المهدي فقالت له امرأته مالي عليك ان رجعت بالجايزة ؟ قال ان اعطيت مائة الف درهم اعطيتك درهماً فاعطي ستين الف درهم فاعطاها اربعة دوانيق (وقيل) كان بعض البخلاء موسراً كثير المال وكان ينظر في دقائق الاشياء فاشترى شيئاً من الحوائج ودعى حمالا وقال بكم تحمل هذه الحوائج قال بحبة قال ابخس قال ما اقل من حبة ؟ لا ادري ما اقول قال نشتري بالحبة جزراً فنجلس جميعاً فنأكله

﴿ فصل في فضل الايثار و بيانه ﴾

اعلم ان السخاء والبخل درجات فارفع درجات السخاء الايثار وهو ان تجود بالمال مع الحاجة اليه واشد درجات البخل ان يبخل الانسان على نفسه مع الحاجة فكم من بخيل يمسك المال و يمرض فلا يتداوى و يشتهي الشهوة فيمنعه منها البخل . فكم بين من يبخل على نفسه مع الحاجة وبين من يؤثر

على نفسه مع الحاجة فالأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء ،وليس بعد الايثار درجة في السخاء و قد اثنى الله على اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالايثار فقال (ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة) ، وكان سبب نزول هذه الآية قصة ابي طلحة لما آثر ذلك الرجل المجهود بقوته وقوت صبيانه وحكايته مشهورة ، واستشهد باليرموك عكرمة بن ابي جهل وسهل بن عمرو والحارث بن هشام وجماعة من بني المغيرة فأتوا بماء وهم صرعى فتدافعوه حتى ماتوا ولم يذوقوه. أتي عكرمة بالما فنظر الى سهل بن عمرو ينظر اليه فقال ابدأ بهذا ونظر سهل الى الحارث ينظر اليه فقال ابدأ بهذا وكل منهم يؤثر الاخر على نفسه بالشربة فماتوا كلهم قبل أن يشربوا فمر بهم خالد بن الوليد فقال بنفسي انتم . واهدي الى رجل من الصحابة رضي الله عنهم رأس شاة فقال ان أخي أحوج اليه مني فبعث به الى رجل فبعث به ذلك الى آخر حتى تداولته سبع أبيات فرجع الى الأول ،وخرج عبد الله بن جعفر الى ضيعة له فنزل على نخل لقوم فيها غلام أسود يعمل فيه اذ أتي الغلام بقوته فدخل الحائط كلب فدنا من الغلام فرمى اليه قرصاً فأكله ثم رمى اليه قرصاً آخر فأكله ثم رمى اليه الثالث فأكله وعبد الله ينظر فقال يا غلام كم قوتك كل يوم قال ما رأيت قال فلم آثرت به هذا الكلب قال ما هي بارض كلاب جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت رده قال فما انت صانع قال أطوي يومي هذا فقال عبد الله بن جعفر ألام على السخاء وهذا أسخى مني فاشترى الحائط وما فيه من الآلات واشترى الغلام وأعتقه ووهبه له ، واجتمع جماعة من الفقراء في موضع لهم وبين ايديهم ارغفة

معدودة لا تكفيهم فكسروا الرغفان و اطفأوا السراج و جلسوا للأكل فلما رفع الطعام اذا هو بحاله لم يأكل احد منهم شيئاً ايثاراً لأصحابه .

فصـــل

وقد تكلم الناس في حد البخل والسخاء فذهب قوم الى ان حد البخل منع الواجب وان من ادى ما يجب عليه فليس ببخيل وهذا غير كاف فان من لم يسلم الى عياله الا القدر الذي يفرضه الحاكم ثم يضايقهم في زيادة لقمة او تمرة فانه معدود من البخلاء فالصحيح ان البراءة من البخل تحصل بفعل الواجب في الشرع واللازم بطريق المرؤة مع طيب القلب بالبذل ، فأما الواجب بالشرع فهو الزكاة ونفقة العيال واما اللازم بطريق المرؤة فهو ترك المضايقة والاستقصاء في المحقرات فان ذلك يستقبح و يختلف ذلك باختلاف الأحوال والأشخاص فقد يستقبح من الغني ما لا يستقبح من الفقير و يستقبح من الرجل المضايقة لأهله و اقاربه و جيرانه ما لا يستقبح من الأجانب فالبخيل الذي يمنع مالا ينبغي ان يمنع اما بحكم الشرع او بحكم المرؤة ومن قام بواجب الشرع ولازم المرؤة فقد تبرأ من البخل لكن لا يتصف بصفة الجود ما لم يبذل زيادة على ذلك قال بعضهم الجواد هو الذي يعطي بلا منّ وقيل الذي هو يفرح بالاعطاء ، فأما علاج البخل فاعلم ان سبب البخل حب المال ، ولحب المال سببان احدهما حب الشهوات التي لا وصول اليها الا بالمال مع طول الامل ، الثاني ان يحب عين المال فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره لو اقتصر على ما جرت عادته به و يفضل معه آلاف و يكون شيخاً لا ولد له ثم لا تسمح نفسه باخراج الواجب عليه

ولا بصدقة تنفعه، ويعلم انه اذا مات أخذه اعدائه اوضاع ان كان مدفوناً . وهذا مرض لا يرجى علاجه . ومثال ذلك مثال رجل احب شخصاً فلما جاء رسوله احب الرسول ونسي محبوبه واشتغل بالرسول فان الدنانير رسول مبلغ الى الحاجات فيحب الدنانير لذاتها وينسى الحاجات وهذا غاية الضلال .

واعلم ان علاج كل علة بمضادة سببها فيعالج حب الشهوات بالقناعة والصبر وطول الأمل لكثرة ذكر الموت . يعالج التفات القلب الى الولد بأن من خلقه خلق معه رزقه وكم ممن لم يرث شيئاً احسن حالا ممن ورث. فليحذر ان يترك لولده الخير ويقدم على الله بشر فان ولده ان كان صالحاً فالله يتولاه، وان كان فاسقاً فلا يترك له ما يستعين به على المعاصي وليردد على سمعه ما ذكرناه في ذم البخل ومدح السخاء .

واعلم انه اذا كثرت المحبوبات في الدنيا كثرت المصائب بفقدها فمن عرف آفة المال لم يأنس به ومن لم يأخذ منه الا قدر حاجته وامسك ذلك لحاجته فليس ببخيل والله اعلم .

﴿ كتاب ذم الجاه والرياء وعلاجهما وفضيلة الخمول ونحو ذلك ﴾

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « ان اخوف ما اخاف على امتي الرياء والشهوة الخفية » وهذه الشهوة الخفية يعجز عن الوقوف على غوائلها كبار العلماء فضلا عن عامه العباد وانما يبتلي بها العلماء والعباد المشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الاخرة فانهم لما قهروا نفوسهم وفطموها عن الشهوات وحملوها بالقهر على اسباب العبادات لم تطمع

لم تطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح فاستراحت الى التظاهر بالعلم والعمل ووجدت مخلصاً من شدة المجاهدة في لذة القبول عند الخلق ونظرهم اليها بعين الوقار والتعظيم فاصابت النفس في ذلك لذة عظيمة فاحتقرت فيها ترك المعاصى فاحدهم يظن انه مخلص لله عز وجل وقد اثبتت في ديوان المنافقين وهذه مكيدة عظيمة لا يسلم منها الا المقربون ولذلك قيل آخر ما يخرج من رؤس الصديقين حب الرياسة واذا كان ذلك هو الداء الدفين الذي هو اعظم شبكة للشياطين وجب شرح القول في سببه وحقيقته واقسامه

اعلم ان اصل الجاه هو حب انتشار الصيت والاشتهار وذلك خطر عظيم والسلامة في الخمول واهل الخير لم يقصدوا الشهرة ولم يتعرضوا لاسبابها فان وقعت من قبل الله تعالى فروا عنها وكانوا يؤثرون الخمول كما روي عن ابن مسعود رضى الله عنه انه خرج من منزله فتبعه جماعة فالتفت اليهم وقال: على ما تتبعوني؟ فوالله لو علمتم ما اغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلان وفي رواية انه قال ارجعوا فانه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع، وكان ابو العالية رحمه الله اذا جلس اليه اكثر من اربعة قام، وكان خالد بن معدان رحمه الله اذا عظمت حلقته قام وانصرف كراهة الشهرة، وقال الزهري رحمه الله ما رأينا الزهد في شيء اقل منه في الرياسة نرى الرجل يذهب في المطعم والمال فاذا نوزع الرياسة حامى عليها وعادى. وقال رجل لبشر الحافي رحمه الله اوصني فقال اخمل ذكرك وطيب مطعمك، وقال لا يجد حلاوة الاخرة رجل يحب في الدنيا ان يعرفه الناس، وقد روي في صحيح مسلم ان عمر بن سعيد انطلق الى ابيه سعيد وهو في غنم له خارجاً عن المدينة فلما رآه قال اعوذ بالله من

شر هذا الراكب فلما اتاه قال يا ابت آتريد ان تكون اعرابياً في غنمك والناس يتنازعون في الملك بالمدينة فضرب سعيد صدره و قال اسكت اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان الله يحب العبد التقي الغني الخفي » وعن ابي امامة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ان اغبط اوليائي عندى المؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من الصلاة احسن عبادة ربه و أطاعه في السر وكان غامضاً في الناس لا يشار اليه بالأصابع وكان رزقه كفافاً فصبر على ذلك ثم نقر بيده فقال عجلت منيته قل بواكيه قل تراثه » حديث حسن ، وكان ابن مسعود رضى الله عنه يوصي اصحابه فيقول : كونوا ينابيع العلم مصابيح الهدى احلاس الهدى سرج الليل جدد القلوب خلقان الثياب تعرفون في السماء وتخفون على اهل الارض (فان قيل) هذا فيه فضيلة الخمول وذم الشهرة وأي شهرة اكثر من شهرة الانبياء وأئمة العلماء (قلنا) المذموم طلب الانسان الشهرة واما وجودها من جهة الله تعالى من غير طلب الانسان فليس بمذموم غير ان في وجودها فتنة على الضعفاء فان مثل الضعيف كالغريق القليل الصنعة في السباحة اذا تعلق به احد غرق وغرقه فاما السابح النحرير فان تعلق الغرقى به سبب لنجاتهم وخلاصهم

فصل

واعلم ان الجاه والمال هما ركنا الدنيا ، ومعنى المال ملك الاعيان المنتفع بها ، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها والتصرف فيها فالجاه هو قيام المنزلة في قلوب الناس وهو اعتقاد القلوب نعتا من نعوت

الكمال في هذا الشخص إما من علم او عبادة او نسب او قوة او حسن صورة او غير ذلك مما يعتقده الناس كمالا فبقدر ما يعتقدون له من ذلك تذعن قلوبهم لطاعته و مدحه وخدمته و توقيره فهذا يبين ان الجاه محبوب بالطبع وانه ابلغ من حب المال لأن المال لا يتعلق بالغرض لعينه بل لكونه وسيلة الى المحبوبات فاشتراك الجاه و المال في السبب اقتضى الاشتراك في المحبة . و الجاه في ذلك ارجح من المال

واعلم انمن الجاهما يمدح و ما يذم لأنمن المعلوم انهلا بد للانسان من مال لضرورة المطعم و الملبس و نحوهما فكذلك لا بد له من جاه ضرورة المعيشة مع الخلق لأن الانسان لا يخلو من الحاجة الى سلطان يحرسه و رفيق يعينه وخادم يخدمه فحبه ذلك ليس بمذموم لأن الجاه وسيلة الى الاغراض كالمال . والتحقيق في هذا ان لا يكون المال و الجاه محبوبين لأعيانهما و متى طلب الانسان قيام جاهه لاجل صفةهو متصف بها لغرض صحيح كقول يوسف عليه السلام (اجعلني على خزائن الارض اني حفيظ عليم) او قصد اخفاء عيب من عيوبه لئلا تزول منزلته كان ذلك مباحا ، فان طلب المنزلة باعتقادهم فيه صفة ليست فيه كالعلم و الورع والنسب فذلك محظور . وكذلك لو حسن الصلاة بين ايديهم ليعتقدوا فيه الخشوع فانه يكون مرائيا بذلك فلا يجوز تملك القلوب بتزوير ولا تملك المال بتلبيس .

﴿ بيان علاج حب الجاه ﴾

اعلم ان من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق مشغوفا بالتردد اليهم والمراآة لهم ولا يزال في اقواله وافعاله

ملتفتا الى ما يعظم منزلته عندهم و ذلك بذر النفاق وأصل الفساد لأن كل من طلب المنزلة في قلوب الناس اضطر ان ينافقهم باظهار ما هو خال عنه ويجر ذلك الى المراآة بالعبادات واقتحام المحظورات والتوصل الى اقتناص القلوب ولذلك شبه الرسول عليه السلام حب المال والشرف وافسادهما بذئبين ضاريين ارسلا في غنم. فحب الجاه اذاً من المهلكات فيجب علاجه، وعلاجه مركب من علم وعمل اما الاول فهو ان يعلم ان السبب الذي لاجله احب الجاه هو كمال القدرة على اشخاص الناس وقلوبهم. وذلك اذا صفا وسلم يكون آخره الموت فينبغي ان يتفكر في نفسه في الاخطار والافات اللاحقة لاصحاب الجاه في الدنيا من تطرق الحسد اليهم وقصدهم بالايذاء فتراهم خائفين على الدوام من زوال جاههم محترزين من تغيير منزلتهم في القلوب، والقلوب اشد تغيراً من القدر في غليانها فالاشتغال بمراعاة ذلك غموم عاجلة مكدرة لحفاظ الجاه فلا يفي مرجو الدنيا بمخوفها فضلا عما يفوت في الاخرة فهذا من حيث العلم.

(واما العلاج من حيث العمل) فهو اسقاط الجاه من قلوب الخلق بأفعال توجب ذلك كما روي ان بعض الملوك قصد زيارة رجل زاهد فلما قرب منه استدعى طعاماً وبقلا ولبناً وجعل يأكل بشره ويعظم اللقمة فلما نظر اليه الملك سقط من عينه، ولما اريد ابراهيم النخعي على القضاء لبس قميصا احمر وقعد في السوق

واعلم ان انقطاع الزاهد عن الناس يوجب جاها له عندهم فاذا خاف من تلك الفتنة فليخالطهم على وجه السلامة وليمش في الاسواق

وليشتر حاجته ويحملها وليقطع طمعه من دنياهم وقد تم مراده ، وقد كان بشر الحافي يجلس الى عطار وما كانوا يراعون نواميس المتزهدين اليوم

فصل

واعلم ان اكثر الناس انما هلكوا لخوف مذمة الناس وحب مدحهم فصارت حركاتهم كلها على ما يوافق رضى الناس رجاء المدح وخوفا من الذم وذلك من المهلكات فوجبت معالجته وطريق ذلك ان تنظر الى الصفة التي مدحت بها ان كانت موجودة فيك فلا يخلو اما ان يكون مما يفرح به كالعلم والورع او مما يصلح ان يفرح بها كالجاه والمال . اما الاول فينبغي ان يحذر من الخاتمة فان في الخوف منها شغلا عن الفرح بالمدح ثم ان كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة فينبغي ان يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى لا بمدح الناس ، واما القسم الثاني وهو المدح بسبب الجاه والمال فالفرح بذلك كالفرح بنبات الارض الذي يصير عن قريب هشيما ولا يفرح بذلك الا من قل عقله ، وان كنت خالياً عن الصفة التي مدحت بها ففرحك بالمدح غاية الجنون وقد ذكرنا آفات المدح فيما تقدم في كتاب آفات اللسان فلا ينبغي ان تفرح به بل تكرهه كما كان السلف يكرهونه ويغضبون على فاعله وعلاج كراهية الذم يفهم من علاج حب المدح فانه ضده والقول الوجيز فيه ان من ذمك اما ان يكون صادقاً فيما قال قاصداً للنصح لك فينبغي ان تتقلد منته ولا تغضب فانه قد اهدى لك عيوبك وان لم يقصد بذلك النصح فانه يكون قد جنا هو على دينه وانتفعت انت بقوله لأنه

عرفك ما لم تكن تعرف ، وذكرك من خطياك ما نسيت ، وان افترى عليك بما انت منه بريء فينبغي ان تتفكر في ثلاثة اشياء : احدها انك ان خلوت من ذلك العيب لم تخل من امثاله فما ستر الله عز و جل عليك من عيوبك اكثر فاشكره اذا لم يطلعه على عيوبك و دفعه عنك فذكر ما انت عنه بريء ، الثاني ان ذلك كفارة لذنوبك ، الثالث انه جنى على دينه و تعرض لغضب الله عليه فينبغي ان تسأل الله العفو عنه كما روي ان رجلا شج ابراهيم بن ادهم فدعا له بالمغفرة وقال صرت مأجوراً بسببه فلا اجعله معاقبا بسببي و قد تقدمت هذه الحكاية في فصل الحلم

القسم الثاني من الكتاب

﴿ في بيان الرياء و حقيقته و اقسامه و ذمه و نحو ذلك ﴾

قد ورد ذم الرياء في الكتاب و السنة من ذلك قوله تعالى (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون) وقوله (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احداً) واما الاحاديث فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله و سلم فيما يروي عن ربه عز وجل انه قال « من عمل عملا اشرك فيه غيري فهو للذي اشرك و انا منه بريء » وفي حديث آخر ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال « ان أخوف ما اخاف عليكم الشرك الاصغر فقالوا يا رسول الله وما الشرك الأصغر ؟ قال الرياء يقول الله عز وجل لهم يوم

القيامة اذا جزى الناس بأعمالهم اذهبوا الى الذين كنتم تراؤون في الدنيا هل تجدون عندهم خيراً » وقال بشر الحافي لأن اطلب الدنيا بمزمار احب الي ان اطلبها بالدين

واعلم ان الرياء مشتق من الرؤية و السمعة مشتقة من السماع فالمرائي يري الناس ما يطلب به الحظوة عندهم وذلك اقسام

(الاول) الرياء في الدين وهو انواع (احدها) ان يكون من جهة البدن باظهار النحول و الصغار ليريهم بذلك شدة الاجتهاد و غلبة خوف الاخرة و كذلك يرائي بتشعيث الشعر ليظهر انه مستغرق في هم الدين لا يتفرغ لتسريح شعره ، و يقرب من هذا خفض الصوت واغارة العينين و ذبول الشفتين ليدلك على انه مواظب على الصوم ، ولهذا قال عيسى بن مريم عليه السلام اذا صام احدكم فليدهن رأسه ويرجل شعره ، وذلك لما يخاف على الصائم من آفات الرياء فهذا الرياء من جهة البدن لاهل الدين ، واما اهل الدنيا فيراؤن باظهار السمن وصفاء اللون واعتدال القامة وحسن الوجه ونظافة البدن

(النوع الثاني) الرياء من جهة الزي كالاطراق حالة المشي وابقاء اثر السجود على الوجه ، وغلظ الثياب ، ولبس الصوف ، وتشمير الثياب كثيراً ، و تقصير الاكمام ، و ترك الثوب مخرقا غير نظيف ، و من ذلك لبس المرقعة ، و الثياب الزرق تشبها بالصوفيه مع الافلاس من صفاتهم في الباطن ، ومنه التقنع فوق العمامة لتنصرف اليه الاعين بالتميز بتلك العادة وهؤلاء طبقات منهم من يطلب المنزلة عند اهل الصلاح باظهار التزهد بلبس الثياب المخرقة الوسخة الغليظة ليرائي بذلك ولو كلف

هذا ان يلبس ثوبا وسطا نظيفا مما كان السلف يلبسونه لكان عنده بمنزله الذبح لخوفه ان يقول الناس قد بدا له من الزهد وقد رجع عن تلك الطريقة (وطبقة اخرى) يطلبون القبول عند اهل الصلاح وعند اهل الدنيا من الملوك والامراء والتجار فلو لبسوا الثياب الفاخرة لم تقبلهم القراء اهل الصلاح ، ولو لبسوا الخرقة البذلة لازدرتهم الملوك والاغنياء فهم يريدون الجمع بين قبول اهل الدين والدنيا فيطلبون الاصواف الدقيقة والاكسية الرقيقة والفوط الرفيعة فيلبسونها واقل قيمة ثوب احدهم قيمة ثوب الغنى ، ولونه وهيئته لون ثياب الصلحاء فيلتمسون القبول عند الفريقين . وهولاء لو كلفوا لبس ثوب خشن او وسخ لكان عندهم كالذبح خوفا من السقوط في اعين الملوك والاغنياء ، ولو كلفوا لبس الرقيق ورفيع الكتان الابيض ونحو ذلك لعظم ذلك عليهم خوفا من ان تنحط منزلتهم عند اهل الصلاح وكل مراء بزي مخصوص ثقل عليه الانتقال الى دونه او فوقه خوفاً من المذمة

واما اهل الدنيا فمراآتهم بالثياب النفيسة والمراكب الحسنة وانواع التجمل في الملبس والمسكن واثاث البيت وهم في بيوتهم يلبسون الثياب الخشنة ويشتد عليهم ان يروا بتلك المنزله

(النوع الثالث) الرياء بالقول ورياء اهل الدين بالوعظ والتذكير وحفظ الاخبار والآثار لأجل المحاورة واظهار غزارة العلم والدلالة على شدة العناية باحوال السلف وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس واظهار الغضب للمنكرات بين الناس وخفض الصوت وترقيقه

بقراءة القرآن ليدل بذلك على الخوف والحزن ونحو ذلك

(النوع الرابع) الرياء بالعمل كمرآة المصلي بطول القيام وتطويل الركوع والسجود واظهار الخشوع ونحو ذلك ، و كذلك بالصوم والغزو والحج والصدقة ونحو ذلك ، واما اهل الدنيا فمرآتهم بالتبختر والاختيال وتحريك اليدين وتقريب الخطأ والأخذ باطراف الذيل وامالة العطفين ليدلوا بذلك على الحشمة

(النوع الخامس) المراآة بالاصحاب والزائرين كالذي يتكلف ان يستزير عالماً او عابداً ليقال ان فلانا قد زار فلانا وان اهل الدين يترددون اليه ويتبركون به وكذلك من يرائي بكثرة الشيوخ ليقال لقي شيوخاً كثيرا واستفاد منهم فيباهي بذلك فهذه مجامع ما يرائي به المراؤون يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد ، ومنهم من يطلب مجرد الجاه وكم من عابد اعتزل في جبل وراهب انزوى الى دير مع قطع طمعهم من مال الناس لكنه يحب مجرد الجاه ، ومنهم من يكون قصده المال ومنهم من قصده الثناء وانتشار الصيت ، فان قيل هل الرياء حرام ام مكروه ام مباح ؟ فالجواب ان فيه تفصيلا وهو اما ان يكون بالعبادات او بغيرها فان كان الرياء بالعبادات فهو حرام فان المرائي بصلاته وصدقته وحجته ونحو ذلك عاص آثم لانه يقصد بذلك غير الله تعالى المستحق للعبادة وحده فالمرائي بذلك في سخط الله ، واما ان كان بغير العبادات فهو كطلب المال على ما تقدم لا يحرم من حيث انه طلب منزلة في قلوب العباد ولكن كما يمكن كسب المال بتلبيسات واسباب محظورة فكذلك الجاه وكما ان

كسب قليل من المال وهو ما يحتاج اليه الانسان محمود فكذلك الجاه وهو الذي طلبه يوسف عليه السلام في قوله (اني حفيظ عليم) ولا نقول بتحريم الجاه وان كثر الا اذا حمل صاحبه على مالا يجوز على نحو ما ذكر في المال واما سعة الجاه من غير حرص على طلبه ومن غير اغتمام بزواله ان زال فلا ضرر فيه اذ لا جاه اوسع من جاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلماء الدين بعده ولكن انصراف الهمم الى طلب الجاه نقصان في الدين ولا يوصف بالتحريم ، وتحسين الثوب الذى يلبسه الانسان عند الخروج الى الناس انما هو ليراه الناس ، و كذلك كل تجمل لاجلهم لا يقال انه منهي عنه ، وقد تختلف المقاصد بذلك فان اكثر الناس يحبون ان لا يروا بعين نقص في حال وفي افراد مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » فقال رجل : ان الرجل يحب ان يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً فقال « ان الله جميل يحب الجمال الكبر بطر الحق وغمط الناس » ومن الناس من يؤثر اظهار نعمة الله عليه وقد امر رسول الله عليه السلام بذلك

فصـــل

واعلم ان بعض ابواب الرياء أشد من بعض لانه درجات أشدهـا واعظمها ان لا يكون مراده بالعبادة الثواب اصلا كالذي يصلي بين الناس ولو انفرد لم يصل ، « الدرجة الثانية » ان يقصد الثواب مع الرياء قصداً ضعيفاً بحيث لو كان خالياً لم يفعله فهو قريب من القسم الاول في كونهما ممقوتين عند الله تعالى « الثالثة » ان يكون قصد الرياء وقصد الثواب

متساويين بحيث لو انفرد كل واحد منهما عن الآخر لم يبعثه على العمل فهذا قد افسد مثلما اصلح ولا يسلم من الأثم « الرابعة » ان يكون اطلاع الناس عليه مقوياً لنشاطه ولو لم يطلع عليه احد لم يترك العبادة فهذا يثاب على قصده الصحيح ويعاقب على قصده الفاسد ، وقريب من ذلك الرياء باوصاف العبادة لا بأَصلها كالذي يصلي وغرضه يخفف الركوع والسجود ولا يطيل القراءة فاذا رآه الناس احسن ذلك فهذا ايضاً من الرياء المحظور لأنه يتضمن تعظيم الخلق ولكنه دون الرياء بأصول العبادات

﴿ بيان الرياء الخفي الذي هو اخفى من ديبب النمل ﴾

اعلم ان الرياء جلي وخفي فالجلي هو الذي يبعث على العمل ويحمل عليه واخفى منه رياء لا يبعث على العمل بمجرده لكن يخفف العمل الذي اريد به وجه الله تعالى كالذي يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه فاذا نزل عنده ضيف نشط له وسهل عليه واخفى من ذلك ما لا يؤثر في العمل ولا في التسهيل لكنه مع ذلك مستبطن في القلب ومتى لم يؤثر في الدعاء الى العمل لم يمكن ان يعرف الا بالعلامات واجلى علاماته انه يسر باطلاع الناس على طاعته فرب عبد مخلص يخلص العمل ولا يقصد الرياء بل يكرهه ويتم العمل على ذلك ولكن اذا اطلع الناس عليه سره ذلك وارتاح له وروح ذلك عن قلبه شدة العبادة فهذا السرور يدل عَلَى رياء خفي منه يرشح السرور ولو لا التفات القلب الى الناس لما ظهر سروره عند اطلاع الناس فيعلم ان الرياء كان مستكنناً في القلب

استكنان النار في الحجر فاظهر منه لطلاع الناس اثر للفرح والسرور ثم اذا استشعر تلك اللذة بالاطلاع لم يقابل ذلك بكراهة بل قد يتحرك حركة خفيفة ويتكلف ان يطلع عليه بالتعريض لا بالتصريح وقد يخفى فلا يدعو الى الاظهار بالنطق تعريضاً ولا تصريحاً ولكن بالشمائل كاظهار النحول والصغار وخفض الصوت ويبس الشفتين وآثار الدموع وغلبة النعاس الدالة عَلَى طول التهجد واخفى من ذلك ان يختفي بحيث لا يريد الاطلاع عليه لكنه مع ذلك اذا رأى الناس لحب ان يبدؤه بالسلام وان يقابلوه بالبشاشة والتوقير وينشطوا في قضاء حوائجه ويسامحوه في المعاملة ويوسعوا له المكان فان قصر في ذلك مقصر ثقل ذلك على قلبه كأن نفسه تتقاضى الاحترام على الطاعة التي اخفاها ومتى لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن خالياً عن شوب خفي من الرياء وكل ذلك يوشك ان ينقص الاجر ولا يسلم منه الا الصديقون، وقد روينا عن وهب ابن منبه ان رجلا من العباد قال لاصحابه انا قد فارقنا الأَموال والاولاد مخافة الطغيان وانما نخاف ان يكون قد دخل علينا في امرنا هذا من الطغيان اكثر مما دخل على اهل الاموال في أموالهم ان احدنا اذا لقي لحب ان يعظم لمكان دينه وان كان له حاجة احب ان تقضى لمكان دينه، وان اشترى شيئاً احب انه يرخص له لمكان دينه، فبلغ ذلك ملكهم فركب في مركبه فاذا السهل والجبل قد امتلأ من الناس فقال العابد ما هذا ؟ قيل هذا الملك ، فقال لصاحبه ائتني بطعام فاتاه ببقل وزيت وقلوب الشجر فجعل يحشو شدقيه ويأكل اكلا عنيفاً فقال الملك

اين صاحبكم؟ فقالوا هذا فقال كيف انت؟ قال كالناس فقال الملك ما عند هذا خير وانصرف عنه فقال الحمد لله الذي صرفه عني وهو لي لائم. ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي يجتهدون في مخادعة الناس عن اعمالهم الصالحة ويحرصون على اخفائها اعظم ما يحرص الناس على اخفاء فواحشهم كل ذلك رجاء ان يخلص عملهم ليجازيهم الله تعالى في القيامة باخلاصهم. وشوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر ومتى ادرك الانسان من نفسه تفرقة بين ان يطلع على عبادته او لا يطلع ففيه شعبة من الرياء ولكن ليس كل شوب محبطا للاجر ومفسدا للعمل بل فيه تفصيل. فان قيل فما ترى احدا ينفك عن السرور اذا عرفت طاعته فهل جميع ذلك مذموم؟ (فالجواب) ان السرور ينقسم الى محمود ومذموم فالمحمود ان يكون قصده اخفاء الطاعة والاخلاص لله. ولكن لما اطلع عليه الخلق علم ان الله تعالى اطلعهم واظهر الجميل من احواله فبشر بحسن صنع الله ونظره له ولطفه به حيث كان يستر الطاعة والمعصية فأظهر الله سبحانه عليه الطاعة وستر عليه المعصية ولا لطف اعظم من ستر القبيح واظهار الجميل فيكون قد فرحه بذلك لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم او يستدل باظهار الله الجميل وستر القبيح عليه في الدنيا انه كذلك يفعل به في الآخرة فانه قد جاء معنى ذلك في الحديث، فاما ان كان فرحه باطلاع الناس عليه لقيام منزلته عندهم حتى يمدحوه ويعظموه ويقضوا حوائجه فهذه مكروه مذموم (فان قيل) فما وجه حديث ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رجل: يارسول الله الرجل يعمل العمل فيسره فاذا

اطلع عليه اعجبه فقال له « اجران اجر السر واجر العلانية» (فالجواب) ان هذا الحديث ضعيف وقد رواه الترمذي وفسره بعض اهل العلم بأن معناه ان يعجبه ثناء الناس عليه بالخير لقوله عليه السلام «انتم شهداء الله في الارض» وقد روي في افراد مسلم من حديث ابي ذر رضي الله عنه قال قيل يارسول الله أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه فقال «تلك عاجل بشرى المؤمن» فاما اذا اعجبه ليعلم الناس منه الخير ويكرموه عليه فهذا رياء

﴿ فصل في بيان يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط ﴾

اذا ورد على العبد وارد الرياء فلا يخلو اما ان يكون ورد بعد فراغه من العبادة او قبله فان ورد عليه بعد الفراغ سرور بالظهور من غير اظهار منه فهذا لا يحبط العمل لأنه قد تم على نعت الاخلاص فلا ينعطف ما طرأ عليه بعده لاسيما اذا لم يتكلف هو اظهاره والتحدث به فاما ان تحدث به بعد تمامه واظهره فهذا مخوف والغالب عليه انه كان في قلبه وقت مباشرة العمل نوع رياء فان سلم في الرياء نقص اجره فان بين عمل السر والعلانية سبعين درجة ، واما اذا ورد الرياء قبل الفراغ من العبادة كالصلاة التي عقدها على الاخلاص فان كان مجرد سرور لم يؤثر في العمل وان كان رياء باعثاً على العمل مثل ان يطيل الصلاة ليرى مكانه فهذا يحبط الاجر واما ما يقارن العبادة مثل ان يبتدئ الصلاة على قصد الرياء فان اتمها على ذلك لم يعتد بها وان ندم فيها على فعله فالذي ينبغي له ان يبتديها والله اعلم

باب في دواء الرياء وطريقة معالجة القلب فيه

قد عرفت ان الرياء محبط للاعمال وسبب لمقت الله تعالى وانه من المهلكات ومن هذا حاله فجدير بالتشمير عن ساق الجد في ازالته . وفي معالجته مقامان احدهما في قلع عروقه واصوله التي منها انشعابه ، والثاني في دفع ما يخطر منه في الحال

(المقام الاول) اعلم ان اصل الرياء حب الجاه والمنزلة واذا فصل رجع الى ثلاثة اصول : وهي حب لذة الحمد ، والفرار من الذم ، والطمع فيما في ايدي الناس ، ويشهد لذلك مافي الصحيحين من حديث ابي موسى رضي الله عنه قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ارأيت الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية و يقاتل رياء فأي ذلك في سبيل الله فقال «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» فمعنى قوله شجاعة اي ليذكر ويحمد ، ومعنى قوله : يقاتل حمية انه يأنف ان يقهر او يذم ومعنى يقاتل رياء أى ليرى مكانه وهذا هو لذة الجاه والمنزلة في القلوب وقد لا يشتهي الانسان الحمد ولكنه يحذر من الذم كالجبان بين الشجعان فانه يثبت ولا يفر لئلا يذم وقد يفتي الانسان بغير علم حذرا من الذم بالجهل فهذه الامور الثلاثة هي التي تحرك الى الرياء .

وعلاجه ان الانسان انما يقصد الشيء ويرغب فيه اذا ظن انه خير ونافع اما في الحال او المآل فان علم انه لذيذ في الحال صار في المآل سهل عليه اجتنابه وقطع عنه الرغبة كمن يعلم ان العسل لذيذ ولكن اذا بان له ان فيه سما اعرض عنه فكذلك طريق هذه الرغبة ان تعلم ما فيها من

المضرة فان الانسان متى عرف مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه ومن المنزلة في الاخرة وما يتعرض له من العذاب والمقت والخزي هذا مع مما يتعرض له الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق فان رضى الناس غاية لا تدرك فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق ومن طلب رضاهم في سخط الله سخط الله عليه واسخطهم عليه ثم اي غرض له في مدحهم وايثار ذم الله له لأجل مدحهم ولا يزيد مدحهم رزقا ولا اجلا ولا ينفعه يوم فقره وفاقته و كذلك ذمهم لم يحذر منه؟ ولا يضره ذمهم شيئا ولا يعجله اجله ولا يؤخر رزقه فان العباد كلهم عجزة لا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا فاذا قرر هذا في نفسه فترت رغبته في الرياء واقبل على الله تعالى بقلبه فان العاقل لا يرغب فيما يضره ويقل نفعه

واما الطمع فيما في ايدي الناس فيزيله بان يعلم ان الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والاعطاء وانه لا رازق سواه ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة وان وصل الى المراد لم يخل من المنة والمهانة فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد ومن الدواء النافع ان يعود نفسه اخفاء العبادات واغلاق الابواب دونها كما تغلق الابواب دون الفواحش فانه لا دواء في الرياء مثل اخفاء الاعمال وذلك يشق في بداية المجاهدة فاذا صبر عليه مدة بالتكلف سقط عنه ثقله وامده الله بالعون فعلى العبد المجاهدة ومن الله التوفيق

(المقام الثاني) في دفع العارض من الرياء في اثناء العبادة وذلك لابد

من تعلمه ايضاً فان من جاهد نفسه وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة واسقاط نفسه من اعين الناس واحتقار مدحهم وذمهم فان الشيطان لا يتركه في اثناء العبادة بل يعارضه بخطرات الرياء فاذا خطر له معرفة الخلق بعبادته واطلاعهم عليها دفع ذلك بأن يقول: مالك وللخلق علموا او لم يعلموا والله عالم بحالك فاي فائدة في علم غيره؟ فان هاجت الرغبة الى آفة الحمد ذكرها آفات الرياء والتعرض للمقت فيقابل تلك الرغبة بكراهة المقت فان معرفة اطلاع الناس تثير شهوة، ومعرفة آفة الرياء تثير كراهة

﴿ فصل في بيان الرخصة في قصد اظهار الطاعات ﴾

و بيان الرخصة في كتمان الذنوب وكراهة اطلاع الناس على الذنب وذمهم له

اما الاول فاعلم ان في إسرار الاعمال فائدة الاخلاص والنجاة من الرياء وفي الاظهار فائدة الاقتداء وترغيب الناس في الخير، ومن الاعمال ما لا يمكن الاسرار به كالحج والجهاد والمظهر للعمل ينبغي ان يراقب قلبه حتى لا يكون فيه حب الرياء الخفي بل ينوي الاقتداء به ولا ينبغي للضعيف ان يخدع نفسه بذلك فان مثال الضعيف مثال الغريق الذي يحسن سباحة ضعيفة فنظر الى جماعة من الغرقى فرحمهم واقبل عليهم حتى تشبثوا به فهلكوا وهلك معهم . فأما من قوي وتم اخلاصه وصغر الناس في عينه واستوى عنده مدحهم وذمهم فلا بأس بالاظهار له لأن الترغيب في الخير خير وقد روي ذلك عن جماعة من السلف انهم كانوا يظهرون شيئاً من احوالهم الشريفة ليقتدى بهم . كما قال بعضهم لأهله حين

احتضر : لاتبكوا علي فاني ما أخطأت بخطيئة منذ اسلمت ، وقال ابو بكر ابن عياش رحمه الله لابنه: اياك ان تعصي الله تعالى في هذه الغرفة فاني ختمت فيها اثنتا عشرة الف ختمة . ونحو ذلك كثير في كلامهم والله اعلم .

(واما الرخصة في كتمان الذنوب) فربما ظن ظان ان كتمان الخطايا رياء وليس كذلك فان الصادق الذي لا يرائي اذا وقعت منه معصية كان له سترها لأن الله يكره ظهور المعاصي ويحب سترها وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله عز وجل » فهذا وان عصي بالذنب لم يخل قلبه عن محبة ما احبه الله عز وجل وهذا ينشأ عن قوة الايمان ، وينبغي ان يكره ظهور الذنب من غيره ايضاً فهذا اثر الصدق فيه ومن ذلك ان يكره ظهور ذم الناس له من حيث ان ذلك يشغل قلبه وعقله عن طاعة الله تعالى فان الطبع يتأذى بالذم وبهذه العلة أيضاً ينبغي ان يكره المدح اذا كان يشغله عن الله تعالى ويستغرق قلبه و يصرفه عن الذكر فان هذا ايضاً من قوة الايمان .

فصل

فاما ترك الطاعات خوفاً من الرياء فان كان الباعث له على الطاعة غير الدين فهذا ينبغي ان يترك لانه معصية لا طاعة فيه . فان كان الباعث على ذلك الدين وكان ذلك لأجل الله تعالى خالصاً فلا ينبغي ان يترك العمل لأن الباعث الدين . وكذلك اذا ترك العمل خوفا من ان يقال انه مرائي

فلا ينبغي ذلك لانه من مكائد الشيطان ، قال ابراهيم النخعي : اذا أتاك الشيطان وانت في صلاة فقال انك مرائي فزدها طولا ، واما ما روي عن بعض السلف انه ترك العبادة خوفاً من الرياء كما روي عن ابراهيم النخعي ان انسانا دخل عليه وهو يقرأ في المصحف فاطبق المصحف وترك القراءة وقال لا يراني هذا اني اقرأ كل ساعة فيحمل هذا على انهم احسوا من نفوسهم بنوع تزين فقطعوا ٠

﴿ فصل في بيان ما يصح من نشاط العبد بسبب رؤية الخلق وما لا يصح ﴾

قد يبيت الرجل مع المتهجدين فيصلون اكثر الليل وعادته قيام ساعة فيوافقهم اويصومون فيصوم ولولا هم ما انبعث هذا النشاط ٠ فربما ظن ظان ان هذا رياء وليس كذلك على الاطلاق بل فيه تفصيل وهو ان كل مؤمن يرغب في عبادة الله تعالى ولكن تعوقه العوائق وتستهويه الغفلة فربما كانت مشاهدة الغير سبباً لزوال الغفلة واندفاع العوائق فان الانسان اذا كان في منزله تمكن من النوم على فراش وطيء وتمتع بزوجته فاذا بات في مكان غريب اندفعت هذه الشواغل وحصلت له اسباب تبعث على الخير منها مشاهدة العابدين وقد يعسر عليه الصوم في منزله لكثرة المطاعم بخلاف غيره ففي مثل هذه الاحوال ينتدب الشيطان للصد عن الطاعة ويقول اذا عملت غير عادتك كنت مرائياً فلا ينبغي ان يلتفت اليه وانما ينبغي ان ينظر الى قصده الباطن ولا يلتفت الى وسواس الشيطان ٠ ويختبر امره بان يمثل القوم في مكان يراهم ولا يرونه فان رأى نفسه تسخو بالتعبد فهو لله وان لم تسخ

كان سخاؤها عندهم رياء ٠وقس على هذا فهذه جملة آفات الرياء فكن بحاثا عنها وتفقد نيتك فان الرياء اخفى من دبيب النمل، وينبغي للمريد ان يلزم قلبه القناعة بعلم الله في جميع طاعته وانما يقنع بذلك من خاف الله ورجاه ولا ينبغي ان يوئس نفسهُ من الاخلاص بان يقول انما يقدر على الاخلاص الاقوياء وانا من المخلطين فيترك المجاهدة في تحصيل الاخلاص لأن المخلط الى ذلك احوج، قال ابراهيم بن ادهم تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان دخلت على صومعته فقلت له منذ كم انت في صومعتك هذه ؟ قال منذ سبعين يسنة ٠قلت ما طعامك قال كل ليلة حمصة ٠ قلت فما الذي يهيج من قلبك حتي تكفيك هذه الحمصة ؟ قال ترى الدير بحذائك ؟ قلت نعم قال انهم أتوني في كل سنة يوماً واحداً فيزينون صومعتي و يطوفون حولها يعظموني ذلك فكلما تثاقلت نفسي عن العبادة ذكرتها عزّ تلك الساعة فأنا احتمل جهد سنة لعز ساعة فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعز الابد فوقر في قلبي المعرفة ٠ فقال أزيدك قلت نعم قال انزل عن الصومعة فنزلت فادلى الي ركوة فيها عشرون حمصة ثم قال لي ادخل الدير فقد رأوا ما ادليت اليك فلما دخلت الدير اجتمعت النصارى فقالوا يا حنيفي ما الذي ادلى اليك الشيخ قلت شيئاً من قوته قالوا وما تصنع به نحن احق به ساوم به قلت عشرون ديناراً فأعطوني عشرين دينارا فرجعت الى الراهب فقال أخطأت لو ساومتهم عشرين الفا لأعطوك هذا عز من لا يعبده فانظر كيف يكون عز من يعبده ٠يا حنيفي اقبل على عبادة ربك

فقد بان بهذا ان استشعار النفوس عزّ العظمة في القلوب يكون

باعثًا الى الخلوة فهذه آفة عظيمة ، وعلامة سلامته منها ان يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة و يكون عمله عمل من ليس على الارض غيره فاذا خطرت خطرات ضعيفة ردها والله اعلم .

كتاب ذم الكبر والعجب وفيه فصلان

(الاول في الكبر) قال الله تعالى (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق) وقال (انه لا يحب المستكبرين) و في الحديث الصحيح من افراد مسلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم قال « قالت النار اوثرت بالمتكبرين » وعنه صلى الله عليه وسلم انه قال « يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة في صورة الذر يطاؤهم الناس لهوانهم على الله عز وجل » وقال سفيان بن عيينة رحمة الله من كانت معصيته في شهوة فارج له التوبة فان آدم عليه السلام عصى مشتهيا فغفر له فاذا كانت معصيته من كبر فاخش عليه اللعنة فان ابليس عصى مستكبرا فلعن وفي الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله اليه يوم القيمة »فقال ابو بكر يا رسول الله إنّ احدَ شقي إزاري ليسترخي الا اني أتعاهد ذلك منه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لست ممن يصنعه خيلاء » واعلم ان الكبر خلق باطن تصدر عنه اعمال هي ثمرته فيظهر على الجوارح وذلك الخلق هو رؤية النفس على المتكبر عليه يعني يرى نفسه فوق الغير في صفات الكمال فعند

ذلك يكون متكبراً . وبهذا ينفصل عن العجب فان العجب لا يستدعي غير المعجب حتى لو قدر ان يخلق الانسان وحده تصور ان يكون معجبا ولا يتصور ان يكون متكبرا الا ان يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوقه، فان الانسان متى رأى نفسه بعين الاستعظام حقر من دونه وازدراه، وصفة هذا المتكبر ان ينظر الى العامة كأنه ينظر الى الحمير استجهالاً واستحقارا .

وآفة الكبر عظيمة وفيه يهلك الخواص . وقل ما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء ، وكيف لا تعظم آفته وقد اخبر النبي صلى الله عليه وسلم انه لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ، وانما صار حجاباً دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين اخلاق المؤمنين لأن صاحبه لا يقدر ان يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ولا يقدر على التواضع ولا على ترك الحقد والحسد والغضب ولا على كظم الغيظ وقبول النصح ولا يسلم من الازدراء بالناس واغتيالهم فما من خلق ذميم الا وهو مضطر اليه . ومن شر انواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له وقد تحصل المعرفة للمتكبر لكن لا تطاوعه نفسه على الانقياد للحق لك كما قال تعالى : (وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلواً ، وقالوا لن نؤمن لبشرين مثلنا ، ان انتم الا بشر مثلنا) وآيات كثيرة نحو هذا وهذا تكبر على الله وعلى رسوله ، وقد تقدم ان التكبر على العباد هو احتقارهم واستعظام نفسه عليهم وذلك ايضاً يدعو الى التكبر على امر الله تعالى كما حمل ابليس كبره على آدم عليه السلام ان امتنع من امتثال امر ربه في السجود ، وقد شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر فقال :

الكبر بطر الحق وغمط الناس ، ومعنى غمط الناس الازدراء بهم واستحقارهم، ويروى: غمص الناس بمعنى غمط الناس .

فصـــل

واعلم ان العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات : « الاولى » ان يكون الكبر مستقرا في قلب الانسان منهم فهو يرى نفسه خيراً من غيرة الا انه يجتهد و يتواضع فهذا في قلبه شجرة الكبر مغروسة الا انه قد قطع اغصانها « الثانية » ان يظهر لك بأفعاله من الترفع في المجالس والتقدم على الاقران والانكار على من يقصر في حقه فترى العالم يصعر(١) خده للناس كأنه معرض عنهم ، والعابد يعيش ووجهه كأنه مستقذر لهم وهذان قد جهلا ما أدب الله به نبيه صلى الله عليه وسلم حين قال (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) « الدرجة الثالثة » ان يظهر الكبر بلسانه كالدعاوي والمفاخر وتزكية النفس وحكايات الاحوال في معرض المفاخرة لغيره ، وكذلك التكبر بالنسب فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وان كان ارفع منه عملا ، قال ابن عباس يقول الرجل للرجل انا اكرم منك وليس احد اكرم من احد الا بالتقوى قال الله تعالى (ان اكرمكم عند الله اتقاكم) وكذلك التكبر بالمال والجمال والقوة وكثرة الاتباع ونحو ذلك فالكبر بالمال أكثر ما يجري بين الملوك والتجار ونحوهم ، والتكبر بالجمال اكثر ما يجري بين النساء ويدعوهن الى التنقص والغيبة وذكر العيوب ، واما التكبر

---

(١) صعر خده تصعيرا وصاع اي آماله من الكبر

بالاتباع والانصار فيجري بين الملوك بالمكاثرة بكثرة الجنود ، وبين العلماء بالمكاثرة بكثرة المستفيدين وفي الجملة فكلما يمكن ان يعتقد كمالا فان لم يكن في نفسه كمالا امكن ان يتكبر به حتى ان الفاسق قد يفتخر بكثرة شرب الخمور والفجور لظنه ان ذلك كمال .

واعلم ان التكبر يظهر في شمائل الانسان كصعر وجهه ونظره شزراً واطرق رأسه وجلوسه متربعاً ومتكئاً وفي اقواله حتى في صوته ونغمته وصيغة ايراده الكلام ويظهر ذلك ايضاً في مشيه وتبختره وقيامه وحركاته وسكناته وسائر تقلباته ، ومن خصال المتكبر ان يحب قيام الناس له ، والقيام على ضربين قيام على رأسه وهو قاعد فهذا منهي عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أَحب ان يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار » وهذه عادة الاعاجم والمتكبرين ، الثاني قيام عند مجيء الانسان فقد كان السلف لا يكادون يفعلون ذلك ، قال انس : لم يكن شخص احب الينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا اذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك ، وقد قال العلماء يستحب القيام للوالدين والامام العادل وفضلاء الناس وقد صار هذا كالشعار بين الافاضل فاذا تركه الانسان في حق من يصلح ان يفعل في حقه لم يأمن ان ينسبه الى اهانته والتقصير في حقه فيوجب ذلك حقداً ، واستحباب هذا في حق القائم لا يمنع الذي يقام له ان يكره ذلك ويرى أنه ليس بأهل لذلك .

ومن خصال المتكبر ان لا يمشي الا ومعه احد يمشي خلفه ، ومنها ان لا يزور احداً تكبرا على الناس ، ومنها ان يستنكف من جلوس احد الى جانبه او مشيه معه ، وقد روى انس رضي الله عنه قال كانت الأمة من اهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتنطلق به في حاجتها ، وقال ابن وهب جلست الى عبد الله ابي بن داود وان فخذي لتمس فخذه فنحيت نفسي عنه فأخذ ثيابي فجرني اليه وقال لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة واني لا اعرف منكم رجلاً شرا مني ؟

ومنها ان لا يتعاطى بيده شغلا في بيته وهذا بخلاف ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ومنها ان لا يحمل متاعه من سوقه الى بيته وقد اشترى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً وحمله ، وكان ابو بكر رضي الله عنه يحمل الثياب الى السوق يتجر فيها ، واشترى عمر رضي الله عنه لحماً فعلقه بيده وحمله الى بيته ، واشترى علي رضي الله عنه تمرا فحمله في ملحفة فقال له قائل : احمل عنك ؟ قال : لا ابو العيال احق ان يحمل ، واقبل ابو هريرة رضي الله عنه يوماً من السوق وقد حمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة مروان فقال لرجل اوسع الطريق للامير

ومن اراد ان ينفي الكبر ويستعمل التواضع فعليه بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد سبقت الاشارة اليها في كتاب آداب المعيشة

﴿ بيان معالجة الكبر واكتساب التواضع ﴾

اعلم ان الكبر من المهلكات ومداواته فرض عين ولك في معالجته

مقامان « الاول » في استئصال اصله وقطع شجرته وذلك بان يعرف الانسان نفسه ويعرف ربه فانه اذا عرف نفسه حق المعرفة علم انه اذل من كل ذليل ويكفيه ان ينظر في اصل وجوده بعد العدم من تراب ثم من نطفة خرجت من مخرج البول ثم من علقة ثم من مضغة فقد صار شيئاً مذكورا بعد ان كان جماداً لا يسمع ولا يبصر ولا يحس ولا يتحرك فقد ابتدأ بموته قبل حياته وبضعفه قبل قوته و بفقره قبل غناه وقد اشار الله تعالى الى هذا بقوله (من اي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره) ثم امتن عليه بقوله (ثم السبيل يسره) و بقوله (فجعلناه سميعاً بصيرا) فاحياه بعد الموت واحسن تصويره واخرجه الى الدنيا فاشبعه وأرواه ، و كساه وهداه وقواه ، فمن هذا بدايته فاي وجه لكبره وفخره ؟ على انه لو دام له الوجود على اختياره لكان لطغيانه طريق بل قد سلط عليه الاخلاط المتضادة والامراض الهائله ، بينما بنيانه قد تم وهي وتهدم ، لا يملك الشيء لنفسه ضرا ولا نفعاً بينما هو يذكر الشيء فينساه ، و يستلذ الشيء فيرديه ، ويروم الشيء فلا يناله ، ثم لا يأمن ان يسلب حياته بغتة . هذا اوسط حاله وذاك اول امره واما آخر امره فالموت الذي يعيده جمادا كما كان ثم يلقى في التراب فيصير جيفة منتنة وتبلى اعضاؤه وتنخر عظامه وتأكل الدود اجزاءه ويعود ترابا يعمل منه الكيزان . ويعمر منه البنيان ثم بعد طول البلى تجمع اجزاءه المتفرقة ويحضر عرضة القيامة فيرى ارضاً مبدلة ، وجبالا مسيرة ، وسماء منشقة ، ونجوماً منكدرة ، وشمساً مكورة ، واحوالاً مظلمة ، وجحيما تزفر ، وصحائف تنشر ، و يقال له اقرأ كتابك ، فيقول وما كتابي ؟ فيقال كان قد وكل

بك في حياتك التى كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها ملكان يحصيان ما تنطق به وتعمل من قليل و كثير وقيام وقعود وأكل وشرب وقد نسيت ذلك واحصاه الله تعالى فهلم الى الحساب علية وأعد جواباً له والا فأنت تساق الى النار فما لمن هذه حاله التكبر ، فان صار الى النار فالبهائم احسن حالا منه لانها تعود الى التراب ، ومن هذا حاله، وهو على شك من العفو عن خطيئة كيف يتكبر ؟ ومن الذي يسلم من ذنب يستحق به العقوبة وما مثله الا كمثل رجل جنى على ملك جناية استحق ان يضرب لأجلها الف سوط فحبس في السجن ليخرج فيعاقب فهو منتظر ان يدعى به لذلك . افتراه يتكبر على اهل السجن ؟ وهل الدنيا الا سجن وهل المعاصي الا موجبة للعقاب ؟

واما معرفة ربه فيكفيه ان ينظر في آثار قدرته وعجائب صنعته فتلوح له العظمة وتظهر له المعرفة فهذا هو العلاج القالع لأصل الكبر ومن العلاج العملي التواضع بالفعل لله تعالى ولعباده وذلك بالمواظبة على استعمال خلق المتواضعين وقد تقدمت الاشارة الى طريقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما كان عليه من التواضع والاخلاق الجميلة .

(المقام الثاني) فيما يعرض من التكبر بالأنساب ، فمن اعتراه الكبر من جهة النسب فليعلم ان هذا تقرب بكمال غيره ثم يعلم اباه وجده فان اباه القريب نطفة قذرة ، واباه البعيد تراب ، وان اعتراه الكبره بالجمال فلينظر الى باطنه نظر العقلاء، ولا ينظر الى ظاهره نظر البهائم ، ومن اعتراه من جهة القوه فليعلم انه لو آلمه عرق عاد اعجز من كل عاجز وان حمى

يوم تحلل من قوته ما لا يعودفي مدة ، وان شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته ، و بقة لو دخلت في أذنه لأقلقته ، ومن تكبر بسبب الغناء فاذا تأمل خلقاً من اليهود وجدهم اغنى منه فأف لشرف تسبق به اليهود و يستلبه السارق في لحظة فيعود صاحبه ذليلا ، ومن تكبر بسبب العلم فليعلم ان حجة الله على العالم آكد من الجاهل وليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده فان خطره اعظم من خطر غيره كما ان قدره اعظم من قدر غيره، وليعلم ايضاً ان الكبر لا يليق الا بالله سبحانه وانه اذا تكبر صار ممقوتاً عند الله تعالى بغيضاً عنده وقد احب الله منه ان يتواضع و كذلك كل سبب يعالجه بنقيضه و يستعمل التواضع .

واعلم ان هذا الخلق كسائر الاخلاق له طرفان ووسط فطرفه الذي يميل الى الزيدة يسمى تكبراً وطرفه الذي يميل الى النقصان يسمى تخاسساً ومذلة والوسط يسمى تواضعاً وهو المحمود وهو ان يتواضع من غير مذلة فخير الامور اوساطها فمن تقدم على اقرانه فهو متكبر ومن تأخر عنهم فهو متواضع لأنه قد وضع شيئاً من قدره ، فاما اذا ادخل على العالم اسكاف او نحوه فتنحى له عن مجلسه واجلسه فيه ثم قدم له نعله ومشى معه الى الباب فقد تخاسس وتذلل فذلك غير محمود بل المحمود العدل وهو ان تعطي كل ذى حق حقه لكن تواضعه للسوقي بالرفق في السوءال واللين في الكلام واجابة الدعوة والسعي في الحاجة ولا يحقره ولا يستصغره والله اعلم .

﴿ الفصل الثاني في العجب ﴾

روى ابو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال « بينما رجل يتبختر في بردين وقد اعجبته نفسه خسف الله به الارض فهو يتجلجل(١) فيها الى يوم القيامة » وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، واعجاب المرء بنفسه » وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه انه قال « الهلاك في شيئين : العجب والقنوط » وانما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال الا بالطلب والتشمير والقانط لا يطلب والمعجب يظهر انه قد ظفر بمراده فلا يسعى · قال مطرف رحمه الله : لأن ابيت نائماً واصبح نادما احب الي من ان ابيت قائماً واصبح معجبا

واعلم ان العجب يدعو الى الكبر لأنه احد اسبابه فيتولد من العجب الكبر ومن الكبر الآفات الكثيرة وهذا مع الخلق · فاما مع الخالق فان العجب بالطاعات نتيجة استعظامها فكأنه يمن على الله تعالى بفعلها وينسى نعمته عليه بتوفيقه لها ويعمى عن آفاتها المفسدة لها · وانما يتفقد آفات الأعمال من خاف ردها دون من رضيها واعجب بها · والعجب انما يكون بوصف كمال من علم او عمل فان انضاف الى ذلك ان يرى حقاً له عند الله كان ادلالاً فالعجب يحصل باستعظام ما عُجب به والادلال يوجب توقع الجزاء مثل من يتوقع اجابة دعائه وينكر رده ·

﴿ فصل في علاج العجب ﴾

اعلم ان الله سبحانه هو المنعم عليك بايجادك وايجاد اعمالك فلا

---

(١) تجلجل في الارض ساخ فيها

معنى لعجب عامل بعمله ولا عالم بعلمه ولا جميل بجماله ولا غني بغناه اذ كل ذلك من فضل الله تعالى وانما الآدمي محل لفيض النعم عليه . وكونه محلا لهنعمة اخرى . فان قلت ان العمل حصل بقدرتك ولا يتصور العمل الا بوجودك وارادتك وقدرتك فمن اين قدرتك وكل ذلك من الله تعالى لا منك فان كان العمل بالقدرة فالقدرة مفتاحه وهذا المفتاح بيد الله تعالى وما لم يعط المفتاح لا يمكنك العمل كما لو قعدت عند خزانة مغلقة لم تقدر على ما فيها الا ان تعطى مفتاحها وفي الصحيحين من حديث ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « لن يدخل احداً منكم عمله الجنة قالوا ولا انت يا رسول الله قال ولا أنا الا ان يتغمدني الله برحمة منه وفضل » .

واعلم ان العجب يكون بالاسباب التي بها يقع الكبر وقد سبق ذكرها وعلاجها . من ذلك العجب بالنسب كما يتخيل الشريف انه ينجو بشرف آبائه وعلاجه ان يعلم انه متي خالف آباءه وظن انه ملحق بهم فقد جهل وان اقتدى بهم فانه لم يكن العجب من اخلاقهم بل الخوف والازراء على النفس ، وانما شرفوا بالطاعة والخصال المحمودة لا بنفس النسب قال الله تعالى (ان اكرمكم عند الله اتقاكم) وقال النبي صلى الله عليه وسلم (يافاطمة لا اغني عنك من الله شيئاً) .

(فان قلت) انما يرجو الشريف ان يشفع فيه ذو قرابته (فالجواب) ان كل المسلمين يرجون الشفاعة وقد يشفع في الشخص بعد احراقه بالنار وقد يقوى الذنب فلا تنجي الشفاعة وفي الصحيحين من حديث ابي

هريرة رضى الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لا الفين (١) احدكم يجيئ يوم القيمة على رقبته بعير له رغاء فيقول يا رسول الله اغثني فاقول لا املك لك شيئاً قد ابلغتك »

ومثل المنهمك في الذنوب اعتماداً على رجاء الشفاعة كمثل المريض المنهمك في الشهوات اعتماداً على طبيبه الحاذق المشفق وذلك جهل فان اجتهاد الطبيب ينفع بعض الامراض لا كلها ويوضح هذا ان سادات الصحابة رضوان الله عليهم اجمعين كانوا يخافون من الاخرة فكيف يتكل من ليس في مثل مراتبهم. ومن ذلك العجب بالرأي الخطأ كما قال تعالى (افمن زين له سوء عمله فرآه حسناً) وعلاج هذا اشد من علاج غيره فان هذا متى كان معجبا برأيه لم يصغ الى نصح ناصح وكيف يترك ما يعتقده نجاة وانما علاجه في الجملة ان يكون متهما لرأيه ابدا لا يغتر به الا ان يشهد له قاطع من كتاب او سنة او دليل عقلي جامع لشروط الادلة ولن يعرف ذلك الا بمجالسة اهل العلم وممارسة الكتاب والسنة والاولى لمن لم يتفرغ لاستغراق العمر في العلم ان لا يخوض في المذاهب ولكن يقف عند اعتقاد الجمل وان الله سبحانه واحد لا شريك له ليس كمثله شيء وهو السميع البصير وان رسوله صادق فيما جاء به ويؤمن بما جاء به القرآن من غير بحث ولا تنقير ويصرف زمنه في التقوى واداء الطاعات فمتى خاض في المذاهب ورام ما لا يصل الى معرفته هلك ٠

---

(١) اي لا أجد و ألقى يقال : ألفيت الشيء ألفية إلفاء إذا وجدته وصادفته ولقيته

﴿ كتاب الغرور واقسامه ودرجاته ﴾

من الناس من غرته الدنيا فقال النقد خير من النسيئة والدنيا نقد والآخرة نسيئة وهذا محل التلبيس فان النقد لا يكون خيرا من النسيئة الا اذا كان مثل النسيئة ومعلوم ان عمر الانسان بالاضافة الى مدة الآخرة ليس بجزء من الف الف جزء الى ان ينقطع النفس ، وانما اراد من قال : النقد خير من النسيئة اذا كانت النسيئة مثل النقد . وهذا غرور الكفار . فاما ملابسو المعاصي مع سلامة عقائدهم فانهم قد شاركوا الكفار في هذا الغرور لأنهم آثروا الدنيا على الآخرة الا ان امرهم اسهل من أمر الكفار من جهة ان اصل الايمان يمنعهم من عقاب الأبد .

ومن العصاة من يغتر فيقول ان الله كريم وانما نتكل على عفوه وربما اغتروا بصلاح آبائهم وقد قال العلماء من رجا شيئاً طلبه ، ومن خاف شيئاً هرب منه ،ومن رجا الغفران مع الاصرار فهو مغرور . وليعلم ان الله تعالى مع سعة رحمته شديد العقاب وقد قضى بتخليد الكفار في النار مع انه لا يضره كفرهم وقد سلط الامراض والمحن على خلق من عباده في الدنيا وهو سبحانه قادر على إزالتها ثم خوفنا من عقابه فكيف لا نخاف . فالخوف والرجاء سائقان يبعثان على العمل . وما لا يبعث على العمل فهو غرور . يوضح هذا ان رجاء اكثر الخلق يحملهم على البطالة وايثار المعاصي

والعجب ان القرن الاول عملوا وخافوا ثم اهل هذا الزمان امنوا مع التقصير واطمأنوا اتراهم عرفوا من كرم الله تعالى ما لم يعرف الانبياء والصالحون؟ ولو كان هذا الامر يدرك بالمنى فلم تعب اولئك وكثر بكاؤهم؟

وهل ذم اهل الكتاب بقوله (يأخذون عرض هذا الادنى و يقولون سيغفر لنا) الا لمثل هذه الحال . واما من اغتر بصلاح آبائه فهلا يذكر قصة نوح عليه السلام مع ابنه وابراهيم عليه السلام مع ابيه ومحمد صلى الله عليه وسلم مع امه وعلى سائر النبيين . و يقرب من هذا الغرور غرور اقوام لهم طاعات ومعاصي الا أن معاصيهم اكثر وهم يظنون ان حسناتهم ترجح فترى الواحد منهم يتصدق بدرهم و يكون قد تناول من الغصب اضعاف ذلك ولعل الذي تصدق به من المغصوب و يتكل على تلك الصدقة وما هو الا كمن وضع درهماً في كفه والفا في اخرى ثم رجى ان يرجح الدرهم بالالف، ومنهم من يظن ان طاعاته اكثر من معاصيه وسبب ذلك ان يحفظ عدد حسناته ولا يحاسب نفسه على سيآته ولا يتفقد ذنو به كالذي يستغفر الله او يسبحه مئة مرة في يوم ثم يظل طول نهاره يغتاب المسلمين و يتكلم بما لا يرضي فهو ينظر في فضائل التسبيح والاستغفار ولا ينظر في عقوبة الغيبه والكلام المنهي عنه .

فصل

و يقع الاغترار في الاغلب في حق اربعة اصناف : العلماء ، والعباد والمتصوفة، والاغنياء .

فاما اهل العلم فالمغترون منهم فرق (فرقة) احكموا العلوم الشرعية والعقلية واهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي والزامها الطاعات واغتروا بعلمهم وظنوا انهم من الله بمكان ولو نظر هؤلاء بعين البصيرة علموا ان علم المعاملة لا يراد به الا العمل و لو لا العمل لم يكن له قدر قال

الله تعالى (قد افلح من زكاها) ولم يقل قد افلح من يعلم كيف يزكيها ، فان تلي عليه الشيطان فضائل اهل العلم فليذكر ما ورد في العالم الفاجر كقوله (فمثله كمثل الحمار يحمل اسفارا) ومنهم (فرقة اخرى) احكموا العلم والعمل الظاهر ولم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا الصفات المذمومة منها كالكبر والحسد والرياء وطلب العلو وطلب الشهرة فهؤلاء زينوا ظواهرهم واهملوا بواطنهم ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم « ان الله لا ينظر الى صوركم واموالكم انما ينظر الى قلوبكم واعمالكم » فتعاهدوا الاعمال ولم يتعاهدوا القلوب والقلب هو الاصل اذ لا ينجو الا من اتى الله بقلب سليم ومثال هؤلاء كمثل رجل زرع زرعاً فنبت ونبت معه حشيش يفسده فأُمر بقلعه فأخذ يجز رؤسه واطرافه و يترك اصوله فلم تزل اصوله تقوى

(وفرقة اخرى) علموا ان هذه الاخلاق الباطنة مذمومة الا انهم بعجبهم بانفسهم يظنون انهم منفكون عنها وانهم ارفع عند الله من ان يبتليهم بذلك وانما يبتلي بذلك العوام دون من بلغ مبلغهم من العلم فاذا ظهر عليهم مخائل الكبر والرياسة قال احدهم ماهذا بكبر وانما هو طلب عز الدين واظهار شرف العلم وارغام المبتدعين فاني لو لبست الدون من الثياب وجلست في الدون من المجالس شمتت بي أعداء الدين وفرحوا بذلي وفي ذلي ذل الاسلام وينسى الغرور وان ابليس هو الذي سول له هذا بدليل ان النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه كانوا يؤثرون الفقر والمسكنة وقد روينا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه لما قدم الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره ونزع خفيه وأمسكهما وخاض الماء ومعه بعيره

فقال له ابو عبيدة لقد صنعت اليوم صنيعاً عظيما عند اهل الارض فصك في صدره وقال اوه لو غيرك يقول هذا يا ابا عبيدة . انكم كنتم اذل الناس واحقر الناس فاعزكم الله برسوله فمهما تطلبوا العز بغيره يذلكم الله، وفي رواية عنه لما قدم الشام استقبله الناس وهو على بعيره فقيل له لو ركبت برذوناً تلقى به عظماء الناس ووجوههم فقال عمر رضي الله عنه لا اراكم ههنا انما الامر من ههنا واشار بيده الى السماء خلو سبيل جملي

ثم العجب من مغرور يطلب عز الدنيا بالثياب الرفيعة والخيول الفارهة ونحو ذلك واذا خطر له خاطر الرياء قال انما غرضي بهذا اظهار العلم والعمل لاقتداء الناس بي ليهتدوا الى الدين ولو كان هذا قصده لفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرح باقتدائهم به لان من كان قصده صلاح الخلق يفرح بصلاحهم على يد من كان وكذلك من يدخل منهم على سلطان ويتودد اليه ويثني عليه ويتواضع له ويقول انما غرضي بهذا ان اشفع في مسلم او ادفع عنه الضرر والله يعلم انه لو ظهر لبعض اقرانه قبول عند اقران السلطان لثقل عليه ذلك .

وقد ينتهي غرور بعضهم إلى انه يأخذ من مالهم الحرام ويقول هذا مال لا مالك له وهو لمصالح المسلمين وانت امام من ائمتهم فيغتر بهذا التلبيس من جهة نظره الى نفسه وربما كان دجالا من الدجالين من جهة قوله هذا مال لا مالك له وغاية الامر وقوع الاختلاط في الاموال وذلك لا يمنع كونها حراما وقد يكون عالما بمن أخذ منه المال

(وفرقة اخرى) احكموا العلم وطهروا جوارحهم وزينوها بالطاعات

وتفقدوا قلوبهم بتصفيتها من الرياء والحسد والكبر ونحو ذلك ولكن بقيت في زوايا القلب خفايا من مكائد الشيطان وخدع النفس لم يفطنوا لها واهملوها فترى احدهم يسهر ليله وينصب (١) نهاره في جمع العلوم وترتيبها وتحسين الفاظها يرى ان باعثه على ذلك الحرص على اظهار دين الله تعالى وربما كان الباعث لذلك طلب الذكر وانتشار الصيت ولعله لا يخلو في تصنيفه من الثناء على نفسه اما صريحا بالدعاوي الطويلة العريضة واما ضمنا بالطعن في غيره ليبين بطعنه في غيره انه افضل من ذلك الغير واعظم منه علما فهذا وامثاله من خفايا العيوب الذي لا يفطن له الا الاكياس الاقوياء ولا مطمع فيه لامثالنا من الضعفاء الا ان اقل الدرجات ان يعرف الانسان عيوب نفسه ويحرص على صلاحها ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مرجو امره بخلاف من يزكي نفسه ويظن انه من خيار الخلق فهذا غرور الذين حصلوا العلوم المهمة فكيف بالذين قنعوا من العلوم بما لا يهمهم وتركوا المهم، فمنهم من اقتصر على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لصلاح المعايش وربما ضيعوا الاعمال الظاهرة وارتكبوا بعض المعاصي من الغيبة والنظر الى ما يحل والمشي الى مالا يجوز ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وجمع المهلكات فهؤلاء مغرورون من وجهين: احدهما من حيث العمل، والاخر من حيث العلم، ومثالهم مثال المريض اذا تعلم نسخة الدواء واشتغل بتكراره وتعليمه لا بل مثلهم مثل من به علة البرسام وهو مشرف على الهلاك فاشتغل بتعليم

(١) اي يتعب

دواء الاستحاضة وجعل يكرر ذلك وذلك غاية الغرور، وسبب غروره ما سمع في النقل من تعظيم الفقه ولم يدر ان الفقه هو الفقه عن الله ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة ليستشعر القلب الخوف و يلازم التقوى وقد قال الله تعالى (فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين) الآية والذي يحصل به الانذار غير هذا العلم فان مقصود هذا العلم حفظ الاموال بشروط المعاملات وحفظ الابدان بالاموال ودفع القتل والجرحات والمال في طريق الله تعالى آلة والبدن مركب. وانما العلم المهم معرفة سلوك الطريق وقطع عقاب القلب التي هي الصفات المذمومة فهي الحجاب بين العبد و بين الله تعالى ومثال من اقتصر على ذلك كمثل من اقتصر في سلوك طريق الحج على علم خرز الراوية والخف ولا شك انه لا بد من ذلك ولكن ليس من الحج في شيء، ومن هؤلاء من اقتصر على علم الخلاف ولا يهمه الا طريق المجادلة والالزام والافحام ودفع الحق لأجل الغلبة فهم اسوأ حالا ممن ذكر قبلهم وجميع دقائق الجدل في الفقة بدعة لم يعرفها السلف.

واما ادلة الاحكام فيشتمل عليها علم المذهب وهي كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم

واما حيل الجدل من الكسر والقلب وفساد الوضع والتركيب والتعدية فانما ابدعت لاظهار الغلبة والافحام

وفرقة اخرى اشتغلوا بعلم الكلام والمجادلة في الاهواء والرد على المخالفين. ثم هؤلاء طائفتان: ضالة، ومحقة. فالضالة التى تدعو الى غير السنة

والمحقة التي تدعو الى السنة والغرور شامل لجميعهم . اما الضالة فاغترارها ظاهر، واما المحقة فاغترارها من حيث انها ظنت ان الجدل اهم الامور وافضل القربات في دين الله تعالى وزعمت انه لا يتم لاحد دينه مالم يبحث وان من صدق الله ورسوله من غير تحرير دليل فليس بكامل الايمان فلهذا الظن الفاسد قطعت اعمارهم في تعلم الجدل والبحث عن المقالات وعميت بصائرهم فلم يلتفتوا الى القرن الاول وان النبي صلى الله عليه وسلم شهد لهم بانهم خير الخلق وانهم قد ادركوا كثيراً من البدع والهوى فلم يجعلوا اعمارهم ودينهم عرضا للخصومات والمجادلات ولم يشتغلوا بذلك عن تفقد قلوبهم وجوارحهم بل لم يتكلموا فيه الا لضرورة رد الضلال فان رأوه مصراً على بدعته هجروه من غير مماراة ولا جدل وقد روي في الحديث «ما ضل قوم قط بعد هدى الا اوتوا الجدل»

(وفرقة اخرى) اشتغلوا بالوعظ واعلاهم رتبة من يتكلم في اخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والاخلاص وهم يظنون انهم اذا تكلموا بهذه الصفات وهم منفكون عنها انهم من اهلها فهؤلاء يدعون الى الله وهم هاربون منه فهم اعظم الناس غرة، ومن هؤلاء من يعدل عن المنهاج الواجب في الوعظ الى الشطح وتلفيق كلام خارج عن قانون الشرع والعقل طلبا للاغراب، ومنهم من يستشهد باشعار الوصال والفراق وغرضهم ان يكثر الصياح في مجالسهم والتواجد ولو على اغراض فاسدة فهؤلاء شياطين الأنس .

(ومنهم فرقة) استغرقوا اوقاتهم في سماع الحديث وجمع رواياته واسانيده

الغريبة والعالية فهم احدهم ان يدور البلاد ويرى الشيوخ ليقول انا اروي عن فلان ولقيت فلانا ولي من الاسناد ما ليس لغيري ٠

ومنهم فرقة اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وزعموا انهم علماء الامة واذهبوا اعمارهم في دقائق النحو واللغة ولو عقلوا لعلموا ان مضيع عمره في معرفة لغة العرب كالمضيع عمره في معرفة لغة الترك وانما فارقتها لغة العرب لأجل ورود الشريعة بها فيكفي من اللغة علم الغريبين غريب القرآن والحديث ومن النحو ما يقوّم به اللسان ، فاما التعميق الى درجات لا تتناهى فلذلك يشغل عما هو اجود منه وألزم ٠ ومثال التعمق في ذلك مثال من ضيع عمره في تصحيح مخارج الحروف في القرآن مقتصراً على ذلك وذلك غرور لان المقصود من الحروف المعاني وانما الحروف ظروف وادوات ومن احتاج الى شرب السكنجبين لازالة الصفراء فضيع عمره في تحسين القدح الذي يشرب فيه فهو مغرور والسعيد من اخذ من كل شيء من هذا حاجته المهمة لاغير وتجاوز الى العمل واجتهد فيه وفي تصفيته من الشوائب فهذا هو المقصود (وفرقة اخرى) عظم غرورهم فوضعوا الحيل في دفع الحقوق وظنوا ان ذلك ينفعهم بل ذلك غرور فان الانسان اذا الجأ زوجته الى ان تبرئه من حقها لم يبرأ فيما بينه وبين الله تعالى ، وكذلك هبة الرجل مال الزكاة في اخر الحول لزوجته واتهابه مالها حيلة لاسقاط الزكاة ونحو ذلك من انواع الحيل .

(الصنف الثاني) ارباب التعبد والعمل وهم فرق (فرقة) اهملوا الفرائض واشتغلوا بالنوافل والفضائل وربما تعمقوا في استعمال الماء حتى

خرجوا الى الوسوسة في الوضوء فترى احدهم لا يرضى بالماء المحكوم له بالطهارة شرعا بل يقدر له الاحتمالات البعيدة في النجاسة ولا يقدر ذلك في مطعمه فلو انقلب هـذا الاحتياط من الماء الى المطعم لكان اشبه بسير السلف فان عمر رضي الله عنه توضأ من جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة وكان مع هذا يدع انواعا من الحلال خوفا من الوقوع في الحرام . وقد صح ان النبي صلى الله عليه وسلم توضأ من مزادة مشركة . ثم منهم من يخرج الى الاسراف في الماء و يطول به الامر حتى تضيع الصلاة ويخرج وقتها

ومنهم من غلبت عليه الوسوسة في تكبيرة الاحرام في الصلاة حتى ربما فاتته ركعة مع الامام

ومنهم من يتوسوس في اخراج حروف الفاتحة وسائر الاذكار من مخارجها فلا يزال يحتاط في التشديدات و الفرق بين الضاد والظاء فوق الحاجة ونحو ذلك بحيث يهتم بذلك حتى لا يتفكر فيما سواه و يذهل عن معنى القرآن والاتعاظ به وهذا من قبح انواع الغرور فان الخلق لم يتكلفوا في تحقيق مخارج الحروف في تلاوة القرآن الا ما جرت به العادة في الكلام، ومثال هؤلاء مثال من حمل رسالة الى سلطان فأخذ يؤدي الرسالة بالتأنق في مخارج الحروف و تكراره و هو غافل عن مقصود الرسالة ومراعات حرمة المجلس فما أحراه بالطرد والتأديب

و فرقة اخرى اغتروا بقراآة القرآن فهم يهذونه هذا و ربما ختموا في اليوم مرتين فلسان احدهم يجري به وقلبه يتردد في اودية الأماني ولا يتفكر في معاني القرآن ولا يتعظ بمواعظه ولا يقف عند أوامره

ونواهيه فهذا مغرور يظن ان المقصود من القرآن التلاوة فقط · ومثال هذا مثال عبد كتب اليه مولاه كتابا يأمره فيه وينهاه فلم يصرف عنايته الى فهمه والعمل به بل اقتصر على حفظه وتكراره ظانا ان ذلك هو المراد منه مع مخالفته امر مولاه ونهيه

ومنهم من يلتذ بصوته بالقرآن معرضا عن معانيه فينبغي ان يتفقد قلبه فيعرف هل التذاذه بالنظم او بالصوت او بالمعاني

(وفرقة اخرى) اغتروا بالصوم واكثروا منه وهم لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة والفضول ولا بطونهم من الحرام عند الافطار ولا خواطرهم عن الرياء

ومنهم من اغتر بالحج فيخرج اليه من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال وقد يفعلون ذلك بعد سقوط فرض الحج ويضيعون في الطرق العبادة والفرائض ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن ولا يحترزون من الرفث والخصام وهم مع ذلك يظنون انهم على خير وهم مغرورون

وفرقة اخرى اخذوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونسوا انفسهم، ومنهم من يؤم في مسجد ولو تقدم عليه اورع منه واعلم ثقل عليه ومنهم من يؤذن ويظن ان ذلك لله، ولو أذن غيره في غيبته اشتد عليه ذلك وقال قد زاحمني في مرتبتي

ومنهم من يجاور بمكة او بالمدينة وقلبه متعلق ببلاده وقول الناس فلان مجاور بمكة او المدينة ثم انه يجاور ويطمع في اوساخ الناس وقد يجمع ذلك ويشح به ويجتمع له جملة من المهلكات وما من عمل الا وفيه آفات

فمن لم يعرفها وقع فيها،ومن اراد ان يعرفها فلينظر في كتابنا هـذا فينظر في آفات الرياء الحاصل في العبادات من الصوم والصلاة وفي جميع القربات في الابواب المرتبة في هذا الكتاب وانما الغرض الآن الاشارة الى مجامع ما سبق .

وفرقة اخرى زهدت في المال وقنعت بالدون من اللباس والطعام وقنعت من المسكن بالمساجد وظنت انها ادركت رتبة الزهاد وهم مع هذا شديدوا الرغبة في الرياسة والجاه فقد تركوا اهون الأمرين وباؤا باعظم المهلكين

وفرقة اخرى حرصت على النوافل ولم تعتني بالفرائض فترى احدهم يفرح بصلاة الضحى وصلاة الليل ولا يجد للفريضة لذة ولا يحرص على المبادرة اليها في اول الوقت و ينسى قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل «ما تقرب المتقربون اليّ بمثل اداء ما افترضت عليهم»

الصنف الثالث المتصوفون

والمغرورون منهم فرق : فرقة منهم اغتروا بالزي والنطق والهيئة فتشبهوا بالصادقين من الصوفية في الظاهر ولم يتعبوا انفسهم في المجاهـدة والرياضة ثم هم يتكالبون على الحرام والشبهات واموال السلاطين ويمزق بعض اعراض بعض اذا اختلفوا في غرض وهؤلاء غرورهم ظاهر . ومثالهم مثال عجوز سمعت ان الشجعان والابطال من المقاتلين تثبت اسماؤهم في الديوان ويقطع كل واحد منهم قطرا من اقطار البلاد فاشتاقت نفسها الى ذلك فلبست درعا ووضعت على رأسها مغفرا وتعلمت من رجز الابطال ابياتا وتعلمت

زيهم وجميع شمائلهم ثم توجهت الى العسكر فكتب اسمها في ديوان الشعجان ، فلما حضرت في ديوان العرض امرت بتجريد المغفر والدرع لينظر ما تحته وتمتحن بالمبارزة فلما جردت اذا هي عجوز ضعيفة زمنة فقيل لها جئت تستهزئين بالملك واهل حضرته خذوها والقوها بين ايدي الفيل فالقيت اليه . فهكذا يكون حال المدعين التصوف في القيامة اذا كشف عنهم الغطاء وعرضوا على الحاكم الاكبر الذي ينظر الى القلب لا الى المرقعات والزي

(وفرقة اخرى) ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والاحوال والوصول الى القريب ولا يعرفون من تلك الامور الا الاسماء فترى احدهم يرددها ويظن ان ذلك اعلم من علم الاولين والاخرين فهو ينظر الى الفقهاء والمحدثين واصناف العلماء بعين الازدراء فضلا عن العوام حتى ان بعض العامة يلازمهم الايام الكثيرة ويتلقن منهم تلك الكلمات المزيفة ويرددها كانه يتكلم عن الوحي ويحتقر في ذلك جميع العلماء والعباد ويقول بانهم محجبون عن الله وانه هو الواصل الى الحق ، وانه من المقربين ، وهو عند الله من الفجار المنافقين ، وعند ارباب القلوب من الحمقى الجاهلين ، لم يحكم علما ولم يهذب خلقاً ولم يراقب قلبا سوى اتباع الهوى وحفظ الهذيان

وفرقة منهم طووا بساط الشرع ورفضوا الاحكام وسووا بين الحلال والحرام وبعضهم يقول ان الله مستغن عن عملي فلم اتعب نفسي ، وبعضهم يقول لا قدر للاعمال بالجوارح وانما النظر الى القلوب وقلوبنا والهة

بحب الله تعالى وواصلة الى معرفته وانما نخوض في الدنيا بابداننا وقلوبنا عاكفة في الحضرة الربانية فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب ويزعمون بانهم قد ترقوا عن رتبة العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالاعمال البدنية وان الشهوات لا تصدهم عن طريق الله تعالى لقوتهم فيها ويرفعون انفسهم عن درجة الانبياء لأن الانبياء عليهم السلام كانوا يبكون على خطيئة واحدة سنين، واصناف غرور اهل الاباحة لا تحصى وكل ذلك اغاليط ووسواس خدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل احكام العلم من غير اقتداء بشيخ صاحب علم ودين صالح للاقتداء به

ومنهم فرقة اخرى جاوزوا هذه الطريق واشتغلوا بالمجاهدة وابتدؤا بسلوك الطريق وانفتح لهم باب المعرفة فلما استنشقوا مبادئ ريح المعرفة تعجبوا منها وفرحوا بها واعجبهم غريبها فتقيدت قلوبهم بالالتفات اليها والتفكر فيها وكيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده عن غيرهم وكل ذلك غرور لأن عجائب طريق الله سبحانه وتعالى ليس لها نهاية ولو وقف مع كل اعجوبة وتقيد بها قصرت خطاه وحرم الوصل الى القصد وكان مثاله مثال من قصد ملكا فرأى على بابه روضة فيها ازهار لم يكن رأى مثلها فوقف ينظر اليها حتى فاته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك

﴿ الصنف الرابع ارباب الاموال ﴾

وهم فرق: ففرقة منهم يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس ويكتبون اسمهم عليها ليتخلد ذكرهم، ويبقى

بعد الموت اثرهم، ولو كلف احدهم ان ينفق ديناراً ولا يكتب اسمه في
الموضع الذي انفق عليه لشق عليه ولولا انه يريد وجه الناس لا وجه الله
لما شق عليه ذلك فان الله يطلع عليه سواء كتب اسمه او لم يكتبه وبعضهم
يصرف المال في زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش التي هي منهي عنها
وشاغلة للمصلين فان المقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب وذلك
يفسد قلوب المصلين، فاما اذا كان المال الذي صرفه في ذلك حراما كان
اشد في الغرور قال مالك بن دينار رحمه الله اتى رجل مسجدا فوقف
على الباب وقال مثلي يدخل بيت الله فكتب في مكانه صديقا . فبهذا ينبغي
ان تعظم المساجد وهو ان يرى تلويث المسجد بنفسه جناية على المسجد
وهذا لا يرى تلويث المسجد بالحرام او بزخرفة الدنيا نغرور هذا من
حيث انه يرى المنكر معروفاً (وفرقة اخرى) يحفظون الاموال ويمسكونها
بخلا ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا تحتاج الى نفقة المال كالصيام
والصلاة وختم القرآن وهم مغرورون لان البخل مهلك وقد استولى على
قلوبهم فهم محتاجون الى قمعه باخراج المال فقد اشتغلوا عنه بفضائل لا تجب
عليهم . ومثالهم مثال من دخلت في ثوبه حية فاشتغل عنها بطبخ السكنجبين لتسكن
به الصفراء، ومنهم من لا تسمح نفسه لا باداء الزكاة فقط فيخرج الردئ
من المال او يعطي من الفقراء من يخدمه و يتردد في حاجاته او من يحتاج
اليه في المستقبل او من له فيه غرض، ومنهم من يسلم ذلك الى بعض
الاكابر ليفرقه لينال بذلك عنده منزلة و يقوم بحوائجه وكل ذلك مفسد
للنية وصاحبه مغرور لانه يطلب بعبادة الله تعالى عوضا عن غيره

(وفرقة اخرى) من ارباب الاموال وغيرهم اغتروا بحضور مجالس الذكر وظنوا ان نفس الحضور يغنيهم عن العمل والاتعاظ وليس كذلك لان مجلس الذكر انما فضل لكونه مرغباً في الخير وكل ما يراد لغيره اذا لم يوصل الى ذلك الغير فلا وقع له وربما سمع احدهم التخويف فلا يزيد على قوله: يا سلام سلم، او اعوذ بالله ويظن انه قد اتى بالمقصود. ومثاله مثال مريض يحضر عند الاطباء فيسمع ما يجري او الجائع يحضر عند من يصف له الاطعمة اللذيذة ثم ينصرف فلا يغني ذلك عنه فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل بها فكل وعظ لم يغير منك صفة تتغير بها افعالك فهو حجة عليك (فان قيل) فما ذكرته من مداخل الغرور امر لا يكاد يخلص منه (فالجواب) ان مدار امر الاخرة على معنى واحد وهو تقويم القلب ولا يعجز عن ذلك الا من لم تصدق نيته فان الانسان لو اهتم بامر الاخرة كما يهتم بامر الدنيا لنالها وقد فعل ذلك السلف الصالح ومن تبعهم باحسان ويستعان على التخلص من الغرور بثلاثة اشياء: العقل وهو النور الذي يدرك به الانسان حقائق الاشياء، والمعرفة التى يعرف بها الانسان نفسه وربه ودنياه وآخرته وفي كتاب المحبة وشرح عجائب القلب والتفكر وكتاب الشكر اشارات الى وصف النفس ووصف جلال الله سبحانه، ويستعين على معرفة الدنيا والاخرة بما ذكر في كتاب ذم الدنيا وكتاب ذكر الموت فاذا حصلت هذه المعارف ثار من القلب بمعرفة الله تعالى حب الله وبمعرفة الاخرة حب شدة الرغبة فيها وبمعرفة الدنيا شدة الرغبة عنها فيصير اهم اموره اليه ما يوصله الى الله تعالى وينفعه في الاخرة

واذا غلبت هذه الارادة على قلب صحت نيته في الامور كلها واندفع عنه كل غرور . فاذا غلب حب الله تعالى على قلبه لمعرفته به و بنفسه واحتاج الى الامر الثالث وهو العلم ونعني به العلم بكيفية سلوك الطريق الى الله تعالى وآفاتها والعلم بما يقرب منه ويهديه (وجميع ذلك في كتابنا هذا) فيعرف من ربع العبادات والعادات ما هو محتاج اليه وما هو مستغن عنه و يتأدب بأدب الشرع ، و يعرف من ربع المهلكات جميع العقبات المانعة من طريق الله تعالى وهي الصفات المذمومة في الخلق ، و يعرف من ربع المنجيات الصفات المحمودة التي لا بد ان توضع خلفاً من المذمومة بعد محوها فاذا احاط بجميع ذلك امكنه الحذر من الانواع التي اشرنا اليها من الغرور والله اعلم . واذا فعل جميع ذلك ينبغي ان يكون خائفاً ان يخدعه الشيطان و يدعوه الى الرياسة و يخاف عليه ايضاً من الأمن من مكر الله تعالى ، ولذلك قيل : والمخلصون على خطر عظيم ، وقال الامام احمد رحمه الله للشيطان حين قال له عند الموت : فُتَّني . فقال لا بعد فلا ينبغي ان يفارق الخوف قلوب الاولياء ابداً نسأل الله تعالى السلامة من الغرور وحسن الخاتمة انه قريب مجيب . آخر الغرور

تم ربع المهلكات ونشرع الان في ربع المنجيات

﴿ كتاب التوبة وذكر شروطها وأركانها وما يتعلق بذلك ﴾

اعلم ان الذنوب حجاب عن المحبوب ، والانصراف عما يبعد عن المحبوب واجب ، وانما يتم ذلك بالعلم والندم والعزم ، فانه متى لم يعلم ان

الذنوب اسباب البعد عن المحبوب لم يندم على الذنوب ولم يتوجع بسبب سلوكه طريق البعد، واذا لم يتوجع لم يرجع ، وقد امر الله تعالى بالتوبة فقال : (وتوبوا الى الله جميعاً ايها المؤمنون لعلكم تفلحون) وقال سبحانه (يا ايها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا) الآية وقال (ان الله يحب التوابين و يحب المتطهرين) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يا ايها الناس توبوا الى ربكم فاني اتوب الى الله في اليوم مائة مرّة » وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لله اشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل في ارض دوية (١) مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنام فاستيقظ وقد ذهبت فطلبها حتى ادركه العطش ثم قال أرجع الى مكاني الذي كنت فيه فانام حتى اموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ وعنده راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه فالله اشدفرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته ، والاحاديث في هذا كثيرة والاجماع منعقد على وجوب التوبة لأن الذنوب مهلكات مبعدات عن الله تعالى فيجب الهرب منها على الفور .

والتوبة واجبة على الدوام فان الانسان لا يخلو عن معصية ، ولو خلا عن معصية الجوارح لم يخل عن الهم بالذنب بقلبه وان خلا عن ذلك لم يخل عن وسواس الشيطان بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى ولو خلا عنه لم يخل عن غفلة وقصور في العلم بالله تعالى وصفاته وافعاله وكل ذلك نقص ولا يسلم احد من هذا النقص وانما الخلق يتفاوتون في

---

(١) الصحراء التي لا نبات فيها

المقادير واما اصل ذلك فلا بد منه ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « انه ليغان على قلبي فاستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة» ولذلك اكرمه الله تعالى بقوله (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) فاما غيره فكيف يكون حاله ومتى اجتمعت شروط التوبه كانت صحيحة مقبولة قال الله تعالى(وهو الذي يقبل التوبة عن عباده)وفي الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال« ان الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر » والاحاديث في ذلك كثيرة .

فصل في بيان اقسام الذنوب

اعلم أن للانسان اخلاقا واوصافا كثيرة لكن تنحصر مثارات الذنوب في اربع صفات « احدها » صفات ربوبية ومنها يحدث الكبر والفخر وحب المدح والثناء والعز وطلب الاستعلاء ونحو ذلك وهذه ذنوب مهلكات و بعض الناس يغفل عنها فلا يعدها ذنوبا « الثانية» صفات شيطانية ومنها يتشعب الحسد والبغي والحيل والخداع والمكر والغش والنفاق والأمر بالفساد ونحو ذلك « الثالثة » الصفات البهيمية ومنها يتشعب الشر والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج فيتشعب من ذلك الزني واللواطة والسرقة ، واخذ الحطام لاجل الشهوات « الرابعة » الصفات السبعية ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالقتل والضرب وأخذ الأموال وهذه الصفات لها تدرج في الفطرة .

فالصفة البهيمية هي التي تغلب اولا ثم تتلوها الصفة السبعية ثانيا

فاذا اجتمعت هاتان استعملتا العقل في الصفات الشيطانية من المكر والخداع ثم تغلب الصفات الربوبية : فهذه امهات الذنوب ومنابعها ، ثم تنفجر الذنوب من هذه المنابع الى الجوارح فبعضها في القلب كالكفر والبدعة والنفاق واضمار السوء ، وبعضها في العين ، وبعضها في السمع ، وبعضها في اللسان ، وبعضها في البطن والفرج ، وبعضها في اليدين والرجلين ، وبعضها على جميع البدن ولا حاجة الى تفاصيل ذلك فانه واضح .

ثم الذنوب تنقسم الى ما تتعلق بحقوق الادميين والى ما بين العبد وبين ربه ، فما يتعلق بحقوق العباد فالأمر فيه اغلظ والذي بين العبد وبين ربه فالعفو فيه ارجى واقرب الا ان يكون شركا والعياذ بالله فذلك الذي لا يغفر وقد روي عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الدواوين عند الله عز وجل ثلاثة ديوان لا يعبأ الله به ، وديوان لا يترك الله منه شيئاً ، وديوان لا يغفره الله فاما الديوان الذي لا يغفره الله تعالى فالشرك قال الله تعالى : « ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة » واما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين الله عز وجل يغفر ذلك ويتجاوز ان شاء ، واما الديوان الذي لا يترك منه شيئاً فظلم العباد بعضهم بعضا فالقصاص لا محالة .

﴿ قسمة اخرى ﴾

اعلم ان الذنوب تنقسم الى صغائر وكبائر وقد كثر الاختلاف فيها واختلفت الاحاديث في عدد الكبائر والاحاديث الصحاح في ذكرها خمسة :

« الاول » حديث ابي هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « اجتنبوا السبعة الموبقات قالوايا رسول الله وماهن ؟ قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله الا بالحق واكل الربا واكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات »

« الثاني » حديث ابن مسعود رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل اي الذنب اكبر؟ قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك . قال ثم اي ؟ قال ان تقتل ولدك خشية ان يطعم معك . قال ثم اي؟ قال ان تزاني حليلة جارك

« الثالث » حديث عبد الله بن عمر ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين » وفي حديث آخر « الا أنبئكم بأكبر الكبائر : قول الزور — او قال — شهادة الزور (١)

« الخامس » حديث ابي بكرة ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم ذكرت عنده الكبائر قال : الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس فقال : الا وقول الزور وشهادة الزور ما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت .

وقد اختلف العلماء فيها على اقول كثيرة والاحاديث في الكبائر لا تدل على حصرها فيها ولعل الشارع قصد الابهام ليكون على الناس وجل الذنوب لكن يعرف من الاحاديث اجناس الكبائر ويعرف ايضا اكبر الكبائر ، فاما أصغر الصغائر فلا سبيل الى معرفته وقد تكلم العلماء في عدد الكبائر فروي عن ابن مسعود رضى الله عنه انه قال هي اربع وروى

(١) لعله أتى بهذا الحديث عوضاً عن الرابع

عن ابن عمر انه قال هي سبع وكان ابن عباس اذا بلغه قول ابن عمر أنها سبع قال هي الى سبعين اقرب منها الى سبع وقال ابو صالح عن ابن عباس هي ما اوجب الحد في الدنيا، وعن ابن مسعود ان الكبائر من فاتحة النساء الى قوله (ان تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه) وقال سعيد بن جبير وغيره هي كل ذنب اوعد الله عليه النار وقال ابو طالب المكي الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الاخبار اربعة في القلب: الشرك والاصرار على المعصية والقنوط من رحمة الله والأمن من مكر الله تعالى، واربعة في اللسان شهادة الزور وقذف المحصنات واليمين الغموس والسحر، وثلاثة في البطن شرب الخمر وأكل مال اليتيم ظلما وأكل الربا، واثنان في الفرج الزنا واللواطة، واثنتان في اليدين القتل والسرقة، وواحدة في جميع البدن وهي عقوق الوالدين وهذا يمكن ان يزاد عليه وينقص منه فان ضرب اليتيم وتعذيبه اكبر من اكل ماله والله اعلم

﴿ فصل في كيفية توزع الدرجات في الآخرة ﴾
على الحسنات والسيئات في الدنيا

اعلم ان الناس يتفاوتون في الآخرة كما يتفاوتون في الدنيا وينقسمون الى اربعة اقسام هالكين ومعذبين وناجين وفائزين ومثال ذلك ان يستولي ملك من الملوك على اقليم فيقتل بعض اهله ويعذب بعضهم ولا يقتلهم، ويخلي بعضهم فهم الناجون، ويخلع على بعضهم وهم الفائزون واذا كان الملك عادلا فلا يقسمهم لذلك الا باستحقاق، ولا يقتل الا جاحدا لاستحقاق الملك معاندا له في اصل الولاية ولا يعذب الا من قصر في

خدمته مع الاعتراف له بالملك ، ولا يخلي الا معترفا له بالملك ولم يقصر ولا يخلع الا على من ابلى عمره في الخدمة والنصرة ، وكل احد من هذه الاقسام يتفاوتون في النعيم والتعذيب على حسب احوالهم ويشهد لذلك ما ورد في الحديث ان من الناس من يمر على الصراط كالبرق الخاطف ومنهم من يبقى في النار سبعة آلاف سنة . وبين اللحظة وسبعة آلاف سنة تفاوت كثير .

واما اختلاف العذاب بالشدة فلا نهاية لاعلاه ، وادناه التعذيب بالمناقشة في الحساب كما ان الملك قد يعذب بعض المقصرين في الاعمال بالمناقشة في الحساب ثم يعفو وقد يضرب بالسياط او يعذب بغيرها من انواع العذاب ، وتتفاوت منازل اهل السعادة على نحو ذلك في النعيم فهذه الامور الكلية معلومة بالنقل ونور المعرفة ، فاما من جهة التفصيل فنقول كل من احكم اصل الايمان واجتنب جميع الكبائر واحسن جميع الفرائض ولم يكن منه الا صغائر متفرقة لا يصر عليها فيشبه ان يعفى عنه فقد نص القرآن على ان اجتناب الكبائر مكفر للصغائر . وهذا اما ان يلتحق بالمقربين او باصحاب اليمين وذلك بحسب ايمانه و يقينه فان قل او ضعف دنت منزلته

ثم ان المقربين يتفاوتون بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى ودرجات العارفين في المعرفة لا تنحصر لان بحر المعرفة لا ساحل له وانما يغوص فيه الغواصون بقدر قواهم فاعلى درجات اصحاب اليمين ادنى درجات المقربين هذا حال من اجتنب الكبائر وادى الفرائض

فاما من ارتكب كبيرة واهمل اركان الاسلام فانه ان تاب توبة

نصوحا قبل قرب الأجل التحق بمن لم يرتكب لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والثوب المغسول كالذي لم يتسخ اصلا، فاما ان مات قبل التوبة فأمره خطر اذ ربما يكون موته على الاصرار سببا لتزلزل ايمانه فيختم له بسوء الخاتمة لا سيما اذا كان ايمانه تقليدا فانه قابل للانحلال بادنى شك وخيال والعارف الموقن ابعد من ان يخاف عليه سوء الخاتمة ثم ان عذاب الميت عن غير توبة يكون بحسب قبح الكبائر ومدة الاصرار، ثم ينزل البله المقلدون الجنة، وينزل العارفون المستبصرون اعلا عليين، وما ذكرناه من مراتب العباد في المعاد حكم ظاهر الاسباب يضاهي حكم الطبيب على مريض بانه يموت لا محالة ولا يقبل اصلاح العلاج، وعلى مريض آخر بان عارضه خفيف وعلاجه هين فان ذلك ظن يصيب غالبا، وقد تنوب بالمشرف على هلاكٍ نفسهُ من حيث لا يشعر الطبيب، وقد يساق الى ذي العارض الخفيف اجله من حيث لا يطلع عليه وذلك لأسرار الله تعالى الخفية وفي ارواح الاحياء غموض الاسباب التي رتبها المسبب وليس في قوة البشر الوقوف على كنهها وكذلك الفوز والهلاك في الآخرة لهما اسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها وكذلك يجوز العفو عن العاصي وان كثرت سيئاته والغضب على المطيع وان كثرت طاعاته الظاهرة فان الاعتماد على التقوى والتقوى في القلب واحوال القلب قد تخفى على صاحبه فكيف على غيره

واما الناجون ونعني بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز وهم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ولم يقصروا فيعذبوا ويشبه ان يكون هذا حال

المجانين واولاد الكفار والذين لم تبلغهم الدعوة فلم يكن لهم معرفة ولا جحود ولا طاعة ولا معصية و يصلح ان يكونوا على الاعراف

واما الفائزون فهم العارفون دون المقلدين وهم المقربون السابقون وهؤلاء الذين لا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة اعين وليس حرصهم على الجنة بل على لقاء الله سبحانه وتعالى والنظر اليه ومثالهم مثال المحب فانه في تلك الحال غافل عن نفسه ولا يحس بما يصيبه في بدنه ولا همّ له سوى محبوبه فهؤلاء الواصلون الى قرة اعين لم يخطر على قلب بشر فهذا القدر كاف في بيان توزع الدرجات على الحسنات

(فصل في بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب)

اعلم ان الصغيرة تكبر باسباب منها الاصرار والمواظبة ، وفي الحديث من رواية ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «لا صغيرة مع اصرار ولا كبيرة مع الاستغفار» واعلم ان العفو عن كبيرة قد انقضت ولم يتبعها مثلها ارجى من العفو عن صغيرة يواظب عليها العبد . ومثال ذلك قطرات من الماء يقع على حجر متواليات فانها تؤثر فيه ولو جمعت تلك القطرات في مرة وصبت عليه لم تؤثر ولهذا قال عليه السلام « احب العمل الى الله ادومه وان قل » ، ومن الاسباب التي تعظم بها الصغائر ان يستصغر الذنب فان الذنب كلما استعظمه العبد صغر عند الله تعالى وكلما استصغره العبد كبر عند الله تعالى فان استعظامه يصدر عن نفور القلب منه و كراهيته له ، قال ابن مسعود رضي الله عنه ان المؤمن يرى ذنوبه كأنه في اصل جبل يخاف ان يقع عليه وان الفاجر يرى ذنوبه

كذباب وقع على انفه فقال به هكذا . اخرجاه في الصحيحين، وانما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله تعالى فاذا نظر الى عظمة من عصى رأى الصغيرة كبيرة ، وفي البخاري من حديث انس رضي الله عنه انكم لتعملون اعمالا هي ادق في عينكم من الشعر ان كنا لنعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات ، وقال بلال بن سعد رضي الله عنه لا تنظر الى صغر الخطيئة ولكن انظر الى عظمة من عصيت

ومن الاسباب ان يفرح بالصغيرة و يتمدح بها كما يقول : اما رأيتني كيف مزقت عرض فلان وذكرت مساو يه حتى خجلته او يقول التاجر اما رأيت كيف روجت عليه الزائف و كيف خدعته وغبنته فهذا وامثاله تكبر به الصغائر

ومنها ان يتهاون بستر الله تعالى وحلمه عنه وامهاله اياه ولا يدري ان ذلك قد يكون مقتا ليزداد بالامهال اثما

ومنها ان يأتي بالذنب ثم يذكره بحضر من غيره وفي الصحيحين من حديث ابي هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال كل امتي معافا الا المجاهرون وان من المجاهرة ان يعمل الرجل العمل بالليل ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول يا فلان عملت البارحة كذا و كذا وقد بات بستر الله عليه

ومنها ان يكون المذنب عالما يقتدى به فاذا علم منة الذنب كبر ذنبه كلبسه الحرير ودخوله على الظلمة مع ترك الانكار عليهم واطلاقه اللسان في الاعراض واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه الا الجاه كعلم

الجدل فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيموت و يبقى شره مستطيراً في العالم .
فطوبى لمن اذا مات ماتت معه ذنوبه وفي الحديث « من سن سنة سيئة كان
عليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير ان ينقص من اوزارهم شيء »
فعلى العالم وظيفتان : احداهما ترك الذنب ، والثانية إخفاؤه اذا اتاه .
وكما تتضاعف اوزار العلماء اذا اتبعوا على الذنوب . كذلك تتضاعف
حسناتهم اذا اتبعوا على الخير . وينبغي للعالم ان يتوسط في ملبسه ونفقته
وليكن الى التقلل اميل فان الناس ينظرون اليه وينبغي له الاحتراز مما يقتدى
به فيه فانه متى ترخص في الدخول على السلاطين وجمع الحطام فاقتدى
به غيره كان الأثم عليه وربما سلم هو في دخوله ولم يفهموا كيفية سلامته ،
وقد روينا ان ملكاً كان يكره الناس على اكل لحم الخنزير فجيء برجل
عالم فقال له حاجب الملك قد ذبحت لك جدياً فكل منه فلما دخل قرب
اليه فلم يأكل فامر بقتله فقال له الحاجب الم اقل لك انه جدي فقال
ومن اين يعلم حالي من يقتدي بي .

فصل

اعلم ان التوبة عبارة عن ندم يورث عزما وقصدا . وذلك الندم
يورث العلم بان تكون المعاصي حائلا بين الانسان و بين محبوبه . والندم هو
هو توجع القلب عند شعوره بفراق المحبوب . وعلامته طول الحزن والبكاء
فان من استشعر عقوبة نازلة بولده او من يعز عليه طال بكاؤه ، واشتدت
مصيبته ، واي عزيز اعز عليه من نفسه ، و اي عقوبة اشد من النار ، واي
سبب ادل على نزول العقوبة من المعاصي ، واي مخبر اصدق من الله ورسوله

ولو اخبره طبيب ان ولده لا يبرأ من مرضه لاشتد في الحال حزنه، وليس ولده باعز من نفسه، ولا الطبيب باعلم من الله ورسوله، ولا الموت بأشد من النار ولا المرض ادل على الموت من المعاصي على سخط الله والتعرض بها للنار

و ينبغي للتائب ان يتفقد ما عليه من صلاة فائتة او واقعة بغير شرطها مثل ان يكون صلاها في ثوب نجس او بنية غير صحيحة لجهله بذلك فيقضيها ، و كذلك ان كان عليه صوم او زكاة او حج او غير ذلك من الواجبات يقضيها كلها و يفتش على ذلك و يتداركه . واما المعاصي فينبغي ان يفتش من اول بلوغه عن كل معصية صدرت منه و ينظر فيها فما كان من ذلك فيما بينه و بين الله تعالى فالتوبة منه الندم والاستغفار . ثم ينظر الى مقادير ذنوبه فيطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات قال الله تعالى : « ان الحسنات يذهبن السيئات » ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أتبع السيئة الحسنة تمحها »

(مثال ما ذكرنا) ان يكفر سماع الملاهي بسماع القرآن ومجالس الذكر ، ويكفر مس المصحف بغير طهارة باكرامه و كثرة القراءة فيه وان امكنه ان يكتب مصحفاً و يقفه فليفعل ، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بالشراب الحلال وعلى هذا فاسلك سبيل المضادة فانما الامراض تعالج بضدها فهذا حكم ما بينه و بين الله تعالى

واما مظالم العباد ففيها ايضاً معصية الله تعالى لانه ينهى عن ظلم العباد فالظالم لهم قد ارتكب نهيه فيتدارك ذلك بالندم و العزم على ترك مثل ذلك في المستقبل والاتيان بالحسنات المضادة لتلك المظالم كما تقدم في

القسم الاول فيقابل إيذاء الناس بالاحسان اليهم، و يكفر غصب الاموال بالتصدق بماله الحلال، ويكفر تناول اعراضهم بالثناء على اهل الدين و يكفر قتل النفوس بالعتق. هذا فيما يتعلق بحق الله تعالى. فاذا فعل ذلك لم يكفه حتى يخرج من مظالم العباد. ومظالمهم اما في النفوس، او الاموال او الاعراض، او ايذاء القلوب «اما الاول» فانه اذا قتل نفساً خطأ أوصل الدية الى مستحقها اما منه او من عاقلته، وان قتل عمداً وجب عليه القصاص بشروطه فعليه ان يبذل نفسه لولي الدم ان شاء قتله وان شاء عفى عنه ولا يجوز له اخفاء امره بخلاف ما لو زنا او سرق او شرب الخمر او باشر ما يجب فيه حد الله تعالى فانه لا يلزمه في التوبة ان يفضح نفسه بل عليه ان يستر نفسه فان رفع امره الى الوالي حتى اقام عليه الحد وقع ذلك موقعه وكانت توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل قصة ماعز والغامدية. وكذلك حد القذف لا بد فيه من تحكيم المستحق فيه «الثاني» المظالم المتعلقة بالاموال نحو الغصب والخيانة والتلبيس في المعاملات فيجب عليه رد ذلك الى اصحابه والخروج عنه. وليكتب اصحاب المظالم و يؤد اليهم حقوقهم ويستحلهم فان كثر ظلمه بحيث لا يقدر على ادائه فليفعل ما يقدر عليه من ذلك ولم يبق له طريق الا الاستكثار من الحسنات لتؤخذ منه في الاقتصاص يوم القيامة فتوضع في موازين ارباب المظالم فانها ان لم تف بذلك اخذ على سيآتهم فتوضع فوق سيآته هذا حكم المظالم الثابتة في الذمة والاموال الحاضرة، فان كان عنده مال من شيء من ذلك لم يعرف مالكه ولا ورثته تصدق به عنه، وان اختلط

الحلال بالحرام عرف قدر الحرام بالاجتهاد وتصدق بمقداره «الثالث» الجناية على الاعراض وايذاء القلوب فعليه ان يطلب كل واحد منهم وليستحله وليعرفه قدر الجناية فان الاستحلال المبهم لا يكفي وربما لو عرف ذلك لم تطب نفسه بالاحلال الا ان تكون تلك الجناية اذا ذكرت كثر الاذى كنسبته الى عيب من خفايا عيوبه او كزنا بجاريته فليجتهد في اللطف به والاحسان اليه ثم ليستحله مبهما ولا بد ان يبقى في مثل ذلك مظلمة تجبر بالحسنات يوم القيمة ، وكذلك من مات من هؤلاء فانه يفوت امره ولا يتدارك الا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضا يوم القيمة ولا خلاص الا برجحان الحسنات

فصل

ومن شروط التوبة الصحيحة العزم على ان لا يعود في المستقبل الى تلك الذنوب ولا الى امثالها ويعزم على ذلك عزماً موءكداً . مثال ذلك المريض الذي يعلم ان الفاكهة تضره في مرضه فيعزم عزما جزما ان لا يتناول شيئا من الفاكهة مادام في مرضه ذلك فان هذا العزم يتأكد في الحال وان كان يتصور ان تغلبه الشهوة في ثاني الحال ولكن لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه في الحال ولا يتصور ان يتم ذلك للتائب في اول امره الا بالعزلة والصمت وقلة الأكل والنوم واحراز قوت حلال ويترك الشبهات والشهوات من المأكولات والملبوسات . قال بعضهم من صدق في ترك شهوة وجاهد نفسه فيها سبع مرات لم يبتل بها ، وقال من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد اليه ابدا

(بيان اقسام العباد في دوام التوبة)

الناس في التوبة اربع طبقات : الطبقـة الاولى تائب يستقيم على التوبة الى آخر عمره ويتدارك ما فرط من امره ولا يحدث نفسه بالعود الى ذنوبه الا الزلات التي لا ينفك عنها الشر في العـادات فهـذه هي الاستقامة فى التوبة ، وصاحبها هو السابق بالخيرات . وتسمي هذه التوبة النصوح . وتسمى هذه النفس المطمئنة ، وهؤلاء يختلفون . منهم من سكنت شهوته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ، ومنهم من تنازعه نفسه وهو ملئ بمجاهدتها

الطبقة الثانية : تائب قد سلك طريق الاستقامة في امهات الطاعات و كبائر الفواحش الا انه لا ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد ولكنه يبتلى بها في مجاري احواله من غير ان يقـدم عزما على الاقدام عليهـا وكلما اتى شيئاً منها لام نفسه وندم وعزم على الاحتراز من اسبابها . فهي هي النفس اللوامة لانها تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الاحوال الذميمة فهذه رتبة عالية ايضا وان كانت نازلة عن الطبقة الاولى وهي اغلب أحوال التائبين لأن الشر معجون بطينة الادمي فقل ما ينفك عنه وانما غاية سعيه ان يغلب خيره على شره حتى يثقل ميزانه فترجح حسـناته فاما ان تخلو كفة السيئات فبعيد ، وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله سبحانه اذ قال (الذين يجتنبون كبائر الأثم والفواحش الا اللمم ان ربك واسع المغفرة) والى هذه الرتبة الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : ان الله يحب المؤمن المفتن التواب

الطبقة الثالثة : ان يتوب و يستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه شهوته في بعض الذنوب فيقدم عليها لعجزه عن قهر الشهوة الا انه مع ذلك مواظب على الطاعات وترك جملة من الذنوب مع القدرة عليها والشهوة لها وانما قهرته شهوة واحدة او شهوتان وهو يود لو قدره الله على قمعها و كفاه شرها فاذا انتهت ندم لكنه يعد نفسه بالتوبه عن ذلك الذنب فهذه النفس تسمى المسؤولة وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا واخر سيئاً) فامر هذا من حيث مواظبته على الطاعات و كراهته لما يتعاطاه مرجو لقوله (عسى الله ان يتوب عليهم) وعاقبته مخطرة من حيث تأخيره وتسويفه فربما يختطف قبل التوبة فان الأعمال بالخواتيم فعلى هذا يكون الخوف من الخاتمة وكل نفس يمكن ان يتصل به الموت فيكون الخاتمة فليراقب الانفاس وليحذر وقع المحذور

الطبقة الرابعة : ان يتوب و يجري مدة على الاستقامة ثم يعود الى الذنوب منهمكا من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير ان يتأسف على فعله فهذا من المصرين وهذه النفس هي الامارة بالسوء ويخاف على هذا سوء الخاتمة . فان مات هذا على التوحيد فانه يرجى له الخلاص من النار ولو بعد حين ولا يستحيل ان يشمله عموم العفو بسبب خفي لا يطلع عليه الا ان التعويل على هذا لا يصلح فان من قال ان الله كريم وخزانته واسعة ومعصيتي لا تضره ، ثم تراه يركب البحار في طلب دينار فلو قيل له فاذا كان كريما فاجلس في بيتك لعله يرزقك ، استجهل قائل هذا وقال انما الأرزاق بالكسب فيقال له هكذا النجاة بالتقوى

فصـــل

وقد ذكرنا ان التائب ينبغي له ان يأتي بحسنات تضاد ما عمل من السيئات لتمحوها وتكفرها والحسنات المكفرة تكون بالقلب واللسان والجوارح على حسب السيئات فما كان بالقلب فنحو التضرع والتذلل واما اللسان فالاعتراف بالظلم والاستغفار مثل ان يقول رب ظلمت نفسي فاغفر لي . وروي في الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « مامن رجل يذنب ذنباً فيتوضأ ويحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين ويستغفر الله عزّ وجل الا غفر له » . واما الجوارح فبالطاعات والصدقات وانواع العبادات

﴿ فصل في دواء التوبة وطريق علاج حل عقدة الاصرار ﴾

اعلم انه لا يقف على الدواء من لا يقف على الداء اذ لا معنى للدواء الا بمناقضة اسباب الداء ولا يبطل الشيء الا بضده وسبب الاصرار الغفلة والشهوة ولا تضاد الغفلة الا بالعلم ولا تضاد الشهوة الا بالصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة . والغفلة رأس الخطايا فلا دواء اذاً للتوبة الا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر كما يجمع في السكنجبين حلاوة السكر وحموضة الخل فيحصل بمجموعهما قمع الصفراء والاطباء لهذا المرض هم العلماء لانه مرض القلوب ومرض القلوب اكثر من مرض الابدان وانما صار مرضها اكثر لأمور (احدها) ان المريض لا يدري انه مريض (الثاني) ان عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم بخلاف مرض الأبدان فان عاقبته موت مشاهد ينفر الطبع عنه وما بعد الموت غير مشاهد فقلت

النفرة عن الذنوب وان علمها مرتكبها فلذلك تراه يتكل على فضل الله في مرض القلب ويجتهد في علاج البدن من غير اتكال (الامر الثالث) وهو الداء العضال فقد الطبيب فان الاطباء هم العلماء وقد مرضوا في هذه الأعصار لأن الداء المهلك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الاطباء فلم يقدروا من تحذير الخلق استنكافا ان يقال لهم فمالكم تأمرون بالعلاج وتنسون انفسكم ؟ فبهذا السبب عم الداء وانقطع الدواء (فان قيل) فما الذي ينبغي للواعظ سلوكه مع الخلق (فالجواب) ان ذلك يطول لكننا نشير الى الاعمال النافعة في ذلك وهي اربعة انواع ٠

الاول ان يذكر مافي القرآن العزيز من الآيات المخوفة للمذنبين وما ورد في الاخبار والآيات من ذلك ويمزج ذلك بمدح التائبين

النوع الثاني حكايات الانبياء عليهم السلام وما اصابهم من المصائب بسبب الذنوب كحال آدم عليه السلام وما لقي في عصيانه من الاخراج من الجنة وما جرى لداود عليه السلام ويوسف عليهم السلام ولم يرد القرآن والاخبار بهذه الاشياء الا للاعتبار وكان من سعادتهم معالجتهم بذلك والاشقياء يمهلون ليزدادوا إثما ولأن عذاب الآخرة اشد فينبغي ان يكثر من هذا على سماع المصرين فانه نافع في تحريك دواعي التوبة ٠

النوع الثالث أن يقرر عندهم ان تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع وان كل ما يصيب العبد من المصائب فهو سبب جناياته فرب عبد يتساهل في امر الآخرة يخاف عقوبة الدنيا اكثر لفرط جهله ٠ والذنوب قد يتعجل في الدنيا شوءمها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «ان العبد

ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» وقال الفضيل بن عياض اني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي ، وقال ابو سليمان الداراني الاحتلام عقوبة ولا يفوت احداً صلاة الا بذنب يذنبه، وعن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ان المؤمن اذا اذنب كان نكتة سوداء في قلبه فان تاب وفزع واستغفر صقل قلبه فان زاد زادت حتى تعلو قلبه وذلك الران الذي ذكر الله عز وجل في كتابه كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون » قال الترمذي حديث حسن صحيح ، وقال الحسن رحمه الله : الحسنة نور في القلب وقوة في البدن ، والسيئة ظلمة في القلب ووهن في البدن

(النوع الرابع) ذكر ما ورد من العقوبات في آحاد الذنوب كشرب الخمر والزنا والقتل والكبر والحسد والغيبة . وينبغي ان يكون طبيباً يعلم الداء ويدري كيف يصنع الدواء فان رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال اوصني قال لا تغضب ، وقال آخر اوصني فقال : عليك باليأس مما في أيدي الناس . فكأنه تخايل من الاول مخايل الغضب ، وفي الثاني مخايل الطمع وهذا الذي ذكرنا هو العلاج فيبقى علاج الشهوة وعلاجها يؤخذ مما ذكرنا في كتاب رياضة النفس ولا بد من الصبر فان المريض انما يطول مرضه لتناوله ما يضره وانما يحمله على ذلك شدة شهوته او غفلته عن مضرته ولا بد من مرارة الصبر وكذلك يعالج الشهوة في المعاصي كالشاب مثلا اذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه وقلبه وجوارحه في السعي وراء الشهوة فينبغي ان يستحضر المخوفات التي جاءت

في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فاذا اشتد خوفه تباعد عن الاسباب المهيجة للشهوة ، والذي يهيج الشهوة من خارج هو حضور المشتهى والنظر اليه ، وعلاجه الجوع والصوم الدائم وكل ذلك لا يتم الا بصبر ، ولا يصبر الا عن خوف ، ولا يخاف الا عن علم ، ولا يعلم الا عن بصيرة فاول الامر حضور مجالس الذكر والاستماع بقلب مجرد عن الشواغل ثم التفكر فيما قيل فيبعث الخوف ويسهل الصبر وتتيسر الدواعي لطلب العلاج وتوفيق الحق سبحانه من وراء ذلك كله ٠ فان قيل ما بال الانسان يقع في الذنب مع علمه بقبح عواقبه فمن ذلك اجوبة منها ان العقاب الموعود ليس بحاضر ومنها ان المؤمن اذا اذنب لا بد ان يعزم على التوبة وقد وعد ان التوبة تجبر ما فعل وطول الأمل غالب على الطباع فلا يزال يسوف بالتوبة فلما رجى التوبة اقبل على الذنب ٠ ومنها انه يرجو عفو الله عنه وعلاج هذه الاسباب ان يفكر في نفسه ان كل ما هو آت قريب وانه لا يأمن هجوم الموت ويعالج التسويف ٠ والمسوف يبني الامر على ما ليس اليه وهو البقاء فلعله لا يبقى وان بقي فربما لا يقدر على الترك غدا كما يقدر عليه اليوم وهل عجز في الحال لغلبة الشهوة وهي غير مفارقة له غدا بل تتأكد بالاعتياد ومن هذا هلك المسوفون لانهم يظنون الفرق بين المتماثلين ، وما مثال المسوف الا مثال من احتاج الى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع الا بمشقة شديدة فقال اؤخرها سنة ثم اعود اليها وهو لا يعلم ان الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه فالعجب من عجزه مع قوته عن مقاومتها في حال ضعفها كيف ينتظر الغلبة

اذا ضعفت وقويت . واما انتظار عفو الله تعالى فعفو الله سبحانه ممكن الا ان الانسان ينبغي له الأخذ بالجزم وما مثال ذلك الا كمثل رجل انفق امواله كلها وترك نفسه وعياله فقراء ينتظر من الله تعالى ان يرزقه العثور على كنز في خربة وهذا ممكن الا ان صاحبه ملقب بالاحمق والله سبحانه وتعالى اعلم

﴿ كتاب الصبر والشكر ﴾

وهو شطران: الاول في فضل الصبر وحقيقته واقسامه ونحو ذلك وقد ذكر الله تعالى الصبر في القرآن في نحو من تسعين موضعاً واضاف اليه اكثر الخيرات والدرجات وجعلها ثمرة له فقال تعالى . (وجعلنا منهم ائمة يهدون بأمرنا لما صبروا) وقال (وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا) وقال (ولنجزين الذين صبروا اجرهم باحسن ما كانوا يعملون) وقال تعالى (انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب) فما من قربة الا واجرها بتقدير وحساب الا الصبر ولأجل كون الصوم من الصبر قال الله تعالى « الصوم لي وانا اجزي به » وقد وعد الله الصابرين بانه معهم وجمع للصابرين بين امور لم يجمعها لغيرهم فقال (اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون) والآيات في هذا كثيرة واما الاحاديث ففي الصحيحين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال " ما اعطى احد عطاء خيرا واوسع من الصبر » وفي حديث اخر « الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد » وقال الحسن: الصبر كنوز الخير لا يعطيه الله عز وجل الا لعبد كرم عنده ، وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة فيطالعها وفيها (اصبر لحكم ربك فانك باعيننا) واعلم ان الصبر من خاصية

الانسان ولا يتصور في البهائم لنقصانها وغلبة الشهوات عليها من غير
شيء يقابلها ولا يتصور الصبر ايضاً في الملائكة لكماها فان الملائكة جردوا
للشوق الى حضرة الربوبية ولم تسلط عليهم شهوة صارفة عنها حتى يحتاج
الى مصادمة ما يصدها عن حضرة الجلال . واما الانسان فانه يخلق
في ابتداء الصبى ناقصا مثل البهيمة لم يخلق فيه الا شهوة الغذاء الذي هو
محتاج اليه ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ثم شهوة النكاح وليس له قوة
الصبر فاذا تحرك العقل وقوى ظهرت فيه مبادي اشراق نور الهداية عند
سن التمييز و ينمو على التدريج الى سن البلوغ كما يبدوا نور الصبح الى
ان يطلع قرص الشمس ولكنها هداية قاصرة لا مرشد لها الى مصالح
الآخرة فاذا عقد بمعرفة الشرع تلمح ما يتعلق بالاخرة و كثر سلاحه
الا ان الطبع يقتضي ما يحب و باعث الشرع والعقل يمنع والحرب بينهما
قائم و معركة هذا القتال قلب العبد فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة
باعث الشهوات فان ثبت حتى قهر الشهوة التحق بالصابرين وان ضعف
حتى غلبت الشهوة ولم يصبر على دفعها التحق باتباع الشياطين واذا ثبت
ان الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة الهوى فهذه المقاومة من
خاصة الآدميين

فصل

اعلم ان الصبر على ضربين احدهما بدني كتحمل المشاق بالبدن
كتعاطي الاعمال الشاقة من العبادات او من غيرها ، الضرب الآخر
هو الصبر النفساني عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى وهذا الضرب ان

كان صبرا عن شهوة البطن والفرج سمي عفة ، وان كان الصبر في قتال سمي شجاعة،وان كان في كظم غيظ سمي حلما، وان كان في نائبة مضجرة سمي سعة صدر ، وان كان إخفاء امر سمي كتمان سر " وان كان في فضول عيش سمي زهدا،وان كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة . واما المصيبة فانه يقتصر فيها على اسم الصبر فقد بان بما ذكرنا ان اكثر اخلاق الايمان داخلة في الصبر وان اختلفت الاسماء باختلاف المتعلقات

ثم اعلم ان العبد لا يستغني عن الصبر في كل حال من الاحوال وذلك ان جميع ما يلقى العبد في الدنيا لا يخلو من نوعين (احدهما) ما يوافق هواه من الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة والاتباع وجميع ملاذ الدنيا فالعبد محتاج الى الصبر في جميع هذه الأمور فلا يركن اليها ولا ينهمك في التلذذ بها ويراعي حق الله تعالى في ماله بالانفاق وفي بدنه بالمعونة للحق . ومتى لم يضبط نفسه عن الانهماك في الملاذ والركون اليها اخرجه ذلك الى البطر والطغيان حتى قال بعض العارفين المؤمن يصبر على البلاء ولا يصبر على العافية الا صديق ، وقال عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه ابتليتا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر وكذلك قال الله تعالى (لا تلهكم اموالكم ولا اولادكم عن ذكر الله ، انما اموالكم واولادكم فتنة ، ان من ازواجكم واولادكم عدوا لكم فاحذروهم) فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية وهذا الصبر يتصل بالشكر فلا يتم الا بالقيام بحق الشكر وانما كان الصبر على السراء شديدا لانه مقرون بالقدرة والجائع عند غيبة الطعام اقدر على الصبر منه عند حضور الطعام اللذيذ

(النوع الثاني المخالف للهوى وهو ثلاثة اقسام)

احدها الطاعات فيحتاج العبد الى الصبر عليها لان النفس بطبعها تنفر عن العبودية، ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة، ومنها مايكره بسببهما جميعا كالحج والجهاد ويحتاج المريد الى الصبر على طاعته في ثلاثة احوال حال قبل العبادة وهي تصحيح النية والاخلاص والصبر على شوائب الرياء، وحال في نفس العبادة وهي ان لا يغفل عن الله تعالى في اثناء العبادة ولا يتكاسل عن تحقيق الآداب والسنن فيلازم الصبر عن دواعي الفتور الى الفراغ من العمل . الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل وهي الصبر عن افشائه والتظاهر به لاجل الرياء والسمعة وعن كلما يبطل عمله فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المنّ والأذى ابطلها

(القسم الثاني) الصبر عن المعاصي وما احوج العبد الى ذلك ثم إن كان ذلك الفعل مما تيسر فعله كمعاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء ونحوه كان الصبر عليه اثقل فترى الانسان اذا لبس حريرا استنكر ذلك ويغتاب اكثر نهاره فلا يستنكر ذلك ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر لم ينجه الا العزلة

(القسم الثالث) ما لا يدخل تحت الاختيار كالمصائب مثل موت الاحبة وهلاك الاموال وعمى العين وزوال الصحة وسائر انواع البلاء فالصبر على ذلك من اعلى المقامات لأن سنده اليقين وقد قال عليه الصلاة والسلام « من يرد الله به خيرا يصب منه » وقريب من هذا القسم

الصبر على اذى الناس كالذي يوءذي بقول او فعل او جناية على نفسه
اوماله والصبر على ذلك يكون بترك المكافات ، والصبر على اذى الناس من
اعلى المراتب قال الله تعالى (وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم
الامور) وقال (ولقد نعلم انك يضيق صدرك مما يقولون) وقال (ولئن
صبرتم لهو خير للصابرين) وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
قال « الصبر ثلاثة صبر على المصيبة . وصبر على الطاعة ، وصبر عن
المعصية فمن صبر على المعصية حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمئة
درجة ما بين الدرجة الي الدرجة كما بين السماء والارض ومن صبر على
الطاعة كتبت له ستمائة درجة ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين تخوم
الارض الى منتهى العرش مرتين » والأحاديث في فضائل الصبر كثيرة
منها ما اخرجاه في الصحيحين عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم « ما من مصيبة تصيب المسلم الا كفر الله عز وجل بها عنه
حتى الشوكة يشاكها » وفي حديث آخر « ما يصيب المسلم من وصب ولا
نصب ولا وهم ولا حزن ولا اذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها الا كفر
الله له من خطاياه » اخرجاه في الصحيحين ايضا وفي حديث اخر
« لا يزال البلاء بالموءمن او الموءمنة في جسده وفي ماله وفي ولده حتى يلقى
الله وما عليه خطيئة » وفي حديث ابن ابي وقاص رضي الله عنه قال قلت
يا رسول الله اي الناس اشد بلاءً قال « لانبياء ثم الصالحون ثم الأمثل
فالأمثل من الناس يبتلى الرجل على حسب دينه فان كان في دينه صلابة
زيد في بلائه وان كان في دينه خفف عنه ما يزال البلاء بالعبد حتى

يمشي على الارض وليس عليه خطيئة» قال الترمذي حديث حسن صحيح
وروينا عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال قال الله تعالى « اذا وجهت الى
عبد من عبادي مصيبة في بدنه او ماله او ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل
استحييت منه يوم القيامة ان انصب له ميزانا او انشر له ديوانا »

فصـل

ومن آداب الصبر استعماله في اول صدمة لقوله عليه السلام « أنما
الصبر عند الصدمة الاولى » حديث صحيح ، ومن الاداب الاسترجاع
عند المصيبة لحديث ام سلمة رضي الله عنها وهي من رواية مسلم ،
ومن الأدب سكون الجوارح واللسان . فأما البكاء فجائز .
قال بعض الحكماء الجزع لا يرد الفائت ولكن يسر الشامت ، ومن حسن
الصبر ان لا يظهر اثر المصيبة على المصاب كما فعلت ام سليم امرأة ابي
طلحة لما مات ابنها وحديثها مشهور في صحيح مسلم ، وقال ثابت البناني
مات عبد الله ابن مطرف فخرج مطرف على قومه في ثياب حسنة وقد
ادهن فغضبوا وقالوا يموت عبد الله ثم تخرج في ثياب من هذه مدهنا قال
أفأستكين لها وقد وعدني ربي تبارك وتعالى ثلاث خصال كل خصلة منها
احب الى من الدنيا وما فيها قال الله تعالى (الذين اذا اصابتهم مصيبة
قالوا انا لله وانا اليه راجعون اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك
هم المهتدون) وقال مطرف ما شيء اعطى به في الآخرة قدر كوز من ماء
الا وددت انه اخذ مني في الدنيا ، و كان صلة بن اشيم في مغزى له ومعه
ابنه فقال اي بني تقدم فقاتل حتى احتسبك فحمل فقاتل حتى قتل ثم

تقدم فقتل فاجتمع النساء عند امه معاذة العدوية فقالت مرحبا ان كنتن جئتن لتهنيني ، وان كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن . واذا كانت المصيبة مما يمكن كتمانها فكتمانها من معامه الله عز وجل الخفية . روى ابو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال «اذا مرض العبد بعث الله اليه ملكين فيقول انظروا ما يقول لعواده فان هو حمد اذا دخلو عليه رفعا ذلك الى الله تعالى وهو اعلم فيقول لعبدي ان انا توفيته ان ادخله الجنة وان انا شفيته ان ابدله لحماً خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه وان اكفر عنه خطاياه» وقال علي عليه السلام «من اجلال الله ومعرفة حقه ان لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك» وقال الاحنف لقد ذهبت عيني منذ اربعين سنة ما ذكرتها لاحد ، وقال رجل للامام احمد كيف تجدك يا ابا عبد الله قال بخير في عافيه فقال له حممت البارحة قال اذا قلت لك انا في عافية فحسبك لا تخرجني الى ما اكره ، وقال شقيق البلخي من شكى مصيبة به الى غير الله لم يجد في قلبه لطاعة الله حلاوة ابدا ، وقال الحكماء : من كنوز البر كتمان المصائب وقد كانوا يفرحون بالمصائب نظرا الى ثوابها وحكاياتهم مشهورة في ذلك ، منها ما روي ان عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لما مات دفنه عمر وسوى عليه ثم استوى قائما فاحاط به الناس فقال رحمك الله يا بني قد كنت براً بابيك والله ما زلت مذ وهبك الله لي مسرورا بك ولا والله ما كنت قط اشد بك سرورا ولا ارجى بحظي من الله تعالى فيك منذ وضعتك في هذا المنزل الذى صيرك الله اليه (فان قيل) ان كان المراد من الصبر عدم كراهية المصائب فلا قدرة للآدمي على ذلك وان كان

الفرح بوجودها كما حكيتم فهو ابعد وابعد (والجواب) ان الصبر لا يكون الا عن محبوب او على مكروه ولا ينهى عما لا يدخل تحت الكسب وهو ارتجاع الباطن انما ينهى عن المكتسب كشق الجيوب ولطم الخدود والقول باللسان فاما ما ذكرنا من فرح بعضهم فذلك فرح شرعي لا طبعي اذا الطبع لا بد له من كراهة المصائب ومثال هذا مثال رجل مريض وصف له شربة لمرضه فسعى في طلب حوائجها وانفق عليها مالا فلما تمت فرح بتمامها وتناولها لما يرجو بها من العافية فاما طبعه فما زالت عند كراهة التناول اصلا ولو ان ملكا قال لرجل فقير كلما ضربتك بهذا العود اللطيف ضربة اعطيتك الف دينار لاحب كثرة الضرب لا لانه لا يؤلم ولكن لما يرجو من عاقبته وان انكاه الضرب فكذلك السلف تلمحوا الثواب فهان عليهم البلاء .

﴿ فصل في بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه ﴾

اعلم أن الذي انزل الداء انزل الدواء ووعد الشفاء فالصبر وان كان شاقا فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل فمنهما تركب الادوية لامراض القلوب كلها فيحتاج كل مرض الى علم وعمل يليق به فان العلل اذا اختلفت اختلف العلاج اذ معنى العلاج مضادة العلة . ونضرب لك مثالا فنقول اذا افتقر الانسان الى الصبر عن شهوة الجماع وقد غلبت عليه بحيث لا يملك فرجه ولا عينه ولا قلبه فعلاج ذلك بثلاثة اشياء : احدها مواظبة الصوم والاقتصار عند الافطار على قليل من الطعام ، الثاني قطع اسبابه المهيجة له فانه انما يهيج بالنظر و النظر القلب والقلب يحرك الشهوة ، ودواء هذه العزلة

والاحترازمن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاةفان النظرسهم مسموم من سهام ابليس ولا يمنع عنه الاغمض الجفن اوالهرب ، الثالث تسلية النفس بالمباح من حبس المشتهى وذلك بالنكاح وكل ما يشتهيه الطبع من الحرام ففي المباحات غنية عنه وهذا هو العلاج الارفع في حق اكثر الناس لان قطع الغذاء يضعف وقد لا يقمع الشهوة بخلاف هذا . وينبغي للانسان ان يعود نفسه المجاهدة فان من عود نفسه مخالفة الهوى غلبها متى اراد

واعلم ان اشد انواع الصبر والمجاهدة كف الباطن من حديث النفس وانما يشتد ذلك على من تفرغ واعتزل فان الوساوس لا تزال تحادثه ولا علاج لهذا الا قطع العلائق وجعل الهم هما واحدا وصرف الفكر الى ملكوت السموات والارض وعجائب صنع الله تعالى وجميع ابواب معرفة الله تعالى حتى اذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك محادثة الشيطان ووسواسه وان لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه الا الاوراد المتواصلة من القراءة والاذكار والصلوات ويحتاج مع ذلك الى تكليف القلب الحضور فان الفكر بالباطن هو الذي يستغرق القلب دون الاوراد الظاهرة فهذا الذي يمكن ان ينال بالاكتساب والجهد . فاما مقادير ما ينكشف ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى من الاحوال والاعمال فذلك يجري مجرى الصيد وهو بحسب الرزق فقد يقل الجهد ويكثر الصيد وقد يطول الجهد ويقل الصيد والمعول وراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن عز وجل فانها توازي اعمال الثقلين وليس ذلك الى اختيار العبد العبد بل اختياره ان يتعرض لتلك الجذبة بان يقلع عن قلبه جواذب

الدنيا فان المجذوب الى اسفل سافلين لا يجذب الى اعلا عليين وكل منهوم بالدنيا هو منجذب اليها فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله عليه السلام « ان لربكم في ايام دهركم نفحات الا فتعرضوا لها » فالذي علينا تفريغ المحل والانتظار لنزول الرحمة كالذي يصلح الارض وينقيها من الحشيش ويضع فيها البذر وكل ذلك لا ينفع الا بمطر ولا يدري متى يقدر الله اسباب المطر الا انه يثق بفضل الله تعالى انه لا يخلي سنة عن مطر ، وكذلك قل ما تخلو سنة وشهر ويوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات ، فينبغي ان يكون العبد قد طهر القلب من حشيش الشهوات وبذر فيه بذر الارادة والاخلاص وعرضه لمهاب ريح الرحمة وكما يقوى انتظار الامطار في اوقات الربيع عند ظهور الغيم كذلك انتظار تلك النفحات في الاوقات الشريفة وعند اجتماع الهم ونشاط القلوب كيوم عرفة ويوم الجمعة وفي رمضان والهمم والانفاس اسباب لاستدرار رحمة الله تعالى بحكمته وتقديره .

الشطر الثاني من الكتاب

في الشكر وفضله وذكر النعم واقسامها ونحو ذلك

قال الله تعالى « وسنجزي الشاكرين » وقال الله تعالى « ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم » وقال (وقليل من عبادي الشكور) وقطع بالمزيد مع الشكر فقال (لئن شكرتم لازيدنكم) مع كونه وقف اشياء كثيرة غيره على المشيئة كقوله (فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء) وقوله

(فيكشف ما تدعون اليه ان شاء) وقوله (ويرزق من يشاء) و يغفر مادون ذلك لمن يشاء ، ويتوب الله على من يشاء » ولما عرف ابليس قدر الشكر قال في الطعن على بني آدم (ولا تجد اكثرهم شاكرين) وروي ان النبي صلى الله عليه وسلم قام حتى تفطرت قدماه فقالت له عائشة رضي الله عنها اتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال افلا اكون عبدا شكورا ، وعن معاذ رضي الله عنه قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم اني أحبك فقل اللهم اعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك .

فصل

والشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح . اما بالقلب فهو ان يقصد الخير و يضمره للخلق كافة . واما باللسان فهو اظهار الشكر لله بالتحميد واما بالجوارح فهو استعمال نعم الله في طاعته والتوقي من الاستعانة بها على معصيته فمن شكر العينين ان تستر كل عيب تراه لمسلم ، ومن شكر الاذنين ان تستر كل عيب تسمعه . فهذا يدخل في جملة شكر هذه الاعضاء والشكر باللسان اظهار الرضى عن الله تعالى وهو مأمور به قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « التحدث بالنعم شكر وتركها كفر » وروي ان رجلين من الانصار التقيا فقال احدهما لصاحبه كيف اصبحت فقال الحمد لله فقال النبي صلى الله عليه وسلم قولوا هكذا ، وروي ان رجلا سلم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فرد عليه ثم قال له عمر كيف اصبحت ؟ قال احمد الله فقال عمر ذلك الذي اردت . وقد كان السلف يتساءلون ومرادهم استخراج الشكر لله فيكون الشاكر مطيعاً والمستنطق مطيعاً وقال ابو عبد

الرحمن الجبلي ان الرجل اذا سلم على الرجل وسأله كيف اصبحت فقال له الآخر احمد الله اليك قال يقول الملك الذي عن يساره للذي عن يمينه كيف نكتبها قال اكتبه من الحمادين فكان ابو عبد الله اذا سئل كيف اصبحت يقول احمد الله اليك والى جميع خلقه

فصـل

اعلم ان فعل الشكر وترك الكفران لا يتم الا بمعرفة ما يحبه الله تعالى اذ معنى الشكر استعمال نعمه في محابه ومعنى الكفران نقيض ذلك امابترك الاستعمال او استعماله فيما يكرهه ولتمييز ما يحبه الله مما يكرهـه مدركان (احدهما) السمع ومستنده الايات (والثاني) بصيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار وهذا الاخير عسير عزيز ولذلك ارسل الله تعالى الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق ومعرفة ذلك تبنى على معرفة جميع اركان الشرع في افعال العباد فمن لا يطلع على حكم الشرع في جميع افعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر اصلاً ، (واما الثاني) وهو النظر بعين الاعتبـار فهو ادراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه اذ ما خلق الله تعالى شيئا في العالم الا وفيه حكمة وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب وتلك الحكمة منقسمة الى جلية وخفية اما الجلية فكالعلم بان الحكمة في خلق الشمس ان يحصل الليل والنهار فيكون النهار معاشاً والليل سباتاً فتتيسر الحركة عند الابصار والسكون عند الاستتار فهـذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكمة فيهـا وكذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الامطار ، واما الحكمة في خلق الكواكب فخفية لا يطلع عليها كل الخلق

وقد يطلعون على بعض ما فيها من الحكم نحو كونها زينة للسماء وجميع اجزاء العالم لا تخلو منه ذرة عن حكمة وكذلك اعضاء الحيوان منها ما تبين حكمته بيانا ظاهرا كالعلم بان العين للابصار واليد للبطش والرجل للمشي فاما الاعضاء الباطنة كالمرارة والكلية والكبد واحاد العروق والاعصاب وما فيها من التجاويف والرقة والغلظة فلا يعرف الحكمة فيها كل الناس والذين يعرفونها انما يعرفون منها قدرا يسيرا بالنسبة الى علم الله تعالى فكل من استعمل شيئاً في جهة غير الجهة التي خلق لها ذلك الشيء على غير الوجه الذي اريد به فقد كفر نعمة الله تعالى فيه فمن ضرب غيره بيده بغير حق فقد كفر نعمة الله تعالى في اليد لانها خلقت ليدفع بها عن نفسه ما يؤذيه ويتناول ماينفعه لا ليؤذي بها الغير وكذلك العين اذا نظر بها الى محرم فقد كفر نعمتها ونعمة الشمس ايضاً اذ الابصار يتم بها فالعين والشمس خلقتا ليبصر بهما ماينفعه في دينه ودنياه ويتقي بهما ما يضره فيهما

(واء) ان المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا واسبابها ان يستعين بها الخلق على الوصول الى الله تعالى ولا وصول اليه الا بمحبته والانس به في الدنيا والتجافي عن غرور الدنيا ولا انس الا بدوام الذكر ولا محبة الا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر الا بدوام البدن ولا يبقى البدن الا بالارض والماء والهواء ولا يتم ذلك الا بخلق السماء والارض وخلق جميع الاعضاء الباطنة والظاهرة وكل ذلك لاجل البدن والبدن مطية النفس والراجع الى الله هي النفس المطمئنة بطول العبادة والمعرفة ولذلك قال الله تعالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون)

فكل من استعمل شيئاً في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الاسباب التي لا بد منها لاقدامه على تلك المعصية · ولنذكر مثالا واحدا للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء حتى يعتبر بها و يعلم طريق الشكر والكفران على النعم فنقول من نعم الله تعالى خلق الدنانير الذين بهما قوام الدنيا وهما حجران لا منفعة في اعيانهما ولكن يضطر الخلق اليهما من حيث ان كل انسان يحتاج الى اعيان كثيرة في مطعمه ومشربه وملبسه ومركبه وسائر حاجاته وقد يعجز عما يحتاج اليه ويملك ما يستغني عنه كمن يملك قدرا من الزعفران مثلا وهو يحتاج الى جمل يركبه ، وآخر يملك الجمل وربما استغنى عنه ويحتاج الى الزعفران فلا بد بينهما من معاوضة ، ولا بد في مقدار العوض من تقدير اذ لا يبذل صاحب الجمل جمله بكل مقدار من الزعفران ولا مناسبة بين الزعفران والجمل حتى يعطى مثله في الوزن والصورة · وكذا من يشتر داراً بثياب او عبداً بخف او دقيقاً بحمار فهذه الاشياء لا تناسب بينهما فخلق الله تعالى الدراهم والدنانير حاكمين ومتوسطين بين سائر الأموال حتى تقدر بهما فيقال هذا الجمل يساوي مائة ، وهذا القدر من الزعفران يساوي مائة فحصل التساوي بينهما حينئذ وانما امكن التعديل بينهما بالنقدين اذ لا غرض في اعيانهما فانه لو كان في اعيانهما غرض لم ينتظم الامر فخلقهما الله تعالى ليتداولهما الايدي ويكونا حاكمين بين الاموال بالعدل وجعلهما عزيزين في انفسهما ونسبتهما الى سائر الاموال نسبة واحدة فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء

اذا عرفت حكمتهما فكل من عمل فيهما عملا يخالف المقصود منهما ولا يليق بحكمتهما فقد كفر نعمة الله فيهما فمن كنزهما فقد ابطلهما وابطل الحكمة فيهما وكان كمن حبس الحاكم بين المسلمين في سجن يمتنع من الحكم بسببه لانه ضيعهما ومنع الايدي من تداولهما ولما كان كثير من الخلق عاجزين عن قراءة الاسطر الالهية المكتوبة على صفحات الموجودات بخط الهي لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة اخبرهم الله تعالى بكلام سمعوه بواسطة رسوله عليه السلام فقال (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم) وكل من اتخذ الدراهم والدنانير آنية فقد كفر الله فيهما لأنه اسوأ حالا من كنزهما

ومثال ذلك من استعمل حاكم البلد في الحياكة والكنس والاعمال التي يقوم بها اخسأ الناس وذلك ان الحديد والنحاس والخزف وغيرها يقوم مقام الذهب والفضة في حفظ المائعات ولا تكفي تلك الاعيان عنهما ولا يقوم مقامهما فيما اريد بهما من كونهما قيم للاشياء فمن لم تنكشف له هذه الحكمة بالرحمة الالهية قيل له من شرب في اناء ذهب وفضة فانما يجرجر في بطنه نار جهنم وكذلك كل من عامل بالربي في الدراهم والدنانير فقد اخرجهما عن مقصودهما فهذا امثال الحكمة خفية من حكم النقدين

فينبغي ان تعتبر شكر النعمة وكفرها بهذا المثال في غيره من جميع امورك في حركتك وسكونك ونطقك وسكوتك في كل فصل صادر منك اما شكورا او عكسه وهو الكفر وبعض ذلك تصفه بالكراهة وبعضه بالحظر . ومن ذلك ان الله تعالى خلق لك يدين وجعل احداهما اقوى

من الأخرى فاستحقت بمزيد القوة رجحانا وشرفا على الأخرى وقد احوجك من اعطاك اليدين الى اعمال بعضها شريفة كاخذ المصحف وبعضها خسيسة كازالة النجاسة فاذا اخذت المصحف باليسار وازلت النجاسة فقد عكست المقصود وخصصت الشريف بما هو خسيس فظلمته . وكذلك في الرجلين اذا ابتدأت باليسرى في لبس الخف فقد ظلمت اليمنى لان الخف وقاية للرجل وقس على ذلك ، وكذلك نقول من كسر غصنا من شجرة لغير حاجة مهمة وغرض صحيح فقد خالف الحكمة في خلق الاشجار لانها خلقت للمنفعة بها فان كان كسره لغرض صحيح فلا بأس . وان فعل ذلك في ملك غيره فهو ظالم وان كان محتاجا إلا ان يأذن صاحبه

❊ فصل في بيان النعم وحقيقتها واقسامها ❊

اعلم ان كل مطلوب يسمى نعمة ولكن النعمة في الحقيقة هي السعادة الاخروية وتسمية ما عداها نعمة تجوز والامور كلها بالاضافة الينا تنقسم اربعة اقسام « احدها » ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعا كالعلم وحسن الخلق وهو النعمة الحقيقة « الثاني » ما هو ضار فيهما جميعا وهو البلاء حقيقة « القسم الثالث » ما ينفع في الحال ويضر في المآل كالتلذذ واتباع الشهوات فهو بلاء عند ذوي الابصار والجاهل يظنه نعمة ومثاله : الجائع اذا وجد عسلا فيه سم فانه يعده نعمة ان كان جاهلا فاذا علم ذلك عده بلاء « القسم الرابع » الضار في الحال النافع في المآل وهو نافع عند ذوي الالباب ، بلاء عند الجهال . ومثاله الدواء الشنيع مذاقه في الحال الشافي في المآل من الاسقام فالصبي الجاهل اذا كلف شربه ظنه بلاء والعاقل يعده نعمة

وكذلك اذا احتاج الصبي الى الحجامة فان الاب يدعوه اليها ويأمره بها لما يلحظ في عاقبتها من الشفاء والأم تمنعه من ذلك لفرط حبها وشفقتها لكونها جاهلة بالمصلحة في ذلك فالصبي يتملد منة امه بجهله ويأنس اليها دون ابيه ويقدر اباه عدوا ولو عقل لعلم ان الأم هي العدو الباطن في صورة صديق لان منعها اياه من الحجامة يسوقه الى امراض ألمها اشد من ألم الحجامة فالصديق الجاهل شر من العدو العاقل وكل انسان صديق نفسه ولكن النفس صديق جاهل فلذلك تعمل به مالا يعمل العدو ·

﴿ فصل في بيان كثرة نعم الله تعالى ﴾
وتسلسلها وخروجها عن الحصر والاحصاء

اعلم ان النعم تنقسم الى ما هو غاية مطلوبة لذاتها والى ما هو مطلوب لاجل الغاية اما الغاية فهي سعادة الآخرة ويرجع حاصلها الى اربعة امور بقاء لا فناء له وسرور لا غم فيه وعلم لا جهل معه وغنى لا فقر بعده وهي السعادة الحقيقة « واما القسم الثاني » فهو الوسائل الى السعادة المذكورة وهي اربعة اقسام اعلاها فضايل النفس. كالايمان وحسن الخلق ، الثاني فضايل البدن من القوة والصحه ونحوهما ، الثالث النعم المطيفة بالبدن من المال والجاه والاهل ، الرابع الاسباب التي جمع بينها وبين ما يناسب الفضائل من الهداية والارشاد والتسديد والتأييد وكل هذه نعم عظيمة (فان قيل) ما وجه الحاجة لطريق الاخرة الى النعم الخارجة في المال والجاه ونحوهما (قلنا) هذه الاشياء جارية مجرى الجناح المباح والالة المستعملة للمقصود ·

امـا المال فان طالب العلم اذا لم تكن معه كفاية كان كساع الى الهيجاء بغير سلاح ولانه يبقى مستغرق الاوقات في طلب القوت فيشغله عن تحصيل العلم وعن الذكر والفكر ونحو ذلك .

واما الجاه فبه يدفع الانسان عن نفسه الذل والضيم ولا ينفك عن عدو يؤذيه وظالم يهوش عليه فيشغل قلبه، وقلبه رأس ماله . وانما تدفع هذه الشواغل بالعز والجاه .

واما الصحة والقوة وطول العمر ونحوها فهي نعم اذ لا يتم علم ولا عمل الا بذلك وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » ولما سئل من خير الناس ؟ فقال : من طال عمره وحسن عمله .

واما المال والجاه وان كانا نعمتين فقد ذكرنا مافيهما من الافات فيما تقدم وانهما ليسا بمذمومين على الاطلاق ، واما الهداية والرشد والتسديد والتأييد فلا غناء من كونهما من اعظم النعم فلا يستغني احد عن الحاجة الى التوفيق ولذلك قيل :

اذا لم يكن عون من الله للفتى فاكثر ما يجني عليه اجتهاده

فصـــل

واعلم انا قد ذكرنا جملة من النعم وجعلنا صحة البدن نعمة واحدة من النعم الواقعة في الرتبة الثانية فلو اردنا ان نستقصي الاسباب التي بها تمت هذه النعمة لم نقدر عليها ولكن الأكل احد اسباب الصحة فلنذكر شيئا من الاسباب التي يتم بها الأكل على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء فنقول :

من جملة نعم الله عليك ان خلق لك آلة الاحساس وآلة الحركة في طلب
الغذاء فانظر الى ترتيب حكمة الله تعالى في الحواس الخمس التي هي آلة
للادراك (فاولها) حاسة اللمس وهو اول حس يخلق للحيوان وانقص درجات
الحس ان يحس بما يلاصقه فان الاحساس بما يبعد منه أتم لا محالة فافتقرت
الى حس تدرك به ما بعد عنك فخلق لك الشم تدرك به الرائحة من بعد
ولكن لا تدري من اي ناحية جاءت الرائحة فتحتاج ان تطوف كثيرا
حتى تعثر على الذي شممت رائحته وربما لم تعثر فخلق لك البصر لتدرك
به ما بعد عنك وتدرك جهته فتقصدها بعينها الا انه لو لم يخلق لك الا
هذا لكنت ناقصا اذ لا تدرك بذلك ما وراء الجدار والحجاب فربما
قصدك عدو بينك وبينه حجاب وقرب منك قبل ان ينكشف الحجاب
فتعجز عن الهرب فخلق لك السمع حتى تدرك به الاصوات من وراء
الحجرات عند جريان الحركات ولا يكفي ذلك لو لم يكن لك حس
الذوق اذ به تعلم ما يوافقك وما يضرك بخلاف الشجرة فانه يصب في
اصلها كل مائع ولا ذوق لها فتجذبه وربما يكون ذلك سبب جفافها ثم
اكرمك الله تعالى بصفة اخرى هي اشرف من الكل وهو العقل فبه تدرك
الاطعمة ومنفعتها وما يضر في المآل وبه تدرك طبخ الاطعمة وتاليفها
واعداد اسبابها فتنتفع به في الاكل الذي هو سبب صحتك وهو ادنى
فوائد العقل والحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى وما ذكرنا من الحواس
الخمس الظاهرة فهي بعض الادراكات ولا تظن اننا استوفينا شيئاً من
ذلك فان البصر واحد من الحواس والعين آلة له وقد ركبت العين من

عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات و بعضها اغشية مختلفة ، ولكل واحدة من الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وتدبير وتركيب لو اختلت طبقة واحدة منها او صفة واحدة لأختل البصر وعجز عنه الاطباء كلهم فهذا في حس واحد وقس حاسة السمع وسائر الحواس ولا يمكن ان يستوفى ذلك فى مجلدات فكيف ظنك بجميع البدن . ثم انظر بعد ذلك في خلق الارادة والقدرة وآلات الحركة من اصناف النعم وذلك انه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الطعام ولم يخلق لك في الطبع شوق اليه وشهوة له تستحثك على الحركة لكان البصر معطلا فكم من مريض يرى الطعام وهو انفع الاشياء له ولا يقدر على تناوله لسقوط شهوته فخلق لك الله شهوة الطعام وسلطها عليك كالمتقاضي الذي يضطرك الى تناول الغذاء ، ثم هذه الشهوة لو لم تسكن عند اخذ مقدار الحاجة من الطعام لاسرفت واهلكت نفسلك فخلق لك الكراهة عند الشبع لتترك الاكل بها وكذلك القوة في شهوة الوقاع لحكمة بقاء النسل ، ثم خلق لك الاعضاء التي هي آلات الحركة في تناول الغذاء وغيره منها اليدان وهما مشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرك في الجهات وتمتد وتنثني ولا تكون كخشبة منصوبة ، ثم جعل رأس اليد عريضا وهو الكف وقسمه خمسة اقسام وهي الاصابع وجعلها مختلفة في الطول والقصر ووضعها في صفين بحيث يكون الابهام في جانب ويدور على الاصابع البواقي ولو كانت مجتمعة متراكمة لم يحصل تمام الغرض ثم خلق لها اظفارا واسند اليها رؤس الاصابع لتقوى بها ولتلتقط بها بعض الاشياء الدقيقة التي لا

تحويها الا الاصابع ، ثم هب انك اخذت الطعام باليد فلا يكفيك حتى
يصل الي باطنك فجعل لك الفم واللحيين خلقهما من عظمين وركب
فيهما الاسنان وقسمهما بحسب ما يحتاج اليه الطعام فبعضها قواطع
كالرباعيات وبعضها يصلح للكسر كالانياب وبعضها طواحن كالاضراس
وجعل اللحى الاسفل متحركاً حركة دورية واللحى الاعلى ثابتا لا
يتحرك فانظر الى عجيب صنع الله تعالى وان كل رحا صنعها الخلق يثبت منها
الحجر الاسفل ويدور الاعلى إلا هذه الرحا التي هي صنع الله سبحانه وتعالى
فانه يدور منها الاسفل على الاعلا اذ لو دار الاعلا خوطر بالاعضاء الشريفة
التي يحتوي عليها . ثم انظر كيف انعم الله عليك بخلق اللسان فانه
يطوف في جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط الى الاسنان بحسب الحاجة
كالمجرفة التي ترد الطعام الى الرحا هذا مع ما فيه من عجائب قوة النطق .
ثم هب انك قطعت الطعام وعجنته وهو يابس فما تقدر على الابتلاع الا
بان ينزلق الى الحلق بنوع رطوبة . فانظر كيف خلق الله تعالى تحت
اللسان عينا يفيض منها اللعاب وينصب بقدر الحاجة حتى ينعجن به
الطعام . ثم هذا الطعام المطحون المعجون من يوصله الى المعدة وهو في
الفم فانه لا يمكن اتصاله باليد فهيأ الله تعالى المرئ والحنجرة وجعل رأسها
طبقات ينفتح لأخذ الطعام ثم ينطبق وينضغط حتى يقلب الطعام
فيهوي في دهليز المرئ (١) الى المعدة فاذا ورد الطعام الى المعدة وهو خبز وفاكهة

---

(١) قال في القاموس : والمرئ كامير مجرى الطعام والشراب وهو رأس المعدة
والكرش اللاصق بالحلقوم

مقطعة فلا يصلح ان يصير لحما وعظما ودما على هـذه الهيئة حتى يطبخ طبخا تاما فجعل الله المعدة على هيئة قدر يقع فيها الطعام فتحتوي عليه وتغلق عليه الابواب وينضج بالحرارة التي تتعدي اليهامن الاعضاء الاربعة وهي الكبد من جانبها الأيمن ،والطحال من جانبها الايسر ، والثرب (١) من امامها،ولحم الصلب من خلفها فينضج الطعام و يصير مائعاً متشابها يصلح للنفوذ في تجاويف العروق ثم ينصب الطعام من العروق الى الكبد فيستقر فيها ريث ما يصلح له نضج اخر . ثم يتفرق في الاعضاء و يبقى منه ثقل ثم يندفع . ولو استقصينا الكلام في ذلك لطال ، وفي الآدمي من العضلات والعروق والاعصاب مالا يحصى مختلف بالصغر والكبر والدقة والغلظ ولا شيء منها الا وفيه حكمة وكل ذلك من الله سبحانه ولو سكن من جملتها عرق متحرك او تحرك عرق ساكن لهلكت يا مسكين فانظر الى نعم الله تعالى عليك لتقوى على الشكر فانك لاتعرف من نعمة الله تعالى الا نعمة الاكل وهي اخسها ثم لا تعرف منها الا انك تجوع فتأكل والبهيمة ايضاتعرف انهاتجوع وتأكل، وتتعب فتنام وتشتهي فتجامع واذا لم تعرف انت من نفسك الا ما يعرف الحمار فكيف تقوم بشكر الله تعالى وهذا الذي رمزنا اليه على الايجاز قطرة من بحر من نعم الله تعالى فقس على ذلك . وجملة ما عرفنا وعرفه الخلق كلهم من نعم تعالى بالأضافة الى ما لم يعرفوه اقل من قطرة في بحر قال الله تعالى (وان تعدوا نعمة لله لا تحصوها)

---

(١) شحم رقيق يغشى الكرش والامعاء

فصل

واعلم ان الاطعمة كثيرة مختلفة ولله تعالى في خلقها عجائب لا تحصى . وهي تنقسم الى اغذية وادوية وفواكه وغيرها . فنتكلم على بعض الاغذية فنقول : اذا كان عندك شيءٌ من الحنطة فلو اكلتها الفنيت وبقيتَ جائعا فما احوجك الى عمل ينمو به حب الحنطة و يتضاعف حتى يفي بتمام حاجتك وهو زرعها وهو ان تجعلها في ارض فيها ماء يمتزج ماؤها بالارض فيصير طيناً ثم لا يكفي الماء والتراب اذ لو تركت في الارض ندية صلبة لم تنبت لفقد الهواء فيحتاج الى تركها في ارض متخلخلة يتغلغل الهواء فيها ثم الهواء لا يتحرك اليها بنفسه فيحتاج الى ريح يحرك الهواء و يصرفه بقهر على الارض حتى ينفذ فيها ثم كل ذلك لا يغني فيحتاج الى حرارة الربيع والصيف فانه لو كان في البرد المفرط لم ينبت ، ثم انظر الى الماء الذي تحتاج اليه هذه الزراعة كيف خلقه الله تعالى . فجَّر العيون واجرى منها الانهار ولما كان بعض الارض مرتفعا لا يناله الماء ارسل اليها الغيوم وسلط عليها الرياح لتسوقها باذنه الى اقطار العالم وهي سحب ثقال ثم يرسله على الارض مدرارا في وقت الحاجة وانظر كيف خلق الله الجبال حافظة للماء تنفجر منها العيون تدريجا فلو خرجت دفعة واحدة لغرقت البلاد وهلك الزرع وغيره . وانظر كيف سخر الشمس وخلقها مع بعدها عن الارض مسخنة لها في وقت دون وقت ليحصل البرد عند الحاجة اليه والحر عند الحاجة اليه ، وخلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب كما جعل من خاصية الشمس التسخين فهو ينضج الفواكه بتقدير الحكيم الخبير وكل

كوكب خلق في السماء فهو مسخر لنوع فائـدة كما سخرت الشمس والقمر ولا يخلو كل واحد منها عن حكم كثيرة لا تفي قوة البشر باحصائها وكذلك الشمس والقمر فيهما حكم أخر غير ما ذكرنا لا يحصى، ولما كانت كل الاطعمة لا توجد في كل مكان سخر الله تعالى التجار وسلط عليهم الحرص على جمع المـال مع انه لا يغنيهم في غالب الأمر شيء بل يجمعون الاموال فاما أن تغرق بها السفن او تنتهبها قطاع الطرق او يموتون في بعض البلاد فتأخذها السلاطين واحسن احوالهم ان يأخـذها ورثتهم وهم اشد اعدائهم لو عرفوا . فانظر كيف سلط الله عليهم الأمل والغفلة حتى يقاسوا الشدائد في طلب الربح في ركوب البحار وركوب الاخطار فيحملون الاطعمة وانواع الحوائج من اقصى الشرق والغرب اليك

واعلم ان الخلق لم يقصروا عن شكر النعمة الا للجهل والغفلة فانهم منعوا بذلك عن معرفة النعم ولا يتصور شكر النعمة بدون معرفتها ثم ان عرفوا نعمة ظنوا ان الشكر عليها ان يقول احدهم بلسانه الحمد لله والشكر لله ولم يعرفوا ان معنى الشكر ان تستعمل النعمـة في اتمام الحكم التي اريدت بها وهي طاعة الله تعالى

اما الغفلة عن النعم فلها اسباب احـدها ان الناس لجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق في جميع احوالهم نعمة فلذلك لا يشكرون على جملة مما ذكرناه من النعم لانها عامة للخلق مبذولة لهم في جميع احوالهم فلا يرى واحد منهم اختصاصاً به فلا يعده نعمة فلا تراهم يشكرون الله على رَوْح الهواء ولو اخذ بخنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ولو حبسوا في

حمام او بئر ماتواغماً ، فان ابتلى احدهم بشيء من ذلك ثم نجا قدر ذلك نعمة
يشكر الله عليها وهذا غاية الجهل اذ صـار شكرهم موقوفا على ان تسلب
عنهم النعمة ثم ترد اليهم في بعض الاحوال ، فالنعم في جميع الاحوال
اولى بالشكر فلا ترى البصير يشكر صحة البصر الا ان يعمى فاذا اعيد
بصره احس بالنعمة وشكرها وعدها نعمة وهو مثل عبد السوء يضرب
دائما فاذا ترك ضربه سـاعة شكر وتقلد ذلك منة وان ترك ضربه اصلا
غلبه البطر وترك الشكر فصار الناس لا يشكرون الا المآل الذي يتطرق
الاختصاص اليه من حيث الـكثرة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى
عليهم . كما روي ان بعضهم شكى فقره الى بعض ارباب البصيرة واظهر
شدة اغتمامه بذلك فقال له ايسرك انك اعمى ولك عشرة آلاف درهم قال لا
قال ايسرك انك اخرس ولك عشرة آلاف درهم قال لا ، قال ايسرك
انك اقطع اليدين والرجلين ولك عشرون الفاً قال لا ، قال ايسرك انك
مجنون ولك عشرة آلاف قال لا ، قال اما تستحي ان تشكو مولاك وله
عندك عروض بخمسين الفاً (وحكي) عن بعض الفقراء انه اشتد به الفقر
حتى ضاق به ذرعا فرأى في المنام كأن قائلا يقول له اتود انا انسيناك
سورة الانعام ولك الف دينار ؟ قال لا . قال فسورة هود ؟ قال لا .
قال فسورة يوسف ؟ قال لا . قال فمعك قيمـة مائة الف وأنت تشكو
فاصبح وقد سرى عنه . (ودخل) ابن السماك على الرشيد في عظة فبكى
ثم دعا بماء في قدح فقال يا امير المؤمنين لو منعت هذه الشربة الا بالدنيا
وما فيها اكنت تفديها قال نعم . قال فاشرب رياً بارك الله فيك فلما شرب

قال له يا امير المؤمنين ارأيت لو منعت اخراج هذه الشربة منك الابالدنيا وما فيها اكنت تفتدي ذلك قال نعم . قال فما تصنع بشيء شربة ماء خير منه وهذا يبين ان نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش اعظم من ملك الارض ثم تسهيل خروج الحدث من اعظم النعم ، وهذه اشارة وجيزة إلى النعم الخاصة :

اعلم ان ما من عبد الا اذا امعن النظر رأى عليه من نعم الله نعما كثيرة لا يشاركه فيها عموم الناس بل قد يشاركه في ذلك يسير منهم من ذلك العقل فما من عبد الا وهو راض عن الله سبحانه في عقله يعتقد انه اعقل الناس وقل ما يسأل اللهَ العقلَ واذا كان ذلك اعتقاده فيجب عليه ان يشكر الله تعالى على ذلك . ومن ذلك الخلق فانه ما من عبد الا ويرى من غيره عيوبا يكرهها واخلاقا يذمها ويرى نفسه بريئا منها فينبغي ان يشكر الله تعالى على ذلك حيث احسن خلقه وابتلى غيره

ومن ذلك ان ما من احد الا وهو يعرف من بواطن امور نفسه وخفايا اركانها ما هو منفرد به ولو كشف الغطاء عنه حتى اطلع عليه احد من الخلق لافتضح فكيف لو اطلع الناس كافة فلم لا يشكر ستر الله الجميل على مساويه حيث اظهر الجميل وستر القبيح ولننزل الى طبقة اعم من هذا القبيل فنقول : ما من عبد الا وقد رزقه الله تعالى في صورته او اخلاقه اوصفاته او اهله او ولده او مسكنه او بلده او رفيقه او اقاربه او جاهه او سائر محابه اموراً لو سلب ذلك واعطي ما خصص به من ذلك غيره لكان لا يرضى به وذلك مثل ان جعله مؤمناً لا كافرا وحيا لا جمادا

وانسانا لا بهيمة وذكرا لا انثى وصحيحاً لا مريضاً وسليما لا معيبا فان
كل هذه خصائص . فان كان لا يرى ان يبدل حاله بحال غيره مثل ان
لا يعرف شخصاً يرتضى لنفسه حاله بدلا عن حال نفسه اما على الجملة او في
أمر خاص فان لله عليه نعما ليست له على احد من عباده سواه ، وان كان
يرى انه يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون بعض فلينظر الى عدد المغبوطين
عنده فانه يراهم عنده لا محالة اقل من غيرهم فيكون من دونه في الحال اكثر
بكثير ممن فوقه فما باله ينظر الى من فوقه ولا ينظر الى من دونه وفي
الصحيحين عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم «اذا نظر احدكم الى من فضل عليه في المال والخلق فلينظر الى من هو
اسفل منه ممن فضل عليه» وقد رواه الترمذي بلفظ آخر «انظروا الى من هو
اسفل منكم ولا تنظروا الى من فوقكم فانه اجدر ان لا تزدروا نعمة الله
عليكم» فان من اعتبر حال نفسه وفتش على ما خص به وجد لله تعالى عليه
نعما كثيرة لا سيما من خص بالايمان والقرآن والعلم والسنة ثم الفراغ
والصحة والامن وغير ذلك . وقد روي في بعض الاحاديث «من قرأ
القرآن فهو غني» وفي لفظ «القرآن غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه» وفي
حديث آخر «من اصبح امنا في سربه معافا في بدنه وعنده قوت يومه
فكأنما قيدت له الدنيا بحذافيرها» وقال بعضهم

اذا ما القوت يأتي لك والصحة والأمن

واصبحت اخا حزن ، فلا فارقك الحزن

(فان قيل ، فما علاج القلوب الغافلة عن شكر نعم الله تعالى (فالجواب)

اما القلوب المبصرة فتتأمل مارمزنا اليه من اصناف نعم الله عز وجل، واما القلوب البليدة التي لا تعد النعمة نعمة الا اذا نزل بهـا البلاء فسبيل صاحبها ان ينظر ابدا الى من دونه و يفعل ما كان يفعله بعض القدماء فانه كان يحضر دار المرضى ليشـاهد انواع البلاء عليهم ثم يتأمل صحته وسلامته و يشاهد الجناة الذين يقتلون وتقطع ايديهم و يعذبون فيشكر الله تعالى على سلامته من تلك العقوبات و يحضر المقابر فيعلم ان أحب الاشياء الى الموتى ان يردوا الى الدنيا ليتدارك من عصى عصيانه وليزيد في الطاعة من اطاع فان يوم القيمة يوم التغابن فاذا شاهد المقابر وعلم احب الاشياء اليهم فليصرف بقية عمره في طاعة الله تعالى وشكره في الامهال بان يصرف العمر الى ما خلق لأجله وهو التزود للآخرة . ومما ينبغي ان يصالح به القلوب البعيدة عن الشكر ان يعرف ان النعمة اذا لم تشكر زالت كان الفضيل رحمة الله تعالى يقول : عليكم بمداومة الشكر على النعم فقل نعمة زالت عن قوم فعادت اليهم .

﴿ فصل في بيان اجتماع الصبر والشكر على وجه واحد ﴾

لعلك تقول قد ذكر الله تعالى في كل موجود نعمة وهذا يشير الى ان البلاء لا وجود له اصلا فما يغني الصبر وان كان البلاء موجوداً فما معنى الشكر على البلاء و كيف يجتمع الصبر والشكر فان الصبر يستدعي ألما والشكر يستدعي فرحاً وهما متضادان فاعلم ان البلاء موجود كما ان النعمة موجودة وانه ليس كل بلاء يؤمر بالصبر عليه مثل الكفر فانه بلاء ولا معنى للصبر عليه وكذا المعاصي الا ان الكافر لا يعلم ان كفره بلاء

فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بها بسبب غشيته، والعاصي يعرف عصيانه فعليه ترك المعصية وكل بلاء يقدر الانسان على دفعه لا يؤمر بالصبر عليه فلو ترك شرب الماء مع العطش حتى عظم ألمه لم يؤمر بالصبر على ذلك بل يؤمر بازالة الألم وانما يكون الصبر على ألم ليس الى العبد ازالته فاذن يرجع الصبر في الدنيا الى ما ليس ببلاء مطلق بل ان يكون نعمة من وجه فلذلك يتصور ان يجمع عليه وظيفة الشكر ووظيفة الصبر فان الغني مثلا يجوز ان يصير سبب هلاك الانسان حتى يقصد قتله بسبب ماله والصحة ايضاً كذلك فما من نعمة من نعم الدنيا الا ويجوز ان تصير بلاء وقد يكون على العبد في بعض الامور بلاء وفيه نعمة . مثال ذلك جهل الانسان بأجله فانه نعمة عليه اذ لو عرفه تنغص عليه العيش وطال بذلك غمه وكذلك جهله بما يضمره بعض الناس له اذ لو اطلع عليه لطال ألمه وحقده وحسده واشتغاله بالانتقام وكذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره اذ لو عرف منه ذلك ابغضه وآذاه فكان ذلك وبالا عليه. ومن ذلك إبهام القيامة، ليلة القدر وساعة الجمعة وكل ذلك نعمة لأن الجهل يوفر الدواعي على الطلب والاجتهاد فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل فكيف في العلم وقد قلنا إن لله سبحانه في كل موجود نعمة حتى ان الآلام قد تكون نعمة في حق المتألم وقد تكون نعمة في حق غيره كألم الكفار في النار في الآخرة فانه نعمة في حق اهل الجنة اذ لو لم يعذب قوم ما عرف المتنعمون قدر نعيمهم وانما يتضاعف فرح اهل الجنة اذا ذكروا ألم اهل النار الا ترى ان اهل الدنيا لا يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم اليها من جهة انها عامة

مبذولة ولا بالنظر الى زينة السماء وهي احسن من كل نبت لأنها عامة فلذلك لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها فاذا صح قولنا ان الله تعالى لم يخلق شيئاً الا وفيه حكمة ونعمة اما على جميع العباد او على بعضهم ففي خلق الله تعالى البلاء نعمة ايضاً اما على المبتلا او على غيره فيجتمع على العبد وظيفة الشكر والصبر في كل حالة لا توصف بانها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة فان الانسان قد يفرح بالشيء الواحد من وجه ويغتم به من وجه فيكون الصبر من حيث الاغتمام والشكر من حيث الفرح .

واعلم ان كل فقر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة اشياء ينبغي ان يفرح العاقل بها ويشكر عليها «احدها» ان كل مصيبة ومرض يتصور ان يكون عليه اكثر منها لان مقدورات الله تعالى لا تتناهى فلو اضعفها الله عزوجل على العبد ما ذا كان يمنعه فليشكر اذ لم يكن اعظم «الثاني» ان المصيبة ان لم تكن في الدين قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما ابتليت ببلاء الا كان لله تعالى عليّ فيه اربع نعم اذ لم يكن في ديني واذ لم يكن اعظم واذ لم احرم الرضاء به واذ أرجو الثواب عليه، قال رجل لسهل بن عبد الله دخل اللص بيتي واخذ متاعي فقال اشكر الله تعالى لو دخل الشيطان قلبك فافسد ايمانك ماذا كنت تصنع، ومن استحق ان يضربك مائة صوت فاقتصر على عشرة فهو مستحق للشكر «الثالث» ان ما من عقوبة الا كان يتصور ان تؤخره الى الآخرة ومصائب الدنيا يتسلى عنها فتخف ومصيبة الآخرة دائمة وان لم تدم فلا سبيل الى تخفيفها ومن عجلت عقوبته في الدنيا لم يعاقب ثانياً كذا ورد في الحديث

عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي صحيح مسلم : ان كل ما يصاب به المسلم يكون كفارة حتى في النكبة ينكبها والشوكة يشاكها « الرابع » ان هذه المصيبة كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب ولم يكن بد من وصولها اليه فقد وصلت واستراح منها فهي نعمة « الخامس » ان ثوابها اكثر منها فان مصائب الدنيا طرق الى الآخرة كما يكون المنع من اسباب اللعب نعمة في حق الصبي فانه لو خلي واللعب لكان يمنعه ذلك من العلم والادب فكان يخسر طول عمره وكذلك المال والأهل والأقارب والأعضاء قد تكون سبباً لهلاكه فالملحدون غداً يتمنون ان لو كانوا مجانين وصبياناً ولم يتصرفوا بعقولهم في دين الله تعالى فما من شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد الا ويتصور ان يكون له في ذلك خيرة دينية فعليه ان يحسن الظن بالله عز وجل ويقدر الخيرة فيما اصابه ويشكر الله تعالى عليه فان حكمة الله تعالى واسعة وهو اعلم بمصالح البلاد منهم وغدا يشكره العباد على البلاء اذا رأوا ثوابه كما يشكر الصبي بعد البلوغ استاذه واباه عن ضربه وتأديبه اذا رأى ثمرة ما استفاد من التأديب ، والبلاء تأديب من الله تعالى . ولطفه بعباده أتم وأوفى من عناية الآباء بالاولاد وفي الحديث «لا يقضي الله للمؤمن قضاء الا كان خيراً له » وايضاً فاعلم ان رأس الخطايا المهلكة حب الدنيا ورأس اسباب النجاة التجافي بالقلب عنها ومواتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة يورث طمأنينة القلب الى الدنيا والانس بها فاذا كثرت المصائب انزعج القلب عن الدنيا ولم يسكن اليها فصارت سجناً له فكانت نجاته منها

غاية المراد كخلاص المسجون من السجن ،واما التأمل فهو الضرورـــــے
و ذلك يضاهي فرحك بمن يحجمك او يسقيك دواء نافعاً بلا اجر فانك
تتألم وتفرح فتصبر على الألم وتشكر على سبب الفرح فمن عرف هذا تصور منه
ان يشكر على البلاء ومن لا يؤمن ان ثواب المصيبة اكثر منها لم يتصور منه
الشكر على المصيبة،وقد روي ان اعرابيا وقف على ابن عباس رضي الله عنه فقال:

اصبر نكن بك صابرين فانما   صبر الرعية عند صبر الراس

خير من العباس صبرك بعده   والله خير منك للعباس

فقال ابن عباس رضي الله عنهما ماعزاني احد احسن من تعزيته وقد سبق ذكر
انواع البلاء وثواب الصبر عليها (فان قال قائل .) الاخبار الواردة في فصل
الصبر تدل على ان البلاء في الدنيا خير من النعيم فهل لنا ان نسأل الله
عز وجل البلاء (فالجواب) انه لا وجـــه لذلك فان في الحديث من
رواية أنس ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عاد رجلا من المسلمين
صار مثل الفرخ فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل كنت
تدعو بشئ او تسأله قال نعم كنت اقول :اللهم ما كنت معاقبي به في
الآخرة فعجله لي في الدنيا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم
سبحان الله لا تطيقه ولا تستطيعه فهلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي
الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، ومن حديث انس رضي الله عنه ايضاً ان
رجلاً قال يا نبي الله اي الدعاء افضل؟ قال سل الله العفو والعافية في الدنيا
والآخرة ثم اتاه الغد فقال يا رسول الله اي الدعاء افضل ؟ قال سل الله
العفو والعافية في الدنيا والاخرة ثم اتاه اليوم الثالث فقال سل الله العفو

والعافية في الدنيا والآخرة فان أُعطيت العفو والعافية في الدنيا والآخرة فقد افلحت، وفي الصحيحين انه صلى الله عليه وسلم قال تعوذوا بالله من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الاعداء، وقال مطرف لأَن اعافى فاشكر احب الي من ان ابتلى فاصبر.

فصل

واختلف الناس هل الصبر افضل من الشكر او بالعكس وفي ذلك كلام طويل ذكره المصنف رحمه الله وتلخيص القول فيه أن لكل واحد من الصبر والشكر درجات فأقل درجات الصبر ترك الشكوى مع الكراهة ووراءها الرضاء وهو مقام وراء الصبر ووراء ذلك الشكر على البلاء وهو وراء الرضا ودرجات الشكر كثيرة فان حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ومعرفته بتقصيره عن الشكر والمعرفة بعظيم حلم الله وستره شكر، والاعتراف بان النعم ابتداء من الله بغير استحقاق شكر والعلم بأن الشكر نعمة من نعم الله شكر وحسن التواضع في النعم والتذلل فيها شكر وشكر الوسائط شكر لقوله صلى الله عليه وسلم «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» وقلة الاعتراض وحسن الأَدب بين يدي المنعم شكر. وتلقي النعم بحسن القبول واستعظام صغيرها شكر، فما يندرج من الأعمال والأقوال تحت اسم الشكر والصبر لا ينحصر، وهي درجات مختلفة فكيف يمكن اجمال القول بتفضيل احدهما على الآخر؟ لكن نقول اذا أضيف الصبر الى الشكر الذي هو صرف المال الى الطاعة فالشكر افضل لأنه تضمن الصبر ايضاً وفيه فرح بنعمة الله عز وجل، وفيه احتمال

ألم في صرفه الى الفقراء وترك صرفه الى التنعم المباح فهو افضل من الصبر بهذا الاعتبار ، واما اذا كان شكر المال لا يستعين به على معصية بل يصرفه الى التنعم المباح فالصبر ههنا أفضل من الشكر والفقير الصابر أفضل من الممسك ماله الصارف له في المباحات لأن الفقير قد جاهد نفسه واحسن الصبر على بلاء الله تعالى وجميع ما ورد في تفضيل اجزاء الصبر على الشكر انما أريد به هذه الرتبة على الخصوص لأن السابق الى افهام الناس من النعمة الأموال والغنى بها والسابق الى الافهام من الشكر ان يقول الانسان الحمد لله . فاذن الصبر الذى يعتمده العامة افضل من هذا الشكر الذي يفهمونه ومتى لحظت المعنى الذي ذكرناه علمت بأن لكل واحد من القولين وجهاً في بعض الأحوال فرب فقير صابر أفضل من غني شاكر كما ذكر ، ورب غني شاكر أفضل من فقير صابر وذلك هو الغني الذي يرى نفسه مثل الفقير الذي لا يمسك لنفسه من المال الا قدر الضرورة و يصرف الباقي في الخيرات او يمسكه على اعتقاده انه خازن للمحتاجين وانما ينتظر حاجة تسنح حتى يصرف اليها واذا صرفه لم يصرفه لطلب جاه ولا تقليد منة فهذا افضل من الفقير الصابر والله سبحانه وتعالى اعلم .

كتاب الرجاء والخوف

اعلم ان الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون الى كل مقام محمود ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كؤدد ولا بد من بيان حقيقتهما وسببهما وما يتعلق بذلك ونحن نذكرهما في شطرين «الاول»

في الرجاء « والثاني » في الخوف

واعلم ان الرجاء من جملة مقامات السالكين واحوال الطالبين وانما يسمى الوصف مقاما اذا ثبت واقام فان كان عارضا سريع الزوال سمي حالا كما ان الصفرة تنقسم الى ثابتة كصفرة الذهب والى سريعة كصفرة الوجل والى ما بينهما كصفرة المرض وكذلك صفات القلب تنقسم الى هذه الاقسام . وانما سمي غير الثابت حالاً لأنه يحول عن القلب

واعلم ان كل ما يلاقيك من محبوب او مكروه ينقسم الى موجود في الحال والى موجود فيما مضى فالاول يسمى موجودا وذوقا وادراكاً . والثاني يسمى ذكرا وان كان قد خطر ببالك شيء في الاستقبال وغلب على قلبك سمي انتظارا وتوقعا فان كان المنتظر محبوبا سمي رجاء وان كان مكروها سمي خوفا

فالرجاء هو ارتياح لانتظار ما هو محبوب عنده ولكن ذلك المتوقع لا بد له من سبب حاصل فان لم يكن السبب معلوم الوجود ولا معلوم الانتفاء سمي تمنيا لانه انتظار من غير سبب ولا يطلق اسم الرجاء والخوف الا على مايتردد فيه فاما ما يقطع به فلا اذ لا يقال ارجو طلوع الشمس واخاف غروبها لان ذلك مقطوع به عند طلوعها وغروبها ولكن يقال ارجو نزول المطر واخاف انقطاعه وقد علم ارباب القلوب ان الدنيا مزرعة الاخرة والقلب كالارض والايمان كالبذر فيه والطاعات جارية مجرى تنقية الارض وتطهيرها ومجرى حفر الانهار وسياقه الماء اليها

وان القلب المستغرق بالدنيا كالارض السبخة التي لا ينمو فيها

البذر ويوم القيمة هو يوم الحصاد ولا يحصد احد الا ما زرع ولا ينمو الا زرع من بذر الايمان وقل ان ينفع ايمان مع خبث القلب وسوء اخلاقه كما لا ينمو البذر في الارض السبخة

فينبغي ان يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع فكل من طلب ارضا طيبة والقى فيها بذرا جيدا غير مسوس ولا عفن ثم ساق اليها الماء في اوقات الحاجة ونقى الارض من الشوك والحشيش وما يفسد الزرع ثم جلس ينتظر من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة الى ان يتم الزرع و يبلغ غايته فهذا يسمى انتظاره رجاء . فاما ان بذر في ارض سبخة صلبة مرتفعة لا يصل اليها الماء ولم يتعاهدها اصلا ثم انتظر الحصاد فهذا يسمى انتظاره حمقا وغرورا لا رجاء وان بث البذر في ارض طيبة ولكن لا ماء لها واخذ ينتظر مياه الامطار سمي انتظاره تمنياً لا رجاء . فاذن اسم الرجاء انما يصدق على انتظار محبوب تمهدت اسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق الا ما ليس الى اختياره وهو فضل الله سبحانه بصرف الموانع المفسدات فالعبد اذا بث بذر الايمان وسقاه ماء الطاعات وطهر القلوب من شوك الاخلاق الرديئة وانتظر من فضل الله تعالى ثباته على ذلك الى الموت وحسن الخاتمة المفضية الى المغفرة كان انتظاره لذلك رجاء محموداً باعثاً على المواظبة على الطاعات والقيام بمقتضى الايمان الى الموت وان قطع بذر الايمان عن تعهده بماء الطاعات او ترك القلب مشحونا برذائل الاخلاق وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة كان ذلك حمقا وغرورا قال الله تعالى «فخلف من بعدهم

خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا) وذم القائل(ولئن رددت الى ربي لاجدن خيرا منها منقلبا)وروى شداد بن اوس قال قال رسول الله صلى الله عليه واله وسلم «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله عز وجل» وقال معروف الكرخي رحمه الله رجاؤك لرحمة من لا تطيعه خذلان وحمق ولذلك قال الله تعالى(ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك يرجون رحمة الله) المعنى اولئك الذين يستحقون ان يرجوا ولم يرد به تخصيص وجود الرجاء لان غيرهم ايضاً قد يرجو ذلك واعلم ان الرجاء محمود لانه باعث على العمل واليأس مذموم لانه صارف عن العمل اذ من عرف ان الارض سبخة وان الماء مغور وان البذر لا ينبت ترك تفقد الارض ولم يتعب في تعاهدها . واما الخوف فليس بضد الرجاء بل رفيق له كما سيأتي ان شاء الله تعالى وحال الرجاء يورث طريق المجاهدة بالاعمال والمواظبة على الطاعات كيف ما تقلبت الاحوال وعلى آثاره التلذذ بدوام الاقبال على الله عز والتنعم بمناجاته والتلطف في التملق له فان هذه الاحوال لا بد ان تظهر على كل من يرجو ملكاً من الملوك او شخصاً من الاشخاص فكيف لا يظهر ذلك في حق الله سبحانه وتعالى ؟ فمتى لم يظهر استدل به على حرمان مقام الرجاء فمن رجا ان يكون مراداً بالخير من هذه العلامات فهو مغرور

﴿ فصل في فضيلة الرجاء ﴾

روي في الصحيحين من حديث ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال« قال الله عز وجل انا عند ظن عبدي بي»

وفي رواية أخرى «فليظن ظان ما شاء» وفي حديث آخر عن رواية مسلم ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال «لا يموتن احدكم الا وهو يحسن الظن بالله» واوحى الله تعالى الى داود عليه السلام احبني واحب من يحبني وحببني الى خلقي قال يا رب كيف احببك الى خلقك قال اذكرني بالحسن الجميل واذكر الآئي واحساني، وعن مجاهد رحمه الله قال يؤمر بالعبد يوم القيامة الى النار فيقول ما كان هذا ظني، فيقول ما كان ظنك؟ فيقول ان تغفرلي فيقول خلوا سبيله .

﴿ فصل في دواء الرجاء والسبب الذي يحصل به ﴾

اعلم ان دواء الرجاء يحتاج اليه رجلان . اما رجل قد غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة واما رجل غلب عليه الخوف حتى اضر بنفسه واهله فاما العاصي المغرور المتمني على الله مع الاعراض عن العبادة فلا ينبغي ان يستعمل في حقه الا ادوية الخوف فان ادوية الرجاء تقلب في حقه سموماً كما ان العسل شفاء لمن غلبت عليه البرودة مضر لمن غلبت عليه الحرارة ، ولهذا يجب ان يكون واعظ الناس متلطفاً ناظراً الى موضع العلل معالجاً كل علة بما يليق بها وهذا الزمان لا ينبغي ان يستعمل فيه مع الخلق اسباب الرجاء بل المبالغة فى التخويف وانما يذكر الواعظ فضيلة اسباب الرجاء اذا كان مقصوده استمالة القلوب اليه لاصلاح المرض وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «انما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله ولا يؤمنهم مكر الله»

اذا عرفت هذا فاعلم ان من اسباب الرجاء ما هو من طريق الاعتبار

فهو ان يتأمل جميع ما ذكرناه من اصناف النعم في كتاب الشكر فاذا علم
لطائف الله تعالى بعباده في الدنيا وعجائب حكمته التي راعاها في فطرة
الانسان وان لطفه الالهي لم يقصر عن عباده في دقائق مصالحهم في الدنيا
ولم يرض ان تفوتهم الزيادات في الرتبة فكيف يرضى سياقتهم الى الهلاك
المؤبد فان من لطف في الدنيا يلطف في الأخري لأن مدبر الدارين واحد
واما استقراء الايات والاخبار فمن ذلك قوله سبحانه وتعالى : (قل يا عباد
الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب
جميعا) وقال تعالي (والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في
الارض) واخبر تعالى انه اعد النار لاعدائه وانما خوف بها اولياءه فقال
(لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده)
وقال تعالى (واتقوا النار التي اعدت للكافرين) وقال (فانذرتكم نارا
تلظى لا يصليها الا الاشقى الذي كذب وتولى) وقال تعالى (وان ربك
لذو مغفرة للناس على ظلمهم) . ومن الاخبار ما روى ابو سعيد الخدري
رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ان ابليس
قال لربه عز وجل بعزتك وجلالك لا ابرح أغوي بني آدم ما دامت
الارواح فيهم فقال فبعزتي وجلالي لا ابرح اغفر لهم ما استغفروني » وعن
ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «والذي
نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون
فيغفر لهم » رواه مسلم ، وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله
عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « سددوا وقاربوا وأبشروا فانه لن

يدخل احداً الجنة عمله قالوا ولا انت يا رسول الله قال ولا انا الا ان يتغمدني الله منه برحمة » وفي الصحيحين من حديث ابي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله عز وجل يوم القيمة يا آدم قم فابعث بعث النار فيقول لبيك وسعديك والخير في يديك يارب وما بعث النار قال من كل الف تسع مائة وتسعة وتسعون فحينئذ يشيب المولود وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد » فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم وقالوا يارسول الله واينا ذلك الواحد ؟ فقال صلى الله عليه وسلم من ياجوج وماجوج تسعة مائة وتسعة وتسعون ومنكم واحد فقال الناس الله اكبر . فقال النبي صلى الله عليه وسلم والله اني لارجو ان تكونوا ربع اهل الجنة ، والله اني لأرجو ان تكونوا ثلث اهل الجنة ، واللهِ اني لا رجو أن تكونوا نصف اهل الجنة . فكبر الناس فقال ما انتم يومئذ في الناس الا كالشعرة البيضاء في الثور الاسود او كالشعرة السوداء في الثور الابيض .

فانظر كيف جاء بالتخويف فلما ازعج جاء باللطف ومتى اطمأنت القلوب الى الهوى فينبغي ان تزعج فاذا اشتد قلقها ينبغي ان تسكن ليعتدل الامر . وقال ابن مسعود رضي الله عنه ليغفرن الله عز وجل يوم القيمة مغفرة لم تخطر على قلب بشر . وروي ان مجوسياً استضاف ابراهيم الخليل عليه السلام فلم يضفه وقال ان اسلمت ضيفتك فأوحى الله تعالى اليه يا ابراهيم منذ تسعين سنة اطعمه على كفره فسعى ابراهيم عليه السلام خلفه فرده واخبره في الحال فتعجب من لطف الله تعالى فاسلم فهذه الاسباب التي تجتلب

بها روح الرجاء الى قلوب الخائفين و اليائسين فاما الحمقى المغرورون فلا ينبغي ان يسمعوا شيئاً من ذلك بل يسمعون ما سنورده في اسباب الخوف فان اكثر الناس لا يصلحون الا على ذلك كعبد السوء الذي لا يستقيم الا بالعصى

﴿ الشطر الثاني من الكتاب في الخوف ﴾

وحقيقته و بيان درجاته و غير ذلك

اعلم ان الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال مثال ذلك من جني على ملك جناية ثم وقع في يده فهو يخاف القتل ويجوز العفو ولكن يكون تألم قلبه بحسب قوة علمه بالاسباب المفضية الى قتله وتفاحش جنايته وتأثيرها عند الملك وبحسب ضعف الاسباب يضعف الخوف وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية بل عن صفة المخوف وعظمته وجلاله اذ قد علم ان الله سبحانه لو اهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع فبحسب معرفة الانسان بعيوب نفسه وبجلال الله تعالى واستغنائه وانه لا يسأل عما يفعل يكون خوفه واخوف الناس اعرفهم بنفسه وبربه ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « انا اعرفكم بالله واشدكم له خشية » وقال تعالى (انما يخشى الله من عباده العلماء) واذا كملت المعرفة اثرت الخوف ففاض اثره على القلب ثم ظهر على الجوارح والصفات بالنحول والاصفرار والبكاء والغشي ، وقد يفضي الى الموت وقد يصعد الى الدماغ فيفسد العقل ، واما ظهور اثره على الجوارح فبكفها عن المعاصي والزامها الطاعات تلافيا لما فرط واستعدادا للمستقبل قال بعضهم من خاف ادلج

وقال اخر ليس الخائف من بكى انما الخائف من ترك ما يقدر عليه ، ومن ثمرات الخوف ان يقمع الشهوات و يكدر اللذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه اذا علم ان فيه سماً فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح و يذل القلب و يستكين و يفارقه الكبر والحقد والحسد و يصير مستوعب الهم لخوفه والنظر في خطر عاقبته فلا يتفرغ لغيره ولا يكون له شغل الا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والفطنة بالانفاس واللحظات ومؤاخذة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات و يكون حاله كحال من وقع في مخالب سبع ضار لا يدري ايغفل عنه فيفلت او يهجم عليه فيهلكه ولا شغل له الا ما وقع فيه فقوة المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى وصفاته و بعيوب النفس وما بين يديها من الاخطار والاهوال وأقل درجات الخوف ما يظهر اثره في الاعمال ان يمنع من المحظورات . فان منع ما يتطرق اليه امكان التحريم سمي ورعاً وان انضم اليه التجرد والاشتغال بذلك عن فضول العيش فهو من الصدق .

فصل

اعلم ان الخوف سوط الله تعالى يسوق به عباده الى المواظبة على العلم والعمل لينالوا بها رتبة القرب من الله تعالى . والخوف له افراط وله اعتدال وله قصور ، والمحمود من ذلك الاعتدال وهو بمنزلة السوط للبهيمة فان الأصلح للبهيمة ان لا تخلو عن سوط وليس المبالغة في الضرب محمودة ولا المتقاصر من الخوف ايضا محمود وهو كالذي يخطر بالبال عند سماع آية او سبب هائل ، فيوئر

البكاء فاذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب الى الغفلة فهو خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضيب الضعيف الذي يضرب به دابة قوية فلا يؤلمها الما مبرحاً فلا يسوقها الى المقصد ولا يصلح لرياضتها وهذا هو الغالب على الناس كلهم الا العارفين والعلماء اعني العلماء بالله وبآياته وقد عز وجودهم واما المترسمون برسوم العلم فانهم ابعد الناس عن الخوف ٠

واما القسم الأول وهو الخوف المفرط فهو كالذي يقوى و يجاوز حد الاعتدال حتى يخرج الى اليأس والقنوط فهو ايضا مذموم لانه يمنع من العمل وقد يخرج الى المرض والوله والموت وليس ذلك محمودا و كل ما يراد لامر فالمحمود منه ما يفضي الى المراد المقصود منه وما يقصر عنه او يجاوزه فهو مذموم وفائدة الخوف الحذر و الورع والتقوى والمجاهدة والفكر والذكر والتعبد وسائر الاسباب التي توصل الى الله تعالى و كل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل فاذا قدح في ذلك شيء كان مذموما (فان قيل) فما تقول فيمن مات من الخوف (فالجواب) انه ينال لموته على تلك الحال مرتبة لا ينالها لو مات من غير خوف الا انه لو عاش وترقى الى درجات المعارف والمعاملة كان افضل فان افضل السعادة طول العمر في طاعة الله تعالى فكل ما ابطل العمر والعقل والصحة فهو نقصان وخسران ٠

﴿ بيان اقسام الخوف ﴾

اعلم ان مقامات الخائفين تختلف فمنهم من يغلب على قلبه خوف الموت قبل التوبة ومنهم من يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعم او خوف الميل عن الاستقامة ومنهم من يغلب عليه خوف خاتمة السوء ٠ واعلا من

هذا خوف السابقة لأن الخاتمة فرع السابقة والله تعالى يرفع من يشاء من غير وسيلة ويضع من يشاء من غير وسيلة لا يسأل عما يفعل . وقد قال : هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي، ومن اقسام الخائفين من يخاف سكرات الموت وشدته او سوءال منكر ونكير او عذاب القبر ومنهم من يخاف هيبة الوقوف بين يدي الله تعالى والخوف من المناقشة والعبور على الصراط والخوف من النار واهوالها او حرمان الجنة او الحجاب عن الله سبحانه وتعالى وكل هذه الأسباب مكروهة في انفسها مخوفة . فأعلاها رتبة خوف الحجاب عن الله تعالى وهو خوف العارفين وما قبل ذلك خوف الزاهدين والعابدين .

﴿ فصل في فضيلة الخوف والرجاء ﴾
- وما ينبغي أن يكون الغالب منهما

فضل كل شيء بقدر اعانته على طلب السعادة وهي لقاء الله تعالى والقرب منه فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة قال الله تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان) وقال تعالى (رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه) وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « اذا اقشعر جلد العبد من مخافة الله عز وجل تحاتت عنه ذنوبه كما تتحات عن الشجرة اليابسة ورقها » وفي حديث آخر « لن يغضب الله على من كان فيه مخافة » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : قال عز وجل « وعزتي وجلالي لا اجمع على عبدي خوفين ولا اجمع له امنين ان امنني في الدنيا اخفته يوم القيمة وان خافني في الدنيا امنته يوم القيمة » وعن ابن عباس رضي الله عنه عن

النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « عينان لا تمسهما النار ابداً : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله » واعلم ان قول القائل : ايما أفضل الخوف او الرجاء كقوله : ايما افضل الخبز او الماء (وجوابه) ان يقال الخبز للجائع افضل والماء للعطشان افضل فان اجتمعا نظر الى الاغلب فان استويا فهما متساويين والخوف والرجاء تداوى بهما القلوب ففضلها حسب الداء الموجود ، فان كان الغالب على القلب الأمن من مكر الله فالخوف افضل ، وكذلك ان كان الغالب على العبد المعصية ، وان كان الغالب عليه اليأس والقنوط فالرجاء افضل ويجوز ان يقال مطلقاً الخوف افضل كما يقال الخبز افضل من السكنجبين لأن الخبز يعالج به مرض الجوع والسكنجبين يعالج به مرض الصفراء ومرض الجوع اغلب واكثر فالحاجة الى الخبز اكثر فهو افضل بهذا الاعتبار لان المعاصي والاغترار من الخلق اغلب ، وان نظرنا الى موضع الخوف والرجاء فالرجاء افضل لان الرجاء يستقى من بحر الرحمة والخوف يستقى من بحر الغضب ، واما المتقي فالافضل عنده اعتدال الخوف والرجاء ولذلك قيل لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا . قال بعض السلف لو نودي ليدخل الجنة كل الناس الا رجلا واحدا لخشيت ان انا اكون انا ذلك الرجل . ولو نودي ليدخل النار كل الناس الا رجلا واحدا لرجوت ان اكون انا ذلك الرجل . وهذا ينبغي ان يكون مختصا بالمؤمن المتقي (فان قيل) كيف اعتدال الخوف والرجاء في قلب المؤمن وهو على قدم التقوى فينبغي ان يكون رجاءه اقوى (فالجواب) ان المؤمن غير متيقن صحة عمله فمثله

مثل من بذر بذراً لم يجرب جنسه في ارض غريبة، والبذر الايمان وشروط صحته دقيقة، والارض القلب، وخفايا خبثه وصفائه من النفاق وخبايا الاخلاق غامضة والصواعق اهوال سكرات الموت وهناك تضطرب العقائد وكل هذا يوجب الخوف عليه وكيف لا يخاف المؤمن وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل حذيفة رضي الله عنه هل انا من المنافقين. وانما خاف ان تلبس حاله عليه ويستتر عيبه فالخوف المحمود هو الذي يبعث على العمل ويزعج القلب عن الركون الى الدنيا. واما عند نزول الموت فالاصلح للانسان الرجاء لان الخوف كالسوط الباعث على العمل وليس ثمة عمل فلا يستفيد الخائف حينئذ الا تقطيع نشاط قلبه والرجاء في هذه الحال يقوي قلبه ويحبب اليه ربه فلا ينبغي لاحد ان يفارق الدنيا الا محبا لله تعالى محباً للقائه حسن الظن به قال سليمان التيمي عند الموت لمن حضره حدثني بالرخص لعلي القى الله وانا احسن الظن به

﴿ فصل في بيان الدواء الذي يستجلب به الخوف ﴾

وذلك يحصل بطريقين احدهما أعلى من الآخر مثاله ان الصبي اذا كان في بيت فدخل عليه سبع او حية ربما لم يخف منه وربما مد يده الى الحية ليأخذها يلعب بها ولكن اذا كان معه ابوه فهرب منها وخافها هرب الصبي وخاف موافقة لابيه فخوف الأب عن معرفة وخوف الولد من غير معرفة بل هو تقليد لابيه. فاذا عرف هذا فاعلم ان الخوف من الله تعالى على مقامين احدهما الخوف من عذابه وهذا خوف عامة الخلق وهو حاصل بالايمان بالجنة والنار وكونهما جزاءين على الطاعة

والمعصية و يضعف هذا الخوف بسبب ضعف الايمان او قوة الغفلة . وزوال
الغفلة يحصل بالتذكير والتفكر في عذاب الآخرة ويزيد بالنظر الى
الخائفين ومجالستهم او سماع اخبارهم « المقام الثاني » الخوف من الله تعالى
وهو خوف العلماء العارفين قال الله تعالى (ويحذركم الله نفسه) وصفاته
سبحانه تقتضي الهيبة والخوف فهم يخافون البعد والحجاب قال ذو النون
خوف النار عند خوف الفراق كقطرة في بحر ولعامة الناس حظ من هذا
الخوف ولكن بمجرد التقليد فهو يضاهي خوف الصبي من الحية تقليداً
لابيه فلذلك يضعف فان العقائد التقليدية ضعيفة في الغالب الا اذا قويت
بمشاهدة اسبابها المولدة لها على الدوام و بالمواظبة على مقتضاها في تكثير
الطاعات واجتناب المعاصي فاذا ارتقى العبد الى معرفة الله تعالى خافه
بالضرورة ولا يحتاج الى علاج يجلب الخوف الى قلبه بل يخاف بالضرورة
ومن قصر فسبيله ان يعالج نفسه بسماع الاخبار والآثار فيطالع احوال
الخائفين واقوالهم و ينسب عقولهم ومناصبهم الى مناصب الراجين المغرورين
فلا يتمارى في ان الاقتداء بهم اولى لانهم الانبياء والعلماء والاولياء ، وفي صحيح
مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت دعي رسول الله صلى الله عليه
وآله و سلم الى جنازة غلام من الانصار فقلت يا رسول الله طوبى لهذا
عصفور من عصافير الجنة لم يدرك الشر ولم يعمله قال اوغير ذلك يا عائشة
ان الله عز وجل خلق للجنة اهلاً خلقهم لها وهم في اصلاب آبائهم وخلق
للنار اهلاً خلقهم لها وهم في اصلاب آبائهم .

ومن اعجب ما ظاهره الرجاء وهو شديد التخويف قوله تعالى (واني

لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) فانه علق المغفرة على اربعة
شروط يبعد تصحيحها . ومن المخوفات قوله تعالى (والعصر ان الانسان لفي خسر)
ثم ذكر اربع شروط بها يقع الخلاص من الخسران وقال تعالى (ولو شئنا لآتينا
كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس
اجمعين) ومعلوم انه لو كان الامر مستأنفاً لامتدت الاطماع في التحيل فاما ما
حق في القدم فلا يمكن تداركه فليس الا التسليم ولو لا ان الله تعالى لطف
بعارفيه وروح قلوبهم بالرجاء لاحترقت من نار الخوف ، وقال ابو الدرداء
رضي الله عنه ما أمن احد على ايمانه ان يسلبه عند الموت الا سلبه ، ولما
حضرت سفيان الثوري الوفاة جعل يبكي فقال له رجل يا ابا عبد الله
اراك كثير الذنوب فرفع شيئاً من الارض وقال والله لذنوبي اهون عندي
من هذا ولكن اخاف ان اسلب الايمان قبل الموت ، وكان سهل رحمه الله
تعالى يقول : المريد يخاف ان يبتلى بالمعاصي والعارف يخاف ان يبتلى
بالكفر ، ويروى ان نبياً من الانبياء شكى الى الله تعالى الجوع والعري
فاوحي الله عز وجل اليه : عبدي اما رضيت ان عصمت قلبك ان يكفرني
حتى تسألني الدنيا فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال بلى قد رضيت
فاعصمني من الكفر فاذا كان هذا خوف العارفين من سوء الخاتمة مع
رسوخ اقدامهم فكيف لا يخاف ذلك الضعفاء . ولسوء الخاتمة اسباب تتقدم
على الموت مثل البدعة والنفاق والكبر ونحو ذلك من الصفات المذمومة
ولذلك اشتد خوف السلف من النفاق . قال بعضهم لو اعلم اني بريء من
النفاق كان احب مما طلعت عليه الشمس ولم يريدوا بذلك نفاق

العقائد انما ارادوانفاق الاعمال كما روي في الحدبث الصيح « آية المنافق ثلاث آذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا أؤتمن خان» وسوء الخاتمة على رتبتين احدهما اعظم وهي ان يغلب على القلب والعياذ بالله شك او جحود عند سكرات الموت واهواله فيقتضي ذلك العذاب الدائم «والثانية» دونها وهي ان يسخط الاقدار ويتكلم بالاعتراض او يجور في وصيته او يموت مصراً على ذنب من الذنوب وقد روي ان الشيطان لا يكون في حال اشد على ابن آدم من حال الموت يقول لأعوانه دونكم هذا فانه ان فاتكم اليوم لم تلحقوه . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه كان يدعو اللهم اني اعوذ بك ان يتخبطني الشيطان عند الموت . قال الخطابي وذلك ان يستولي على الانسان حينئذ فيضله ويحول بينه وبين التوبة او يمنعه الخروج عن مظلمة او يوئسه من رحمة الله ويكره اليه الموت فلا يرضى بقضاء الله عز وجل والاسباب التي تفضي الى سوء الخاتمة لا يمكن انحصارها على التفصيل لكن يمكن الاشارة الى مجامع ذلك اما الختم على الشك والجحود فسببه البدعة ومعناها ان يعتقد في ذات الله تعالى او صفاته اوافعاله خلاف الحق اما تقليدا او برأيه الفاسد فاذا انكشف الغطاء عند الموت بان له بطلان ما اعتقده فيظن ان جميع ما اعتقده هكذا لا اصل له ومن اعتقد في الله سبحانه وفي صفاته اعتقادا مجملاً على طريقة السلف من غير بحث ولا تقتير فهو بمعزل عن هذا الخطر ان شاء الله تعالى ، واما الختم على المعاصي فسببه ضعف الايمان في الاصل وذلك يورث الانهماك في المعاصي والمعاصي مطفئة لنور الايمان واذا ضعف الايمان ضعف حب

الله تعالى فاذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك ضعفا لاستشعاره فراق الدنيا فان السبب الذى يفضي الى مثل هذه الخاتمة هو حب الدنيا والركون اليها مع ضعف الايمان الموجب لضعف حب الله فمن وجد في قلبه حب الله اغلب من حب الدنيا فهو ابعد من هذا الخطر وكل من مات على محبة الله تعالى قدم به قدوم العبد المحسن المشتاق الى مولاه فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم فضلا على ما يستحقه من الاكرام ومن فارقه الروح في حال خطر بباله فيها الانكار على الله سبحانه في فعله او كان مصرا على مخالفته قدم على الله قدوم من قدم به قهرا فلا يخفى ما يستحقه من النكال ٠

فمن اراد طريق السلامة تزحزح عن اسباب الهلاك على ان العلم بتقليب القلوب وتغيير الاحوال يقلقل قلوب الخائفين وقد ورد في الصحيحين من حديث سهل بن سعد ان رسول الله صلى الله علية وسلم قال «ان الرجل ليعمل بعمل اهل النار وانه لمن اهل الجنة وان الرجل ليعمل بعمل اهل الجنة وانه لمن اهل النار» وروي ان العبد اذا عرج بروحه الى السماء قالت الملائكة سبحان الله نجى هذا العبد من الشيطان يا ويحه كيف نجا ٠ واذا عرفت معنى سوء الخاتمة فاحذر اسبابها واعد ما يصلح لها واياك والتسويف بالاستعداد فان العمر قصير وكل نفس من انفاسك بمنزلة خاتمتك لانه يمكن ان تخطف فيه روحك والانسان يموت على ماعاش عليه ويحشر على ما مات عليه ٠

واعلم انه لا يتيسر لك الاستعداد بما يصلح الا ان تقنع بما يقيمك وترفض طلب الفضول وسنورد عليك من اخبار الخائفين ما نرجو ان

يزيل بعض القساوة من قلبك فانك متحقق ان الانبياء والاولياء كانوا اعقل منك فتفكر في اشتداد خوفهم لعلك تستعد لنفسك ٠

﴿ ذكر خوف الملائكة عليهم السلام ﴾

قال الله تعالى في صفتهم (يخافون ربهم من فوقهم و يفعلون ما يفعلون) وقد روينا عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال « ان لله ملائكة ترعد فرائصهم من مخافته » وذكر تمام الحديث . و بلغنا ان من حملة العرش من تسيل من عينيه الانهار فاذا رفع رأسه قال سبحانك ما نخشى حق خشيتك فيقول الله لكن الذين يحلفون باسمي كاذبين لا يعلمون ذلك . وعن جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما كان ليلة اسري بي رأيت جبريل عليه السلام كالشن البالي من خشية الله تعالى ، و بلغنا ان جبريل عليه السلام جاء الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يبكي فقال له ما يبكيك قال ما جفت لي عين منذ خلق الله جهنم مخافة ان اعصيه فيلقيني فيها وعن يزيد الرقاشي قال ان لله تعالى ملائكة حول العرش تجري اعينهم مثل الانهار الى يوم القيامة يميدون كأنما تنفضهم الريح من خشية الله تعالى فيقول لهم الرب عز وجل يا ملائكتي ما الذي يخيفكم وانتم عندي فيقولون يا رب لو ان اهل الارض اطلعوا من عزتك وعظمتك على ما اطلعنا عليه ما اساغوا طعاما ولا شرابا ولا انبسطوا في فرشهم ولخرجوا الى الصحارى يخورون كما تخور البقر وقال محمد بن المنكدر لما خلقت النار طارت أفئدة الملائكة من اماكنها

فلما خلق آدم عادت وروي انه لما ظهر من ابليس ما ظهر طفق جبريل وميكائيل يبكيان فاوحى الله تعالى اليهما ماهذا البكاء قالا يا رب ما نأمن من مكرك فقال تعالى هكذا فكونا ٠

﴿ ذكر خوف الانبياء عليهم السلام ﴾

قال وهب بكى آدم عليه السلام على الجنة ثلثمائة عام وما رفع رأسه الى السماء بعد ما اصاب الخطيئة وقال وهب بن الورد لما عاتب الله تعالى نوحاً عليه السلام في ابنه فقال (اني اعظك ان تكون من الجاهلين) بكى ثلاثمئة عام حتي صار تحت عينه امثال الجداول من البكاء ، وقال ابو الدرداء رضي الله عنه كان يسمع لصدر ابراهيم عليه السلام اذا قام الى الصلاة ازيز من بعد خوفا من الله عز وجل ، وقال مجاهد لما اصاب داود عليه السلام الخطيئة خر لله ساجدا اربعين يوماً حتي نبت من دموع عينه من البقل ما غطى رأسه ثم نادى يا رب قرح الجبين وجمدت العين وداود لم يرجع اليه في خطيئته شيٌ فنودي اجائع انت فتطعم ام مريض فتشفى ام مظلوم فتنصر فنحب نحيبا هاج كل شئ نبت فعند ذلك غفر له وقيل كان داود عليه السلام يعوده الناس يظنون انه مريض وما به الا شدة الفرق من الله عز وجل ، وكان عيسى عليه السلام اذا ذكر الموت يقطر جلده دما ، و بكى يحيى بن زكريا عليهما السلام حتى بدت اضراسه فاتخذت امه قطعتين من لبود فالصقتهما بخديه ٠

﴿ ذكر خوف نبينا صلى الله عليه وسلم ﴾

عن عائشة رضي الله عنها قالت ما رأيت قط رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجمعاً ضاحكاً حتى ارى لهواته انما كان يبتسم، وكان اذا رأى غيماً او ريحاً عرف ذلك في وجهه فقلت يا رسول الله الناس اذا رأوا الغيم فرحوا رجاءَ ان يكون فيه المطر وأُراك اذا رأيته عرفت الكراهة فى وجهك فقال يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب قد عذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا أخرجاه في الصحيحين وكان صلى الله عليه وسلم يصلي ولجوفه ازيز كأزيز المرجل من البكاء ·

﴿ ذكر خوف اصحابه رضي الله عنهم ﴾

روينا عن ابي بكر الصديق رضي الله عنه انه كان يمسك لسانه ويقول هذا الذي اوردني الموارد وقال يا ليتنى كنت شجرة تعضد ثم تؤكل وكذلك قال طلحة وابو الدرداء وابو ذر رضي الله عنهم وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسمع آية فيمرض فيعاد أياماً واخذ يوماً تبنة من الأَرض فقال يا ليتني كنت هذه التبنة يا ليتني لم أك شيئاً مذكوراً يا ليت أمي لم تلدني وكان في وجهه خطان أسودان من البكاء وقال عثمان رضي الله عنه وددت اني اذا مت لا أبعث وقال ابو عبيدة ابن الجراح رضي الله عنه وددت اني كنت كبشاً فذبحني اهلي فأكلوا لحمي وحسوا مرقي، وقال عمران بن حصين يا ليتني كنت رماداً تذروه

الرباح وقال حذيفة رضي الله عنه وددت ان لي انساناً يكون على مالي ثم اغلق عليَّ بابي فلا يدخل علي احد حتى ألحق بالله عز وجل ، وكان مجرى الدموع في خد ابن عباس رضي الله عنه كالشراك البالي، وقالت عائشة رضي الله عنها يا ليتني كنت نسياً منسياً ، وقال علي رضي الله عنه والله لقد رأيت اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فما ارى اليوم شيئاً يشبههم لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً بين اعينهم امثال ركب المعزى قد باتوا سجداً وقياماً يتلون كتاب الله تعالى يراوحون بين جباههم واقدامهم فاذا اصبحوا فذكروا الله عز وجل مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح وهملت اعينهم حتى تبل ثيابهم والله لكأن القوم باتوا غافلين .

﴿ ذكر خوف التابعين ومن بعدهم ﴾

قال هرم بن حيان وددت والله اني شجرة أكلتني ناقة ثم قذفتني بعراً ولم أكابد الحساب يوم القيامة اني اخاف الداهية الكبرى وكان علي بن الحسين اذا توضأ اصفر وتغير فيقال مالك؟ فيقول أتدرون بين يدي من اريد ان اقوم، وكان محمد بن واسع يبكي عامة الليل لا يكاد يفتر ، وكان عمر بن عبد العزيز اذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير ويبكي حتى تجري دموعه على لحيته وبكى ليلة فبكى اهل الدار فلما تجلت عنهم العبرة قالت فاطمة بأبي أنت يا أمير المؤمنين لم بكيت فقال ذكرت منصرف القوم من بين يدي الله تعالى فريق في الجنة وفريق في السعير ثم صرخ وغشي عليه ، ولما اراد المنصور بيت المقدس نزل

براهب كان ينزل به عمر بن عبد العزيز فقال اخبرني بأعجب ما رأيت من عمر فقال بات ليلة على سطح غرفتي هذه وهو من رخام فاذا انا بماء يقطر من الميزاب فصعدت فاذا هو ساجد واذا دموع عينيه تنحدر من الميزاب ، وقد روينا عن عمر بن عبد العزيز وفتح الموصلي انهما بكيا الدم وقال ابراهيم بن عيسى اليشكري دخلت على رجل بالبحرين قد اعتزل الناس وتفرغ لنفسه فذاكرته شيئاً من أمر الآخرة وذكر الموت قال فجعل يشهق حتى خرجت نفسه ، وقال مسمع شهدت عبد الواحد بن زيد وهو يعظ فمات يومئذ في ذلك المجلس اربعة انفس ، وكان يزيد بن مرشد يبكي كثيرا و يقول والله لو تواعدني ربي ان يسجنني في الحمام لكان حقي لا افتر من البكاء فكيف وقد تواعدني ان يسجنني في النار ان انا عصيته وقال السري السقطي اني لأنظر كل يوم الى انفي مخافة ان يكون قد اسود وجهي فهذه مخاوف الملائكة والانبياء والعباد والاولياء ونحن اجدر بالخوف منهم ولكن ليس الخوف بكثرة الذنوب ولكن بصفاء القلوب وكمال المعرفة وانما أمنا لغلبة جهلنا وقوه قساوتنا فالقلب الصافي تحركه ادنى مخافة والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ قال بعض السلف قلت لراهب اوصني فقال ان استطعت ان تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والهوام فهو خائف حذر يخاف ان يغفل فيفترسنه او يسهو فينهشنه فهو مذعور فافعل قلت زدني فقال الظمأن يجزيه من الماء ايسره وما ذكره هذا الراهب من تقدير شخص احتوشته السباع والهوام فهو حقيقة في حق

المؤمن فان من نظر الى باطنه بنور بصيرته رآه مشحونا بالسباع والهوام كالغضب والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغير ذلك وكلهن ينهشنه ويفترسنه ان سهى عنهن الا انه محجوب عن مشاهدتها فاذا انكشف الغطاء ووضع في القبر عاينها متمثلة حيات وعقارب يلدغنه وانما هي صفاته الحاضرة الآن فمن اراد ان يقهرها قبل الموت ويقتلها والا فليوطن نفسه على لدغها لصميم قلبه فضلا عن ظاهر بشرته والسلام اخر كتاب الخوف ٠

﴿كتاب الزهد والفقر﴾

اعلم ان حب الدنيا رأس كل خطيئة وبغضها اساس كل طاعة وقد سبق ذم الدنيا في ربع المهلكات ونحن نذكر الان فضل البغض لها والزهد فيها فانه رأس المنجيات ومقاطعتها اما ان يكون بانزوائها عن العبد ويسمى ذلك فقرا واما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدا ولكل واحد منهما درجة في نيل السعادات وحظ فى الاعانة على الفوز والنجاة ونحن نذكر الفقر والزهد ودرجاتهما واقسامهما وما يتعلق بهما في شطرين ٠

﴿الشطر الأول من الكتاب في الفقر﴾

اعلم ان الفقير الى الشيء هو المحتاج اليه وكل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لانه محتاج الى دوام الوجود وذلك مستفاد من فضل الله تعالى واما فقر العبد بالاضافة الى اصناف حاجاته فلا يحصر، ومن جملة حاجاته

ما يتوصل اليه بالمال ثم يتصور ان يكون له خمسة احوال عند فقده

الاولى » ان يكون بحيث لو اتاه المال لكرهه وتأذي به وهرب من اخذه بغضاله واحترازا من شره وشغله وصاحب هذه الحالة يسمى زاهدا ·

« الحالة الثانية » ان يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح بحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها وصاحب هذه الحالة يسمى راضيا ·

« الثالثة » ان يكون وجود المال احب اليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته ان ينهض لطلبه بل ان اتاه عفوا وصفوا اخذه وفرح به وان افتقر الى تعب في طلبه لم يشتغل به وصاحب هذه الحالة يسمى قانعاً ·

« الرابعة » ان يكون تركه للطلب لعجزه والا فهو راغب فيه لو وجد سبيلاً الى طلبه بالتعب لطلبه وصاحب هذه الحالة يسمى الحريص

« الخامسة » ان يكون مضطرا الى ما قصده من المال كالجائع والعاري الفاقد للمأكول والملبوس ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرا كيف ما كانت رغبته في الطلب ضعيفة او قوية ·

واعلى هذه الخمسة الحالة الأولى وهي الزهد ووراءها حالة اخرى اعلى منها وهي ان يستوي عنده وجود المال وعدمه، فان وجده لم يفرح به ولم يتأذ ان فقده كما روينا عن عائشة رضي الله عنها انها جاءها مال في غرارتين ففرقته في يومها فقالت لها جاريتها اما استطعت ان تشتري لنا مما قسمت لحماً بدرهم نفطر عليه فقالت لو ذكرتيني لفعلت · فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بحزافيرها في يده لم تضره اذ هو يرى الاموال في خزانة الله تعالى لا في يد نفسه وينبغي ان يسمى صاحب هذه الحالة المستغني لانه غني عن

فقد المال ووجوده جميعاً ومتى كان الزاهد في الدنيا لا يرغب في وجودها ولا عدمها فهو في غاية الكمال قال احمد بن ابي الحواري لابي سليمان الداراني قال مالك بن دينار للمغيرة اذهب الى البيت فخذ الزكاة التي اهديتها لي فان الشيطان يوسوس لي ان اللص قد اخذها . فقال ابو سليمان هذا من ضعف الزهد هو قد زهد في الدنيا . ما عليه من اخذها . فالهرب من المال والزهد فيه في حق الضعفاء كمال . فاما في حق الانبياء والاقوياء فسواء عليهم وجوده وعدمه وقد يظهر القوي النفار من المال ليقتدي به الضعفاء في الترك والله اعلم .

﴿ فصل في فضيلة الفقر وتفضيل الفقر على الغنى ﴾

اما الآيات فقد قال الله تعالى في معرض المدح في الفقر (للفقراء الذين احصروا في سبيل الله) الآية وقال (للفقراء الذين اخرجوا من ديارهم) الآية واما الاخبار فكثيرة منها قوله صلى الله عليه وسلم « قمت على باب الجنة فاذا عامة من يدخلها الفقراء الا ان اصحاب الجد محبوسون » وذكر تمام الحديث وهو في الصحيحين وفيهما من حديث ابي هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا » وفيهما من حديث عائشة رضي الله عنها قالت ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعا حتى قبض . وفي افراد مسلم من حديث عمر رضي الله عنه قال : لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يظل اليوم يلتوي مما يجد دقلا يملأ بطنه . وروى ابو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل اغنيائهم بخمس

مائة عام » وقال الترمذي حديث صحيح · وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها « اياك ومجانسة الاغنياء » وقال يؤتى بالعبد يوم القيمة فيعتذر الله عز وجل اليه كما يعتذر الرجل الى الرجل في الدنيا فيقول (وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوانك علي ولكن لما اعددت لك من الكرامة اخرج يا عبدي الى هذه الصفوف فمن اطعمك او كساك يريد بذلك وجهي فخذ بيده فهو لك) · وقيل لموسى عليه السلام اذا رأيت الفقير مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين ، واذا رأيت الغني مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته · وقال ابو الدرداء حساب ذي الدرهمين اشد حسابا من ذي الدرهم · وكان الفقراء يتقدمون في مجلس الثوري على الاغنياء · وجاء رجل الى ابراهيم بن ادهم بعشرة آلاف درهم فلم يقبلها وقال تريد ان تمحو اسمي من ديوان الفقراء لا افعل · وقال النبي صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن هدي الى الاسلام وكان عيشه كفافا وقنع بما آتاه الله عز وجل » · وقد ذكرنا في القناعة وذم الحرص والطمع في كتاب ذم المال ما يغني عن الاعادة ولا يقدر على ذلك الا بعد قوة الصبر

واما التفضيل بين الغنى والفقر فظاهر النقل يدل على تفضيل الفقير ولكن لا بد من تفصيل فنقول : انما يتصور الشك والخلاف في فقير صابر ليس بحريص بالاضافة الى غني شاكر ينفق ماله في الخيرات اوفقير حريص مع غني حريص اذ لا يخفى ان الفقير القانع افضل من الغني الحريص الممسك وان الغني المنفق ماله في الخير افضل من الفقير الحريص

فان كان الغني متمتعا بالمال في المباحات فالفقير القنوع افضل منه . و كشف الغطاء في هذا ان ما يراد لغيره ولا يراد لعينه ينبغي ان يضاف الى مقصوده اذ به يظهر فضله والدنيا ليست محذورة لعينها بل لكونها عائقة عن الوصول الى الله تعالى والفقر ليس مطلوبا لعينه ولكن لان فيه فقد العائق عن الله تعالى وعدم التشاغل عنه . وكم من غني لا يشغله الغنى عن الله تعالى كسليمان عليه السلام و كذلك عثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما . وكم من فقير شغله فقره عن المقصود وصرفه عن حب الله تعالى والانس به وانما الشاغل له حب الدنيا اذ لا يجتمع معه حب الله تعالى فان المحب للشيء مشغول به سواء كان في فراقه او في وصاله بل قد يكون شغله في الفراق اكثر والدنيا معشوقة الغافلين فالمحروم منها مشغول بطلبها والقادر عليها مشغول بحفظها والتمتع بها ، وان اخذت الامر باعتبار الاكثر فالفقير عن الخطر ابعد لان فتنة السراء اشد من فتنة الضراء . ومن العصمة ان لا تجد ولما كان ذلك طبع الآدمين الا القليل منهم جاء الشرع بذم الغنى وفضل الفقر وقد تقدم ما يدل على فضله . ومن ذلك ايضاً ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « التقى مؤمنان على باب الجنة مؤمن غني ومؤمن فقير كانا في الدنيا فادخل الفقير الجنة وحبس الغني ما شاء الله تعالى ان يحبس ثم ادخل الجنة فلقيه الفقير فقال اي اخي ماذا حبسك والله لقد احتبست حتى خفت عليك فقال اي اخي حبست بعدك محبساً فظيعاً كريها وما وصلت اليك

حتى سال مني من العرق ما لو ورده الف بعير كلها اكله خمص لصدرت عنه رواء

واعلم ان فراق المحبوب شديد فاذا احببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه وفراقك لما تحبه وكل من فارق محبوبا كان أذاه في فراقه بقدر حبه له وانسه به فينبغي ان تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى ولا تحب الدنيا التي تفارقك

﴿ فصل في آداب الفقير في فقره ﴾

ينبغي له ان لا يكون كارها لما ابتلاه الله به من الفقر وارفع من هذا ان يكون راضيا فرحا ويكون متوكلاً على الله سبحانه واثقاً به ومتى عكس الحال وكان يشكو الى الخلق ولا يشكر الله تعالى كان الفقر عقوبة في حقه فلا ينبغي له اظهار الشكوى بل يظهر التعفف والتجمل قال الله تعالى (يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف) وينبغي للفقير ان لا يتواضع لغني لأجل غناه ولا يرغب في مجالسته وينبغي له ايضاً ان لا يفتر عن العبادة بسبب فقره ولا يمنع بذل ما فضل عنه فان ذلك جهد المقل روى ابو ذر رضي الله عنه قال قلت يا رسول الله اي الصدقة افضل؟ قال جهد من مقل الى فقير في السر .

﴿ بيان آدابه في قبول العطاء ﴾

اذا جاءه بغير سؤال ينبغي ان يلاحظ فيما جاءه ثلاثة امور : نفس

المال وغرض المعطي وغرضه في الأخذ ، اما نفس المال فينبغي ان يكون خاليا عن الشبهات كلها فان كان فيه شبهة فليحترز عن اخذه وقد تقدم في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابه وما يستحب واما غرض المعطي فلا يخلو اما ان يكون طلبا للمحبة وهو الهدية فلا بأس بقبولها اذا لم تكن رشوة ولم يكن فيها منة « الثاني » ان يكون غرض المعطي الثواب وهو الزكاة والصدقة فعليه ان ينظر في صفات نفسه هل مستحق ام لا فان اشتبه عليه فهو محل شبهة وان كان صدقة فكان المعطي انما يعطيه لدينه فلينظر الى باطنه فان كان مقارنا لمعصية في السر يعلم ان المعطي لو علم بذلك لنفر طبعه ولما تقرب الى الله تعالى بالصدقة عليه لم يأخذه كما لو اعطاه لظنه انه عالم فلم يكن « الثالث » ان يكون غرض المعطي الشهرة والرياء والسمعة فينبغي ان يرد عليه قصده الفاسد ولا يأخذه لانه اذا قبله يكون معينا له على قصده الفاسد واما غرضه في الأخذ فلينظر اهو محتاج اليه او مستغن عنه فان كان مستغنيا عنه لم يأخذه وان كان محتاجا اليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها فالافضل له الأخذ لما روي عن عمر رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال «ما جاءك من هذا المال وانت غير مشرف ولا سائل فخذه ومالا فلا تتبعه نفسك» اخرجاه في الصحيحين وفي حديث آخر «من جاءه من اخيه معروف من غير اشراف ولا مسألة فليقبله ولا يرده فانما هو رزق ساقه الله اليه »

﴿ فصل في بيان تحريم السؤال من غير ضرورة ﴾

و آداب الفقير المضطر في السؤال

اعلم انه قد ورد في السؤال احاديث في النهي عنه وفي الترخيص فيه (اما الترخيص) فكقوله صلى الله عليه وآله وسلم للسائل حق وان جاء على فرس» وفي بعض الاحاديث ردوا السائل ولو بظلف محرق، ولو كان السؤال حراما لما جاز اعانة المعتدي على عدوانه، والاعطاء اعانة، واما احاديث النهي عن السؤال فروى ابن عمر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «لا تزال المسألة باحدكم حتى يلقى الله عز وجل وليس في وجهه مزعة لحم اخرجاه في الصحيحين وفيهما ايضاً انه صلى الله عليه وسلم ذكر التعفف عن المسألة فقال اليد العليا خير من اليد السفلى واليد العليا المعطية والسفلى السائلة، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه انه صلى الله عليه وسلم قال «من سأل وله ما يغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خدوشا او كدوحاً في وجهه» الى اخره وهو حديث حسن . وفي المعنى احاديث كثيرة و كشف الغطاء في هذا ان نقول السؤال في الاصل حرام لانه لا ينفك عن ثلاثة امور: احدها الشكوى، والثاني اذلال نفسه وما ينبغي للمؤمن ان يذل نفسه ، والثالث ايذاء المسؤول غالبا وانما يباح السؤال في حال الضرورة والحاجة المهمة القريبة من الضرورة اما المضطر فهو كسؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً او مرضاً و كسؤال العاري الذي ليس له ما يواريه .

واما المحتاج حاجة مهمة فهو كمن له جبة ولا قميص تحتها في الشتاء وهو
يتأذى بالبرد تأذيا لا ينتهي الى حد الضرورة فكذلك من يقدر على المشي
لكن بمشقة يجوز له ان يسأل اجرة يكترى بها للركوب وتركه اولى ،
ومن وجد الخبز وهو محتاج الى الأدم فله ان يسأل مع الكراهة وكذلك
اذا سأل المحمل من هو قادر على الراحلة و ينبغي في مثل هذه المسألة ان
يظهر الشكر لله تعالى ولا يسأل سؤال محتاج بل يقول انا مستغن بما املكه
وانما النفس تطالبني فيخرج بهذا عن حد الشكوى لله تعالى و ينبغي ان
يسأل اباه او قريبه او صديقه الذي لا ينقص بذلك في عينه ، او السخي
الذي اعد ماله للمكارم فيخرج بذلك من الذل وان اخذ ممن يعلم انه انما
اعطاه حياء لم يجز له الاخذ و يجب رده الى صاحبه ولا يجوز للفقير ان
يسأل الا مقدار ما يحتاج اليه من بيت يكنه وثوب يستره وطعام يقيمه
ويراعي في هذه الاشياء ما يدفع الزمان من غير تنوق في شيء من ذلك
فان كان يعلم انه يجد من يسأله كل يوم لم يجز ان يسأل اكثر من قوت يومه
وليلته وان خاف ان لا يجد من يعطيه او خاف ان يعجز عن السؤال ابيح
له السؤال اكثر من ذلك ولا يجوز له في الجملة ان يسأل فوق ما يكفيه
لسنته وعلى هذا ينزل الحديث المروي في تقدير الغنى بخمسين درهماً
فانها تكفي المنفرد المقتصد لسنة فاما ذو العائلة فلا

﴿ بيان احوال السائلين ﴾

كان بشر الحافي يقول الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل وان اعطي لا
يأخذ فهذا من الروحانيين ، وفقير لا يسأل وان أعطي أخذ فذاك من

اهل حضيرة القدس ، وفقير اذا احتاج سأل و كفارة مسألته صدقة في السوءال . قال الشيخ جمال الدين رحمه الله قلت وفصل الخطاب انه متى قدر الفقير على دفع الزمان من غير سوءال لم يجز ان يسأل فان كان يندفع على مضض نظرت فان كان مثله يحتمل ولا يخف منه التلف فالسوءال مباح وتركه فضيلة ، وان كان مثله لا يحتمل وجب عليه ان يسأل . قال سفيان الثوري رحمه الله : من جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار

﴿ الشطر الثاني من الكتاب ﴾

(وفيه بيان حقيقة الزهد وفضيلته وذكر درجاته واقسامه ونحو ذلك)

اعلم ان الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين . والزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء الى ما هو خير منه وشرط المرغوب عنه ان يكون مرغوباً فيه بوجه من الوجوه فمن رغب عن شيء ليس مرغوبا فيه ولا مطلوبا في نفسه لم يسم زهداً كمن ترك التراب لا يسمى زاهدا وقد جرت العادة بتخصيص اسم الزاهد بمن ترك الدنيا ومن زهد في كل شيء سوى الله تعالى فهذا الزاهد الكامل ومن زهد في الدنيا مع رغبته في الجنة ونعيمها فهو ايضا زاهد ولكنه دون الاول . واعلم انه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والقوة واستمالة القلوب وانما الزهد ان يترك الدنيا للعلم بحقارتها بالنسبة الى نفاسة الاخرة ومن عرف ان الدنيا كالثلج يذوب والآخرة كالدر يبقى قويت رغبته في بيع هذه بهذه وقد دل على ذلك قوله تعالى (قل متاع الدنيا قليل والاخرة خير لمن اتقى) وقوله (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) . ومن فضيلة الزهد قوله

تعالى : (ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به ازواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لفتنهم فيه) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من اصبح وهمه الدنيا شتت الله عليه امره وفرق عليه ضيعته وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له ، ومن اصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه في قلبه واتته الدنيا وهي راغمة » وقال الحسن يحشر الناس عراة ما خلا اهل الزهد وقال ان اقواما اكرموا الدنيافصلبتهم على الخشب فأهينوها فأهنأ ما تكون اذا اهنتموها . وقال الفضيل جعل الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا . وكان بعض السلف يقول الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن والرغبة فيها يكثر الهم والحزن

﴿ فصل في درجات الزهد واقسامه ﴾

من الناس من يزهد في الدنيا وهولها مشته لكنه يجاهد نفسه وهذا يسمى المتزهد وهو مبدأ الزهد « الدرجة الثانية » ان يزهدفيها طوعا لا يكلف نفسه ذلك لكنه يرى زهده و يلتفت اليه فيكاد يعجب بنفسه و يرى انه قد ترك شيئاً له قدر لما هو اعظم قدرا منه كما يترك درهماً لأخذ درهمين وهذا ايضا نقصان « الدرجة الثالثة » وهو العليا ان يزهد طوعا و يزهد في زهده فلا يرى انه ترك شيئا لانه عرف ان الدنيا ليست بشيء فيكون كمن ترك خرقة واخذ جوهرة ولا يرى ذلك معاوضة فان الدنيا بالاضافة الى نعيم الاخرة أحسن من خرقة بالاضافة الى جوهرة فهذا هو الكمال في الزهد

واعلم ان مثل من ترك الدنيا مثل من منعه عن باب الملك كلب على بابه فالقى اليه لقمة من خبز فشغله بذلك ودخل فقرب من الملك افتراه يرى لنفسه يدا عند الملك بلقمة القاها الى كلبه في مقابلة ما قد ناله فالشيطان كلب على باب الله عز وجل يمنع الناس من الدخول مع ان الباب مفتوح والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة فمن تركها لينال عز الملك فكيف يلتفت اليها؟ ثم ان نسبتها اعني ما سلم لكل شخص منها ولو عمر الف سنة بالاضافة الى نعيم الاخرة اقل من لقمة بالاضافة الى ملك الدنيا لان الفاني لا نسبة له الى الباقي كيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدرة

واما الزهد بالاضافة الى المرغوب فيه فعلى ثلاث درجات « احدها» الزهد للنجاة من العذاب والحساب والاهوال التي بين يدي الآدمي وهذا زهد الخائفين . « الدرجة الثانية » الزهد للرغبة في الثواب والنعيم الموعود به وهذا زهد الراجين فان هؤلاء تركوا نعيما لنعيم (الدرجة الثالثة) وهي العليا وهو ان لا يزهد في الدنيا للتخلص من الآلام ولا للرغبة في نيل اللذات بل لطلب لقاء الله تعالى وهذا زهد المحسنين العارفين فان لذة النظر الى الله سبحانه وتعالى بالاضافة الى لذات الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء عليها بالاضافة الى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به

﴿ فصل في بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة ﴾

والضروريات المهمات سبعة اشياء المطعم والملبس والمسكن واثاثه والمنكح والمال والجاه ، فاما الاول وهو المطعم فاعلم ان همة الزاهد منه ما

يدفع به الجوع مما يوافق بدنه من غير قصد الالتذاذ وفي الحديث ان عباد الله ليسوا بالمتنعمين ، وقالت عائشة رضي الله عنها لعروة كان يمر بنا هلال وهلال وهلال ما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نار قال قلت : يا خالة فعلى اي شيئ كنتم تعيشون ؟ قالت على الاسودين الماء والتمر والاحاديث في ذلك كثيرة مشهورة وقد كان كثير من الزهاد يخشنون المطعم وكان فيه من لا يطيق ذلك فكان الثوري حسن المطعم وربما حمل في سفرته اللحم المشوي والفالوذج وفي الجملة فالزاهد يقصد ما يصلح به بدنه ولا يزيد في التنعم الا ان الابدان تختلف فمنها مالا يحمل التخشن وقد يدخر بعض الناس الزاد الحلال بتقوته فلا يخرجه ذلك من الزهد فقد كان السبتي يعمل من السبت الى السبت ويتقوته وورث داود الطائي عشرين دينار فانفقها في عشرين سنة (الثاني) الملبس فالزاهد يقتصر فيه على ما يدفع الحر والبرد ويستر العورة ولا بأس ان يكون فيه نوع تجمل لئلا يخرجه التقشف الى الشهوة وكان اكثر لباس السلف خشناً فصار لبس الخشن شهرة وقد روي عن ابي بردة قال اخرجت الينا عائشة رضي الله عنها كساء ملبداً وإزاراً غليظاً وقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذين اخرجاه في الصحيحين وعن الحسن قال خطب عمر رضي الله عنه وهو خليفة وعليه ازار فيه اثنتا عشرة رقعة (الثالث) المسكن فللزهاد فيه ثلاث درجات اعلاها ان لا يطلب موضعاً خاصاً لنفسه بل يقنع بزوايا المساجد كأصحاب الصفة واوسطها ان يطلب موضعاً خاصاً لنفسه مثل كوخ من سعف اوخص وما اشبه ذلك وادناها ان يطلب

حجرة مبنية ومتى طلب السعة وعلو السقف فقد جاز حد الزهد في المسكن وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يضع لبنة على لبنة قال الحسن كنت اذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نلت السقف وفي الحديث ان الرجل يؤجر في نفقته كلها الا في التراب وقال ابراهيم النخعي رحمة الله اذا كان البنيان كفافاً فلا أجر ولا وز وفي الجملة ان كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حد الزهد (الرابع) اثاث البيت فينبغي للزاهد يقتصر فيه على الخزف و يستعمل الاناء الواحد في مقاصده فيأكل في القصعة و يشرب فيها ومن خرج الى كثرة العدد في الآلة او في نفاسة الجنس خرج عن الزهد ولينظر الى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ففي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع على حصير واذا الحصير قد أثر في جنبه فنظرت في خزانة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا انا بقبضة من شعير نحو الصاع وفي رواية البخاري فوالله ما رأيت شيئاً يرد البصر . والحديث مشهور في صحيح مسلم وقال على رضي الله عنه تزوجت فاطمة ومالي ولها فراش الا جلد كبش كنا نتام عليه الليل ونعلف عليه الناضج بالنهار ومالي خادم غيرها ولقد كانت تعجن وان قبضتها لتضرب حرف الجفنة من الجهد الذي بها ، ودخل رجل على ابي ذر رضي الله عنه فجعل يقلب بصره في بيته فقال يا أبا ذر ما ارى في بيتك متاعاً ولا أثاثاً فقال ان لنا بيتاً نوجه اليه صالح متاعنا فقال انه لا بد لك من متاع ما دمت ههنا فقال ان صاحب المنزل لا يدعنا فيه ،

(الخامس) المنكح لا معنى للزهد في أصل النكاح ولا في كثرته قال سهل بن عبد الله حبب الي رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء وكان علي رضي الله عنه من أزهد الصحابة وكان له أربع نسوة و بضع عشرة سرية وكان أبو سليمان الداراني يقول كلما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو مشؤوم، وكشف الغطاء في هذا ان تقول من غلبت عليه شهوته وخاف على نفسه تعين عليه النكاح فأما من لا يخاف فهل النكاح في حقه أفضل او التعبد فيه اختلاف بين العلماء والناس مختلفون فيه منهم من يقصد النكاح لطلب النسل ويمكنه الكسب الحلال للعائلة فلا يقدح ذلك في دينه ولا يتشتت قلبه بل يجمع النكاح همه و يكف بصره و يرد فكره فهذا غاية في الفضيلة وعليه يحمل حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وحال علي رضي الله عنه ومن جرى مجراهما ولا التفات الى قول من يرى الزهد بترك الالتذاذ بالنكاح فان ذلك يقع ضمناً وتبعاً للمقصود . وقد كان بعض السلف يختار المرأة الدون على الجميلة وذلك محمول على ان تلك تكون الى الدين أميل والنفقة عليها اقل والاهتمام بأمرها يسير بخلاف المستحسنة فانها تشتت القلب وتشغله وتريد زيادة في النفقة وربما لم يمكن . وقد قال مالك بن دينار يعمد احدهم فيتزوج ديباجة الحي فتقول أريد مرطاً (١) فتمرط دينه (السادس) المال وهو ضروري في المعيشة فالزاهد يقتصر منه على ما يدفع به الوقت وكان في الصالحين من يتشاغل بالتجارة و يقصد بها العفاف وكان حماد بن سلمة اذا فتح حانوته وكسب حبتين

---

(١) المرط بكسر الميم واحد المروط وهي اكسية من صوف او خز كان يؤتزر بها

قام وكان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت وخلف اربعماية دينار وقال انما تركتها لأصون بها عرضي وديني (السابع) الجاه ولا بد للانسان من جاه حتى في قلب خادمه واشتغال الزاهد بالزهد يمهد له الجاه في القلوب فينبغي ان يحذر من شر ذلك ، وفي الجملة فان الحوائج الضروريه ليست من الدنيا وكان كثير من السلف يعرض لهم بالمال الحلال فيقولون لا نأخذه نخاف ان يفسد علينا ديننا .

﴿ فصل في بيان علامات الزهد ﴾

قد تظن ان تارك المال زاهد وليس كذلك فان ترك المال واظهار التخشن سهل على من احب المدح بالزهد فكم من راهب قد لازم الدير وقلل المطعم وقواه على ذلك حب المحمدة كما سبق ذكره في كتاب الرياء ولا بد من الزهد في فضول الاموال والجاه جميعاً حتى يكمل الزهد في حظوظ النفس فاول معرفة الزهد مشكل وقد قال ابن المبارك افضل الزهد اخفاء الزهد وينبغي ان تعول في هذا على ثلاث علامات (الاولى) ان لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود كما قال تعالى (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما اتاكم) وهذا علامة الزهد في المال «الثاني» ان يستوي عنده ذامه ومادحه وهذه علامة الزهد في الجاه (الثالث) ان يكون انسه بالله والغالب على قلبه حلاوة الطاعة فأما محبة الدنيا ومحبة الله تعالى فهما في القلب كالماء والهواء في القدح اذا دخل الماء خرج الهواء فلا يجتمعان قيل لبعضهم الى ما افضى بهم الزهد ؟ قال الى الأنس بالله . قال يحيى بن معاذ الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها والزاهد

يسخم وجهها وينتف شعرها ويخرق ثوبها والعارف مشتغل بالله تعالى عنها فهذا ما اردنا ذكره من حقيقة الزهد وأحكامه . واذا كان الزهد لا يتم الا بالتوكل فلنشرع في بيانه انشاء الله تعالى .

﴿ كتاب التوحيد والتوكل ﴾

بيان فضيلة التوكل

قال الله تعالى (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وقال (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وفي الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم ذكر انه يدخل الجنة من أمته سبعون ألفاً لا حساب عليهم ثم قال هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون أخرجاه في الصحيحين ، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً ، وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم اللهم اني أسألك التوفيق لمحابك من الأعمال وصدق التوكل عليك وحسن الظن بك ، والتوكل ينبني على التوحيد والتوحيد طبقات منها ان يصدق القلب بالوحدانية المترجم عنها قولك لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير فيصدق بهذا اللفظ لكن من غير معرفة دليل فهو اعتقاد العامة (الثانية) ان يرى الأشياء المختلفة فيراها صادرة عن الواحد وهذا مقام المقربين (الثالثة) ان الانسان اذا انكشف عن بصيرته ان لا فاعل سوى الله لم ينظر الى غيره بل يكون منه الخوف وله الرجاء وبه الثقة وعليه التوكل لأنه في

الحقيقة هو الفاعل وحده فسبحانه والكل مسخرون له فلا يعتمد على
المطر في خروج الزرع ولا على الغيم في نزول المطر ولا على الريح
في سير السفينة فان الاعتماد على ذلك جهله لحقائق الامور
ومن انكشفت له الحقائق علم ان الريح لا تتحرك بنفسها ولا بد لها من
محرك فالتفات العبد في النجاة الى الريح يضاهي التفات من أخذ لتضرب
عنقه فوقع له الملك بالعفو عنه فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم
الذى كتب به التوقيع و يقول لو لا هذا القلم ما تخلصت فيرى نجاته من
من القلم لا من محرك القلم وهذا غاية الجهل ومن علم أن القلم لا حكم له
في نفسه شكر الكاتب دون القلم وكل المخلوقات في قهر تسخير الخالق
ابلغ من القلم في يد الكاتب فسبحان مسبب الأَسباب الفعال لما يريد ٠

﴿ فصل في بيان احوال التوكل وأعماله وحدّه ونحو ذلك ﴾

اعلم ان التوكل مأخوذ من الوكالة يقال وكل فلان امره الى فلان
أي فوض أمره اليه واعتمد عليه فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على
الموكَّل ولا يتوكل الانسان على غيره الا اذا اعتقد فيه اشياء الشفقة والقوة
والهداية فاذا عرفت هذا فقس عليه التوكل على الله سبحانه واذا ثبت في
نفسك انه لا فاعل سواه واعتقدت مع ذلك انه تام العلم والقدرة والرحمة
وانه ليس وراء قدرته قدرة ولا وراء علمه علم ولا وراء رحمته رحمة
اتكل قلبك عليه وحده لا محالة ولم يلتفت الى غيره بوجه فان كنتَ
لا تجد هذه الحالة من نفسك فسببه احد أمرين اما ضعف اليقين بأحد
هذه الخصال واما ضعف القلب باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب

الاوهام الغالبة عليه فان القلب قد ينزعج ببقاء الوهم وطاعته له من غير نقصان في اليقين فانه من كان يتناول عسلاً فشبه بين يديه بالعذرة ربما نفر طبعه منه وتعذر عليه تناوله ولو كلف العاقل أن يبيت مع الميت في قبر او فراش او بيت نفر طبعه من ذلك وان كان متيقناً كونه ميتاً جماداً في الحال ولا ينفر طبعه عن سائر الجمادات وذلك جبن في القلب وهو نوع ضعف قل ما يخلو الانسان منه وقد يقوى حتى يصير مرضاً حتى يخاف ان يبيت في البيت وحده مع غلق الباب واحكامه فاذاً لا يتم التوكل الا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً فاذا انكشف لك معنى التوكل وعلمت الحالة التي تسمى توكلاً فاعلم ان تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات (الأولى) ما ذكرناه وهو ان يكون حاله في حق الله تعالى الثقة بكفالته وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل (الدرجة الثانية) وهي اقوى ان يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع امه فانه لا يعرف غيرها ولا يفزع الى سواها ولا يعتمد الا اياها ، وان نابه امر كان اول خاطر يخطر على قلبه واول سابق الى لسانه يا اماه فمن كان تألهه الى الله ونظره اليه واعتماده عليه كلف به لما يكلف الصبي بأمه فيكون متوكلاً حقاً والفرق بين هذا وبين الاول ان هذا متوكل قد فني في توكله عن توكله اذ لا يلتفت الى غير المتوكل عليه ولا مجال في قلبه لغيره واما الاول فهو متوكل بالتكليف والكسب وليس فانياً عن توكله بل له التفات اليه وذلك شغل صادق عن ملاحظة المتوكل عليه وحده (الدرجة الثالثة) وهي اعلى منهما ان يكون بين يدي الله تعالى

مثل الميت بين يدي الغاسل لا يفارقه الا انه لا يرى نفسه ميتا وهذا يفارق الصبي مع امه فانه يفزع الى امه ويصيح ويتعلق بزيلها وهذه الاحوال توجد في الخلق الا ان الدوام يبعد ولا سيما المقام الثالث

فصل في بيان اعمال المتوكلين

قد يظن بعض الناس ان معني التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الارض كالخرقة وكاللحم على وضم وهذا ظن الجهال فان ذلك حرام في الشرع والشرع قد اثنى على المتوكلين وانما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه الى مقاصده، وسعي العبد اما ان يكون لجلب نفع مفقود كالكسب، او لحفظ موجود كالادخار، واما لدفع ضرر لم ينزل كدفع الصائل، او لازالة ضرر قد نزل كالتداوي من المرض فحركات العبد لا تعدو هذه الفنون الاربعة (الفن الاول) في جلب المنافع فنقول الاسباب التي بها تجلب المنافع على ثلاث درجات احدها سبب مقطوع به كالاسباب التي ارتبطت بها المسببات بتقدير الله تعالى ومشيئته ارتباطاً مطردا لا يختلف مثاله ان يكون الطعام بين يديك وانت جائع فلا تمد يدك اليه وتقول انا متوكل وشرط التوكل ترك السعي ومد اليد الى الطعام سعي وكذلك مضغه وابتلاعه فهذا جنون محض وليس من التوكل في شئ فانك اذا انتظرت ان يخلق الله فيك شبعاً دون اكل الطعام او يخلق في الطعام حركة اليك او يسخر ملكاً ليمضغه ويوصله الى معدتك فقد جهلت سنة الله وكذلك لو لم تزرع وطمعت ان يخلق الله تعالى نباتا من غير بذر او تلد الزوجة من غير وقاع فكل ذلك جنون وليس التوكل في هذا المقام ترك

العمل بل التوكل فيه بالعلم والحال

اما العلم فهو ان تعلم ان الله تعالى خلق الطعام واليد والاسباب وقوة الحركة وانه الذى يطعمك و يسقيك، واما الحال فهو ان يكون قلبك واعتمادك على فضل الله تعالى لا على الغير والطعام لانه ربما جفت يدك وبطلت حركتك وربما سلط الله عليك من يغلبك على الطعام فمد اليد الى الطعام لا ينافي التوكل (الدرجة الثانية) الاسباب التي ليست متيقنة لكن الغالب ان المسببات لا تحصل دونها مثاله من يفارق الامصار ويخرج مسافرا الى البوادى التي لا يطرقها الناس الا نادرا ولا يستصحب معه شيئًا من الزاد فهذا كالمجرب على الله تعالى وفعله منهي عنه وحمله للزاد مأمور به فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سافر تزود واستأجر دليلاً الى المدينة (الدرجة الثالثة) ملابسة الاسباب التي يتوهم افضاؤها الى المسببات من غير ثقة ظاهرة كالذي يستقصي في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه فمتي كان قصده صحيحاً وفعله لا يخرج عن الشرع لم يخرج عن التوكل لكنه ربما دخل في اهل الحرص اذا طلب فضول العيش وترك التكسب ليس من التوكل في شيء انما هو من فعل البطالين الذين آثروا الراحة وتعللو بالتوكل قال عمر رضي الله عنه المتوكل الذي يلقي حبه في الارض ويتوكل على الله (الفن الثاني) في التعرض للاسباب بالادخار ومن وجد قوتا حلالا يشغله كسب مثله عن جمع همه فادخاره اياه لا يخرجه عن التوكل خصوصاً اذا كان له عائلة وفي الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يبيع نخل بني

النضير ويحبس لأهله قوت سنتهم (فان قيل) فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا ان يدخر (فالجواب) ان الفقراء كانوا عنده كالضيف فما كان ينبغي ان يدخر فيجوعون بل الجواب ان حال بلال وامثاله من اهل الصفة كان مقتضاها عدم الادخار فان خالفوا كان التوبيخ على الكذب في دعوى الحال لا على الادخار الحلال «الفن الثالث» مباشرة الاسباب الدافعة للضرر. ليس من شرط التوكل ترك الاسباب الدافعة للضرر ولا يجوز النوم في الارض المسبعة او مجرى السيل او تحت الجدار الخراب فكل ذلك منهي عنه وكذلك لا ينقض التوكل لبس الدرع واغلاق الباب وشد البعير بالقفال قال الله تعالى (وليأخذوا اسلحتهم) وجاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أعقلها واتوكل او اطلقها واتوكل؟ قال اعقلها وتوكل، ويتوكل في ذلك كله على المسبب ولا على السبب ويكون راضيا بكل ما يقضي الله عليه ومتى عرض له اذا سرق متاعه انه لو احترز لم يسرق او اخذ يشكو ما جرى عليه فقد بان بعده عن التوكل وليعلم ان القدر له كالطبيب فان قدم اليه الطعام فرح وقال لو لا انه علم ان الغذاء ينفعني ما قدمه وان منعه فرح وقال لولا انه علم ان الغذاء يؤذيني لما منعني. واعلم ان كل من لا يعتقد في لطف الله تعالى ما يعتقده المريض في الطبيب الحاذق الشفيق لم يصح توكله فان سرق متاعه رضي بالقضاء واحل الآخذ شفقة على المسلمين فقد شكى بعض الناس الى بعض العلماء انه قطع عليه الطريق واخذ ماله فقال: ان لم يكن غمك كيف صار في المسلمين من يفعل هذا اكثر من غمك بمالك فما

نصحت المسلمين « الفن الرابع » السعي في ازالة الضرر كمداواة المريض
ونحو ذلك . اعلم ان الاسباب المزيلة للمرض تنقسم الى ثلاثة اقسام الى
مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع فهذا
القسم ليس تركه من التوكل في شيء « القسم الثاني » ان يكون مظنونا
كالفصد والحجامة وشرب المسهل ونحو ذلك فهذا لا يناقض التوكل فان
رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تداوى وامر بالتداوي وقد تداوى خلق
كثير من المسلمين وامتنع عنه اقوام توكلا كما روي عن ابي بكر الصديق
رضي الله عنه انه قيل له الا تدعو لك طبيباً فقال رآني الطبيب. قيل فما
قال لك قال قال اني فعال لما اريد قال المصنف رحمه الله والذي ننصره ان
التداوي افضل ونحمل حال ابي بكر رضي الله عنه انه قد تداوى ثم امسك بعد
انتفاعه بالدواء او يكون قد علم قرب اجله بامارات . واعلم ان الادوية اسباب
مسخرة باذن الله تعالى « القسم الثالث » ان يكون السبب موهوما كالكي فيخرج
عن التوكل لان النبي صلى الله عليه وسلم وصف المتوكلين بانهم لا يكتوون
وقد حمل بعض العلماء الكي المذكور في قوله لا يكتوون على ما كانوا
يفعلونه في الجاهلية فانهم كانوا يكتوون ويسترقون في زمن العافية لئلا
يمرضوا فان النبي صلى الله عليه وسلم كان يرقي ويعلم الرقية بعد نزول
المرض وقد كوى اسعد بن زرارة واما شكوى المريض فهي مخرجة من
التوكل وقد كانوا يكرهون انين المريض لانه يترجم عن الشكوى فكان
الفضيل يقول اشتهي مرضا بلا عواد . وقال رجل للامام احمد كيف انت
قال بخير قال حممت البارحة قال اذا قلت لك انا بخير فلا تخرجني الى

ما اكره. فاما اذا وصف المريض للطبيب ما يجده فانه لا يضره، وقد كان بعض السلف يفعل ذلك و يقول انما اصف قدرة الله فيّ ويتصور ان يصف ذلك لتلميذ يقويه على الضراء ويرى ذلك نعمة فيصف ذلك كما يصف النعمة شكرا لها ولا يكون ذلك شكوى وقد روينا ان النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « اني اوعك كما يوعك رجلان منكم » اخر التوكل

﴿ كتاب المحبة والشوق والأنس والرضاء ﴾

اعلم ان المحبة لله تعالى هي الغاية القصوى من المقامات فما بعد ادراك المحبة مقام الا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضاء ولا قبل المحبة مقام الا وهو من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها واعلم ان الأمة مجمعة على ان الحب لله ولرسوله فرض ومن شواهد المحبة قوله تعالى (يحبهم ويحبونه) وقوله تعالى (والذين آمنوا اشد حباً لله) وهذا دليل على اثبات الحب لله واثبات التفاوت فيه، وفي الحديث الصحيح ان رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال ما أعددت لها قال يا رسول الله ما اعددت لها من كثرة صلاة ولا صيام الا اني احب الله ورسوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء مع من احب وانت مع من احببت. فما فرح المسلمون بعد الاسلام فرحهم بها، وروي ان ملك الموت جاء الى الخليل عليه السلام ليقبض روحه فقال له هل رأيت خليلا يميت خليله فأوحي الله اليه هل رأيت حبيباً يكره لقاء حبيبه؟ فقال يا ملك الموت اقبض، وقال

الحسن البصري رحمه الله من عرف ربه احبه ، ومن احب غير الله تعالى
لا من حيث نسبته الى الله فذلك لجهله وقصوره عن معرفته ، فأما حب
الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فذلك لا يكون الا عن حب الله تعالي
وكذلك حب العلماء والاتقياء لأن محبوب المحبوب محبوب بل ان ما يفعل
المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب وكل ذلك يرجع الى حب
الأصل فلا محبوب في الحقيقة عند ذوي البصائر الا الله تعالى ولا
مستحق للمحبة سواه وايضاح ذلك يرجع الى اسباب (احدها) ان
الانسان يحب نفسه وبقاءه وكماله ودوام وجوده ، ويكره ضد ذلك من
الهلاك والعدم والنقصان وهذا جبلة كل حي لا يتصور ان ينفك عنها
وهذا يقتضي غاية المحبة لله عز وجل فان الانسان اذا عرف ربه عرف
قطعاً ان وجوده ودوامه وكماله من الله وانه المخترع له الموجد لذاته
بعد ان كان عدماً محضاً لولا فضل الله عليه بايجاده وهو ناقص بعد
الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل ، ولذلك قال الحسن البصري من
عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها وكيف يتصور ان يحب
الانسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه (السبب الثاني) ان
الانسان بالطبع يحب من احسن اليه ولاطفه وواساه وانتدب لنصرته وقمع
اعدائه واعانه على جميع اغراضه فانه محبوب عنده لا محالة واذا عرف
الانسان حق المعرفة علم ان المحسن اليه هو الله سبحانه وتعالى فقط
وانواع احسانه لا يحيط به حصر كما قال تعالى (وان تعدوا نعمة الله
لا تحصوها) وقد اشرنا الى طرف من ذلك في كتاب الشكر ولكنا نبين

ان الاحسان من الناس غير متصور الا المجاز وان المحسن في الحقيقة هو
الله تعالى « بيان ذلك » انا نفرض ان شخصاً أنعم عليك بجميع خزائنه
وما يملك ومكنك فيها تتصرف كيف شئت فانك تظن ان هذا الاحسان
منه وهو غلط فانه انما تم احسانه بماله و بقدرته على المال وبداعيته
الباعثة له على صرف المال فمن الذي انعم بخلقه وخلق ماله وخلق
ارادته وداعيته ومن الذي حببك اليه وصرف وجهه اليك والقى في
نفسه ان صلاح دينه ودنياه في الاحسان اليك ولو لا ذلك ما اعطاك
فكأنه صار مقهوراً في التسليم لا يستطيع مخالفته فالمحسن هو الذي
اضطره وسخره لك فهو جار مجرى خازن امير امره ان يسلم الى
الانسان خلعة خلعها عليه الامير فان الخازن لا يرى محسناً بتسليم
خلعة الامير لأنه مضطر الى طاعته ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك
وكذلك كل محسن لو خلاه الله ونفسه لم يبذل حبة من ماله حتى
يسلط الله عليه الدواعي و يلقي في نفسه ان حظه في بذل ذلك فيبذله
فينبغي للعارف ان لا يحب الا الله اذ الاحسان من غيره محال
« السبب الثالث » ان المحسن في نفسه وان لم يصل اليك احسانه محبوب
في الطباع فانه اذا بلغك عن ملك من الملوك انه عالم عادل عابد رفيق
بالناس متلطف بهم وهو في قطر بعيد فانك تحبه وتجد في نفسك
ميلا كثيراً اليه فهذا حب المحسن من حيث انه محسن فضلا عن ان
يكون محسناً اليك وهذا يقتضي حب الله تعالى بل يقتضي ان لا يحب
غيره الا بحيث ان يتعلق منه بسبب فانه سبحانه هو المحسن الى الكل

كافة بايجادهم وتكميلهم بالاعضاء والاسباب التي هي من ضروراتهم وترفيههم الى غير ذلك من النعم الذي لا تحصى كما قال تعالى (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) فكيف يكون غيره محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته فمن عرف هذا لم يحب الا الله تعالى وكذلك نقول كل من كان متصفا بالعلم او بالقدرة او كان متنزها عن الصفات الرذيلة فان ذلك يوجب له المحبة فصفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعا ترجع الى علمهم بالله تعالى وملائكته و كتبه ورسله وشرائع انبيائه والى قدرتهم على اصلاح نفوسهم والى تنزيههم عن الرذائل والخبائث وبمثل هذه الصفات تحب الانبياء عليهم الصلاة والسلام واذا نسبت هذه الصفات الى صفات الله تعالى وجدتها مضمحلة بالنسبة الى صفاته سبحانه وتعالى اما العلم فان علم الاولين والآخرين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الارض وقد خاطب الخلق كلهم فقال (وما اوتيتم من العلم الا قليلا) ولو اجتمع اهل الارض والسماوات على ان يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلق نملة او بعوضة لم يطلعوا على عشر عشر ذلك ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء ، والقدر اليسير الذي علمه الخلق كلهم بتعليمه علموه ففضل علم الله سبحانه على علم الخلائق كلهم خارج عن النهاية ومعلوماته لا نهاية لها ، واما صفة القدرة فهي ايضاً صفة كمال فاذا نسبت قدرة الخلق كلهم الى قدرة الله تعالى وجدت اعظم الاشخاص قوة واوسعهم ملكا واقواهم بطشاً واجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره غاية قدرته ان يقدر على

بعض صفات نفسه وعلى بعض امتحان الانس في بعض الامور وهو مع ذلك لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا يملك موتا ولا حياة ولا نشورا بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ولا على حفظ لسانه من الخرس ولا آذانه من الصمم ولا بدنه من المرض ولا يقدر على ذرة من ذرات المخلوقات وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق اسبابه والممكن له من ذلك ولو سلط بعوضة على اعظم ملك واقوى شخص لاهلكته فليس للعبد قدرة الا بتمكين مولاه . قال الله تعالى في حق اعظم ملوك الارض ذي القرنين (انا مكنا له في الارض) فلم يكن جميع ملكه وسلطنته الا بتمكين الله تعالى ، فنواصي الخلق جميعهم في قبضته وقدرته ان اهلكهم لم ينقص من ملكه وسلطانه ذرة وان خلق امثالهم الف مرة لم يعبأ بخلقه فلا قادر الا هو ، فله الكمال والعظمة والبهاء والكبرياء والقهر والاستيلاء فان تصور ان تحب قادراً لكمال قدرته وعظمته وعلمه فلا يستحق ذلك سواه فلا يتصور كمال التقديس والتنزيه الا له سبحانه فهو الواحد الذي لا ند له الفرد الذي لا ضد له الصمد الذي لا منازع له الغني الذي لا حاجة له ، القادر الذي يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه ، العالم الذي لا يغرب عنه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ، وكمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته وهو المستحق لكمال المحبة استحقاقاً لا يساهم فيه اصلا

﴿ فصل في بيان ان اجل اللذات واعلاها معرفة الله سبحانه ﴾
« والنظر الى وجهه الكريم وانه لا يتصور ان يؤثر »
(على ذلك لذة اخرى الا من حرم هذه اللذة)

اعلم ان اللذات تابعة للادراكات والانسان جامع لجملة من القوى والغرائز ولكل قوة غريزة لذة ولم تخلق هذه الغرائز عبثاً بل لامر من الامور وهو مقتضاها بالطبع فغريزة شهوة الطعام خلقت لتحصيل الغذاء الذي به القوام ولذة البصر والسمع في الابصار والاسماع وكذلك في القلب غريزة تسمى النور الالهي وقد يسمى العقل ويسمى البصيرة الباطنة ويسمى نور الايمان واليقين وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الامور كلها بطبعها فمقتضى طبعها العلم والمعرفة وذلك لذتها وليس يخفي ان العلم والمعرفة ولو في شيء خسيس يفرح به وان من ينسب الى الجهل ولو في شيء خسيس يغتم به وكل ذلك لفرط لذة العلم وما يستشعره من كمال ذاته فان العلم من احسن الصفات ومنتهى الكمال ولذلك يرتاح الانسان بطبعه اذا اثني عليه بالذكاء وغزارة العلم ثم ليس لذة العلم بالحراثة والخياطة كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير امر الخلق ولا لذة العلم بالشعر والنحو كلذة العلم بالله تعالى وملائكته وملكوت السموات والارض بل لذة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف المعلوم فبهذا استبان ان ألذ المعارف واشرفها بحسب شرف المعلوم فان كان في المعلومات ما هو الاجل والاكمل والاشرف والاعظم فالعلم به ألذ العلوم لا محالة واشرفها وليت شعري هل في الوجود شيء اجلّ واعلى واشرف واكمل واعظم من

خالق الاشياء كلها ومكملها ومزينها ومبديها ومعيدها ومدبرها ومرتبها وهل يتصور ان يكون حضرة في الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال اعظم من الحضره الربانية التي لا يحيط بجلالها وكمالها وعجائب امورها وصف الواصفين فينبغي ان تعرف ان لذة المعرفة اقوى من جميع اللذات المدركة بالحواس الخمس فان المعاني الباطنة اغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهرة فلو خير الرجل بين لذة أكل الدجاج السمين واللوزينج وبين لذة الرياسة وقهر الاعداء ونيل درجة الاستيلاء فان كان المخير خسيس الهمة ميت القلب شديد الشهوة البهمية اختار اللحم والحلواء، وان كان عليّ الهمة كامل العقل فانه يختار الرياسة ويهون عليه الجوع والصبر على ضرورة القوت اياماً فاختياره الرياسة دليل على انه ألذ عنده من المطعومات الطيبة فكما ان لذة الرياسة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الناقص الهمة فلذة معرفة الله سبحانه وتعالى والنظر الى اسرار الامور الإلهية ألذ من الرياسة التي هي اعلا اللذات الغالبة على الخلق وهذا لا يعرفه الا من ذاق اللذتين جميعاً فانه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والذكر وينغمس في بحار المعرفة ويترك الرياسة ويحتقر الخلق لعلمه بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته وكون ذلك مشوبا بالكدر مقطوعاً بالموت وتعظم عنده معرفة الله سبحانه وتعالى ومطالعة صفاته وافعاله ونظام مملكته فانها خالية عن المزاحمات والمكدرات متسعة للمتواردين عليها لا تضيق عليهم فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والارض يرتع في رياضها ويقطف من ثمارها ويكرع من حياضها

وهو آمن من انقطاعها اذ هي ابدية سرمدية لا يقطعها الموت لان الموت لا
يهدم محل معرفة الله تعالى اذ محلها الروح وانما الموت يغير احوالها اما ان
يعدمها فلا . والعارفون درجات عند الله تعالى متفاوتون لا يدخل تفاوت
درجاتهم تحت الحصر وهذه الامور لا تدرك الا بالذوق والحكاية فيها
قليلة الجدوى فهذا القدر ينبهك على ان معرفة الله تعالى ألذ الاشياء وانه
لا لذة فوقها ، ولهذا قال ابو سليمان الداراني رحمه الله : ان لله عباداً ليس
يشغلهم عن الله عز وجل خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا
عن الله تعالى ، وقال بعض اصحاب معروف قلت له اي شيء اهاجك على
العبادة فسكت فقلت ذكر الموت فقال واي شيء الموت قلت ذكر
القبر وقال واي شيء القبر قلت خوف النار ورجاء الجنة فقال واي شيء هذا
فان ملك هذا كله بيده ان احببته انساك جميع ذلك وان كانت بينك
وبينه معرفة كفاك جميع ذلك وقال احمد بن الفتح رايت بشر بن الحارث
في منامي فقلت له ما فعل معروف الكرخي فحرك رأسه ثم قال هيهات حالت
بيننا وبينه الحجب ان معروفا لم يعبد الله شوقاً الى جنته ولا خوفا من ناره وانما
عبده شوقا اليه فرفعه الله الى الرفيق الاعلى ورفع الحجب بينه وبينه فمتى
حصلت محبة الله تعالى لشخص صار قلبه مستغرقا بها ولا يلتفت الى جنة
ولا يخاف من نار فانه قد بلغ النعيم الذي ليس فوقه نعيم قال بعضهم

وهجره اعظم من ناره وووصله اطيب من جنته

وانما اراد بهذا لذة القلب في معرفة الله تعالى وانها مفضلة على لذة الأكل
والشرب والنكاح فان الجنة معدن تمتع الحواس واما القلب فلذته في لقاء

الله تعالى فقط . واعلم ان لذة النظر في الآخرة تزيد على المعرفة في الدنيا وقد اقتضت سنة الله تعالى ان النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن ومقتضى الشهوات وما يغلب عليها من الصفات البشرية لا تنتهي الى المشاهدة بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الاجفان عن رؤية الابصار والقول في سبب كونه حجاباً يطول فاذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس وفيها نوع تلوث بالدنيا فاذا دخل اهل الجنة الجنة وقد صفوا من الاكدار تجلى لهم الحق سبحانه وتعالى على قدر معرفتهم في الدنيا وكل من لا يعرف الله تعالى في الدنيا لا يراه في الآخرة وما يستأنف لاحد في الاخرة مالم يصحبه في الدنيا ولا يحصد احد الا ما زرع ولا يموت المرء الا على ما عاش عليه فما صحبه من المعرفة هو الذي يتنعم به بعينه الا انه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللذة والعيش عيش الاخرة (وان الدار الآخرة لهي الحيوان) وعيش الآخرة بقدر المعرفة ولهذا جاء في الحديث « خير الناس من طال عمره وحسن عمله » وذلك لان المعرفة انما تكمل وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمداومة الفكر والذكر والمواظبة على المجاهدة والانقطاع عن علائق الدنيا والتجرد للطلب فقد عرفت بما ذكرنا معنى المحبة ومعنى لذة المعرفة ومعنى الرؤية ولذتها ومعنى كونها ألذ من سائر اللذات عند اهل الكمال

﴿ فصل في بيان الاسباب المقوية لحب الله تعالى وتفاوت الناس في الحب ﴾

(• بيان السبب في قصور افهام الخلق عن معرفة الله تعالى)

اعلم ان اسعد الناس واحسنهم حالاً في الآخرة اقواهم حباً لله تعالى

فان الآخرة معناها القدوم على الله تعالى ودرك سعادة لقائه وما اعظم نعيم المحب اذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه وتمكن من مشاهدته من غير امنغص ولا مكدر الا ان هذا النعيم على قدر المحبة فكلما ازداد الحب ازدادت اللذة واصل الحب لا ينفك عنه موءمن لانه لا ينفك عن اصل المعرفة واما قوة الحب واستيلاوءه فذلك ينفك عنه الاكثرون وانما يحصل ذلك بشيئين :

« احدهما » قطع علائق الدنيا واخراج حب غير الله من القلب فاحد اسباب ضعف حبه قوة حب الدنيا وبقدر ما يأنس القلب بالدنيا ينقص انسه بالله ، والدنيا والاخرة ضرتان وسبيل قطع الدنيا عن القلب سلوك طريق الزهد وملازمة الصبر والانقياد اليهما بزمام الخوف والرجاء وما ذكرناه من المقامات كالتوبة والصبر والزهد والخوف وغير ذلك

« السبب الثاني » لقوة المحبة معرفة الله تعالى واذا حصلت المعرفة تبعتها المحبة و لا يوصل الى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب الا الفكر الصافي والذكر الدائم والتشمير في الطلب والاستدلال عليها بافعاله سبحانه واقل افعاله الارض وما عليها بالاضافة الى الملائكة وملكوت السموات ، والشمس على ما يرى من صغر حجمها مثل الارض مائة ونيفاً وستين مرة فانظر الى صغر الارض بالاضافة اليها ثم انظر الى صغر الشمس بالاضافة الى فلكها الذي هي مركوزة فيه وهي في السماء الرابعة والسماء الرابعة صغيرة بالنسبة الى ما فوقها من السموات ثم السموات السبع في الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة والكرسي في العرش كذلك

ثم انظر الى الادمي المخلوق من التراب الذي هو جزء من الارض والى سائر الحيوانات والى صغره بالاضافة الى الارض واصغر ما تعرفه من الحيوانات البعوض فانظر فيه بعقل حاضر كيف خلقه الله عز وجل على شكل الفيل هو اعظم الحيوانات وزاده الجناحين وانظر كيف شق سمعه وبصره وخلق في باطنه من اعضاء الغذاء وآلاته ودبره في ساير احواله من القوى الجاذبة والدافعة والهاضمة وانظر كيف خلق له الطيران يطير اذا طلب وجعل له خرطوماً محدداً يمص به الدم

وانظر الى النحل في تناولها الازهار من الانوار واحترازها عن الاقذار وطاعتها الى كبيرها حتى انه يقتل كلما ورد عليه وقد اكل مستقذراً والى اختيارها الشكل المسدس فلا تبني بيتاً مربعاً ولا مستديرا ولا مخمساً بل مسدساً لخاصيته في الشكل المسدس فان اوسع الاشكال واحواها المستدير وما يقرب منه فان المربع تخرج منه الزوايا ضائعة ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فان الاشكال المستديرة اذا جمعت لم تجتمع متراصة فلا شكل في الاشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة الا المسدس فانظر كيف الهمه الله تعالى ذلك على صغر حجمه وضعفه فاعتبر بهذه اللمعة اليسيرة من محقرات الحيوانات فالنظر في هذا واشباهه تزداد المعرفة به فتزداد المحبة

واما السبب في تفاوت الناس في الحب فاعلم ان الناس مشتركون في اصل الحب لكنهم يتفاوتون لتفاوت المعرفة فكثير من الناس ليس لهم

من معرفه الله تعالى الا الصفات والاسماء التي قرعت اسماعهم والعالم البصير يطالع في تفصيل صنع الله تعالى حتى يرى مـا يبهر عقله فتزداد عظمة الله تعالى في قلبه فيزداد حبا له وتجر هذه المعرفة التى هي معرفة عجائب صنع الله تعالى الى بحر لا ساحل له

واما السبب في قصور افهام الخلق عن معرفة الله تعالى فاعلم ان كل من صنع شيئاً دل المصنوع على وجود صانعه وعلى علمه وحياته وقدرته دلالة جلية ظاهرة وان كانت هذه الصفات لا تدرك بشيء من الحواس الخمس فوجود الله سبحانه وتعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته تشهد له بالضرورة كل ما نشاهده من حجر وشجر ومدر ونبات وحيوان وارض وسماء وكوكب وبر وبحر بل اول شاهد علينا انفسنا واجسامنا وتقلب احوالنا وتغير قلوبنا وجميع اطوارنا في حركاتنا وسكناتنا وجميع ما في العالم شواهد ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ودالة على علمه وقدرته وحياته ولطفه وحكمته وعظمته وجلاله اذ كل ذرة تنادي بلسان حالها انه ليس وجودها بنفسها وانها تحتاج الى موجد لها لكن عقولنا بالنسبة الى ادراك الحضرة الالهية كالخفاش بالنسبة الى النهار فانه لضعف بصره يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار وليس عدم ابصاره بالنهار لخفائه بل لشدة ظهوره واستنارته وضعف اعين الخفاش فكذلك عقولنا ضعيفة عن ادراك الحضرة الالهيه فسبحان من احتجب باشراق نوره واختفى به عن البصائر والابصار فهذا هو السبب في قصور الافهام عن معرفة الله سبحانه وتعالى وانضم

الى ذلك ايضاً ان المدركات الشاهدة لله تعالى انما يدركها الانسان في حال الصبى قبل حضور العقل عنده ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلاً قليلا وهو مستغرق الهم مشغول به وقد انس بمدركاته وألفها فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس وكذلك اذا رأى فجأة حيواناً غريباً او نباتاً او فعلاً من افعال الله تعالى عجيباً خارقاً للعادة انطلق لسانه بالتعجب فقال سبحان الله سبحان الله وهو يرى طول النهار نفسه وجميع اعضائه وجميع الحيوانات المألوفة وكلها شواهد قاطعة فلا يحس بشهادتها لطول الأنس بها ولو فرض ان اعمى بلغ عاقلا ثم انقشعت غشاوة عينه فامتد بصره الى السماء والارض والاشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة لخيف على عقله ان ينبهر لعظم تعجبه من مشاهدة هذه العجائب وشهادتها لخالقها فهذا وامثاله من الاسباب مع الانهماك في الشهوات هو الذي سد على الخلق سبيل الاستضاءة بنور المعرفة والسباحة في بحارها الواسعة والله اعلم

﴿ فصل في بيان معنى الشوق الى الله تعالى ﴾

قد تقدم الكلام في المحبة واثباتها بالادلة وان الشوق ثمرة من ثمارها فان من احب شيئا اشتاق اليه . واعلم ان الشوق لا يتصور الا الى شيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه . فاما مالا يدرك اصلا فلا يشتاق اليه وكمال الادراك بالرؤية وانما يكون ذلك في الآخرة . واعلم ان الامور الالهية لا نهاية لها وانما يكشف لكل عبد من العباد بعضها ويبقى امور لا نهاية لها والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله تعالى ويعلم ان ما غاب عن علمه من المعلومات اكثر مما حضر فلا يزال العبد متشوقا الى ان

يحصل له اصل المعرفة و ينتهي الشوق الاول في الدار الاخرة بالمعنى الذي
يسمى رؤية ولقاء ومشاهدة ولا يتصور ان يسكن قلب المشتاق في الدنيا
وكان ابراهيم بن ادهم من المشتاقين فقال يوما يا رب" ان كنت اعطيت
احدا من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فاعطني فقد اضرني القلق
قال فرأيته عز وجل في النوم فقال يا ابراهيم اما استحييت مني تسألني
ان اعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقائي وهل يسكن قلب المشتاق قبل
لقاء حبيبه فقلت يا رب تهت في حبك فلم ادر ما اقول . فهذا الشوق
يسكن في الآخرة واما غير ذلك مما هو معلوم لله فلا نهاية له فلا يتضح
للعبد ولا يحيط به فهو مشغول بلذة ما ظهر له ولا يزال النعيم واللذة
متزايد حتى يشتغل عن الاحساس بالشوق الى ما وراء ذلك فهذا القدر
من انوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه ، ومن شواهد الاخبار
ما روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم علم رجلا دعاء وامره ان
يتعاهد به اهله كل يوم فذكر فيه « أسألك اللهم الرضاء بعد القضاء وبرد
العيش بعد الموت ولذة النظر الى وجهك وشوقا الى لقائك » وفي التوراة
يقول الله تعالى طال شوق الابرار الى لقائي وانا الى لقائهم اشد شوقا . وفي
بعض ما اوحى الله عز وجل الى بعض عباده ان لي عبادا : من عبادي
يحبوني واحبهم واشتاق اليهم و يشتاقون الي" و يذكروني واذكرهم فان
حذوت طريقهم احببتك وان عدلت عنهم مقتك قال يا رب وما علامتهم
قال يراعون الظلال بالنهار كما يرعى الراعي الشفيق غنمه و يحنون
الى غروب الشمس كما تحن الطير الى اوكارها عند الغروب فاذا جنهم

الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا اقدامهم و افترشوا وجوههم وناجوني بكلامي و تملقوني بانعـامي فبين صارخ و باك وبين متاوه وشاك و بين قائم وقاعد و بين راكع وسـاجد بعيني ما يتحملون من أجلي و بسمعي ما يشكون من حبي

فصل في بيان محبة الله تعالى للعبد ومعناها
و بيان علامات محبة العبد لله تعالى

واما محبة الله تعالى للعبد فاعلم ان شواهد القران متظاهرة على ذلك كقوله تعالى (ان الله يحب التوابين و يحب المتطهرين ، ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا) الاية ونبه على انه لا يعذب من يحبه لانه رد على من ادعى انه حبيبه بقوله (قل فلم يعذبكم بذنوبكم) وشرط للمحبة غفران الذنوب فقال : (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله و يغفر لكم ذنوبكم)وفي الحديث الصحيح من رواية ابي هريره رضي الله عنه عن صلى الله عليه آله وسلم ان الله تعالى يقول " ما يزال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى احبه » الى اخره وهو حديث مشهور ، ومن علامة حب الله تعالى للعبد قول النبي صلى الله عليه وسلم « ان الله اذا احب عبدا ابتلاه » ومن اقوى العلامات حسن التدبير له يربيه من الطفولية على احسن نظام ، و يكتب الايمان في قلبه و ينور له عقله فيتبع كل ما يقربه و ينفر عن كل ما يبعد عنه ثم يتولاه بتيسير اموره من غير ذل للخلق و يسدد ظاهره وباطنه ويجعل همه هما واحدا فاذا زادت المحبة شغله به عن كل شيء واما محبه العبد لله تعالى فاعلم ان المحبة يدعيها كل احد فما اسهل الدعوى

واعز المعنى ولا ينبغي ان يغتر الانسان بتلبيس الشيطان وخداع النفس اذا ادعت محبة الله تعالى مالم يمتحنها بالعلامات ويطالبها بالبراهين فمن العلامات حب لقاء الله تعالى في الجنة فانه لا يتصور أن يحب القلب محبوبا الا ويحب لقاءه ومشاهدته وهذا لا ينافي كراهة الموت فان المؤمن يكره الموت ولقاء الله بعد الموت ، وفي السلف من احب الموت ومنهم من كرهه اما لضعف محبته او كونها مشوبة بحب شيء من الدنيا اولأنه يرى ذنوبه فيحب ان يبقى ليتوب ، ومنهم من يرى نفسه في ابتداء مقام المحبة فيكره عجلة الموت قبل ان يستعد للقاء الله تعالى وهذا كمحب يصله الخبر بقدوم حبيبه عليه فيحب ان يتأخر قدومه ساعة ليهيء له داره و يعدل له اسبابه فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل خفيف الظهر عن العوائق فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال المحبة وعلامة هذا الدؤوب في العمل واستغراق الهم في الاستعداد ، ومنها ان يكون مؤثرا ما احبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه فيجتنب اتباع الهوى ويعرض عن دعة الكسل ولا يزال مواظباً على طاعة الله تعالى متقربا اليه بالنوافل ومن احب الله فلا يعصيه الا ان العصيان لا ينافي اصل المحبة انما يضاد كمالها فكم من انسان يحب الصحة ويأكل ما يضره وسببه ان المعرفة قد تضعف والشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحق المحبة ويدل على ذلك حديث نعمان انه كان يوتى به الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيحده (١) الى ان أتي به يوماً فحده فلعنه رجل وقال ما اكثر ما يؤتى به فقال

(١) ان يقيم عليه الحد

المعصية عن المحبة وانما تخرجه عن كمال المحبة ، ومن العلامات ان يكون مستهتراً بذكر الله تعالى لا يفتر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه فان من أحب شيئاً أكثر من ذكره بالضرورة ومن ذكر ما يتعلق به ، فعلامة حب الله حب ذكره وحب القرآن الذي هو كلامه وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله و يغفر لكم ذنوبكم) وقال بعض السلف كنت قد وجدت حلاوة المناجاة فكنت أدمن قراءة القرآن ثم لحقني فترة فانقطعت فرأيت في المنام قائلا يقول:

ان كنت تزعم حبي فلمْ هجرت كتابي
اما تدبرت ما فيـ ـه من لطيف عتابي

ومنها ان يكون انسه بالخلوة ومناجاة الله تعالى وتلاوة كتابه فيواظب على التهجد و يغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق فاقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب والتنعم بمناجاته . روي ان عابداً عبد الله في غيضة دهرا فنظر الى طائر قد عشش في شجرة يأوي اليها ويصفر عندها فقال لو حولت مسجدي الى تلك الشجرة كنت آنس بصوت هذا الطائر ففعل فاوحى الله تعالى الى نبيهم قل لفلان العابد استأنست بمخلوق لأحطنك درجة لا تنالها بشيء من عملك ابدا . فاذن علامة المحبة كمال الانس بمناجاة المحبوب وكمال التنعم بالخلوة وكمال الاستيحاش من كل ما ينقص عليه الخلوة ومتى غلب الحب والانس صارت الخلوة والمناجاة قرة عين تدفع جميع الهموم بل يستغرق الحب والانس قلبه حتى

لا يفهم امور الدنيا مالم يتكرر على سمعه مراراً مثل العاشق الولهان ، ومنها ان يتأسف على ما يفوته من ذكر الله ويتنعم بالطاعة لا يستثقلها ويسقط عنه تعبها قال ثابت البناني رحمة الله كابدت الصلاة عشرين سنة وتنعمت بها عشرين سنة وقال الجنيد علامة المحبة دوام النشاط والدؤوب بشهوة يفتر بدنه ولا يفتر قلبه وكل هذا موجود المثال في المشاهدات فان المحب لا يستثقل السعي في مراد محبوبه ويستلذ خدمته بقلبه وان كان شاقاً على بدنه وكل حب قاهر لا محالة فمن كان محبوبه احب اليه من الكسل ترك الكسل في خدمته وان كان احب اليه من المال ترك المال في حبه ومنها ان يكون شفيقاً على جميع عباد الله رحيما بهم شديدا على اعدائه كما قال (اشداء على الكفار رحماء بينهم) ولا تأخذه في لله لومة لائم ولا يصرفه عن الغضب له صارف فهذه علامات المحبة فمن اجتمعت فيه فقد تمت محبته وصفي في الآخرة شرابه ومن امتزج بحبه حب غير الله ينعم في الآخرة بقدر حبه فيمزج شرابه بشيء من شراب المقربين كما قال عز وجل (ان الابرار لفي نعيم) الى قوله (يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون) فقوبل الخالص بالصرف والمشوب بالمشوب (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ومنها ان يكون في حبه خائفا تحت الهيبة والتعظيم فان الخوف لا يضاد المحبة وللخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم وبعضها اشد من بعض فاولها خوف الاعراض واشد منه خوف الحجاب واشد منه خوف الابعاد ، ومنها كتمان الحب واجتناب الدعوى والتوقي من اظهار الوجد

والمحبة تعظيما للمحبوب واجلالا له وهيبة وغيرة على سره فان الحب سر من اسرار الحبيب وقد يقع المحب في دهش وسكر فيظهر عليه الحب من غير قصد فهو في ذلك معذور كما قال بعضهم .

ومن قلبه مع غيره كيف حاله ومن سره في جفنه كيف يكتم

﴿ فصل في بيان معنى الأنس بالله والرضاء بقضاء الله عز وجل ﴾

اعلم ان من غلب عليه حال الانس لم تكن شهوته الا في الانفراد والخلوة لان الانس بالله يلازمه التوحش من غيره ويكون اثقل الاشياء على القلب كلما يعوق عن الخلوة قال عبد الواحد بن زيد قلت لراهب لقد اعجبتك الخلوة فقال لو ذقت حلاوة الخلوة لاستوحشت اليها من نفسك قلت متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى قال اذا صفى الود خلصت المعاملة قلت متى يصفو الود قال اذا اجتمع الهم فصارهما واحدا في الطاعة (فان قيل) ما علامة الانس قيل علامته الخاصة ضيق الصدر عن معاشرة الخلق والتبرم بهم وان خالط فهو كمنفرد غائب مخالط بالبدن منفرد بالقلب واعلم ان الانس اذا دام وغلب واستحكم قد يثمر نوعاً من الانبساط والادلال وقد يكون ذلك منكرا في الصورة لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة وان كان محتملا ممن اقيم مقام الانس واما اذا صدر ممن لا يفهم ذلك المقام اشرف به صاحبه على الكفر وذلك كما يروي عن ابي حفص انه كان يمشي يوما فاستقبله رجل مدهش فقال مالك قال ضل حماري ولا املك غيره فوقف ابو حفص وقال وعزتك لا اخطو خطوة مالم ترد عليه حماره فظهر الحمار، وروي عن برخ العابد انه خرج يستسقي

فقال يا رب انت بالبخل لا ترمى انفذ ما عندك اسقنا الساعة . ولا يستبعد ان يحتمل من شخص ما لم يحتمل من غيره واما الرضا بقضاء الله تعالى فهو من اعلى مقامات المقربين وهو من ثمار المحبة وحقيقته غامضة ولا ينكشف الأمر فيه الا لمن يفهمه عن الله تعالى ومن فضائل الرضاء ما ورد في الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « اذا اراد الله بعبد خيراً ارضاه بما قسم له » واوحى الله تعالى الى داود عليه السلام يا داود انك لن تلقاني بعمل هو ارضى لي عنك ولا احط لوزرك من الرضاء بقضائي ونظر علي بن ابي طالب رضي الله عنه الى عدي بن حاتم كئيباً فقال يا عدي ما لي اراك كئيباً حزيناً فقال وما يمنعني وقد قتل ابناي وفقئت عيني فقال يا عدي من رضي بقضاء الله جرى عليه وكان له اجر ومن لم يرض بقضاء الله جرى عليه وحبط عمله ، ودخل ابو الدرداء رضي الله عنه على رجل وهو يموت وهو يحمد الله فقال ابو الدرداء اصبت ان الله عز وجل اذا قضى قضاء احب ان يرضى به وقال ابن مسعود رضي الله عنه ان الله تعالى بقسطه وعلمه جعل الروح والفرح في اليقين والرضاء وجعل الهم والحزن في الشك والسخط وقال علقمة في قوله عز وجل (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) قال هي المصيبة تصيب الرجل فيعلم انها من عند الله فيسلم لها ويرضى ، وقال ابو معاوية الأسود في قوله تعالى (فلنحيينه حياة طيبة) قال الرضاء والقناعة وفي الحديث ان نبياً من الانبياء شكى الى ربه عز وجل الجوع والفقر عشر سنين فما أجيب الى ما أراد ثم أوحى الله اليه كم تشكو؟ هكذا كان بدؤك

عندي في أم الكتاب قبل أن أُخلق السموات والارض وهكذا سبق لك مني وهكذا قضيت عليك قبل ان اخلق الدنيا افتريد ان اعيد خلق الدنيا من أجلك ام تريد ان أبدل ما قدرت لك فيكون ما تحب فوق ما احب ويكون ما تريد فوق ما أريد وعزتي وجلالي لئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأَمحونك من ديوان النبوة ، وفي زبور داود عليه السلام هل تدري من اسرع الناس مراً على الصراط ؟ الذين يرضون بحكمي وألسنتهم رطبة من ذكري ، وقال داود عليه السلام يا رب اي عبادك ابغض اليك قال عبد استخارني في امر فخرت له فلم يرض ، وقال عمر بن عبد العزيز ما بقي لي سرور الا في مواقع القدر ٠ وقيل له ما تشتهي فقال ما يقضي الله عز وجل ، وقال الحسن من رضي بما قسم له وسعه وبارك الله فيه ومن لم يرض لم يسعه ولم يبارك له فيه ، وقال عبد الواحد بن زيد الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا ومستراح العابدين ، وقال بعضهم لن يرد الآخرة ارفع درجات من الراضين عن الله تعالى على كل حال فمن وهب له الرضاء فقد بلغ افضل الدرجات واصبح اعرابي وقد مات له اباعر كثيرة فقال :

لا والذي انا عبد في عبادته * لولا شماتة اعداء ذوي احن
ما سرني ان ابلي في مباركها * وان شيئاً قضاه الله لم يكن

فصـــل

ويتصور الرضا فيما يخالف الهوى وبيان ذلك اذا جرى على الانسان الا لم فتارة يحس به ويدرك المه ولكنه يكون راضيا به راغبا في زيادته

بعقله وان كان كارها له بطبعه لما يوصله من الثواب مثاله ان يلتمس من
الحجام الحجامة والفصد فانه يدرك ألم ذلك الا انه راض به وراغب فيه
ومتقلد منة الحجام، وكذلك كل من يسافر في طلب الربح فانه يدرك
مشقه السفر لكن حبه لثمرة سفره طيب عنده تلك المشقة وجعله راضياً
بها وكل من اصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين فانه يتوقع الأجر
فوق ما يأتيه فيرضي بما اصابه ويشكر الله تعالى عليه ويجوز ان يغلبه
الحب بحيث يكون حظ المحب في مراد محبوبه ويبطل الاحساس بالأَلم
لفرط الحب وليس ذلك بعجيب فان الرجل المحارب في حال غضبه او
خوفه تصيبه الجراحات ولا يحس بها ولا يشعر بها في تلك الحال وذلك
لان قلبه مستغرق واذا كان القلب مستغرقاً بامر من الامور لم يدرك
ما عداه وذلك موجود في المشاهدات قال الجنيد رحمه الله سألت سرياً
هل يجد المحب ألم البلاء قال لا، وقد روينا عن خلق كثير من اهل البلاء
انهم كانوا يقولون لو قطعنا ارباً ارباً ما ازددنا له الا حبا، وقد تقدم ان
فرط الحب يزيل احساس الالم وهو متصور في حب الخلق كما حكى
بعضهم قال كان في جيراننا رجل له جارية يحبها فاعتلت فجلس
يصلح لها حساء فبينا هو يحرك القدر قالت اوه فدهش وسقطت الملعقة من
يده وجعل يحرك القدر بيده حتى تساقطت اصابعه وهو لا يعلم
ويؤيد هذا قصة النسوة حين شاهدن يوسف عليه السلام فانهن قطعن
الايدي وما احسسن بالم فقد بان بما ذكرنا ان الرضى بما يخالف الهوى
ليس مستحيلا واذا كان ممكنا في حق الخلق وحظوظهم كان ممكنا في حق

الله سبحانه وحظوظ الآخرة بطريق الاولى وامكان ذلك في ثلاثة اوجه
احدها علم المؤمن بان تدبير الله تعالى خير من تدبيره وقال النبي صلى الله
عليه وسلم « ما قضى الله لمؤمن قضاء الا كان خيراله » وعن مكحول قال
سمعت ابن عمر رضي الله عنه يقول ان الرجل يستخير الله فيختار له فيسخط
فلا يلبث ان ينظر في العاقبه فاذا هو قد خير له ، وعن مسروق قال كان
رجل بالبادية له كلب وحمار وديك فالديك يوقظهم للصلاة والحمار ينقلون
عليه الماء ويحمل خباءهم والكلب يحرسهم فجاء الثعلب فاخذ الديك
فحزنوا فقال الرجل عسى ان يكون خيرا ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار
فحزنوا فقال الرجل عسى ان يكون خيرا ثم اصيب الكلب فقال الرجل
عسى ان يكون خيرا ثم اصبحوا ذات يوم فنظروا فاذا قد سبي من حولهم
وبقوا هم وانما اخذ اولئك بما كان عندهم من الصوت والجلبة ولم يكن عند
اولئك شيء يجلب قد ذهب كلبهم وحمارهم وديكهم ، وعن سعيد بن المسيب
قال قال لقمان لابنه يابني لا ينزلن بك امر رضيته او كرهته الا جعلت
في الضمير ان ذلك خير لك قال اما هذه فلا اقدر ان اعطيكها دون ان اعلم
ما قلت انه كما قلت قال يابني فان الله قد بعث نبيا هلم حتى نأتيه فعنده بيان
ما قلت لك قال اذهب بنا اليه فخرج على حمار وابنه على حمار وتزودا ما
يصلحهما ثم سارا اياماً وليالي حتى تلقتهما مفازة فاخذا اهبتهما ودخلاها
فسارا ما شاء الله ان يسيرا حتى تعالى النهار واشتد الحر ونفد الماء والزاد
فاستبطيا حماريهما فنزلا يمشيان فبينما هما كذلك اذ نظر لقمان امامه فاذا هو
بسواد دخان فقال في نفسه السواد شجر والدخان عمران وناس فبينما هما

كذلك يشهدان اذ وطئ ابن لقمان على عظم على الطريق فدخل في باطن قدمه حتى ظهر من اعلاها فخر مغشيا عليه فحانت من لقمان التفاته فاذا هو بابنه صريع فوثب اليه فضمه الى صدره واستخرج العظم باسنانه رشق عمامة كانت عليه فعصب رجله ثم نظر الى وجه ابنه فذرفت عيناه فقطرت قطرة من دموعه على خد الغلام فانتبه لها فنظر الى ابيه يبكي فقال يا ابه انت تبكي وانت تقول هذا خير لي فكيف ذلك وانت تبكي وقد نفذ الطعام والماء و بقيت انا وانت في هذا المكان قال اما بكائي يا بني فوددت اني افتديتك بجميع حظي من الدنيا ولكني والد ومني رقة الوالد واما قولك كيف يكون هذا خير الي فلعل ما صرف عنك اعظم مما ابتليت به ولعل ما ابتليت به اليه ايسر مما صرف عنك فبينما هو يحاوره اذ نظر لقمان امامه فلم ير الدخان والسواد فقال في نفسه لم أر شيئا ثم قال قد رأيت ولكن لعله ان يكون قد احدث ربي بما رأيت شيئا فبينما هو يتفكر في ذلك اذ نظر فاذا هو بشخص قد اقبل على فرس ابلق عليه ثياب بياض يمسح الهواء مسحاً فلم يزل يرمقه بعينيه حتى كان منه قريبا فتوارى عنه ثم صاح به فقال انت لقمان قال نعم قال ما قال لك ابنك هذا السفيه قال يا عبد الله من انت اسمع كلامك ولا ارى وجهك قال انا جبريل لا يراني الا ملك مقرب او نبي مرسل لو لا ذلك لرأيتني فما قال لك ابنك هذا السفيه قال اما علمت ذلك فقال جبريل مالي بشيء من امركما الا ان حفظتكما اتوني وقد امرني ربي تعالى بخسف هذه المدينة فدعوت ربي ان يحبسكما عني بما شاء فحبسكما عني بما ابتلى

بهُ ابنك ولو لا ذاك لخسف بكما مع من خسف به ثم مسح جبريل
عليه السلام بيده على قدم الغلام فاستوى قائماً ومسح يده
على الذي كان فيه الطعام فامتلأ طعاما ومسح على الذي كان فيه الماء
فامتلأ ماء ثم حملهما وحماريهما فرحل بهما كما يرحل الطير فاذا هما في
الدار التي خرجا منها بعد ايام وليالي « الوجه الثاني » الرضاء بالالم لما يتوقع من
الثواب المدخر كما تقدم من الرضاء بالفصد والحجامة وشرب الادية انتظاراً
للشفاء « الثالث » الرضاء به لا لحظ وراءه بل لكونه مراد المحبوب فيكون
ألذ الاشياء عنده ما فيه رضى محبوبه ولو كان في ذلك هلاك نفسه كما قال
بعضهم: فما لجرح اذا ارضاكم الم . وقد سبق ان الحب يستولي بحيث يدهش
عن ادراك الالم ولا ينبغي ان ينكر ذلك من فقده من نفسه لانه انما فقده
لفقد سببه وهو فرط حبه ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه ولعمري
ان من فقد السمع انكر لذة الالحان والنغمات فمن فقد القلب فلا بد ان
ينكر هذه أللذات التي لا مظنة لها سوى القلب .

فصل

واعلم ان الدعاء لا يناقض الرضاء وكذلك كراهة المعاصي ومقت
أهلها واسبابها والسعي في ازالتها اما الدعاء فقد تعبدنا الله تعالى به وقد
اثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله (يدعوننا رغباً ورهباً) ودعاء رسول الله
صلى الله عليه وسلم وغيره من الانبياء معلوم واما انكار المعاصي وعدم
الرضاء بها فقد تعبدنا الله تعالى بها وذم الراضي بها وكذلك بغض الكفار

والفجار والانكار عليهم وشواهد ذلك في القرآن والاخبار كثيرة جدا (فان قيل) فقد وردت الاخبار بالرضا بقضاء الله تعالى فان كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو محال وان كانت بقضائه فكراهتها كراهة لقضائه فكيف الجمع بين هذين الحالين فاعلم ان هذا مما يلتبس على القاصرين على الوقوف باسرار العلم حتى التبس على قوم فرأوا السكوت عن الانكار مقاما من مقامات الرضاء وسموه حسن الخلق وهو جهل محض بل نقول الرضاء و الكراهة يتضادان اذا تواردا من شيء واحد من جهة واحدة على وجه واحد فاما اذا رضيت بشيء من وجه و كرهته من وجه آخر فليس ذلك بتضاد نحو ان يموت عدوك الذي هو ايضا عدو لبغض اعدائك وساع في اهلاكه فتكره موته من حيث انه مات عدو عدوك وترضاه من حيث انه عدوك و كذلك للمعصية وجهان وجه الى الله تعالى من حيث انها اختياره وارادته فترضى بها من هذا الوجه تسليما للملك الى مالك الملك ووجه الى العبد من حيث انه كسبه ووصفه وعلامة لكونه ممقوتا عند الله تعالى و بغيضا عنده حيث سلط عليه اسباب البعد والمقت فهو من هذا الوجه منكر ومذموم ولا ينكشف هذا الا بمثال فلنفرض محبوبا من الخلق قال بين يدي محبه اني اريد ان اميز بين من يحبني و يبغضني وانصب لذلك معياراً صادقاً وهو اني اقصد الى فلان فاضربه ضربا شديدا يضطره ذلك الى الشتم لي حتي اذا شتمني ابغضته واتخذته عدوا فكل من احبه علمت انه ايضا عدو لي وكل من ابغضه علمت انه محبي وصديقي ثم فعل ذلك حصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض وحصل البغض الذي هو

سبب العداوة فحق على كل من هو صادق في محبته ان يقول اما تدبيرك في ضرب هذا الشخص واذاه فانا محب له فانه رأيك وفعلك واما شتمه اياك من حيث نسبته الى هذا الشخص فانه عدوان منه وتهجم عليك فانا كاره له من حيث نسبته اليه اذا كان حقه ان يصبر ولا يشتم فكذلك تسليط الله سبحانه وتعالى دواعي الشهوة والمعاصي على العبد وبغضه على عصيانه فواجب على كل عبد محب لله ان يبغض من ابغضه الله عز وجل ويعادي من عاداه وابعده عن حضرته وان اضطره بقهره وقدرته الى معاداته ومخالفته فانه بعيد مطرود والمبعد عن درجات القرب ينبغي ان يكون بغيضا الى جميع المحبين موافقة لمحبوبهم باظهار الغضب على من اظهر المحبوب الغضب عليه بابعاده وبهذا يتقرر جميع ما وردت به الاخبار من البغض في الله والحب في الله والتشديد على الكفار والتغليظ عليهم والمبالغة في مقتهم مع الرضاء بقضاء الله تعالى من حيث انه قضاؤه وهذا كله يستمد من سر القدر الذي لا رخصة في افشائه وهو ان الخير والشر كلاهما داخلان في المشيئة والادارة ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضي به · والاولى السكوت والتأدب بادب الشرع والوقوف مع ما تعبد به الخلق من الجمع بين الرضاء بقضاء الله تعالى ومقت المعاصي والله تعالى اعلم · ومما يتعلق بالمحبة قيل اوحى الله تعالى الى داود عليه السلام لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي الى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً الي وتقطعت اوصالهم من محبتي يا داود هذه ارادتي في المدبرين عني فكيف ارادتي في المقبلين عليّ يا داود احوج ما يكون العبد اذا استغنى عني واجل ما يكون

عندي اذا رجع الي . وكانت امرأة متعبدة تقول والله لقد سئمت الحياة حتى لو وجدت الموت يباع لاشتريته شوقاً الى الله تعالى وحباً للقائه فقيل لها فعلى ثقة انت من عملك قالت لا ولكني لحبي اياه وحسن ظني به افتراه يعذبني وانا احبه

﴿ باب في النية والاخلاص والصدق ﴾

اعلم انه قد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الايمان وانوار القرآن انه لا وصول الى السعادة الا بالعلم والعبادة ، فالناس كلهم هلكى الا العالمون والعالمون كلهم هلكى الا العاملون والعاملون كلهم هلكى الا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم ، والعمل بغير نية عناء والنية بغير اخلاص رياء والاخلاص من غير تحقيق هباء قال الله تعالى (وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ، وليت شعري كيف تصلح نية من لا يعرف حقيقة النية ، او كيف يخلص من صحح النية اذا لم يعرف حقيقة الاخلاص او كيف يطالب المخلص نفسه بالصدق اذا لم يتحقق معناه فالوظيفة الأولى على كل عبد اراد طاعة الله تعالى ان يعلم النية اولا لتحصل له المعرفة ثم يصححها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والاخلاص اللذين هما وسيلتان للعبد الى النجاة ونحن نذكر ذلك في ثلاثة فصول

﴿ الفصل الاول في النية وحقيقتها وفضلها وما يتعلق بذلك ﴾

قال الله تعالى (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) والمراد بالارادة النية ، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « انما الاعمال بالنية وانما

لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه » وعن ابي موسى قال جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال يا رسول الله أرأيت الرجل يقاتل شجاعة و يقاتل حمية ويقاتل رياء اي ذلك في سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو في سبيل الله اخرجاه في الصحيحين وعن جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد خلفتم بالمدينة رجالا ما قطعتم واديا ولا سلكتم طريقا الا شركوكم في الأجر حبسهم المرض» اخرجه مسلم واخرجه البخاري من حديث انس وفي الصحيحين من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة » وعن ابي كبشة الانصاري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مثل هذه الامة مثل اربعة نفر رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل به في ماله ينفقه في حقه ، ورجل آتاه الله علما ولم يوءته مالا وهو يقول لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهما في الأجر سواء ، ورجل آتاه الله مالا ولم يوءته علما فهو يخبط فيه ينفقه في غير حقه ، ورجل لم يوءته مالا ولا علما فيقول لو كان لي مثل هذا عملت فيه مثل الذي يعمل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فهما في الوزر سواء » وعن ابي عمران الجوني قال : تصعد الملائكة بالاعمال فينادى الملك الق تلك الصحيفة قال فتقول الملائكة ربنا قال خيرا

وحفظناه عليه فيقول تبارك وتعالى انه لم يرد به وجهي قال وينادي الملك اكتب لفلان كذا وكذا مرتين فيقول يا رب انه لم يعمله فيقول عز وجل انه قد نواه ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : افضل الاعمال اداء ما افترض الله تعالى والورع عما حرم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله تعالى ، وكان بعضهم يقول دلوني على عمل لا ازال به عاملا لله تعالى فقيل له انو الخير فانك لا تزال عاملا وان لم تعمل فالنية تعمل وان عدم العمل فانه من نوى ان يصلي بالليل فنام كتب له ثواب ما نوى ان يفعله وقد جاء في الحديث « ما من رجل يكون له ساعة من الليل يقومها فينام عنها الا كتب له اجر صلاته وكان نومه صدقة تصدق بها عليه » وقد جاء في الحديث « نية المؤمن خير من عمله » والنية والارادة والقصد عبارات متواردة معنى واحد . واعلم ان الاعمال تنقسم الى ثلاثة اقسام : الاول المعاصي فلا تتغير عن موضعها بالنية مثل من يبني مسجدا بمال حرام يقصد بذلك الخير فان النية لا تؤثر فيه فان قصد الخير بالشر شر آخر فان الخيرات انما تعرف كونها خيرات باشرها فكيف يمكن ان يكون الشر خيرا هيهات؟ واعلم ان من تقرب من السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام كان كتقرب علماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والاشرار المشغولين بالفسق فان هؤلاء اذا تعلموا كانوا قطاع طريق الله تعالى يتكالبون على الدنيا ويتبعون الهوى ووبال ذلك راجع الى معلمهم اذا علم فساد نياتهم ومقاصدهم ومن هذا القبيل تعلم القصاص القصص فان مقاصد اكثرهم معروفة وقصدهم اجتلاب الدنيا واخذ الاموال كيف اتفق فتعليمهم اعانة على

الفساد فقد علمت ان الطاعة تنقلب معصيته بالقصد واما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد اصلا بل اذا انضاف اليها قصد خبيث تضاعف وزرها وعظم وبالها (القسم الثاني) الطاعات وهي مرتبطة بالنيات في اصل صحتها وفي تضاعف فضلها، اما الأصل فهو ان ينوي عبادة الله تعالى لا غير فان نوى الرياء صارت معصية، واما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة فان الطاعة الواحدة يمكن ان ينوي بها خيرات كثيره فيكون له بكل نية ثواب اذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل حسنة عشر امثالها. مثال ذلك القعود في المسجد فانه طاعة ويمكن ان ينوي بها نيات كثيرة منها ان ينوي بدخوله انتظار الصلاة ومنها الاعتكاف وكف الجوارح فان الاعتكاف كف ومنها دفع الشواغل الصارفة عن الله تعالى بالانقطاع الى المسجد والى ذكر الله تعالى فيه ونحو ذلك فهذا طريق تكثير النيات فقس على ذلك سائر الطاعات اذ ما من طاعة الا وتحتمل نيات كثيرة (القسم الثالث) المباحات فما من شيء من المباحات الا ويحتمل نية او نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالي الدرجات فما اعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة ولا ينبغي ان يحتقر العبد الخطرات والخطوات واللحظات فكل ذلك يسال عنه في القيامة لم فعله وما الذي قصد به ؟ مثال ما ينوى به القربة من المباحات ان يتطيب وينوي بالطيب السنة او احترام المسجد ورفع الروائح الكريهة التي تؤذي مخالطيه وقال الشافعي رحمه الله من طاب ريحه زاد

عقله وكذلك معالجة رأسه تزيد فطنته وذكاوءه فيسهل عليه ادراك مهمات دينه ، وقال بعض السلف اني لاستحب ان يكون لي في كل شيء نية حتى في اكلي وشربي ونومي ودخولي الخلاء وكل ذلك مما يمكن ان يقصد به التقرب الى الله تعالى لان كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات الدين فمن قصد من الاكل التقوى على العبادة ومن النكاح تحصين دينه وتطييب قلب اهله والتوصل الى ولد يعبد الله بعده اثيب على ذلك كله ولا تحتقر شيئاً من حركاتك وكلماتك وحاسب نفسك قبل ان تحاسب وصحح نيتك قبل ان تفعل ما تفعله وانظر في نيتك فيما تتركه ايضا

واعلم ان النية هي انبعاث النفس وميلها الى ما ظهر لها انه مصلحة لها اما في الحال او المآل وربما سمع بعض الجهال ما أوصينا به من تحسين النية فقال عند اكله نويت أن آكل لله او عند قراءته نويت ان اقرأ لله وظن ان ذلك نية وليس كذلك انما النية انبعاث القلب ويجري مجرى الفتوح من الله تعالى وليست النية داخلة تحت الاختيار فقد تتيسر في بعض الاوقات وقد تتعذر وانما تتيسر في الغالب لمن قلبه يميل الى الدين دون الدنيا والناس في النيات على اقسام منهم من يكون عمله للطاعة اجابة لباعث الخوف ، ومنهم من يكون عمله لباعث الرجاء وثمة مقام ارفع من هذين وهو أن يعمل الطاعة على نية جلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية وهذا لا يتيسر لراغب في الدنيا وهي اعز النيات واعلاها وقليل من يفهمها فضلا عن ان يتعاطاها وصاحب هذا

المقام لا يجاوز ذكر الله تعالى والفكر في جلاله حياله ، وقد حكى احمد ابن حضوريه انه رأى رب العزة في منامه فقال له كل الناس يطلبون مني وابو يزيد يطلبني وغرضنا من هذه النيات متفاوتة في الدرجات ومن غلب على قلبه واحدة منها فربما لم يتيسر له العدول الى غيرها، ومن حضرت له نية في المباح ولم يحضر في فضيلة فالمباح اولى وانتقلت الفضيلة اليه مثال ذلك ان تحضره نية في الاكل والنوم ليتقوى بذلك على العبادة ويريح بدنه ولم ينبعث نيته في الحال الى الصلاة والصوم ، فالاكل والنوم افضل بل لو مل العبادة لكثرة مواظبته عليها وعلم انه لو ترفه ساعة بمباح عاد نشاطه فذلك افضل من التعبد قال علي عليه السلام: روحوا القلوب واطلبوا لها طرف الحكمة فانها تمل كما تمل الابدان وقال بعضهم روحوا القلوب تعي الذكر وفي هذا دقائق لا تدركها الا بممارسة العلماء فان الحاذق في الطب قد يعالج المحرور باللحم مع حرارته ويستبعد ذلك القاصر في الطب وانما يبتغي به ان تعود قوته ليحتمل المعالجة وكذلك الخبير بالقتال قد يفر من بين يدي قرينه حيلة منه ليستجره الى مضيق فسلوك طريق الله تعالى كله حرب مع الشيطان ومعالجة للقلب والمبصر الموفق يقف في تلك الطريق على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء فلا ينبغي لهم استبعاد ما خفي عليهم بل يسلمون لأصحاب الاحوال الى ان ينكشف لهم اسرار ذلك او ينالوا ذلك المقام .

﴿ الفصل الثاني في الاخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته ﴾

قال الله تعالى (وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) وقال الا

لله الدين الخالص) وغير ذلك من الآيات وقال النبي صلى الله عليه آله وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه «اخلص دينك يكفك القليل من العمل» وفي حديث عن انس رضي الله عنه « اذا كان يوم القيامة جاءت الملائكة بصحف مختمة فيقول الله عز وجل القوا هذا واقبلوا هذا فتقول الملائكة وعزتك ما كتبنا الا ما كان فيقول ان هذا كان لغيري ولا اقبل اليوم الا ما كان لي» وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ان الملائكة يرفعون عمل العبد فيكثرونه ويزكونه فيوحي الله تعالى اليهم انتم حفظة على عمل عبدي وانا رقيب على ما في نفسه ان عبدي لم يخلص لي عمله فاجعلوه في سجين ويصدرون بعمل العبد يستقلونه فيوحى اليهم الكم حفظة على عبدي وانا رقيب على ما في نفسه ان عبدي لم يخلص لي عمله فاجعلوه في سجين ويصدرون بعمل العبد يستقلونه فيوحي اليهم انكم حفظة على عبدي وانا رقيب على ما في نفسه فضاعفوه واجعلوه في عليين ، وروي عن الحسن قال كانت شجرة تعبد من دون الله فجاء اليها رجل فقال لاقطعن هذه الشجرة فجاء اليها ليقطعها غضباً لله فلقية الشيطان في صوره انسان فقال ما تريد قال اريد ان اقطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله قال اذا انت لم تعبدها فما يضرك من عبدها ؟ قال لاقطعنها فقال له الشيطان هل لك فيما هو خير لك من ذلك لا تقطعها ولك ديناران كل يوم اذا اصبحت عند وسادتك قال فمن لي بذلك قال انا لك فرجع فاصبح فوجد عند وسادته دينارين ثم اصبح بعد فلم يجد شيئاً فقام غضبان ليقطعها فتمثل له الشيطان في صورته فقال ما تريد قال

اريد ان اقطع هذه الشجرة التي تعبد من دون الله قال كذبت ما لك الى قطعها سبيل فذهب ليقطعها فضرب به الارض وخنقه حتى كاد يقتله ثم قال اتدري من انا فاخبره انه الشيطان وقال جئت اول مرة غضباً لله فلم يكن لي عليك سبيل فخدعتك بالدينارين فتركتها فلما فقدتهما جئت غضباً للدينارين فسلطت عليك، وكان معروف الكرخي يضرب نفسه ويقول يا نفس اخلصي وتخلصي، وقال ابو سليمان طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها الا الله تعالى، وحكي ان رجلاً كان يخرج في زي النساء فيحضر حيث يحضرن من عرس او مأتم فاتفق انه حضر يوماً موضعاً فيه مجمع النساء فسرقت درة فصاحوا اغلقوا الباب حتى نفتش ففتشوا واحدة واحدة حتى بلغت النوبة الى الرجل والى امرأة معه فدعى الله بالاخلاص وقال ان نجوت من هذه الفضيحة لا اعود الى مثل هذا فوجدت الدرة مع تلك المرأة فصاحوا اطلقوا الحرة فقد وجدنا الدرة .

﴿ بيان حقيقة الاخلاص ﴾

اعلم ان كل شيء يتصور ان يشوبه غيره فاذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي اخلاصا والاخلاص يضاده الاشراك فمن ليس مخلصا فهو مشرك الا ان الشرك درجات فالاخلاص في التوحيد يضاده الشرك في الالهية والشرك منه جلي ومنه خفي وكذلك الاخلاص وقد ذكرنا درجات الرياء فيما تقدم في بابه وانما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر اما من الرياء او من غيره من حظوظ النفس

ومثال ذلك ان يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب او يعتق عبداً ليتخلص من موئنته وسوء خلقه أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر او للتخلص من شر يعرض له او يغزوا ليمارس الحرب ويتعلم اسبابها او يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه ليراقب رحله واهله او يتعلم العلم ليسهل عليه طلب مايكفيه من المال او يشتغل بالتدريس ليفرح بلذة الكلام ونحو ذلك فمتى كان باعثه التقرب الى الله تعالى ولكن انضاف اليه خاطر من هذه الخواطر حتى صار العمل اخف عليه بسبب هذه الامور فقد خرج عمله عن حد الاخلاص، والانسان قل ما ينفك فعل من افعاله وعبادة من عباداته عن شيء من هذه الامور فلذلك قيل من سلم له في عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله تعالى نجى و ذلك لعزة الاخلاص وعسر تنقية القلب من هذه الشوائب لان الخالص هو الذي لا باعث عليه الا طاب القرب من الله تعالى قيل لسهل اي شيء اشد على النفس قال الاخلاص اذ ليس لها فيه نصيب

واعلم ان الشوائب المكدرة للاخلاص متفاوتة بعضها جلي وبعضها خفي وقد ذكرنا درجات الرياء في بابه ومن الرياء ما هو أخفى من دبيب النمل فليطاب هناك وحاصله ان ما دام العامل يفرق بين مشاهدة الانسان والبهيمة في حالة من العمل فهو خارج عن صفو الاخلاص ولا يسلم من الشيطان الا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وقد قيل ركعتان من عالم افضل من سبعين ركعة من جاهل واريد به العالم بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها والجاهل ينظر الى ظاهر

العبادة وقيراط من الذهب الذي يرتضيه الناقد خير من دينار يرتضيه الغر الغبي .

﴿ فصل في حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به ﴾

اما العمل الذي لا يريد به الا الرياء فهو على صاحبه لا له وهو سبب للعقاب كما ان العمل الخالص لوجه الله تعالى سبب للثواب ولا اشكال في هذين القسمين وانما النظر في العمل المشوب الممتزج بشوب الرياء وحظوظ النفس . وقد اختلف الناس في ذلك هل يقتضي ثواباً او عقاباً او لا يقتضي شيئاً اصلا وليس تخلو الاخبار عن تعارض في ذلك . والذي يتضح لنا فيه والعلم عند الله تعالى ان ننظر الى قدر قوة البواعث فان كان الباعث الديني مساوياً للباعث النفساني تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه وان كان باعث الرياء اقوى ضر واوجب العقاب لكن عقابه دون عقاب من تجرد للرياء ، وان كان الباعث الديني اقوى من الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوته ، قال الله تعالى (ان الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها) ويشهد لما ذكرنا اجماع الامة على ان من خرج حاجاً ومعه تجارة صح حجه واثيب عليه وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس الا انه متى كان الحج هو المحرك الاصلي لم ينفك السفر عن ثواب وكذلك الغازي اذا قصد الغزو والغنيمة ويكون قصد الغنيمة على سبيل التبع حصل له الثواب ولكنه لا يساوي ثواب من لا يلتفت الى الغنيمة اصلا والله تعالى اعلم

﴿ الفصل الثالث في الصدق وحقيقته وفضله ﴾

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عليكم بالصدق فان الصدق يهدي الى البر وان البر يهدي الى الجنة وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً » رواه البخاري ومسلم ، وقال بشر الحافي من عامل الله بالصدق استوحش من الناس ، واعلم ان لفظ الصدق قد يستعمل في معان :

« احدها الصدق في القول » فحق على كل عبد ان يحفظ ألفاظه ولا يتكلم الا بالصدق ، والصدق باللسان هو اشهر انواع الصدق واظهرها وينبغي ان يحترز عن المعاريض فانها تجانس الكذب الا ان تمس الحاجة اليه وتقتضيه المصلحة في بعض الاحوال وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم اذا اراد غزوة ورى بغيره لئلا ينتهي الخبر الى الاعداء فيتهيأوا لقتاله وقال صلى الله عليه وآله وسلم « ليس بكاذب من اصلح بين اثنين فقال خيرا او نمى خيرا » وينبغي ان يراعي معنى الصدق في الفاظه التي يناجي بها ربه كقوله : وجهت وجهي للذى فطر السموات والارض ، فان كان قلبه منصرفا عن الله مشغولا بالدنيا فهو كاذب

« الثاني الصدق في النية والارادة » وذلك يرجع الى الاخلاص فان مازج عمله شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز ان يكون كاذباً كما في حديث الثلاثة العالم والقاريء والمجاهد لما قال القاريء قرأت القرآن الى آخره انما كذبه في ارادته ونيته لا في نفس القراءة وكذلك صاحباه

« الثالث الصدق في العزم والوفاء به » اما الاول فنحو ان يقول ان آتاني الله مالا تصدقت بجميعه فهذه العزيمة قد تكون صادقة وقد يكون فيها تردد ، واما الثاني فنحو ان يصدق في العزم وتسخو النفس بالوعد لانه لا مشقة فيه اذا تحققت الحقائق وانحلت العزيمة وغلبت الشهوة ولذلك قال الله تعالى (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) وقال في آية اخرى (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن) الى قوله (وبما كانوا يكذبون .)

« الرابع الصدق في الاعمال » وهي ان تستوي سريرته وعلانيته حتى لا تدل اعماله الظاهرة من الخشوع ونحوه على امر في باطنه ويكون الباطن بخلاف ذلك قال مطرف اذا استوت سريرة العبد وعلانيته قال الله عز وجل هذا عبدي حقا

« الخامس الصدق في مقامات الدين » وهو اعلى الدرجات كالصدق في الخوف والرجاء والزهد والرضا والحب والتوكل فان هذه الامور لها مباد ينطلق عليها الاسم بظهورها ثم لها غايات وحقائق فالصادق المحقق من نال حقيقتها واذا غلب الشيء وتمت حقيقته سمي صادقا قال الله تعالى (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر) الى قوله (اولئك الذين صدقوا) وقال تعالى (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) الى قوله (اولئك هم الصادقون) ولنضرب للخوف مثلا فنقول ما من عبد يؤمن بالله الا وهو خائف من الله خوفا ينطلق عليه الاسم وهو غير بالغ الى درجة الحقيقة الا تراه اذا خاف سلطانا كيف يصفر ويرتعد خوفا

من وقوع المحذور ثم انه يخاف النار ولا يظهر عليه شيء
من ذلك عند فعل المعصية ولذلك قال عامر بن عبد قيس
عجبت للجنة نام طالبها وعجبت للنار نام هاربها والتحقيق في هذه الامور
عزيز جدا فلا غاية لهذه المقامات حتى ينال تمامها ولكن لكل حظ بحسب
حاله اما ضعيف واما قوي فاذا قوي سمي صادقا واذا علم الله من عبد صدقا
صغ له والصادق في جميع هذه المقامات عزيز وقد يكون للعبد صدق في
بعضها دون بعض ومن علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات
جميعا وكراهة اطلاع الخلق على ذلك ·

﴿ باب في المحاسبة والمراقبة ﴾

قال الله تعالى (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا) الى
قوله (ويحذركم الله نفسه) وقال (ونضع الموازين القسط) الى قوله
(وكفى بنا حاسبين) وقال (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه)
الى قوله (ولا يظلم ربك احدا) وقال (يومئذ يصدر الناس اشتاتا ليروا
اعمالهم) الى آخرها فاقتضت هذه الآيات وما اشبهها خطر الحساب في
الآخرة وتحقق ارباب البصائر انه لا ينجيهم من هذه الاخطار الا لزوم
المحاسبة لانفسهم وصدق المراقبة فمن حاسب نفسه في الدنيا خف في
القيامة حسابه وحسن منقلبه ومن اهمل المحاسبة دامت خسرانه فلما علموا
انهم لا ينجيهم الا الطاعة وقد امرهم الله تعالى بالصبر والمرابطة فقال (يا
ايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا) فرابطوا انفسهم اولا بالمشارطة
ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبه ثم بالمجاهدة ثم بالمعاتبة فكانت لهم في

المرابطة ست مقامات واصلها المحاسبة لكن كل حساب يكون بعد مشارطة ومراقبة ، و يتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة ولا بد من شرح ذلك المقام ·

﴿ المقام الأول المشارطة ﴾

اعلم ان التاجر كما يستعين بشريكه في التجارة طلباً للربح و يشارطه ويحاسبه كذلك العقل يحتاج الى مشاركة النفس و يوظف عليها الوظائف و يشرط عليها الشروط و يرشدها الى طريق الفلاح ثم لا يغفل عن مراقبتها فانه لا يأمن خيانتها وتضييعها رأس المال ثم بعد الفراغ ينبغي ان يحاسبها و يطالبها بالوفاء بما شرط عليها فان هذه التجارة ربحها الفردوس الاعلى فتدقيق الحساب في هذا مع النفس اهم من تدقيقه بكثير من ارباح الدنيا فحتم على كل ذي عزم آمن بالله واليوم الآخر ان لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها فان كل نفس من انفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها ·

فاذا فرغ العبد من فريضة الصبح ينبغي ان يفرغ قلبه ساعة لمشارطة نفسه فيقول للنفس مالي بضاعة الا العمر فاذا فني مني رأس المال وقع اليأس من التجارة وطلب الربح وهذا اليوم الجديد قد امهلني الله فيه وأخر اجلي وانعم عليّ به ولو توفاني لكنت اتمنى ان يرجعني الى الدنيا حتى اعمل صالحاً فاحسبي يا نفس انك قد توفيت ثم رددت فاياك اياك ان تضيعي هذا اليوم واعلمي ان اليوم والليلة اربع وعشرون ساعة وان العبد ينشر له بكل يوم اربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة

فيراها مملوءة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة فيحصل له من السرور بمشاهدة تلك الانوار ما لو وزع على اهل النار لادهشتهم عن الاحساس بألم النار ، و يفتح له خزانة اخرى سوداء مظلمة يفوح ريحها و يغشاه ظلامها وهي الساعة التي عصى الله تعالى فيها فيحصل له من الفزع والخزي ما لو قسم على اهل الجنة لنقص عليهم نعيمهم ، ويفتح له خزانة اخرى فارغه ليس فيها ما يسوؤه ولا يسره وهي الساعة التي نام فيها او غفل او اشتغل بشيء من المباح فيتحسر على خلوها و يناله ما نال القادر على الربح الكثير اذا اهمله حتى فاته وعلى هذا تعرض عليه خزائن اوقاته طول عمره فيقول لنفسه اجتهدي اليوم في ان تعمري خزانتك ولا تدعيها فارغة ولا تميلي الى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك قال بعضهم هب ان المسيء قد عفي عنهُ اليس قد فاته ثواب المحسنين فهذه وصيته في نفسه في اوقاته ثم يستأنف لها وصية اخرى في اعضائه السبعة وهي : العين والاذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل وتسليمها الى النفس فانها رعايا خادمة لها في هذه التجارة المخلدة بها يتم اعمالها ويعلمها ان ابواب جهنم سبعة على عدد هذه الاعضاء فتعيين تلك الابواب لمن عصى الله تعالى بهذه الاعضاء فيوصيها بحفظها عن معاصيها (اما العين) فيحفظها عن النظر الى ما لا يحل النظر اليه او الى مسلم بعين الاحتقار وعن كل فضول مستغنٍ عنه ويشغلها بما فيه تجارتها وربحها وهو النظر الى ما خلقت له من عجائب صنع الله تعالى بعين الاعتبار والنظر الى اعمال الخير في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه

وآله وسلم ومطالعة كتب الحكم للاتعاظ والاستفادة وهكذا ينبغي ان يتقدم الى كل عضو بالوصية بما يليق به لا سيما اللسان والبطن ، وقد ذكرنا آفات اللسان فيما تقدم فيشغله بما خلق له من الذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وارشاد عباد الله تعالى الى طريق الله واصلاح ذات البين الى غير ذلك من الخير .

واما البطن فيكلفه ترك الشره واجتناب الشبهات والشهوات ويقتصر على قدر الضرورة ويشترط على نفسه ان خالفت شيئاً من ذلك ان يعاقبها بالمنع من شهوات البطن ليفوتها اكثر مما نالت بشهوتها وهكذا في جميع الاعضاء والاستقصاء ذلك يطول وما تخفى طاعات الاعضاء ومعاصيها .

ثم يستأنف وصيتها في وظائف العبادات التي تكرر في اليوم والليلة في النوافل التي يقدر عليها وعلى الاستكثار منها وهذه شروط يفتقر اليها كل يوم الى ان تتعود النفس ذلك فيستغنى عن المشارطة ولكن لا يخلو كل يوم من حادثة لها حكم جديد لله تعالى عليه في ذلك حق ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من اعمال الدنيا من ولاية او تجارة او نحو ذلك اذ قل ان يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج الى ان يقضي حق الله فيها فعليه ان يشرط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق ، وعن شداد بن اوس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » وقال عمر رضي الله عنه : حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا ، وزنوها قبل

ان توزنوا وتهيؤا للعرض الاكبر يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية

﴿ المقام الثاني المراقبة ﴾

اذا أوصى الانسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه لم يبق الا المراقبه لها وملاحظتها وفي الحديث الصحيح في تفسير الاحسان لما سئل عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ان تعبد الله كانك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك. اراد بذلك استحضار عظمة الله ومراقبته في حال العبادة قيل دخل الشبلي على ابي الحسين الثوري وهو قاعد ساكن لا يتحرك من ظاهره شيء فقال له من أين اخذت هذه المراقبة والسكون فقال من سنور كانت لنا اذا ارادت الصيد رابطت رأس الجحر حتى لا يتحرك لها شعرة. وينبغي ان يراقب الانسان نفسه قبل العمل وفي العمل هل حركه عليه هوى النفس او المحرك له هو الله تعالى خاصة فان كان الله تعالى امضاه والا تركه وهذا هو الاخلاص قال الحسن: رحم الله عبداً وقف عند همه فان كان لله مضى وان كان لغيره تأخر. فهذه مراقبة العبد في الطاعة وهو ان يكون مخلصاً فيها، ومراقبته في المعصية تكون بالتوبة والندم والاقلاع، ومراقبته في المباح تكون بمراعاة الادب والشكر على النعم فانه لا يخلو من نعمة لا بد له من الشكر عليها ولا يخلو من بلية لا بد له من الصبر عليها وكل ذلك لا يخلو من المراقبة وقال وهب بن منبه في حكمة آل داود حق على العاقل ان لا يشتغل عن اربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يفضي فيها الى اخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه وساعة يخلي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ولا يحرم فان هذه

الساعة عون على هذه الساعات واجمام للقوة وهذه التي هو مشغول فيها بالمطعم والمشرب لا ينبغي ان تخلو عن عمل هو من افضل الاعمال وهو الذكر والفكر فان الطعام الذي يتناوله فيه من العجائب ما لو تفكر فيه كان افضل من كثير من اعمال الجوارح

﴿ المقام الثالث المحاسبة بعد العمل ﴾

قال الله تعالى (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد) وهذه اشارة الى المحاسبة بعد مضي العمل ولذلك عمر رضى الله عنه حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا، و قال الحسن المؤمن قوّام على نفسه يحاسب نفسه، وقال ان المؤمن يفجاه الشيء يعجبه فيقول والله اني لاشتهيك وانك لمن حاجتي ولكن و الله ما من حيلة اليك هيهات حيل بيني وبينك ويفرط منه الشيء فيرجع الى نفسه فيقول ما اردت الى هذا مالي ولهذا والله لا اعود الى هذا ابدا ان شاء الله. ان المؤمنين قوم او ثقهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم ان المؤمن اسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله عز وجل يعلم انه مأخوذ عليه في سمعه و في بصره وفي لسانه وفي جوارحه مأخوذ عليه في ذلك كله

واعلم ن العبد كما ينبغي ان يكون له وقت في اول النهار يشارط فيه نفسه كذلك ينبغي ان يكون له ساعة يطالب فيه نفسه في آخر النهار ويحاسبها على جميع ما كان منها كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة او شهر او يوم ومعنى المحاسبة ان تنظر في رأس المال وفي الربح وفي الخسران لتتبين له الزيادة من النقصان فرأس المال في دينه

الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي وليحاسبها اولا على الفرائض وان ارتكب معصية اشتغل بعقابها ومعاتبتها ليستوفي منها ما فرط قيل كان ثوبة بن الصمة بالرقة وكان محاسباً لنفسه فحسب يوما فاذا هو ابن ستين سنة فحسب ايامها فاذا هي احد وعشرون الف يوم وخمسمائة يوم فصرخ وقال يا ويلتا القى الملك باحد وعشرين الف ذنب وخمسمائة ذنب كيف وفي كل يوم عشرة الاف ذنب ثم خرّ مغشياً عليه فاذا هو ميت فسمعوا قائلاً يقول يا لها ركضة الى الفردوس الاعلى فهكذا ينبغي للعبد ان يحاسب نفسه على الانفاس وعلى معصية القلب والجوارح في كل ساعة فان الانسان لو رمى بكل معصية يفعلها حجراً في داره لامتلأت داره في مدة يسيرة ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي عليه وهي مثبتة احصاه الله ونسوه

﴿ المقام الرابع معاقبة النفس على تقصيرها ﴾

اعلم ان المريد اذا حاسب نفسه فرأى منها تقصيراً او فعلت شيئاً من المعاصي فلا ينبغي ان يهملها فانه يسهل عليه حينئذ مقارفة الذنوب ويعسر عليه فطامها بل ينبغي ان يعاقبها عقوبة مباحة كما يعاقب اهله وولده وكما روي عن عمر رضي الله عنه انه خرج الى حائط له ثم رجع وقد صلى الناس العصر فقال انما خرجت الى حائطي ورجعت وقد صلى الناس العصر. حائطي صدقة على المساكين. قال الليث انما فاتته في الجماعة ورويناعنه انه شغله امر عن المغرب حتى طلع نجمان فلما صلاها اعتق رقبتين، وحكي ان تميم الداري رضى الله عنه نام ليلة لم يقم يتهجد فيها حتى اصبح فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذي صنع، ومر حسان بن سنان بغرفة فقال متى بنيت هذه

ثم اقبل على نفسه فقال تسألين عما لا يعنيك لأُعاقبنك بصوم سنة فصامها
فاما العقوبات بغير ذلك مما لا يحل فيحرم عليه فعله مثال ذلك ما حكي
ان رجلا من بني اسرائيل وضع يده على فخذ امرأة فوضعها في النار حتى
شلت، وان آخر حول رجله لينزل الى امرأة ففكر وقال ماذا اردت ان
اصنع فلما اراد ان يعيد رجله قال هيهات رجل خرجت الى معصية الله
لا ترجع معي فتركها حتى تقطعت بالمطر والرياح ، وان اخر نظر الى
امرأة فقلع عينيه فهذا كله محرم وانما كان جائزاً في شريعتهم وقد
سلك نحو ذلك خلق من اهل ملتنا حملهم على ذلك الجهل بالعلم كما حكي عن
عزوان الزاهد انه نظر الى امرأة فلطم عينه حتى نفرت ورويناعن بعضهم
انه اصابته جنابة وكان البرد شديداً وانه وجد في نفسه توقفاً عن الغسل
فآلى ان لا يغتسل الا في مرقعته وان لا ينزعها ولا يعصرها فكانت شديدة
الكثافة تزيد على عشرين رطلا وهذا من الجهل بالعلم فانه ليس للانسان
ان يتصرف في نفسه بمثل هذا وقد ذكرت كثيرا من هذا الفن الصادر
عن المتعبدين على الجهل في كتاب المسمى بتلبيس ابليس .

﴿ المقام الخامس المجاهدة ﴾

وهو انه اذا حاسب نفسه فينبغي اذا رآها قد قارفت معصية ان يعاقبها كما سبق
فان رآها تتوانى بحكم الكسل في شئ الفضايل او ورد من الاوراد فينبغي
ان يؤدبها بتثقيل الاوراد عليها كما ورد عن ابن عمر رضي الله عنه انه
فاتته صلاة في جماعة فاحيا الليل كله تلك الليلة واذا لم تطاوعه نفسه على الاوراد
فانه يجاهدها ويكرهها ما استطاع ، قال ابن المبارك ان الصالحين كانت

انفسهم توافيهم على الخير عفواً وان انفسنا لا تواتينا الا كرهاً، ومما يستعان به عليها ان يسمعها اخبار المجتهدين وما ورد في فضلهم ويصحب من يقدر عليه منهم فيقتدي بافعاله قال بعضهم: كنت اذا اعترتني فترة في العبادة نظرت الى وجه محمد بن واسع والى اجتهاده فعملت على ذلك اسبوعا، وقد كان عامر بن عبد قيس يصلي كل يوم الف ركعة وكان الاسود بن يزيد يصوم حتى يخضر ويصفر وحج مسروق فما نام الا ساجدا وكان داود الطائي يشرب الفتيت مكان الخبز ويقرأ بينهما خمسين آية وكان كرز بن وبرة يختم كل يوم ثلاث ختمات، وكان عمر بن عبد العزيز وفتح الموصلي يبكيان الدم، وصلى اربعون نفساً من القدماء الفجر بوضوء العتمة، وجاور ابو محمد الحريرى سنة فلم ينم ولم يتكلم ولم يستند الى حائط ولم يمد رجله فقال له ابو بكر الكتاني بم قدر على هذا قال علم صدق باطني فاعانني على ظاهري ودخلوا على زحلة العابدة فكلموها بالرفق بنفسها فقالت انما هي ايام مبادرة فمن فاته اليوم شيء لم يدركه غدا والله يا اخوتاه لأصلين لله ما اقلتني جوارحي ولأصومن له ايام حياتي ولأبكين ما حملت الماء عيناي ومن اراد ان ينظر في سير القوم ويتفرج في بساتين مجاهداتهم فلينظر في كتاب المسمى بصفوة الصفوة فانه يرى من اخبار القوم ما يعد نفسه بالاضافة اليهم من الموتى بل من اخبار المتعبدات من النسوة ما يحتقر نفسه عند سماعه

﴿ المقام السادس في معاتبة النفس وتوبيخها ﴾

قال ابو بكر الصديق رضي الله عنه من مقت نفسه فى ذات الله آمنه الله من مقته، وقال انس رضى الله عنه سمعت عمر بن الخطاب رضي الله

عنه ودخل حائطًا فسمعته يقول و بيني وبينه جدار عمر بن الخطاب امير المؤمنين بخ بخ والله لتتقين الله بني الخطاب او ليعذبنك ، وقال البختري بن حارثة دخلت على عابد فاذا بين يديه نار قد اججها وهو يعاتب نفسه فلم يزل يعاتبها حتي مات وكان بعضهم يقول اذا ذكر الصالحون فاف لي وتف واعلم ان اعدى عدولك نفسك الثي بين جنبيك وقد خلقت امارة بالسوء ميالة الى الشر وقد امرت بتقويمها وتزكيتها وفطامها عن مواردها وان تقودها بسلاسل القهر الى عبادة ربها فان اهملتها طمحت وشردت ولم تظفر بهـا بعد ذلك وان لزمتها بالتوبيج زجونا ان تصير مطمأنة فلا تغفلن عن تذكيرها وسبيلك ان تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وتقول يا نفس ما اعظم جهلك تدعين الزكاء والفطنة وانت اشد الناس غباوة وحمقًا اما تعلمين انك صائرة الى الجنة او الى النار فكيف يلهو من لا يدري الى ايتهما يصير وربما اختطف في يومه او في غده اما تعلمين ان كل ما هو آت قريب وان الموت يأتي بغتة من غير موعد ولا يتوقف على سن دون سن بل كل نفس من الانفاس يمكن ان يكون فيه الموت فجاة وان لم يكن الموت فجاة كان المرض فجأة ثم يفضي الى الموت فمالك لا تستعدين للموت وهو قريب منك يا نفس ان كانت جرأتك على معصية الله تعالى لاعتقادك ان الله لا يراك فما اعظم كفرك وان كانت مع علمك باطلاعه عليك فما اشد رقاعتك واقل حياك الك طاقة على عذابه جربي ذلك بالقعود ساعة في الحمام او قربي اصبعك من النار يا نفس ان كان المانع لك من الاستقامة حب الشهوات فاطلبي الشهوات الباقية الصافية عن الكدر ورب أكلة

منعت اكلات وما قولك في عقل مريض اشار عليه الطبيب بترك الماء ثلاثة
ايام ليصح ويتهيأ لشربه طول العمر فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة
ايصبر ثلاثة ايام ليتنعم طول العمر ام يقضي شهوته في الحال ثم يلزمه
الالم ابدا فجميع عمرك بالاضافة الى الابد الذي هو مدة نعيم اهل الجنة
وعذاب اهل النار اقل من ثلاثة ايام بالاضافة الى جميع العمر بل اقل من
لحظة بالاضافة الى عمر الدنيا وليت شعري الم الصبر عن الشهوات اشد
واطول ام الم النار في الدركات فمن لا يطيق الصبر على الم المجاهدة كيف
يطيق الم العذاب في الاخرة أشغلك حب الجاه اما بعد ستين سنة او نحوها
لا تبقين انت ولا من كان لك عنده جاه هلا تركت الدنيا لخسة شركائها
وكثرة عنائها وخوفا من سرعة فنائها اتستبدلين بجوار رب العالمين صف
النعال في صحبة الحمقى قد ضاع اكثر البضاعة وقد بقيت من العمر
صبابة ولو استدركت ندمت على ما ضاع فكيف اذا ضفت الاخير الى
الاول اعملي في ايام قصار لايام طوال واعدي الجواب للسوأل اخرجي
من الدنيا خروج الاحرار قبل ان يكون خروج اضطرار
انه من كانت مطيته الليل والنهار سير به وان لم يسر تفكري في هذه
الموعظة فان عدمت تأثيرها فابكي على ما اصبت به فمستقى الدمع من بحر الرحمة ·

﴿ باب التفكر ﴾

قد امر الله سبحانه بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز واثنى على
المتفكرين بقوله (ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت

هذا باطلا) وقال (ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون) وعن عمر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تفكروا في الاء الله ولا تفكروا في الله» ، وقال ابو الدرداء رضي الله عنه تفكر ساعة خير من قيام ليله . وقال وهب بن منبه ما طالت فكرة امرئ قط الا فهم وما فهم الا علم وما علم الا عمل . وقال بشر الحافي لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه وقال الفريابي في قوله تعالى (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق) قال امنع قلوبهم التفكر في امري ، وكان داود الطائي على سطح في ليلة قمراء فتفكر في ملكوت السماوات والارض فوقع في دار جار له فوثب عريانا وبيده السيف فلما رآه قال يا داود ما الذي القاك قال ما شعرت بذلك ، وقال يوسف بن سباط ان الدنيا لم تخلق لينظر اليها بل ينظر بها الى الاخرة ، وكان سفيان من شدة تفكره يبول الدم . وقال ابو بكر الكتاني روعة عند انتباهة من غفلة وانقطاع عن حظ نفساني وارتعاد من خوف قطيعة افضل من عبادة الثقلين

﴿ بيان مجاري الفكر وثمرته ﴾

اعلم ان الفكر قد يجري في امر يتعلق بالدين وقد يجري في امر يتعلق بغيره وانما غرضنا ما يتعلق بالدين وشرح ذلك يطول فلينظر الانسان في اربعة انواع : الطاعات والمعاصي والصفات المهلكات والصفات المنجيات فلا تغفل عن نفسك ولا عن صفاتك المباعدة عن الله والمقربة اليه ، فينبغي لكل مريد ان تكون له جريدة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات وجملة الصفات المنجيات وجملة المعاصي والطاعات ويعرض

ذلك على نفسه كل يوم ويكيفيه من المهلكات النظر في عشرة فانه ان سلم منها سلم من غيرها وهي البخل والكبر والعجب والرياء والحسد وشدة الغضب وشره الطعام وشره الوقاع وحب المال وحب الجاه

ومن المنجيات عشرة : الندم على الذنوب والصبر على البلاء والرضا بالقضاء والشكر على النعماء واعتدال الخوف والرجاء والزهد في الدنيا والاخلاص في الاعمال وحسن الخلق مع الخلق وحب الله تعالى والخشوع فهذه عشرون خصلة ، عشرة مذمومة ، وعشرة محمودة فمتى كفي من المذمومات واحدة خط عليها في جريدته وترك الفكر فيها وشكر الله تعالى على كفايته اياها ، وليعلم ان ذلك لم يتم الا بتوفيق الله تعالى وعونه ثم يقبل على التسعة الباقيه وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع وكذلك يطالب نفسه بالاتصاف بالصفات المنجيات فاذا اتصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلا خط عليها واشتغل بالباقي وهذا يحتاج اليه المريد المشمر فأما اكثر الناس من المعدودين في الصالحين فينبغي ان يثبتوا في جرائدهم المعاصي الظاهرة كأكل الشبهات واطلاق اللسان بالغيبة والنميمة والمراء والثناء على النفس والافراط في موالاة الاولياء ومعاداة الاعداء والمداهنة في ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فان اكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه وما لم تطهر الجوارح من الاثام لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره وكل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من هذه الاموز فينبغي ان يكون تفقدهم لها وتفكرهم فيها . مثاله العالم الورع فانه لا يخلو في غالب الامور من اظهار

نفسه بالعلم وطلب الشهرة و انتشار الصيت اما بالتدريس او بالوعظ ومن فعل ذلك فقد تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها لا الصديقون وربما ينتهي العلم باهل العلم الى ان يتغايروا كما يتغاير النساء . وكل ذلك من رسوخ الصفات المهلكات في سر القلب التي يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها ومن احس من نفسه هذه الصفات فالواجب عليه الانفراد والعزلة وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى فقد كان الصحابة يتدافعون الفتاوى وكل منهم يود لو ان اخاه كفاه ، وعند هذا ينبغي ان يتقي شياطين الانس فانهم قد يقولون هذا سبب لاندراس العلم فليقل لهم دين الاسلام مستغن عني ولو مت لم ينهدم الاسلام وانا غير مستغن عن اصلاح قلبي فليكن فكر العالم في التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه نسأل الله أن يصلح فساد قلوبنا وان يوفقنا لما يرضاه عنا

فصل

قد تقدم ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله » فالتفكر في ذاته سبحانه ممنوع منه وذلك ان العقول تتحير في ذلك فانه اعظم من ان تمثله العقول بالتفكير او تتوهمه القلوب بالتصوير ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، فاما التفكر في مخلوقات الله تعالى فقد ورد القرآن بالحث على ذلك لقوله تعالى (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب) الايات وقوله (قل انظروا ماذا في السموات والارض)

ومن آيات الله تعالى الانسان المخلوق من نطفة فيتفكر الانسان

في نفسه فان في خلقه من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الاعمار في الوقوف على عشر عشره وهو غافل عن ذلك · وقد امره الله تعالى بالتدبر في نفسه فقال (وفي انفسكم فلا تبصرون) وقد تقدم في كتاب الشكر الكلام على بعض خلق الانسان فليطلب هناك (ومن آياته) الجواهر المودعة في الجبال والمعادن من الذهب والفضة والفيروزج ونحوها و كذلك النفط والكبريت والقار وغيرها (ومن آياته) البحار العظيمة العميقة المكتنفة لاقطار الارض التي هي قطع من البحر الاعظم المحيط بجميع الارض ولو جمع المكشوف من الارض من البراري و الجبال لكان بالاضافة الى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم وفي البحر عجائب اضعاف ما نشاهده في البر وانظر كيف خلق اللؤلؤ ودوّره في صدفه تحت الماء وانظر كيف أنبت المرجان في صم الصخور تحت الماء و كذلك ما عداه من العنبر واصناف ما يقذفه البحر وانظر الى عجائب السفن كيف امسكها الله تعالى على وجه الماء وسيرها في البحار تسوقها الرياح واعجب من ذلك الماء فانه حياة كل ما على الارض من حيوان ونبات فلو احتاج العبد الى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك ثم اذا شربها لو منع خروجها لبذل جميع خزائن الارض في اخراجها فلا يغفل العبد عن هذه النعمة (ومن آياته) الهواء وهو جسم لطيف لا يرى بالعين ثم انظر الى شدته وقوته وانظر الى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والرعد والبرق والمطر والثلج والبرد والشهب والصواعق وغير ذلك من العجائب وانظر الى الطير تسبح باجنحتها بالهواء

كما يسبح حيوان البحر في الماء . ثم انظر الى السماء وعظمها و كواكبها
وشمسها وقمرها وما فيها كوكب الا ولله تعالى فيه حكمة في لونه وشكله
وموضعه وانظر الى ايلاج الليل في النهار والنهار في الليل وانظر مسير
الشمس كيف اختلف في الصيف والشتاء والربيع والخريف وقد قيل ان
الشمس مثل الارض مائة ونيفا وستين مرة وان اصغر كوكب السماء مثل
الارض ثمان مرات فاذا كان هذا قدر كوكب واحد فانظر الى كثرة
الكواكب والى السماء التي فيها الكواكب والى احاطة عينك بذلك مع
صغرها والعجب منك انك تدخل بيت غني مزخرف مموه بالذهب فلا
ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وانت تنظر الى هذا البيت العظيم
والى ارضه وسقفه وعجائبه وامتعته وبدائع نقوشه ثم لا تلتفت الى نحوه
بقلبك ولا تتفكر في بناء خالقك فلقد نسيت نفسك وربك واشتغلت
ببطنك وفرجك فما مثلك في غفلتك الا كمثل نملة تخرج من بيتها الذي حفرته
في حائط قصر الملك فتلقى اختها فتحدث معها في حديث بيتها وكيف بنته
وما جمعت فيه ولا تذكر قصر الملك ولا من فيه فهكذا انت في غفلتك
فما تعرف من السماء الا ما تعرفه النملة من سقف بيتك فهذا بيان معاقد
الجمل التي يجول فيها فكر المتفكرين والاعمار تقصر والعلوم تقل عن
الاحاطة ببعض المخلوقات الا انك كلما استكثرت من معرفة عجائب
المصنوعات كانت معرفتك بجلال الصانع اتم ، فتفكر فيما اشرنا اليه ههنا
مع ما قدمناه من الاشارة في كتاب الشكر فمن نظر في هذه الاشياء من
حيث انها فعل الله وصنعته استفاد المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته ومن

قصر النظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لا من حيث ارتباطها بمسبب الاسباب شقي نعوذ بالله من مزلة اقدام الجهال ومن الركون الى اسباب الضلال ولا وجه للتفكر فيما لا نراه من الملائكة والجن فلذلك عدلنا عنه الى ما نراه والله اعلم

﴿ باب في ذكر الموت وما بعده وما يتعلق به ﴾

اعلم ان المنهمك في الدنيا المكب على غرورها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره وان ذكره كرهه ونفر منه ثم الناس اما منهمك او تائب مبتدئ او عارف منته . فاما المنهمك فلا يذكره وان ذكره فيذكره للتأسف على دنياه و يشتغل بذمه وهذا لا يزيده ذكر الموت من الله تعالى الا بعدا . واما التائب فانه يكثر ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فيفي بتمام التوبة وربما يكره الموت خيفة ان يختطفه قبل تمامها او قبل اصلاح الزاد وهو معذور في كراهة الموت ولا يدخل بهذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم « من كره لقاء الله كره الله لقاءه » فانه انما يخاف لقاء الله لقصوره و تقصيره فهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه فلا يعد كارها للقائه، وعلامة هذا ان يكون دائم الاستعداد له لا شغل له سواه وإلا التحق بالمنهمك واما العارف فانه يذكر الموت دائما لانه موعد لقاء الحبيب وهو لا ينسى موعد لقاء حبيبه وهذا في غالب الامر يستبطئ مجيء الموت و يحبه ليتخلص من دار العاصين و ينتقل الى جوار رب العالمين كما قال بعضهم : حبيب جاء على فاقة ، فاذاً التائب معذور في كراهة الموت وهذا معذور في حب الموت وتمنيه

واعلا منهما من فوض امره الى الله تعالى فصار لا يختار لنفسه موتا ولا حياة بل تكون الاشياء اليه احبها الى مولاه فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء الى مقام التسليم والرضاء وهو الغاية والمنتهى وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثواب وفضل فان المنهمك في الدنيا قد يستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا لان ذكره ينغص عليه نعيمه ويكدره

﴿ فمما جاء في فضل ذكر الموت ﴾

عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اكثروا ذكر هادم اللذات » وعن أنس رضي الله عنه ان رجلا ذكر عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاحسنوا عليه الثناء فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم كيف كان ذكر صاحبكم للموت قالوا ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت قال فان صاحبكم ليس هناك ، وعن ابن عمر رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم سئل اي المؤمنين اكيس قال اكثرهم للموت ذكرا واحسنهم لما بعده استعد اولئك الاكياس ، وقال الحسن البصري فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فيها فرحاً وما الزم عبد قلبه ذكر الموت الا صغرت الدنيا عليه وهان عليه جميع ما فيها ، وكان ابن عمر رضي الله عنه اذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير وكان يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة ثم يبكون حتى كان بين ايديهم جنازة وكان حامد القيصري يقول كلنا قد ايقن بالموت وما نرى له مستعداً وكلنا قد ايقن بالجنة وما نرى لها عاملا وكلنا قد ايقن بالنار وما نرى لها خائفاً فعلام تفرحون وما عسيتم تنتظرون الموت فهو اول وارد عليكم من أمر الله بخير

او بشر فيا اخوتاه سيروا الى ربكم سيرا جميلا، وقال شميط بن عجلان من جعل الموت نصب عينيه لم يبال بضيق الدنيا ولا بسعتها.

واعلم ان خطر الموت عظيم وانما غفل الناس عنه لقلة فكرهم وذكرهم له ومن يذكره منهم انما يذكره بقلب غافل فلهذا لا ينجع فيه ذكر الموت والطريق في ذلك ان يفرغ العبد قلبه لذكر الموت الذي هو بين يديه كالذي يريد ان يسافر الى مفازة مخطرة او يركب البحر فانه لا يتفكر الا في ذلك. وانفع طريق في ذلك ذكر اشكاله واقرانه الذين مضوا قبله فيذكر موتهم ومصارعهم تحت الثرى قال ابن مسعود رضي الله عنه السعيد من وعظ بغيره وقال ابو الدرداء رضي الله عنه اذا ذكر الموتى فعد نفسك كاحدهم وينبغي ان يكثر دخول المقابر ومتى سكنت نفسه الى شيء في الدنيا فليتفكر في الحال انه لا بد من مفارقته ويقصر أمله وقد روي عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما قال اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال كن في الدنيا كانك غريب او عابر سبيل وكان ابن عمر يقول اذا امسيت فلا تنتظر الصباح واذا اصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك، وفي حديث آخر ان اخوف ما اخاف على امتي الهوى وطول الامل فاما الهوى فيضل عن الحق واما طول الأمل فينسي الآخرة وعن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لاصحابه : أكلكم يحب ان يدخل الجنة ؟ قالوا نعم يا رسول الله قال قصروا الامل واثبتوا آجالكم بين ابصاركم واستحيوا من الله عز وجل حق حيائه وعن ابى زكريا التيمي قال بينما سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام اذ

اتي بحجر منقور فطلب من يقرأه فاذا فيهِ : أبن آدم لو رأيت قرب ما بقي من اجلك لزهدت في طول املك ولرغبت في الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك وحيلك وانما يلقاك ندمك لو قد زلت بك قدمك واسلمك اهلك وحشمك فبان منك الولد والنسب فلا انت الى دنياك عائد ولا في حسناتك زائد فاعمل ليوم القيامة يوم الحسرة والندامة

واعلم السبب في طول الامل شيئاً احدهما حب الدنيا والثاني الجهل اما حب الدنيا فان الانسان اذا آنس بها و بشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه والانسان مشغول بالاماني الباطنة فيمني نفسه ابدا بما يوافق مراده من البقاء في الدنيا وما يحتاج اليه من مال واهل ومسكن واصدقاء وسائر اسباب الدنيا فيصير قلبهُ عاكفا على هذا الفكر فيلهو عن ذكر الموت ولا يقدر قربه فان خطر له الموت في بعض الاحوال والحاجة الى الاستعداد له سوّف بذلك ووعد نفسه وقال الايام بين يديك الى ان تكبر ثم تتوب واذا كبر قال الى ان يصير شيخاً وان صار شيخاً قال الى ان يفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة او يرجع من هذه السفر فلا يزال يسوف ويوءخر ولا يحرص في اتمام شغل الا ويتعلق باتمام ذلك الشغل عشرة اشغال وهكذا على التدريج يوءخر يوماً بعد يوم ويشتغل بشغل بعد شغل الى ان تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه فتطول عند ذلك حسرته واكثر صياح أهل النار من سوف يقولون واحسرتاه من سوف واصل هذه الأماني كلها حب الدنيا والأنس بها والغفلة عن قول النبي صلى

الله عليه وسلم « احبب ما شئت فانك مفارقه » « السبب الثاني » الجهل
وهو ان الانسان يعول على شبابه و يستبعد قرب الموت مع الشباب
أو ليس يتفكر المسكين في ان مشايخ بلده لو عدوا كانو أقل من العشر
وانما قلوا لأن الموت في الشباب اكثر والى انيموت شيخ قد يموت ألف
صبي وشاب وقد يغتر بصحته ولا يدري ان الموت يأتي فجاه وان
استبعد ذلك فان المرض يأتى فجأة واذا مرض لم يكن الموت بعيداً ولو
تفكر وعلم ان الموت ليس له وقت مخصوص من صيف وشتاء ور بيع
وخر يف وليل ونهار ولا هو مقيد بسن مخصوص من شاب وشيخ او
كهل او غيره لعظم ذلك عنده واستعد للموت ٠

فصل

والناس متفاوتون في طول الأَمل تفاوتاً كثيرا منهم من يأمل البقاء
الى زمان الهرم ومنهم من لا ينقطع أمله بحال ومنهم من هو قصير
الامل ، فروي عن ابي عثمان النهدي انه قال بلغت ثلاثين ومائة سنة وما
من شيء الا قد عرفت فيه النقصان الا أملي فانه كما هو ، وحكي في قصر
الامل ان امرأة حبيب ابى محمد قالت كان يقول لي يعني ابا محمد ان
مت اليوم فارسلي الى فلان يغسلني و يفعل كذا وكذا واصنعي كذا فقيل
لها اري رؤيا قالت هكذا يقول كل يوم ، وعن ابراهيم بن مسبط قال قال
لي ابو زرعة لأَقولن لك قولا ما قلته لأحد سواك ما خرجت من المسجد
منذ عشرين سنة فحدثتني نفسى ان ارجع اليه وقيل لبعضهم الا تغسل
قميصك قال الأَمر أعجل من ذلك ، وعن محمد بن ابي توبة قال اقام

معروف الصلاة ثم قال لي تقدم فقلت اني ان صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها فقال معروف انت تحدث نفسك انك تصلي صلاة أخرى نعوذ بالله من طول الامل فانه يمنع خير العمل · فهذه أحوال الزهاد في قصر الامل وكلما قصر الأَمل جاد العمل لأنه يقدر ان يموت اليوم فيستعد استعداد ميت فاذا أمسي شكر الله تعالى على السلامة وقدر انه يموت تلك الليلة فيبادر الى العمل وقد ورد الشرع بالحث على العمل والمبادرة ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ» وعنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل وهو يعظه : اغتنم خمساً قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك ، وقال عمر رضي الله عنه التؤدة في كل شئ خير الا ما كان من أمر الآخرة وكان الحسن يقول عجباً لقوم أمروا بالزاد ونودي فيهم بالرحيل وحبس اولهم على آخرهم وهم قعود يلعبون ، وقال سحيم مولى بني تميم جلست الى عبد الله بن عبد الله فاوجز في صلاته ثم اقبل علي وقال ارحني بحاجتك فاني ابادر فقلت وما تبادر قال ملك الموت وكان يصلي كل يوم الف ركعة وكانوا يبادرون بالاعمال غاية ما يمكن فكان ابن عمر يقوم في الليل فيتوضأ ويصلي ثم يغفي اغفاء الطير ثم يقوم فيتوضأ ويصلي ثم يغفي اغفاء الطير ثم يقوم يصلي يفعل ذلك مراراً وكان عمير بن هاني يسبح كل يوم مائة الف تسبيحة وقال ابو بكر بن عياش ختمت القرآن في هذه الزاوية ثمانية عشر الف ختمة

﴿ فصل في ذكر شدة الموت ومايستحب من الاحوال عنده ﴾

اعلم انه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب شديد ولا هول سوى الموت لكان جديراً ان يتنغص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره وتطول فيه فكرته والعجب ان الانسان لو كان في اعظم اللذات فانتظر ان يدخل عليه جندي يضربه خمس ضربات لكدرت عليه عيشه ولذته وهو في كل نفس بصدد ان يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو غافل عن ذكر ذلك وليس لهذا سبب الا الجهل والغرور، واعلم ان الموت اشد من الف ضرب بالسيف وانما يصيح المضروب ويستغيث لبقاء قوته واما الميت عند موته فانه ينقطع صوته مع شدة الله لأن الكرب قد بالغ فيه وغلب على قلبه وعلى كل موضع منه وضعفت كل جارحة فيه فلم يبق فيه قوة لاستغاثة و يود لو قدر على الاستراحة بالانين والصياح والاستغاثة وتجذب الروح من جميع العروق ويموت كل عضو من اعضائه تدريجاً فتبرد اولا قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه حتى تبلغ الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره الى الدنيا واهلها ويغلق دونه باب التوبة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله يقبل التوبة من العبد ما لم يغرغر » وقد روي ان الملكين الموكلين بالعبد يتراءيان له عند الموت فان كان صالحاً اثنيا عليه وقالا جزاك الله خيرا، وان كان صحبها بشر قالا لا جزاك الله خيرا

وعن انس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله عز وجل وكل بعبده المؤمن بملكين يكتبان عمله فاذا مات قالا قد مات اتأذن لنا ان نصعد الى السماء قال فيقول الله تعالى ان سمائي

مملوءة من ملائكتي يسبحوني فيقولان فتأذن لنا فنقيم في الارض فيقول الله تعالى ان ارضي مملوءة من خلقي يسبحوني فيقولان فأين نقيم فتقول قوما على قبر عبدي فسبحاني واحمداني و كبراني وهللاني وا كتبا ذلك لعبدي الى يوم القيامة » وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان المؤمن اذا حضره الموت بشر برضوان الله و كرامته فليس شيء احب اليه مما امامه » وأما صاحب النار الذي ختم له بسوء فهو يبشر بها وهو في تلك الاهوال وقد كان كثير من السلف يخافون سوء الخاتمة وقد ذكرنا ذلك في كتاب الخوف وهو لائق بهذا المكان نسأل الله الكريم ان يرحمنا برحمته التي وسعت كل شيء وان يلطف بنا وان يختم لنا بخير انه جواد كريم .

واما ما يستحب من الاحوال عند المحتضر فأن يكون قلبه يحسن الظن بالله تعالى ولسانه ينطق بالشهادة والسكون من علامات اللطف وهو امارة على انه قد رأى الخير وقد روي ان روح المؤمن تخرج رشحا ويستحب تلقينه لا اله الا الله كما جاء في الحديث الصحيح من رواية مسلم « لقنوا لقنوا موتاكم لا اله الا الله » وينبغي للملقن ان يرفق به ولا يلح عليه وقد جاء في حديث آخر احضروا موتاكم ولقنوهم لا اله الا الله وبشروهم بالجنة فان الحليم العليم من الرجال والنساء يتحير عند ذلك المصرع وان ابليس عدو الله اقرب ما يكون من العبد في ذلك الموطن وذكر الحديث الى آخره وفي الحديث الصحيح لا يموتن احدكم الا وهو يحسن الظن بالله ، وروي ان النبي صلى الله عليه وسلم دخل على رجل وهو يموت فقال كيف تجدك

قال ارجو الله واخاف ذنوبي فقال ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن الا اعطاه الله الذي يرجو وأمنه من الذي يخاف ، والرجاء عند الموت افضل لان الخوف سوط يساق به وعند الموت يقف البصر فينبغي ان يتلطف به ولان الشيطان يأتي حينئذ بسخط العبد على الله فيما يجري عليه ويخوفه فيما بين يديه فحسن الظن اقوى سلاح يدفع به العدو ، وقال سليمان التيمي لابنه عند الموت يا بني حدثني بالرخص لعلي القى الله تعالى وانا احسن الظن به

باب ذكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم

اعلم ان في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة في كل احواله ومعلوم انه ليس في المخلوقين احد احب الى الله تعالى منه ولم يؤخره الله تعالى حين انقضى اجله وقد لقي صلى الله عليه وسلم من الموت شدة فروى البخاري في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها قالت كان بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ركوة او علبة فيه ماء فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بها وجهه ويقول لا اله الا الله ان للموت لسكرات وفي صحيح البخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال لما ثقل النبي صلى الله عليه جعل يتغشاه الكرب فقالت فاطمة واكرب أبتاه فقال لها ليس على ابيك كرب بعد اليوم ، وروي عن ابن مسعود قال اجتمعنا في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها فنظر الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فدمعت عيناه فنعى الينا نفسه وقال مرحباً حياكم الله بالسلام حفظكم

الله رعاكم الله جمعكم الله نصركم الله وفقكم الله نفعكم الله رفعكم الله سلمكم الله اوصيكم بتقوى الله وأوصي الله بكم وأستخلفه عليكم، قلنا يا رسول الله متى أجلك قال قد دنى الأجل والمنقلب الى الله والى سدرة المنتهى وجنة المأوى والفردوس الأعلى قلنا يا رسول الله ففيم نكفنك قال في في ثيابي هذه ان شئتم او يمنية او بياض فقلنا يا رسول الله من يصلى عليك و بكينا فقال مهلا رحمكم الله وجزاكم عن نبيكم خيراً اذا غسلتموني و كفنتموني فضعوني على سريري هذا على شفير قبري ثم اخرجوا عني ساعة فان اول من يصلي عليّ خليلي وحبيبي جبريل ثم ميكائيل ثم اسرافيل ثم ملك الموت مع ملائكة كثيرة ثم ادخلوا علي فوجاً فوجاً فصلوا علي وسلموا تسليما ولا تؤذوني بتزكية ولا برنة ولا بصيحة وليبدأ بالصلاة علي رجال اهل بيتي ثم نساوءهم ثم انتم بعد واقروءا السلام على من غاب عني من اصحابي وعلى من تابعي على ديني الى يوم القيامة ألا واني أشهدكم اني قد سلمت على كل من دخل في الاسلام ولقد دخل عليه جبريل قبل موته بثلاثة ايام فقال يا احمد ان الله ارسلني اليك يسألني عما هو اعلم به منك يقول كيف تجدك فقال اجدني يا جبريل مغموماً واجدني يا جبريل مكروباً ثم اتاه في اليوم الثاني فأعاد الكلام واعاد عليه الجواب ثم جاءه في اليوم الثالث وأعاد عليه الكلام فأعاد عليه الجواب فاذا ملك الموت يستأذن فقال جبريل يا احمد هذا ملك الموت يستأذن عليك ولم يستأذن على آدمي قبلك ولا يستأذن على آدمي بعدك فقال ائذن له فدخل فوقف بين يديه وقال ان الله ارسلني

اليك وأمرني ان اطيعك فان امرتني ان اقبض نفسك قبضتها وان امرتني ان اتركها تركتها قال وتفعل يا ملك الموت قال كذلك أمرت ان اطيعك فقال جبريل يا احمد ان الله قد اشتاق اليك فقال فامض لما أمرت به يا ملك الموت فقال جبريل عليه السلام السلام عليك يا رسول الله هذا آخر موطني في الارض انما كنتَ حاجتي من الدنيا فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم مستندا الى صدر عائشة رضي الله عنها في كساء ملبد وازار غليظ وقامت فاطمة رضي الله عنها تندب وتقول: يا أبتاه أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه الى جبريل ننعاه، يا أبتاه من ربه ما أدناه. فلما دفن قالت يا أُنس أطابت أنفسكم ان تحثوا التراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ابو بكر الصديق رضي الله عنه:

لما رأيت نبينا متجدلا ضاقت علي بعرضهن الدور
وارتعت روعة مستهام واله والعظم مني واهن مكسور
اعتيق ويحك ان حبك قد ثوى وبقيت منفردًا وانت حسير
يا ليتني من قبل مهلك صاحبي غيبت في جدث عليّ صخور

﴿ وفاة ابي بكر الصديق رضي الله عنه ﴾

روى ابو المليح ان أبا بكر رضي الله عنه لما حضرته الوفاة ارسل الى عمر رضي الله عنه فقال اني اوصيك بوصية ان انت قبلت عني: ان لله عز وجل حقًا بالليل لا يقبله بالنهار وان لله حقًا بالنهار لا يقبله بالليل وانه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة، وانما ثقلت موازين من

ثقلت موازينه في الآخرة باتباعهم الحق في الدنيا وثقل ذلك عليهم وحق لميزان يوضع فيه الحق ان يكون ثقيلا، وانما خفت موازين من خفت موازينه في الآخرة باتباعهم الباطل وخفته عليهم في الدنيا وحق لميزان يوضع فيه الباطل ان يكون خفيفاً، ألم تر ان الله انزل آية الرجاء عند آية الشدة وآية الشدة عند آية الرجاء ليكون العبد راغباً راهباً لا يلقي بيديه الى التهلكة ولا يتمنى على الله غير الحق فان انت حفظت وصيتي هذه فلا يكونن غائب أحب اليك من الموت ولا بد لك منه، وان انت ضيعت وصيتي هذه فلا يكونن غائب أبغض اليك من الموت ولا بد لك منه ولست تعجزه . وقيل لما احتضر جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت :

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى * اذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال : ليس كذلك ولكن قولي : (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت عنه تحيد) انظروا ثوبيَّ هذين فاغسلوهما وكفنوني فيهما فان الحي احوج الى الجديد من الميت

﴿ وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ﴾

عن ابن عمر قال كان رأس عمر في حجري بعد ما طعن وكان مرضه الذي توفي فيه فقال ضع خدي على الارض فقلت وما عليك كان في حجري ام على الارض وظننت ان ذلك تبرماً به فلم افعل فقال ضع خدي على الارض لا ام لك وبلي وويل امي ان لم يرحمني ربي، وروي انه لما طعن وحمل الى بيته وجاء الناس يثنون عليه جاء رجل

شاب فقال ابشر يا امير المؤمنين ببشرى من الله لك صحبة من رسول صلى الله
الله عليه وسلم وقدم في الاسلام ما قد علمت ثم وليت فعدلت ثم شهادة
فقال وددت ان ذلك كان كفافا لا عليّ ولا لي ثم قال ياعبد الله بن
عمر انطلق الى عائشة ام المؤمنين فقل عمر يقرأ عليكِ السلام ولا تقل
امير المؤمنين فاني لست اليوم للمؤمنين اميراً وقل يستأذن عمر بن الخطاب
ان يدفن عند صاحبيه فمضى وسلم واستأذن عليها ثم دخل فوجدها
قاعدة تبكي فقال: عمر يقرأ عليك السلام ويستأذن ان يدفن عند صاحبيه
فقالت كنت اريده لنفسي فلأُوثرنه اليوم على نفسي فلما اقبل قيل هذا
عبد الله بن عمر قد جاء قال ارفعوني فاسنده رجل اليه فقال ماوراءك قال
الذي تحب يا امير المؤمنين اذنت قال الحمد لله ما كان شيء احب الي
من ذلك فاذا انا مت فاحملوني ثم سلم وقل يستأذن عمر ابن الخطاب فان
اذنت فادخلوني وان ردتنى فردوني الى مقابر المسلمين وفي افراد مسلم
من حديث المسور بن مخرمة ان عمر قال والله لو ان لي قلاع الارض
ذهباً لافتديت به من عذاب الله قبل ان اراه وفي حديث اخر والله
لو ان لي ما طلعت عليه الشمس اوغربت لافتديت به من هول المطلع

﴿ وفاة عثمان بن عفان رضي الله عنه ﴾

عن نائلة بنت الفرافصة امرأه عثمان رضي الله عنه قالت لما كان
اليوم الذي قتل فيه عثمان ظل في اليوم الذي قبله صائماً فلما كان عند
افطاره سألهم الماء العذب فلم يعطوه فنام ولم يفطر فلما كان وقت السحر
اتيتُ جاراتٍ لي على احاجير متصلة فسألتهم الماءَ العذب فاعطوني كوزاً

من مـاء فاتية فحركته فاستيقظ فقلت هذا ماء عـذب فرفع رأسه فنظر الى الفجر فقال اني قد اصبحت صائماً وان رسول الله صلى الله عليه وسلم اطلع عليَّ من هذا السقف ومعه ماء عذب فقـال اشرب ياعثمان فشربت حتى رويت ثم قال ازدد فشربت حتى نهلت ثم قال ان القوم سينكرون عليك فان قاتلتهم ظفرت وان تركتهم افطرت عندنا قالت فدخلوا عليه من يومه فقتلوه ، وعن العلاء بن الفضيل عن ابيه قال لما قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه فتشوا خزانته فوجدوا فيها صندوقاً مقفلا ففتحوه فوجدوا فيه حقة فيها ورقة مكتوب فيها : هذه وصية عثمان بسم الله الرحمن الرحيم عثمان بن عفان يشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله وان الجنة حق وان النار حق وان الله يبعث من في القبور ليوم لا ريب فيه ان الله لا يخلف الميعاد عليها نحيى وعليها نموت وعليها نبعث ان شاء الله تعالى

﴿ وفاة علي بن ابي طالب رضي الله عنه ﴾

عن الشعبي قال لما ضرب علي رضي الله عنه تلك الضربة قال مـا فعل بضاربي قالوا اخذناه قال اطعموه من طعامي واسقوه من شرابي فان انا عشت رأيت فيه رأيي وان انا مت فاضربوه ضربة واحدة لا تزيدوه عليها ثم اوصى الحسن ان يغسله وقال لا تغـالي في الكفن فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا تغالوا في الكفن فانه يسلب سلباً سريعاً . امشوا بي بين المشيعين لاتسرعوا بى ولا تبطئوا فان كان خيراً عجلتموني اليه وان كان شراً القيتموني عن اكتافكم ، وروي انه لما كانت

الليلة التي اصيب فيها علي رضي الله عنه اتاه ابن السياج حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل فعاد الثانية وهو كذلك ثم عاد الثالثة فقام يمشي وهو يقول :

اشدد حيازيمك للموت　　　فان الموت لاقيك
ولا تجزع من الموت　　　وان حل بناديك

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه عبد الرحمن بن ملجم فضربه

﴿ ذكر كلمات نقلت عن جماعة عند موتهم من الصحابة ﴾
وغيرهم وذكر زيارة القبور ونحو ذلك

لما نزل الموت بالحسن بن علي رضي الله عنهما قال أخرجوا فراشي الى صحن الدار فأُخرج فقال اللهم اني احتسب نفسي عندك فاني لم اصب بمثلها وقد ذكرنا ما تقدم من كلام الخلفاء الاربعة رضي الله عنهم، وروي ان معاذ ابن جبل رضي الله عنه لما حضرته الوفاة قال انظروا هل اصبحنا فاتي فقيل لم تصبح حتى اتي في بعض ذلك فقيل له قد اصبحنا فقال اعوذ بالله من ليلة صباحها الى النار ثم قال مرحبا بالموت زائر مغيب وحبيب جاء على فاقة اللهم اني كنت اخافك وانا اليوم ارجوك اللهم انك تعلم اني لم اكن احب الدنيا وطول البقاء فيها لكري الانهار(١) ولا لغرس الاشجار ولكن لطول ظمأ الهواجر وقيام ليل الشتاء ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر، وقال ابو مسلم جئت ابا الدرداء وهو يجود بنفسه ويقول الا رجل يعمل لمثل مصرعي هذا الا رجل يعمل لمثل يومي هذا

---

(١) كريت النهر حفرته

الا رجل يعمل لمثل ساعتي هذه ثم قبض رحمه الله ، وبكى سلمان الفارسي عند موته فقيل ما يبكيك فقال عهد الينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يكون زاد احدنا كزاد الراكب وحولي هذه الاسواد وقيل انما كان حوله اجانة وجفنة ومطهره ، وروى المزني قال دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه فقلت له كيف اصبحت قال اصبحت من الدنيا راحلا وللاخوان مفارقاً ، ولسوء عملي ملاقياً وبكأس المنية شارباً وعلى الله وارداً فلا ادري اروحي تصير الى الجنة فاهنئها ام الى النار فاعزيها ثم انشأ يقول

ولما قسي قلبي وضاقت مذاهبي   جعلت الرجا مني بعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته   بعفوك ربي كان عفوك اعظما
ومازلت ذا عفو عن الذنب لم تزل   تجود وتعفو منةً وتكرما

قيل كان ابو الدرداء رضي الله عنه يقعد الى القبور فقيل له في ذلك فقال اجلس الي قوم يذكروني معادي وان غبت لم يغتابوني وقال ميمون بن مهران خرجت مع عمر بن عبد العزيز الى المقبرة فلما نظر الى القبور بكى ثم اقبل عليّ فقال يا ميمون هذه قبور آبائي بنو امية كأنهم لم يشاركوا اهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم اما تراهم صرعى قد خلت بهم المثلات واستحكم فيهم البلاء واصاب الهوام مقبلا في ابدانهم ثم بكى وقال والله ما اعلم احدا انعم ممن صار الى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله تعالى

(ويستحب زيارة القبور) فان النبي صلى الله عليه وسلم قال: زوروا القبور فانها تذكركم الآخرة، ومن زار قبراً فليستقبل وجه الميت ليقرأ شيئاً من القرآن ويهديه له ولتكن الزيارة يوم الجمعة وقد روي انه لما مات عاصم الجحدري

راه رجل من اهله في المنام بعد موته بسنتين فقال له اليس قد مُتَّ قال بلى
قال واين انت ؟ قال عاصم انا والله في روضة من رياض الجنة انا ونفر من
اصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها الى ابي بكر بن عبد الله المزني نتلاقى
اخباركم قال قلت له اجسامكم ام ارواحكم قال هيهات بليت الاجسام
وانما تتلاقى الارواح قلت فهل تعلمون بزيارتنا اياكم قال نعلم بها عشية الجمعة
و يوم الجمعة كله ويوم السبت الى طلوع الشمس قلت و كيف ذلك دون الايام
كلها قال لشرف يوم الجمعة وعظمه، وحكى عثمان بن سوادة الطفاوي و كانت
امه من العابدات وكان يقال لها راهبة قال لما احتضرت رفعت رأسها الى
السماء وقالت يا ذخري وذخيرتي ومن عليه اعتمادي في حياتي و بعد مماتي
لا تخذلني عند الموت ولا توحشني في قبري قال فماتت فكنت آتيها كل جمعة
وادعو لها واستغفر لها ولأهل القبور فرأيتها ليلة في منامي فقلت لها يا اماه
كيف انت قالت يا بني ان للموت لكرب شديد وانا بحمد الله في برزخ
محمود يفترش فيه الريحان و يتوسد فيه السندس والاستبرق الى يوم النشور
فقلت ألك حاجة قالت نعم لا تدع ما كنت تصنع من زيارتنا فاني لأسر
بمجيئك يوم الجمعة اذا اقبلت من اهلك فيقال لي يا راهبة هذا ابنك قد اقبل
فاسر و يسر بذلك من حولي من الاموات، وعن انس بن منصور قال كان
رجل يختلف الى الجنائز فيشهد الصلاة عليها فاذا امسي وقف على باب
المقابر فقال آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيئاتكم وقبل
حسناتكم لا يزيد على هؤلاء الكلمات قال ذلك الرجل فامسيت ذات ليلة
ولم آت المقابر فادعو كما كنت ادعو فبينما انا نائم اذا انا بخلق كثير قد

جاؤني فقلت من انتم وما حاجتكم قالوا نحن اهل المقابر انك كنت عودتنا منك هدية قلت وما هي قالوا الدعوات التي كنت تدعو بها قلت فاني اعود لذلك فما تركتها بعد ، وقال بشار بن غالب رأيت رابعة في منامي وكنت كثير الدعاء لها فقالت لي يا بشار هداياك تأتينا على اطباق من نور مخمرة بمناديل الحرير قلت وكيف ذلك قالت هكذا دعاء الاحياء اذا دعوا للموتى واستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على اطباق النور وخمر بمناديل الحرير ثم اتي به الذي دعي له من الموتى فقيل له هذه هدية فلان اليك

فصل

والذي تدل عليه الايات والاخبار ان حقيقة الموت هو مفارقة الروح للجسد وان الروح تكون بعد ذلك باقية اما معذبة او منعمة فان الروح قد تتألم بنفسها بانواع الحزن والغم وتتنعم بانواع الفرح والسرور من غير تعلق لها بالاعضاء فكل ما هو وصف للروح بنفسها يبقى معها بعد مفارقة الجسدوكل ما هو لها بواسطة الاعضاء يتعطل بموت الجسد الى ان تعاد الروح الى الجسد ولا يبعد ان تعاد الروح الى الجسد في القبر ولا يبعد ان تؤخر الى يوم البعث والله سبحانه اعلم بما حكم بة على كل عبد من عباده فمعنى الموت انقطاع تصرف الروح عن البدن وخروج البدن عن ان يكون آلة لها ، وسلب الانسان عن امواله واهله بازعاجه الى عالم آخر لا يناسب هذا العالم فان كان له بالدنيا شئ يفرح به ويستريح اليه عظمت حسرته عليه بعد الموت وان كان لا يفرح الا بذكر الله تعالى والانس به عظم نعيمه وتمت سعادته اذا خلي بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل

لان جميع شواغل الدنيا شاغلة عن ذكر الله تعالى وينكشف للميت بالموت
مالم يكن مكشوفا في حال الحياة كما ينكشف للمتيقظ مالم يكن مكشوفا له
عند النوم، والناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا واول ما ينكشف له ما يضره
وما ينفعه من حسناته وسيئاته وقد كان ذاك مسطورا في كتاب مطوي
في سر قلبه وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا فلما انقطعت
انكشف له جميع اعماله فلا ينظر الى سيئة الا ويتحسر عليها تحسرا يؤثر
ان يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة وكل ذلك ينكشف له
عند الموت وهذه آلام تهجم على العاصي قبل الدفن نسأل الله العافية، ومما
يدل على ان الروح لا تنعدم بالموت قوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا
في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون) قال مسروق سألنا عبد
الله بن مسعود رضي الله عنه فقال ارواحهم في جوف طير خضر لها قنادل
معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي الى تلك القنادل
وذكر تمام الحديث وجاء في قوله تعالى (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا
ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون اشد العذاب) اخبر انهم يعذبون بعد
الموت وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى
عليه وآله وسلم ان احدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ان
كان من اهل الجنة فمن اهل الجنة وان كان من اهل النار فمن اهل النار فيقال
هذا مقعدك حتى يبعثك الله اليه يوم القيمة، وقد تقدم ان الانسان اذا انكشفت
له سيئاته تحسر وتألم تألما عظيما فاما المؤمن فقال عبد الله بن عمر مثل المؤمن
حين تخرج نفسه مثل رجل كان في سجن فاخرج منه فهو ينفسح في

الارض ويتقلب فيها وهو صحيح فان المؤمن ينكشف عليه عقيب الموت
من فضل الله وكرامته ما تكون الدنيا بالاضافة اليه كالسجن فيكون
كمحبوس في بيت مظلم فتح له باب الى بستان واسع الاكناف فيه انواع
الاشجار فلا يسره الرجوع الى الدنيا كما لا يسره الرجوع الي بطن امه
وقال مجاهد ان المؤمن ليبشر بصلاح ولده من بعده لتقر بذلك عينه

﴿فصل في ذكر القبر﴾

روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال القبر روضة من رياض
الجنة او حفرة من حفر النار، وروي ايضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم انه
قال: يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرك الم تعلم
اني بيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود، وروى الترمذي عن ابي سعيد
رضي الله عنه قال دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مصلاه فرأى
ناساً كأنهم يكثرون فقال اما انكم لو اكثرتم من ذكر هادم اللذات لشغلكم
عما أرى فاكثروا ذكر هادم اللذات الموت فانه لم يأت على القبر يوم
الا يتكلم فيقول انا بيت الغربة انا بيت الوحدة انا بيت التراب انا بيت الدود
فاذا دفن العبد المؤمن قال له القبر مرحباً واهلا اما ان كنت لاحب من
يمشي على ظهري الي فاذ وليتك اليوم وصرت الي فسترى صنيعي بك فيتسع
له مد بصره ويفتح له باب الى الجنة واذا دفن العبد الفاجر او الكافر قال
له القبر لا مرحباً ولا اهلا اما ان كنت لابغض من يمشي على ظهري الى
فاذ وليتك اليوم وصرت الي فسترى صنيعي بك قال فيلتئم عليه حتى تختلف
اضلاعه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم باصابعه فادخل بعضها في

بعض قال ويقيض له سبعون تنيناً لو انواحدا منها نفخ في الارض ما انبتت
شيئاً ما بقيت الدنيا فينهشنه ويخدشنه حتى يقضي به الى الحساب قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم: القبر روضة من رياض الجنة او حفرة من حفر النار
وقال كعب اذا وضع الرجل الصالح في قبره احتوشته اعماله الصالحة
الصلاة والصيام و الحج والجهاد والصدقة قال وتجيء ملائكة العذاب من
قبل رجليه فتقول الصلاة اليكم عنه فلا سبيل لكم عليه فقد اطال بي القيام لله عز
وجل قال فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام لا سبيل لكم عليه فقد اطال بي
الصيام قال فيأتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد اليكم عنه فقد انصب
نفسه واتعب بدنه وحج وجاهد لله عز وجل لا سبيل لكم عليه فيأتونه من
قبل يديه فتقول الصدقة كم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وضعت
في يد الله ابتغاء وجهه فلا سبيل لكم عليه قال فيقال له هنيئاً طبت حياً
وطبت ميتاً قال وتأتيه ملائكة الرحمة فتفرشه فراشاً من الجنة ودثاراً من
الجنة فيفسح له مد بصره ويؤتى بقنديل من الجنة يستضيء بنوره الى
يوم يبعثه الله من قبره، وعن انس بن مالك ان نبي الله صلى الله عليه وسلم
قال ان العبد اذا وضع في قبره وتولى عنه اصحابه حتى انه ليسمع قرع
نعالهم اتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل
محمد صلى الله عليه وسلم فأما المؤمن فيقول اشهد انه عبد الله ورسوله
فيقولان انظر الى مقعدك من النار قد بدّلك الله عز وجل به مقعداً في
الجنة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيراهما جميعاً، وأما الفاجر او المنافق
فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل فيقول لا ادري كنت اقول ما

يقول الناس فيقال له لادريت ولا تليت ثم يضرب بمطارق من حديد
ضربة بين اذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين اخرجاه في
الصحيحين ، وفيهما من حديث أسماء بنت ابي بكر عن النبي صلى الله عليه
وسلم انه قال اوحي الي انكم تفتنون في قبوركم مثل او قال قريباً من فتنة
المسيح الدجال يقال ما علمك بهذا الرجل فاما المؤمن فيقول اشهد انه عبد
الله ورسوله وذكر باقي الحديث وعن ابن عباس قال لما اخرجت
جنازة سعد بن معاذ وسوينا عليها التفت الينا رسول الله صلى الله عليه
وسلم فقال ما من احد من الناس الا وله ضغطة في قبره ولو كان منفلتا
منها احد لانفلت سعد بن معاذ وذكر باقي الحديث، وعن عبد الله الصنعاني
قال رأيت يزيد بن هارون في المنام بعد موته باربع ليال فقلت ما فعل الله
بك قال تقبل مني الحسنات وتجاوز عن السيئات قلت وما كان بعد ذلك
قال وهل يكون من الكريم الا الكرم غفر لي ذنوبي وادخلني الجنة قلت
بما نلت الذي نلت قال بمجالس الذكر وقولي الحق وصدقي في الحديث
وطول قيامي في الصلاة وصبري على الفقر قلت منكر ونكير حق قال اي والله
الذي لا اله الا هو لقد اقعداني وسألاني من ربك وما دينك ومن نبيك
فجعلت انفض لحيتي البيضاء من التراب وقلت مثلي يسأل انا يزيد بن
هارون الواسطي كنت في دار الدنيا ستين سنة اعلم الناس فقال احدهما
صدق هو يزيد بن هارون نم نومة العروس فلا روعة عليك بعد اليوم وقال
المروزي رأيت احمد بن حنبل في النوم وعليه حلتان خضراوتان وعلى رأسه
تاج من النور واذا هو يمشي مشية لم اكن اعرفها له فقلت يا احمد ما هذه

المشية التي لم اكن اعهدها لك فقال هذه مشية الخدام في دار السلام فقلت وما هذا التاج الذي أراه على رأسك فقال ان ربي عز وجل اوقفني وحاسبني حساباً يسيرا وكساني وحياني وقربني وانا انظر اليه وتوجني بهذا التاج وقال لي يا احمد هذا تاج الوقار توجتك به كما قلت القرآن كلامي غير مخلوق .

✻ فصل في احوال الميت من وقت نفخة في الصور ✻
(الى حين الاستقرار في الجنة او النار)

قد اشرنا الى اهوال القبر واشد من ذلك نفخ الصور والبعث والحساب ونصب الميزان والصراط وهذه اهوال يجب الايمان بها وينبغي تطويل الفكر فيها وجمهور الناس لم يتمكن الايمان من قلوبهم بالآخرة ولو ان الانسان لم يشاهد توالد الحيوانات ثم قيل له ان صانعاً يصنع من هذه النطفة القذرة مثل هذا الادمي المتصور العاقل المتكلم لاشتد نفور طبعه عن التصديق بذلك فخلقه على ما فيه من الاعاجيب يزيد على بعثه واعادته وكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد البداية فان كان في ايمانك ضعف فقوِّ الايمان بالنظر في النشاءة الاولى فان الثانية مثلها واسهل منها وان كنت قوي الايمان بها فاشعر قلبك تلك المخاوف والاخطار واكثر فيها التفكر والاعتبار وليحثك ذلك على الجد والتشمير واول ما يقرع اسماع الموتى صوت اسرافيل حين ينفخ ذلك في الصور فصور نفسك وقد قمت ذاهلا مبهوتا شاخصاً نحو النداء قال الله تعالى (ونفخ في الصور فاذاهم من الاجداث الى ربهم ينسلون) وعن ابي سعيد الخدري قال قال

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كيف انعم وصاحب الصور قد حنى
جبهته واصغى بسمعه ينتظر ان يؤمر ان ينفخ في الصور فينفخ قال
المسلمون كيف نقول يا رسول الله ؟ قال قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل
وتوكلنا على الله ثم انظر كيف يحشر الناس يوم القيمة فيساقون بعد البعث
حفاة عراة الى ارض المحشر وهي قاع ليس فيها ربوة يختفي الانسان بفنائها
وفي الصحيحين قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم يحشر الناس يوم القيمة على
ارض بيضاء عفراء كقرصة النقي ثم تفكر من ازدحام الناس وقرب الشمس
من رؤوسهم وشدة العرق مع ما في القلوب من القلق، وفي الحديث ان العرق
يأخذ الناس على قدر اعمالهم وتفكر يا مسكين في سؤال ربك لك عن اعمالك
بغير واسطة فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال يعرض
الناس يوم القيامة ثلاث عرضات فاما عرضتان فجدال ومعاذير واما الثالثة
فعند ذلك تطاير الصحف فآخذ بيمينه وآخذ بشماله وعن ابي برزة رضي
الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لا تزول قدما عبد
حتى يسأل عن عمره فيما افناه وعن عمله فيما عمل فيه وعن ماله من اين
اكتسبه وفيما انفقه، وعن صفوان بن محرز قال كنت آخذ بيد ابن عمر رضي
الله عنه اذ عرض له رجل فقال كيف سمعت رسول الله صلى عليه وآله
يقول في النجوى يوم القيمة فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم يقول ان الله عز وجل يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من
الناس ويقرره بذنوبه ويقول اتعرف ذنب كذا اتعرف ذنب كذا اتعرف
ذنب كذا حتى اذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه انه قد هلك قال فاني قد

سترتها عليك في الدنيا وانا اغفرها لك اليوم قال ثم يعطى كتاب حسناته (واما الكفار والمنافقون) فيقول الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم الا لعنة الله على الظالمين اخرجاه في الصحيحين، وفي الصحيحين من حديث ابي سعيد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: يضرب جسر على جهنم فاكون اول من يجيز، وفيهما ايضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم قالوا يا رسول الله ما الجسر قال مدحضة مزلة عليها خطاطيف وكلاليب وحسك يمر المؤمنون عليه كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم وناج مخدوش حتى يمر آخرهم يسحب سحباً.

﴿ ذكر جهنم اعاذنا الله منها ﴾

عن ابي هريرة رضي الله عنه قال كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فسمعنا وجبة فقال النبي صلى الله عليه وسلم اتدرون ما هذا قلنا الله ورسوله اعلم قال هذا حجر ارسل في جهنم منذ سبعين خريفا فالآن انتهى الى قعرها رواه مسلم وفي الصحيحين عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ناركم هذه ما يوقد بنو آدم جزء واحد من سبعين جزءاً من نار جهنم قالوا والله ان كانت لكافية يا رسول الله قال فانها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها، وفي افراد مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون الف زمام مع كل زمام سبعون الف ملك يجرونها وعن ابي الدرداء رضي الله عنه قال يلقى على اهل النار الجوع فيعدل عندهم ما

فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بالضريع لا يسمن ولا يغني من جوع فيستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصة فيذكرون انهم كانوا يجيزون الغصة بالشراب فيستغيثون بالشراب فيغاثون بالحميم ينالونه بكلاليب من حديد فاذا دنى منهم شوى وجوههم واذا دخل بطونهم قطع ما في بطونهم فيطلبون الى خزنة جهنم: ان ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب فيجيبونهم اولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات؟ قالوا بلى قالوا فادعوا ما دعاء الكافرين الا في ضلال. فيقولون سلوا مالكا فيقولون: يا مالك ليقض علينا ربك. فيقول: انكم ماكثون. فيقولون: ربنا اخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون. فيقول عز وجل: (اخسؤوا فيها ولا تكلمون) فعند ذلك ييأسون من كل خير ويأخذون في الشهيق والويل والثبور. وتفكر في حياتها وعقاربها ففي الحديث ان حياتها امثال اعناق البخت وعقاربها كالبغال الموكفة، وعن الحسن ان النار تأكلهم كل يوم سبعين الف مرة ثم يعودون كما كانوا. واعلم ان صفة جهنم تطول. وايسر اليسير من ذلك ينبغي ان يكفي في التخويف فان كنت مؤمناً بهذا فانتبه لنفسك وخف ما بين يديك فان الله لا يجمع على عبد خوفين ولسنا نعني بالخوف رقة النساء فتبكي ساعة ثم تترك العمل وانما تزيد خوفاً يمنع عن المعاصي ويحث على الطاعة فاما خوف الحمقى الذين اقتصروا على سماع الاهوال وان يقولوا استعنا بالله نعوذ بالله يا رب سلم وهم على ذلك مصرون على القبائح والشيطان يسخر بهم كما يسخر ممن قصده سبع ضار وهو الى جانب حصن فيقول اعوذ بالله من هذا وهو لا يدخل الحصن ولا يبرح مكانه.

فصـــل

وكن في الدنيا محباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم حريصاً على تعظيم سنته لعله يشفع فيك في الآخره فان له شفاعة يتقدم فيها على الانبياء كلهم ويسأل الله في اهل الكبائر من امته فينجيهم واستكثر من الاخوان الصالحين فلكل موءمن شفاعة ولا تحملنك الغرة على التواني وتسمي ذلك رجاءً فان من رجى شيئاً طلبه . واحترز من المظالم فان من كانت عليه مظالم ومات قبل ردها فان غرماءه يحيطون به في القيامة فهذا يقول ظلمني وهذا يقول استهزأ بي وهذا يقول اساء جواري وهذا يقول غشني فلا خلاص لك من ايديهم فاذا توهمت الخلاص قيل لا ظلم اليوم، وعن ابي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يخلص المؤمنون يوم القيامة من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى اذا هذبوا ونقوا أُذن لهم في دخول الجنة وعن ابى هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال اتدرون من المفلس فيكم؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قال ان المفلس من امتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيقضى هذا من حسناته وهذا من حسناته فان فنيت حسناته قبل ان يقضي ما عليه أُخذ من خطاياهم فطرح عليه ثم طرح في النار، وعن ابي هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لتؤدون الحقوق الى اهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجماء من الشاة القرناء . وهذه الاحاديث كلها في الصحاح فانظر وفقك الله الى بعد سلامة

حسناتك لدخول ما يبطلها من الرياء والغيبة فان سلمت اخذها الخصوم فتيقظ لنفسك ولا تفرط في اوقاتك فان المسكين من آثر لذة منقطعة واشترى بها عذاباً شديدا دائماً نسأل الله السلامة والتوفيق ·

﴿ ذكر صفة الجنة ﴾

نسأل الله العظيم من فضله ، عن ابي هريرة رضي الله عنه قال قلنا يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها قال لبنة من ذهب ولبنة من فضة وملاطها المسك الازفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران من يدخلها ينعم ولا يبؤس و يخلد لا يموت لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه ، وفي حديث أسامة بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يوماً وذكر الجنة : الا مشمر لها هي ورب الكعبة ريحانة تهتز ، ونور يتلألأ ونهر مطرد ، وزوجة لا تموت ، في حبور ونعيم ، ومقام في أبد ، فقالوا نحن المشمرون لها يا رسول الله قال قولوا ان شاء الله ، وفي الصحيحين من حديث ابي هريرة رضي الله عنه انه قال ان الله عز وجل قال أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وفيهما ايضاً من حديثه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : اول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على اشد كوكب دري في السماء اضاءة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يتمخطون أمشاطهم الذهب ، وريحهم المسك ، ومجامرهم الأُلُوَّة الأَلنجوج (١)

---

(١) الألوة هو العود الذي يتبخر به و تفتح همزته و تضم ، والألنجوج هو العود الذي يتبخر به

ازواجهم الحور العين على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء، وفي رواية اخرى لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشياً ، وعن ابي موسى الأشعري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين ان ينظروا الى ربهم الا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن اخرجاه في الصحيحين، وفيهما من حديث ابي موسى ايضاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ان في الجنة لخيمة من درة مجوفة عرضها ستون ميلا في كل زاوية منها اهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمن . واعلم ان الله تعالى ذكر نعيم الجنة مبسوطاً في مواضع من القرآن ثم جمعه في ايات منها قوله تعالى (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين) وقوله (لا يبغون عنها حولا) ثم زاد على ذلك بقوله (فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة أعين) وصفات الجنة كثيرة اقتصرنا منها على هذا وأفضل ما ينال في الجنة رؤية الله تعالى . وفي الصحيحين من حديث ابي هريرة رضي الله عنه انه قيل يا رسول الله هل نرى ربنا فقال ؟ فهل تضامون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب قالوا لا قال فانكم ترونه يوم القيامة كذلك

﴿ باب في ذكر سعة رحمة الله تعالى ﴾

نختم الكتاب بذكر سعة رحمة الله عز وجل نرجو بذلك فضله اذ

ليس لنا اعمال نرجو بها العفو ولكن نرجو ذلك من رحمته وكرمه قال الله تعالى (قل يا عبادي الذين أسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم) وعن ابى هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قضى الله عز وجل الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش «ان رحمتي غلبت غضبي» اخرجاه في الصحيحين وعن ابى هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال «ان لله عز وجل مائة رحمة انزل منها رحمة واحدة بين الانس والجن والهوام والبهائم فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على اولادها وأخرّ تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيمة وعن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «ان ربكم تبارك وتعالى رحيم من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له عشر حسنات الى سبعمائة ضعف ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة فان عملها كتبت له سيئة واحدة او يمحوها الله ولا يهلك على الله تعالى الا هالك» وعن ابي ذر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله عز وجل من عمل حسنة فله عشر امثالها وازيد ومن عمل سيئة فجزاء سيئة مثلها او اغفر ومن اقترب الي شبرا اقتربت اليه ذراعا ومن اقترب الي ذراعا اقتربت اليه باعا ومن اتاني يمشي اتيته هرولة» وعن ابي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ان رجلا اذنب ذنبا فقال اي رب اذنبت ذنبا فاغفره لي فقال تبارك وتعالى علم عبدي ان له ربا يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ثم مكث ما شاء الله ثم اذنب ذنباً آخر فقال

اي رب عملت ذنبا فاغفره لي فقال عز وجل علم عبدي ان له ربا يغفر
الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ثم مكث ما شاء الله ثم اذنب ذنباً آخر
فقال اي رب عملت ذنباً فاغفره لي فقال علم عبدي ان له ربا يغفر
الذنب اشهدكم اني قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء . هذه الاحاديث كلها
صحاح، وفي الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال
قُدِمَ على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسبي واذا امرأة من السبي
تسعى اذ وجدت صبياً في السبي فأخذته فالصقته ببطنها فارضعته فقال
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اترون هذه المرأة طارحة ولدها في
النار قلنا لا والله . قال الله ارحم بعباده من هذه المرأة بولدها ،
وفي الصحيحين من حديث ابي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى
الله عليه وآله وسلم انه قال ما من عبد قال لا اله الا الله ثم مات
على ذلك الا دخل الجنة قلت وان زنى وان سرق قال وان زنى وان سرق
وان زني وان سرق وان زنى وان سرق ثم قال في الرابعة على رغم
انف ابى ذر ، وفيهما من حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه عن
النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله حرم النار على من قال لا اله الا
الله يبتغي بذلك وجه الله ، وفيهما من حديث انس بن مالك رضي الله عنه
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يخرج من النار من قال لا اله الا الله
وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ثم يخرج من النار من قال لا اله الا
الله وكان في قلبه من الخير وزن برة ثم يخرج من النار من قال لا اله
الا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة ، وعن ابي موسى رضي الله

عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم القيامة لم يبق
موءمن الا أتي بيهودي او نصراني حتى يدفع اليه فيقال له هذا فداك من
النار، وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله صلى الله عليه
ان الله عز وجل يستخلص رجلا من أمتي على روءوس الخلائق يوم القيامة
فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل منها مد البصر ثم يقول اتنكر
من هذا شيئاً أظلمك كتبتي الحافظون قال لا يا رب فيقول الك عذر او
حسنة فيبهت الرجل فيقول لا يا رب فيقول بلى ان لك عندنا حسنة
واحدة لاظلم عليك اليوم فيخرج له بطاقة فيها اشهد الا اله الا الله وان
محمداً عبده ورسوله فيقال انك لا تظلم قال فتوضع السجلات في كفة
والبطاقة في كفة قال فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل شيء
مع اسم الله عز وجل، ونظر الفضيل بن عياض الى تسبيح الناس وبكائهم
يوم عرفة فقال ارأيتم لو ان هوءلاء صاروا الى رجل يسألونه دانقاً اكان
يردهم ؟ فقيل لا فقال والله المغفرة عند الله عز وجل اهون من اجابة رجل
لهم بدانق، وعن ابراهيم بن أدهم قال خلالي الطواف في ليله مظلمة شديدة
المطر فلم ازل اطوف الى السحر ثم رفعت يدي الى السماء فقلت اللهم اني
اسألك ان تعصمني عن جميع ما تكره فاذا قائل يقول في الهواء انت
تسألني العصمة وكل خلقي يسألني العصمة فاذا عصمتك فعلى من اتفضل
فهذه الاحاديث مع ما ذكرنا في كتاب الرجاء تبشرنا بكرم الله تعالى وسعة
رحمته وجوده، ونحن نرجو من الله سبحانه ان لا يعاملنا بما نستحقه، وان
يتفضل علينا بما هو اهله، ونحن نستغفر الله عز وجل من اقوالنا التي تخالف

اعمالنا ، ومن كل نصنع تزينا به للناس ، وكل علم وعمل قصدناه ثم خالطه
ما يكدره ، فبكرمه نستشفع الى كرمه ، وبجوده نسأل من جوده انه قريب
مجيب ، والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا
ويرضى ، وكما ينبغي لكريم وجهه عز وجل جلاله ، وصلى الله على سيدنا
محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

هذا آخر ما عُني بتلخيصه الامام العالم العامل الزاهد العابد
(عز الدين ابو العباس احمد بن) الشيخ الامام العالم العامل الزاهد العابد
(عز الدين ابي عبد الله محمد بن) الشيخ الامام العالم العامل الزاهد العابد
العلامة شيخ الاسلام مفتي الانام سيد العلماء والحكام (شمس الدين ابي
محمد عبد الرحمن بن) الشيخ الامام العالم العامل الزاهد العابد العارف
الورع شيخ الاسلام (ابي عمر محمد بن احمد بن محمد بن قدامه المقدسي
الحنبلي) عفا الله عنه وسامحه

قد تمت هذه النسخة الشريفة المباركة عن يد العبد الضعيف المذنب المحتاج الى
ربه الملك الصمد (احمد بن محمد) غفر الله لهما ولوالديهما ولسائر المسلمين اجمعين في
يوم الخميس السابع من شهر شعبان المعظم لسنة اربع وستين والف من هجرة من له
العز والشرف

وقد نجز طبعه في حادي عشر شعبان سنة سبع واربعين
وثلاث مئة والف من الهجرة النبوية

الفهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

جدول الخطأ والصواب

صفحة	سطر	(خطأ)	(صواب)
٨	١٥	خلي	خلى
٩	٢	عضبان	غضبان
١٦	١٢	ولست	وليست
٢١	٨	لم يكن	ولم يكن
٢٦	٥	للكهف	الكهف
٥٧	٥	وصيامه	وفضله
٥٧	٨	معفرة	مغفرة
٧٦	٩	بفرص	بغرض
٧٧	١٥	يا أيها الرسل آمنوا	ياأيها الرسل كلوا
٨٠	٥ و ٦	مثالات	مثار ان
٨٠	٢١	المثال	المثار
٨١	٢١	يحترزون	يحترزون
٨٢	٢	رداء	رد
٨٨	٤	يخفي	يخفى
٩٠	١٧	بحصينا	تحصنا
١٢٤	٢١	اتباع	وأتباع
١٢٧	١٠	خرج	حرج
١٤٧	١٥	لا	الا
١٥٧	٢	القرلي	القرني
١٥٧	٣	فارمواني	فارموني
١٥٨	٤	الاداب	الادام
١٦٨	١٧	دعائه	وعائه
٢٠١	١٨	ان يعلم	يعلم أن
٢١٢	١٧	وجع	وجعل
٢١٦	١٨	واظهار	ولاظهار
٢٧٦	١٩	كتعاطي	وكتعاطي
٢٨٨	٨ و ٩	يحتاح	يحتاج
٢٩٦	٨	استفينا	استوفينا
٢٩٩	٢٠	اكنب	الننت
٢٠١	١٦	شربه	سربه
٢٠٢	١٥	ذكر الله	ذكرت ان الله
٢٠٢	١٦	يغني	معنى
٢٠٢	٥	بل ان	بل يجوز ان
٢٠٤	١٨	تؤخره	توخر

سقط هذا السطر من آخر صفحة ٢١٢

ومنها ما هو من طريق الاخبار، اما الاعتبار

صفحة	سطر	(خطأ)	(صواب)
٢١٤	٤	بعت	بعث
٢١٩	١٦	ان انا أكون	أن أكون
٢٢٠	٦	عيبه	عيبه عنه
٢٢٢	٢٠	احب مما	أحب إلي مما

صفحة	سطر	(خطا)	(صواب)
٢٢٢	١	الصيح	الصحيح
٢٢٥	٥	يفعلون	يؤمرون
٢٢٧	١٢	وجه	وجهه
٢٤٢	٩	بتقوته	يتقوته
٢٤٢	١	جد الزهد	حد الزهد
٢٤٢	٧	للزاهديقتصر	للزاهدأن يقتصر
٢٤٣	١٦	الناضج	الناضح
٢٥٠	٧	دونها	بدونها
٢٥١	١١	ولا	لا
٢٦٧	١٢	عن صلى	عن النبي صلى
٢٦٨	١٩	فلعه	فلعنه
٢٦٨	٢٠	ان يقيم	اي يقيم
٢٦٩	١٤	واليها	اليها
٢٧٢	٥	احرى	اخرى
٢٧٨	٤	القاصرين على	القاصرين عن
٢٨٢	١١	معنى واحد	على معنى واحد
٢٨٤	٩	فبما	فيما
٢٨٦	٩	الكم	انتم
٢٩٩	١٧	شيءالفضائل	شيء من الفضائل
٤٠٠	١٠	بم قدر	بم قدرت
٤٠١	٨	بالتوبيج	بالتوبيخ
٤٠٥	٢	لا الصديقون	الا الصديقون
٤٠٦	٢	فلا تبصرون	افلا تبصرون
٤١١	٦	واعلم السبب	واعلم ان السبب
٤١١	٦	شيئاً	شيئان
٤١٥	٢	فنقول	فيقول
٤٢٢	٨	وكائجاوبد	وكاجاويد
٤٢٢	٦	ما دعاء	وما دعاء
٤٢٣	١٦	تزيد	نريد
٤٤٠	١	نصنع	تصنع



بيان

حدث خلال الطبع أن بعض الحروف البارزة قد تكسرت ، وذلك في بعض النسخ فخوف الالتباس أثبتناها فيما يلي :

ص ٢٢ س ٢ البصر ص ٢٢ س ٩ سطوته ص ٢٤ س ٥ صلاته ص ٢٨ س ٢٠ الشرع ص ٣٠ س ١٠ سكراً ص ٣٤ س ٥ الشهوات ص ٢٦ س ٦ آنست س ٨ كيف س ٩ ولم ص ٢٧ س ٢٠ خيروبر ص ٤٠ س ١٠ فتذكر ص ٤١ س ٩ الهواجر (١) و س ١٠ تجارة ص ٤٥ س ٦ الذكر ص ٤٦ س ١ آخر س ١٥ انه ص ٥٠ س ١٩ ركعات س ٢٠ عدلن ص ٥٣ س ٢ وكبراه ص ٥٤ س ٧ ابو هريرة ص ٥٩ س ٨ الذاكرين س ٩ كثيرا ص ٦٨ س ٢٠ وتهجره احداهن ص ٦٩ س ١ بَرأ س ٨ الاعتدال ص ٨٥ س ١٥ ذكرنا ص ٨٩ س ١ اظهار ص ٩٢ س ٢٠ اكذب ص ١١١ س ٣ آفة ص ١١٧ س ٧ كون ص ١١٩ س ١٦ الركن ص ١٢١ س ٢ ويحلي س ١٢ بالمعروف ص ١٢٢ س ١١ كقوله ص ١٢٥ س ٩ الوالي ص ١٢٩ س ١٤ يا أبا حازم ص ١٢٩ س ١ قال ص ١٤٠ س ٢١ بمشاهدة ص ١٤٢ س ١ بين س ٢ قال ص ١٤٨ س ٣ فصول س ١٠ ذكر ص ١٥٠ س ١٧ لص ص ١٥١ س ١٠ بضدها ص ١٥٢ س ١٦ النجاة ص ١٥٨ س ١ مخايل ص ١٦٠ س ٢٠ وعاءاً ص ١٦١ س ١٨ الذكر ص ١٦٢ س ١٩ تدخل ص ١٦٤ س ١٧ ان يصدف ص ١٦٥ س ١ ابغضكم س ٥ والبذاء (٢) س ١٤ حقا ص ١٦٦ س ٨ الايماء ص ١٦٧ س ٨ بردة س ١٥ تذكر ص ١٦٩ س ٨ ركيك ص ١٧٦ س ١٥ ان

ص ١٧٧ س ١٧ و ١٨ بتسليط الغضب علي الشهوة س ١٩ على مذموم (بحذف على) ص ١٧٨ س ٨ اعظم س ١٥ كظم ص ١٧٩ س ٦ ما اكون ص ١٨٤ س ٥ و ٩ و ١٣ الله س ٧ زوالها س ٩ احدا ص ١٨٥ س ١ يدركوه ص ١٨٦ س ٨ الرياسة ص ١٨٧ س ٥ آخر ص ١٩١ س ٦ من الناس ص ١٩٢ س ٤ عجوزا س ٦ قالت فاني الدنيا س ١٧ كراكب ص ١٩٣ س ١١١ وما بقي ص ٢٠٤ س ١٦ ذكر ص ٢٠٦ س ٧ فأتوا ص ٢٠٧ س ١٥ الشرع ص ٢٠٩ س ١٧ الرياسة ص ٢١٢ س ٦ من ص ٢١٥ س ١ كنتم س ٤ السماع س ٨ وكذلك ص ٢١٦ س ١٦ المنزلة ص ٢٢٢ س ١٣ والغالب ؟



النشر في القراءات العشر

هذا الكتاب هو اعظم مؤلفات مقريء الممالك الاسلامية في عصره الامام محمد بن محمد الجزري الدمشقي فهو جامع لكل مايتطلبه المجودون و المقرئون وما يحتاج اليه العالم و المفسر و المحدث والمؤرخ والاديب مما يتعلق بالقرآن المجيد   ثمنه (٧٥) غرشا مصريا

سيطبع قريبا



هو جزء لطيف في الحديث من تأليف محدث البلاد الأندلسية محمد بن وضاح القرطبي الاندلسي المتوفى سنة (٢٨٦) وهو اول كتاب صنف في بيان البدع والرد على المبتدعين وحسبك تعريفا به ان كل من ألف في هذا النوع يستشهد بكلامه والنقل عنه كالشاطبي في الاعتصام وابي شامة في الباعث وابي بكر الطرطوشي وغيرهم من المتأخرين عنه

الاسلامية في
كل مايتطلبه
دث والمؤرخ
صريا

لاد الأندلسية
هو اول كتاب
يفا به ارن
كالشاطبي في
وغيرهم من

